مكتبة | 882

حامد الناظر

عينان خضراوان

رواية

التنوير

حامد الناظر

عينان خضراوان

مكتبة | 882
سُر مَن قرأ

مكتبة 17 6 2022
t.me/t_pdf

الكتاب: عينان خضراوان

تأليف: حامد الناظر

عدد الصفحات: 367 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-128-5

الطبعة الأولى: 2020

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

حامد الناظر

مكتبة | 882
سُر مَن قرأ

عينان خضراوان

رواية

التنوير

الإهداء

إلى: فاطمة حامد: أُمّي.

«قالت مصادر قضائية إن محكمة سودانية قضت بإعدام امرأة في السابعة والعشرين من عمرها لتحوُّلها إلى المسيحية. وطلبت المحكمة من مريم يحيى ابراهيم التراجع عن اعتناق المسيحية والعودة إلى الإسلام. ووجّهت لها أيضًا تهمة الزنا لزواجها من رجل مسيحي. وسأل القاضي «عباس الخليفة» مريم عمَّا إذا كانت ستعود إلى الإسلام. وقالت المصادر القضائية إنها بعد أن قالت «أنا مسيحية» صدر الحكم بالإعدام».

رويترز 15 أيار/ مايو 2014

«أنا ابنة الحرب وضحيتها ومعناها، إن كان لها معنى»

عرفة

t.me/t_pdf

(1)

ما زلت أذكر كيف بدت مدينة عقيق في تلك الأيام البعيدة. على وجه التّحديد، الأيام الأولى من شهر نيسان/ إبريل سنة 1997. أتذكّرها جيدًا، كأني أنظر إليها الآن من فوق التلة القائمة خلف منزلنا، ممدّدة بين البحر والجبل مثل جلد مدبوغ، تُرك ليجفَّ تحت شمسها الحامية. تركها أهلها نهشًا للملح والغبار والخوف، ولزم بيته من بقي منهم، يفكّر في النزوح أو يستعدّ له، ولا يخرج إلا لضرورة.

خيَّم شبح الحرب على الحياة الشحيحة أصلًا في ذلك الجزء البعيد من الوطن، بعد سقوط مدن حدودية عدة -إلى الجنوب منها- في أيدي قوات المعارضة المدعومة من الجيش الإرتري في غضون أيام قليلة. سقطت قرورة القائمة على رأس الحدود مع إرتريا أولًا، وتلتها مدن أخرى. همبوكاييب، عيتربة، عقيتاي، جلحنتي وعدوبنا. تواترت الأنباء عن زحف تلك القوات نحو الشمال، باتجاه عقيق. نقلها النازحون الفارون من أتون المعارك.

انقطعت معظم الشاحنات والحافلات التي كانت تمد عقيق بأسباب الحياة مع انتشار أخبار الحرب، وما كان يمر بها في تلك الأيام، كان يتّجه إلى الشمال فقط، نحو طوكر وبورتسودان حاملًا معه أفواجًا جديدة من النازحين. شُلّت حركة السوق إلا من دبيب خفيف خلال ساعات الصباح الأولى وساعات آخر النهار. فرض جنود الحكومة حظرًا صارمًا للتجوال، يبدأ من مغيب الشمس وينتهي عند شروقها، وصارت المدينة نهبًا لأطواف الجيش والمجاهدين التي لا تتوقّف، في الليل أو في النهار.

حثّت الحكومة رجال عقيق وصبيانها على التطوّع في كتائب المجاهدين، فالتحق أغلبهم -من تدرّب على استخدام السلاح ومن لم يتدرّب- بقوات الدفاع الشعبي، ومنهم أبي. أُلحق وثلاثة من رفاقه المجاهدين بمفرزة حراسة كانت تقيم فوق التلة خلف بيتنا. يصعد إليها قرب مغيب الشمس ولا يعود إلا مع شروقها لينام حتى موعد صلاة الظهر. أُلحق المتطوعون الآخرون بوحدات الحراسة والتأمين حول بعض المرافق والبيوت، وفي نقاط التفتيش التي أقيمت على مداخل ومخارج المدينة على عجل. صار السلاح لازمة على أكتاف الرجال والصبية في تلك الأيام.

كانت الحكومة تدلّل من بقي في المدينة بـ«المجاهدين الصابرين». وكانت تحت هذا الاسم الفخيم توفّر لهم مؤونة لا بأس بها من الطحين والزيت والسكر والبصل والحليب المجفّف كنوع من الإغراء، كما راحت توزّع الماء على البيوت عبر صهاريج المياه. تمخر الشوارع مرتين في الأسبوع، وتملأ البراميل والأواني التي يضعها السكان أمام بيوتهم. لم أعد أذهب إلى البئر لجلب الماء، وتخفّفت من أعباء ومشاغل كثيرة ذابت في أجواء الحرب، عدا بعض الأمور التي لا يمكن تعويضها، مثل انقطاع الأدوية عن المدينة. كانت أمي مريضة. تدهورت حالتها في الشهر الأخير، ولم يتحمّس أبي لفكرة نزوحنا مع النازحين باتجاه الشمال.

في أيامها الأخيرة، عانت من نوبات إغماء متكرِّرة. لم تكن الحمى تغادر جسدها إلا في أوقات قصيرة متباعدة، مصحوبة بسعال حادّ وبصاق دموي أسود. لقد فقدت شهيتها للطعام بسبب داء السل الذي نخر جسدها وتمكّن منه. زارها الممرّض العجوز الذي يشرف على مرضى السل في المدينة من قبل أن أولد، وألمح إلى أنها لن تصمد طويلًا.

دهمتها حمّى شديدة عصر الخميس التالي، رافقتها نوبات سعال،

ولهاث متصاعد. رحت أحاصر الحمى بقطعة قماش مبللة. أضعها على رأسها مرّة، وعلى راحتيها وقدميها وبطنها مرات، لكنها لا تلبث أن تعود أشدّ وطأة، فتُعجزني الحيلة وأجلس إلى جوارها أنتحب. وقف أبي على رأسها وهو يغادر إلى نوبة حراسته:

- كيف حالها الآن؟

- كما ترى، تمضي نحو الأسوأ!

وضع يده على جبهتها ثم تلا بعض آيات القرآن ودعا لها.

- أخبري من تبقّى من جاراتنا لكي تبقى معكِ إلى جوارها. كان الله في عونكنّ.

ثم مضى، تتأرجح بندقيته على كتفه. لم يبق في البيوت التي حولنا، تحت الجبل، غير خمس نساء. أخبرتهنَّ جميعًا، فجاءتني منهن ثلاث. تحلّقنا حول جسدها المسجّى داخل الأقمطة مثل حطبة جافّة، ينتظر أمر الله. رحت أتأمّلها صامتة، وعبرت بخاطري مشاهد من الحياة التي عشتها إلى جوارها. بدت لي أقصر مما ظننت.

من يصدّق أن هذا كل ما بقي من مريم جركس؟ من يصدّق أنها -في غضون شهور أربعة- تحوّلت من امرأة مفعَمة بالحياة إلى محض خيال لا يكاد يُرى؟ كيف تهدّم ذلك الجسد الريّان، الذي طالما شغل رجال عقيق ونساءها على السواء، تحت ضربات المرض وسهام النظرات؟ وكيف تبدّل ذلك اللون الخمري الفاتن إلى زرقة قاتمة تشبه لون الموت وطعمه؟ وانطفأت عيناها الخضروان وصارتا بلون الرماد؟

خفّ السعال مع تقدّم الليل، لكن حلّ محلّه أنين يفتّت الكبد، وحركة متسارعة للأنفاس، كان لها صفيرٌ حادٌّ. وضعت يدي على رأسها، ورحت أقرأ عليها ما حفظت من القرآن. اقتربت امرأة من أذنها وراحت تلقّنها الشهادة. صدرت من حلقها قرقرة خافتة، تبعتها زفرة قوية أخيرة. مال رأسها إلى كتفها اليمنى وأسلمت الروح. أطلقتُ صرخة شقّت سكون

الليل مثل نصلٍ حادٍّ، ثم انكفأتُ على جسدها البارد، أنتحب. انتزعتني النسوة من فوقها وحملنني إلى الخارج، ثم رحن يجهّزنها للدفن.

عاد أبي من نوبة الحراسة. بدّل ثيابه ثم توغّل في عتمة المدينة وعاد بمعية بضعة رجال يحملون على أكتافهم رفوشًا ومعاول. استقر رأيهم على أن يتركوا أبي في الدار ويذهبوا لتجهيز القبر في المقبرة ريثما تحين صلاة الفجر، فينضمّ إليه مشيّعون آخرون ويلحقونهم بالجنازة. ذهب أبي إلى المسجد وعاد بعد الصلاة بصحبة خمسة رجال، وطلبوا منا عندئذ إخراج النعش.

دوّت أصوات انفجارات قوية، وأضاءت السماء بنور أبيض باهر. تحوّل سقف المدينة إلى كتلة هائلة من الضوء الساطع مع اندفاع القنابل الضوئية بالتتابع نحو الأعلى. أعقبتها أصوات قذائف وزخات رصاص، بشكل متقطّع في البداية، ثم انهمر القصف كالمطر. انبطحنا جميعًا على الأرض أيدينا فوق رؤوسنا. سمعنا صافرات الجند وزعيقهم في الجوار، وحركة شاحناتهم ومجنزراتهم، ثم رأينا حمم قذائفهم وهي تعبر فوق رؤوسنا مثل الشهب، تتبعها تكبيراتهم.

سقطت إحدى القذائف في مكان قريب وأحدثت دويًا. صرختُ مذعورة، فأدخلتني امرأة بدينة تحت صدرها ثم رقدت فوقي حتى كتمت أنفاسي. دفعتها عني ثم زحفت بعيدًا. صرخت امرأة أخرى:

- بيتي يحترق. أولادي. زوجي!

ثم انطلقت تحت وابل القصف لا تلوي على شيء. استمر القصف المتبادل حتى طلوع الشمس. هدأ بالتدريج ثم توقّف تمامًا. أعقبته حركة مجنزرات المنتصرين في الساحة الواسعة الممتدّة أمام بيوتنا، وتفصلها عن المدينة. تناهت إلينا أصوات جنود فرحين بالنصر، وأصوات رصاص في الهواء مصحوبة بالزغاريد. عندئذ، أمكننا أن نرفع رؤوسنا ونتذكّر أن لدينا جنازة تحتاج إلى دفن وبكاء، بيد أننا لم نجرؤ على العويل.

وقفنا ننظر من خلف السياج لما خلّفته المعركة. ثمة جنود غرباء، احتلوا الساحة أمام بيتنا. لا يزالون يحتفلون ويرفعون أعلامًا كثيرة، ويطلقون الرصاص في الهواء ويطوفون بمدرعاتهم ومجنزراتهم مبتهجين في أرجاء الساحة. كان مشهد الأفق من خلفهم كئيبًا. التهمت النيران الكثير من البيوت، وتصاعدت منها سحب الدخان إلى السماء. تحوّلت الحواجز ونقاط التفتيش إلى بؤر ملتهبة من النيران، وحُفَر وجثث وأشلاء وطعم هزيمة مر.

تقدّم نحونا خليط من الجنود السودانيين والإرتريين، منهَكين ومعفَّرين بالتراب، يطلبون الماء فسقيناهم. مالوا على الرجال يسألونهم عن سبب اجتماعهم في هذا الوقت الغريب. ولما علموا، بادلوهم عبارات عزاء مقتضَبة، ثم طلب قائدهم الإرتري أن يسرعوا بالدفن ويغادروا من دون ضجيج. خرج الرجال الستة أخيرًا إلى المقبرة حاملين النعش. نعش أمي مريم، التي لن أراها بعد اليوم. غادرت المرأتان أيضًا وبقيت وحدي وسط أشباح الموت أنتظر من يواسيني. لكن لا مواساة في الحرب.

صعدت شمس يوم الجمعة إلى السماء من جهة البحر، فوق بقايا المدينة المحترقة والمهدّمة، وكأنها تذكّر بيوم القيامة. نعوش كثيرة، على أكتاف قلة من الرجال والنسوة كانت في طريقها إلى المقبرة، مرّت عبر الساحة أمام بيتنا، واتّجهت نحو الشمال لتأخذ دورة صغيرة حول الجبل الصغير وتكون في المقبرة.

رحت أتأمّلها كما ينبغي لفتاة حزينة فقدت عزيزًا مثلهم، وسبق نعش أمها نعوش أحبابهم إلى المثوى الأخير. أتراهم حزينين مثلي؟ هل يبكون قتلاهم؟ أم إن الخوف ألجمهم أيضًا؟ الموت لم يعد خبرًا. إنه اليوم في كل بيت. التعبير عن الحزن، إن وُجد، هو ما لن يجرؤ أحد على إظهاره.

نقلت بصري إلى الجنود المنتشرين في الساحة، والمشغولين عن موتنا بصف مجنزراتهم وشاحناتهم في صندوق واسع أشبه بسياج مربَّع يحتل نصف مساحة الساحة التي تفصل بيوت الجبل عن بيوت المدينة الأخرى. في منتصف الصندوق، راحوا ينصبون بعض الخيام، ويحفرون متاريس في أركانها الأربعة ليغرسوا فيها مدافعهم، ويجمعوا أشلاء قتلاهم في شاحنة.

حتى وقت قريب، كانت هذه الساحة منبسطة مثل راحة اليد، في سلام أبدي بين أهل الجبل وأهل المدينة. مفتوحة من جهتي الشمال والجنوب، وتمر خلالها الشاحنات والحافلات العابرة في الاتجاهين. يقع سوق عقيق في طرفها الجنوبي. لكن هذه الساحة أصبحت معسكرًا لجنود إرتريين قادمين من خلف الحدود وفي معيتهم مقاتلون معارضون للحكومة من أبناء البلد.

عاد أبي من المقبرة وحيدًا، مرتبكًا.

- سنغادر الآن يا ابنتي!

تبعته إلى الداخل من دون أن أنبس بشيء. بلغ أقصى ركن في غرفة أمي، حيث يرقد صندوقاه الحديديان. أخرج من أحدهما حزمة نقود كان يدّخرها، وأخرج من الآخر بعض الأوراق، حزَمَها في كيس أزرق شفاف. وضع النقود داخل حزام عريض من القماش وربطه حول خصره بإحكام، ثم أسدل فوقه ثيابًا قديمة متّسخة أخرجها من الصندوق الآخر، ووضع الكيس الأزرق في جيب صديرية سوداء مهترئة. أزاح الصندوقين وحفر تحتهما حفرة كيفما اتفق، ثم أودعها كل أوراقه وأغراضه الخاصة بعد أن طواها بإحكام داخل أكياس سوداء. كانت تلك الأغراض عبارة عن جهاز لاسلكي ومسدس وبضع طلقات وبطاقات وأوراق وزيٍّ عسكري. وأهال عليها التراب ثم أعاد الصندوقين إلى مكانهما القديم.

- الغزاة الذين دخلوا البلدة يقودهم ضباط مسيحيون من الجبهة

الشعبية الإرترية، وهؤلاء تحرِّكهم ثارات عابرة للحدود ضد سكان هذه المناطق. سمعت في المقبرة أنهم قتلوا بعض أعيان البلد رميًا بالرصاص أمام دورهم وأهلهم، مثلما فعلوا في «قَرورَة» قبل أيام.

- ولماذا يقتلوننا؟ نحن سودانيون ولسنا إرتريين. ما شأنهم بنا؟!

- لقد قتلوا عمدة قبيلتنا هذا الفجر وهو سوداني صميم لا صلة له بإرتريا، ويبحثون الآن عن آخرين وربما أكون أحدهم. لا أريد أن أموت هنا!

أومأتُ برأسي رغم حيرتي. رحت أبحث عن أغراضي وكتبي لكنه زجرني كأنما قرأ شيئًا في نظراتي الحائرة.

- لا تحملي شيئًا قد يلفت الانتباه. خذي قليلًا من ملابسك وأغراضك. ستركبين الحمارة وسأرافقكِ راجلًا. سنتظاهر بأننا ذاهبان إلى البئر، وحين نجتازهم سنفكر في الخطوة التالية. المهم أن نخرج من هذا الحريق بسلام.

بدت هيئته غريبة بهذه الأسمال التي وضعها على جسده. تضخَّم وجهه تحت رأسه الأصلع الحاسر، وتمدّد أنفه الكبير وبرزت جبهته المنبسطة وصارت امتدادًا لهامته الصلعاء. كانت لحيته البيضاء التي تؤطّر وجهه وتلتفّ خلف أذنيه، متّصلة بما بقي من شعر رأسه في الخلف، تضفي على وجهه هيبة تناقض الأسمال التي تدرَّع بها، وعصا الراعي التي حملها على كتفه.

نقلت بصري من هيئته المضحكة إلى أغراض أمي المكوَّمة في ركن الغرفة الآخر. حقيبتها الكاروات الحمراء بخطوطها الملونة المتقاطعة، وثيابها المطرَّزة وأحذيتها اللامعة. ساعتها الذهبية ماركة سَيكو. حقيبة عطورها وزينتها الموضوعة بنظام فوق طاولة إلى جوار الحقيبة، وفستانها الليموني المعلّق على مسمار في الجدار. بقي في مكانه هذا منذ أن عادت من عرس ابن خالها في الحي البحري يوم رأس السنة.

رجعت من حفل العرس وهي تسعل، واستمرّ سعالها إلى أن أخذ الله أمانته. ناداني وكأنما أدرك ما أفكّر فيه:

- أتركي الآن كل شيء وهاتِ صفيحتَيّ الماء!

جئتُه بهما، فأمرني بتوزيع بعض ملابسي وأغراضي داخلهما. حملتهما إلى حيث تقف الحمارة، وربطتهما على جانبيها، ثم وضعت بطانيتي فوق البردعة لتخفّف عليّ قسوتها. أغلق أبي جميع الأبواب، باب غرفة أمي والغرفة الأخرى والصالون الحجري الكبير حيث يجلس دائمًا، ثم باب السياج الخارجي وكأننا ذاهبان في نزهة وسنعود. ألقى نظرة أخيرة عبر الساحة، إلى المدينة المحترقة، ثم أمسك بلجام الحمارة، وانطلقنا.

- ردّدي في سرّك: «إن ربي لطيف لما يشاء»، سنعبر الخطر إن شاء الله.

صعدنا التلة التي تقع خلف بيتنا. ألقى نظرة خاطفة على بقايا الخيمة المحترقة التي كان يحرسها حتى ليل أمس، حيث أشلاء رفاقه. نكس رأسه ثم نزل من الجهة الأخرى ممسكًا بلجام الحمارة.

مررنا بشاحنتين عسكريتين رابضتين على السفح الآخر، وعلى ظهر كل منهما مدفع رشاش، وجنديان متأهبان. حيّاهم أبي تحيّة صامتة، رافعًا يده. لم يردّوا تحيته. عبرنا بمحاذاة الشاحنة الأولى. ثمة أصوات ملغزة كانت تصدر من جهاز لا سيلكي في مقدمة الشاحنة الأخرى، حيث يجلس ضابط إرتري إلى جوار السائق. رأيت صورة وجهه المنعكسة على المرآة الجانبية للشاحنة.

- أنتما، اقتربا.

قال، وأشار لنا الجندي الجالس خلف مقود الشاحنة لكي ندور من الأمام ونتوجّه إلى الضابط الجالس إلى يمينه، ففعلنا.

- إلى أين تذهبان؟

سأل الضابط الإرتري، وهو يحيط أبي بنظرات فاحصة، ثم ينقل بصره بيني وبين الحمارة وصفيحتَيّ الماء.

- كما ترى، إلى البئر.

- ما اسمك؟ وماذا تعمل؟

- اسمي إسماعيل حامد، وأنا راعي غنم.

- هل تذهب إلى البئر في مثل هذا الوقت؟

- هذا الدرب الذي تراه بين الحصى، صنعته آثار حمارتي وأغنامي.

نظر الضابط إلى الدرب النحيل الملتوي بين الحصى الأسود والرمادي نازلًا باتجاه الوادي.

- وأين أغنامك؟

- تركتها عند ابن عمي منذ الأمس وراء ذلك الوادي.

زعق متحدّث في جهاز اللاسلكي المثبت في تابلوه الشاحنة. أشار الضابط إلى أبي بيده إشارة التوقّف عن الكلام وراح يستمع باهتمام، ثم ردَّ بعبارات ملغّزة موجزة. أعاد الجهاز إلى مكانه وأخرج بعض الأوراق من درج الشاحنة، قلّبها بين يديه ثم استلَّ منها ورقة. أخرج قلمًا من جيبه ووضع علامات على بعض الأسطر ثم عرضها لأبي.

- هل تعرف هذه الاسماء؟ وأين يمكن أن نجدها؟

- لا أعرف القراءة سيدي!

تلا عليه قائمة بما يقرب من عشرين شخصًا، من بينها اسم شقيق العمدة واسم أبي نفسه ورجال آخرين أعرف بعضهم. ازدرد أبي ريقه ثم قال وهو يتصنّع الثبات.

- بالطبع أعرف كل هذه الأسماء سيدي. هؤلاء أعيان عقيق وسادتها، ويسكن أغلبهم في ذلك الحي المحاذي لشط البحر.

- هل يمكنك أن تصعد معنا وتدلنا على بيوتهم؟

خفض رأسه إلى الأرض، ثم قال بنبرة استعطاف مصطنعة:

- سيراني الناس حتمًا وأنا أدلكم على بيوتهم، وسينسون غدًا كل شيء إلا هذا المشهد. أنا راعٍ مسكين ورزقي على أبواب الناس ولن يغفروا لي ذلك سيدي!

لم ألحظ على وجه الضابط أي انفعال ذي مغزى. أشار بيده إشارة متعجرفة تؤذن بالانصراف. طوى الورقة وأعادها إلى الدرج. انطلقت الشاحنة مثيرة نقعًا كالإعصار، وتبعتها الشاحنة الأخرى في اتجاه المقبرة. رأيت خلف طبقة الغبار جماعة من الرجال تصلّي على جنازات. كانت جلابيبهم البيضاء تتوهّج تحت أشعة الشمس.

(2)

إنها ليلتها الأولى في المدينة الكبيرة.

كان نومها مضطربًا، مليئًا بالكوابيس والأحلام المزعجة. رأت نفسها تعدو فوق رمال لا نهاية لها، ثم رأتها مقيَّدة إلى عود مشنقة، وتُضرَبُ بسياط جلادين لم ترَ وجوههم.

استيقظَت عند السابعة إلا ربعًا، على صوت رحمة تدعوها إلى الشاي. دخلت الحمام الملحق بغرفتها بخطى متثاقلة. وجدته نظيفًا، وتفوح منه رائحة منعشة. وجدت قرب المرآة فرشاة جديدة، ومعجونًا وصابونًا ورديّ اللون وعلبة شامبو خضراء وليفة استحمام ومزيلًا للشعر. على الحامل منشفة جديدة وجلبابًا ذَا لون أخضر فاتح، مرصَّعًا بورود صفراء كبيرة، وصدرية سوداء من القماش اللين وسروالًا داخليًا أسود كذلك. جميعها جديدة لم تنزع عنها أوراقها بعد. أين كانت، وأين صارت؟

فتحت الماء على جسدها. وقفت تحت زخّاته مفتوحة الذراعين. أغمضت عينيها كأنما تقف تحت شلال. أطفأ الماء حرارةً كانت تستعِر تحت جلدها دهرًا. أعماقها متوحشة، وقلبها مثل علبة صدئة. سكبت نصف عبوة الشامبو على شعرها الطويل. غسلته جيدًا. عاد إليه لونه الفاحم البرّاق. أزالت عنه وعن جلدها المتيبس طبقة من الدبغ. كان لونها القاتم يسيل مع الماء، وكأنها تزيل سُخامًا عن تمثال مهمَل. عاد إلى جسدها لونه الخمريّ المشرّب بسمرة الشمس ورهق الأسر الطويل في وادي العقيق. شعرت بخفّة. جفّفت جسدها ثم تفقّدته على مرآة الحمام.

عمرها الآن عشرون عامًا وبضعة شهور. نقص وزنها. صار جسدها

أقل امتلاء واستدارة. عدا صدرها الناهض وساقيها المكتنزتين، بيد أنه كان مليئًا بالقروح والكدمات، متورّمًا في مواضع وأزرق مائلًا إلى الأخضر في مواضع أخرى. وضعت عليها الجلباب وخرجت. وجدت عند الباب حذاء بيتيًا، وعطرًا وعلبة تزيين على الطاولة قرب المرآة.

كانا بمفردهما بعد أن فرغ البيت من نحو ثماني نساء، كنّ يملأن غرفه الثلاث وصالته الطويلة الممتدّة أمام الغرف باللغط والضجيج حتى منتصف الليل.

رأت رحمة معلّقةً في سحابة هائلة من بخور أعواد الصندل المشرّبة بالعطور، وتدخّن سيجارة. هذه أول مرة في حياتها ترى فيها امرأة تدخِّن. بالكاد أبصرتها بجلبابها الأحمر المتوهّج وسط سقيفة الخشب الملحقة بمطبخ البيت في نهاية الحوش الفسيح مثل شيخات الزار. أمامها آنية الشاي والقهوة وصينية الزلابية المقليّة. ابتسمتْ في وجهها ابتسامة عذبة. كانت تبدو مثل أم. صبت لها الشاي وقدّمت معه صحنًا مملوءًا بالزلابية.

طوال الجلسة التي امتدت حتى أذان الظهر وتخلّلها الإفطار، لم تسأل ضيفتها عن حكايتها، رغم أن عرفة حضّرت في ذهنها رواية متماسكة لا تثير شكوكها، أو فضولها بشأنها إلى حدٍّ مقلِقٍ، لا سيما وأن رحمة تعرف الطالعين والنازلين في هذا الخط المنحوس، الممتد من بورتسودان حتى وادي العقيق الكبير. لقد شهد هذا الخط حوادث اغتيالات غامضة خلال الأسابيع الماضية مع فوضى النازحين الفارّين من الحرب.

راحت مضيفتها تحدّثها عن نفسها. على أنخاب القهوة حدّثتها عن عملها، أو بالأحرى عن الجزء المتعلّق بكفاحها من أجل لقمة العيش، وأرجأت الجزء الآخر إلى الوقت المناسب. كيف بدأت حياتها بائعة للطعام والشاي في الميناء، وكيف كانت تخرج في حلكة الليل، ولا تعود إلى بيتها إلا مع مغيب الشمس لكي تبدأ الإعداد ليومها التالي. ورثت

هذا البيت عن زوج مات في حرب أخرى على حدود أثيوبيا، وكان البيت مكوَّنًا من غرفة واحدة من الخشب وحمّام وسور من الصفيح، ثم أقامته على قاعدة من الإسمنت المسلح وبنَت غرفه الثلاث وصالته الواسعة وحماماته ومرافقه الأخرى خلال سنوات من الكدح المتصل.

- لم أكن أنام سوى أربع ساعات كل ليلة طوال عشرين عامًا، لكي أوفّر ثمن الطعام والملبس والتعليم والعلاج لي ولولدي الذي تخرّج في الجامعة منذ ثلاثة أعوام.

قالت وهي تضيف بعض السكّر إلى فنجانها وتحركه بملعقة صغيرة في حجم الإصبع، ثم اصطبغ صوتها برنة حزينة.

- كنت أنظر إلى الدنيا من خلال ابني أيمن، إذا جاع تجوع الدنيا، وإذا شبع تشبع، وإذا فرح أيمن فإن الدنيا كلّها مهرجانات من الأفراح.

لاذت بالصمت وهي ترشف من قهوتها، لكنه كان صمتًا هشًّا، فضحته تنهيداتها ونظراتها الساهمة في الفراغ، كأنما ذكرى ابنها أيمن لا تأتي وحدها دائمًا، بل هي مرادف لأمر آخر كان يمور في عينيها في تلك اللحظة، لكنها لا ترغب في الحديث عنه. راحت ترسم لعرفة صورته بالكلمات.

- إنه وسيم وذو قوام رياضي، ومظهر أنيق على الدوام. لو أنكِ رأيتِيه يا عرفة فسوف تظنين أنه مطرب أو ممثل، وسوف ينطبع في ذهنك إلى الأبد.

- ليتني أراه، هل يعيش هنا؟

- إنه في الخرطوم منذ سنوات الجامعة، لكنني أذهب إلى زيارته كلما اشتقت إليه.

قالت بارتباك.

- ألا يأتي هو لزيارتك؟

- لم يعد يأتي، إنه مشغول دائمًا وأنا أقدِّر ذلك.

عادت رنة الحزن إلى صوتها، لكنها سرعان ما اتخذت مسارًا آخر في

مكتبة
t.me/t_pdf

حديثها عن ابنها أيمن، وكلمتها عن تديّنه ونبوغه في الدراسة ومواهبه الرياضية الأخرى. أشرق وجهها قليلًا وهي تتحدّث. شعرت عرفة أنها صادقة، قالت أخيرًا.

- ربما يستحق أمًا أفضل مني، لكنّك تعلمين أن هذا ما لا يمكن لأحد أن يختاره.

نظرت إلى ساعة معصمها ذات الحزام الجلديّ الرفيع، ثم راحت تلملم آنية القهوة لتعيدها إلى المطبخ.

- سيأتيني السائق بعد قليل. سأذهب في جولتي اليومية على أعمالي.

أعادت ترتيب المكان بسرعة. ذهبت إلى غرفتها، بدّلت ثيابها وخرجت بمجرّد أن دوّى بوق سيارة في الخارج.

- ارتاحي اليوم، فأنت لا شك متعبة. غدًا آخذك معي في جولتي لأريك هذه المدينة الجميلة.

قالت وهي تخطو في الفناء المبلّط بقطع الرخام المكسور، بحذائها الجلدي ذي السيور المتشابكة حتى منتصف ساقيها، وتصلح من ثوبها الذهبيّ الفضفاض. قالت أخيرًا وهي تهمّ بإغلاق الباب:

- انتظريني على الغداء، لن أتأخّر.

رأت من شق الباب سيارة تاكسي حمراء وجانبًا من وجه السائق الأسود ذي الرأس الصغير. غادرت رحمة مخلّفة وراءها سحابة من رائحة العطر الزيتي الصاخب.

***

مع انتهاء تكبيرات صلاة المغرب في المسجد القريب، بدأت ساكنات البيت بالتوافد فرادى. كانت الواحدة منهن تدخل إلى البيت صامتة، منهَكة، لكن ما إن ترى إحدى رفيقاتها في الصالة الكبيرة، أو مصادفة على أحد أبواب الغرف، حتى يغلبها الكلام فتلقي جملة قصيرة من كلمة أو كلمتين، ليست موجّهة لأحد، وكأنما تكلّم نفسها «الله

يحرق الحكومة»، أو «بلد ملعونة»، أو «رجال آخر زمن». فتردّ عليها أخرى «الله يصبّرنا»، «عيشة صعبة». هذه ذاهبة إلى الحمّام والمنشفة على كتفها، وتلك إلى المطبخ بكيس خبز وأخرى تجهّز طستًا لغسل ملابسها، فتنتعش الصالة كلّها وتضج حينئذ بالثرثرة.

أغلب الشكاوى التي سمعتها عرفة كانت من موظّفي البلديات بالدرجة الأولى، ويأتي بعدهم رجال الشرطة ثم الزبائن الوقِحون. ما إن تستلّ إحداهنّ خيط حكاية حول أيٍّ منهم حتى تعقد الأخرى حكاية مشابهة في الخيط نفسه، وغالبًا ما تنتهي معظمها بالطريقة ذاتها، حيث تتدخّل رحمة لدى البلدية أو الشرطة وتنهي المسألة على نحو ما.

إحداهنَّ، ممتلئة من غير بدانة، ولها وجه طفوليّ مليح مستدير، كانت تتحدّث والدمع يترقرق في عينيها الواسعتين من دون أن ينحدر على خدّها، وظلّ كذلك حتى أكملت حكايتها.

- ساومني أخيرًا، وخيَّرني بين النوم معه أو تحمّل العواقب.

ظلت عيناها الواسعتان الممتلئتان بالدموع معلّقَتَيْن بوجه رفيقتها الطويلة التي انحنت عليها مثل أخت كبرى وقبَّلتها على جبهتها.

- سنجد حلًّا لقضية الذهب المسروق وكذلك فاتورته المزوَّرة، فليس ذنبك أنك لا تقرأين، اصبري يا سعاد.

مضت في طريقها إلى الحمام، وخلا لعرفة عندئذ وجه سعاد الحزين، فوقعت عيناها الواسعتان على عينيها، ورأت التماع دمعهما الزجاجي على ضوء مصباح الصالة. أعماقها متوحّشة، وقلبها مثل قفل صدئ. نظرت إليها سعاد نظرة بدت لها عدوانية، ثم نفضت يديها مثل طفلة غاضبة وانسحبت إلى إحدى الغرف.

أنساها ضجيجهن ما كانت تعانيه، وقضت ساعات ما قبل النوم في تأمّلهنّ والتلصص على حكايات يومياتهنّ التعيسة واللذيذة في آن معًا. تضحك في نفسها أحيانًا وتشعر بالأسى أحيانًا أخرى، لكنها أحسّت،

على الرغم من الوحشة بنوع من الفرح لأنها -أخيرًا- تضع رأسها على وسادة نظيفة، تحت سقف آمن، وتنام ملء عينيها مثل البشر.

سمعت إحداهنّ -وستعرف لاحقًا أن اسمها منال- تهمس لأخرى، بأن شهر العسل بين سعاد والمعلّمة انقضى، وحلّت مكانها نجمة جديدة. لم تفهم ما قصدته منال بحديثها الملغز، ولم تدرك وقتها أنها المقصودة.

***

في اليوم التالي أخذتها رحمة في جولة، رأت خلالها المدينة الكبيرة -لأول مرة- من نافذة سيارة التاكسي الحمراء. شمس إبريل الدافئة تغسل المدينة وتسطع حوائط أسواقها البيضاء بضوء باهر. تتكئ سماؤها الزرقاء الصافية على رؤوس أبنيتها الكبيرة ذات الطوابق العديدة التي لم تر مثلها من قبل. بورتسودان مدينة واسعة تشبه الدنيا في رحابتها وفورانها وصخب ألوانها. الناس كثيرون، أكثر مما يجب ليكونوا في بقعة واحدة، بيد أنهم -فوق هذا الصهد- يتشابهون. بالكاد تميّز وجهًا ذا ملامح فريدة، قالت عرفة في نفسها. بدا لها، أن كل أحد منهم فارقه همّه إلى حين، وطفا مع هموم الآخرين إلى سقف المدينة، وشكّل سحابة غير مرئيّة تظلّل الجميع.

مروا في طريقهم بشاطئ البحر، ورأت سفنًا عملاقة، خضراء وحمراء وسوداء تشبه القلاع الضخمة العائمة. أطلقت إحداها بوقًا داويًا وهي تغادر الميناء. ذعرت عرفة، فضحكت رحمة.

- كنت أبيع الطعام والشاي في سقيفة وراء ذلك المخزن بعد وفاة زوجي!

أخرجت من شباك التاكسي يدها السمراء الممتلئة، والمحاطة بثلاث أساور ضخمة من الذهب -تشير بأصبعها بين سفينتين- إلى مخزن كبير مشيّد بحجر البحر الأبيض على الناحية الأخرى من الخليج الصغير، الذي يضم الميناء وأرصفته الطويلة، المحاطة برافعات ضخمة.

مرّوا في جولتهم على بعض رفيقات السكن، ورأتهن بوضوح تحت ضوء الشمس وهن يتحرّكن بين الزبائن الكسالى. يبعن لهم الطعام والشاي في أمكنة عدة من أسواق المدينة وأزقتها. بعضهن في ممرّات السوق، وأخريات في ظلال أشجار شبه يابسة، وقسم منهنّ تحت حوائط لا ظلّ لها يبحثن عن أرزاقهنّ بين أقدام الرجال ونظراتهم الجائعة.

رأت سعاد الحزينة ذات الوجه المستدير إلى جوار بوابة مبنى كبير متّسخ. يعبر من بوابته الضخمة عشرات الرجال في جلابيب بيضاء، والنساء في أثواب «الساري الهندية» الملوّنة، وفي أيديهنّ أعمدة طعام أو أكياس. قالت لها رحمة إنه مستشفى المدينة.

نزلتْ بعد ذلك ووقفت مع سعاد، تبادلا حديثًا طويلًا ثم انضم إليهما رجل أربعيني ذو شعر أسيب مصفف إلى الوراء، ويرتدي بدلة سفاري رمادية داكنة. كان جالسًا في ظل سور المستشفى يشرب قهوة ويدخن سيجارة، وينظر بين وقت وآخر إلى سعاد ورحمة وهما تتحدّثان وتشيران صوبه، حتى قام من مكانه دفعة واحدة وانضم إليهما. كانت عرفة تتابع المشهد من مكانها خلف نافذة التاكسي، وترى الوجوه المتشنّجة، والأيادي ترتفع وتنخفض مع نبرة الكلام الغاضب. نفض الرجل يده وغادر المكان وعادت رحمة ثم انطلقوا من جديد.

كان الهاتف الجوال جديدًا في تلك الأيام، وأول واحد رأته عرفة في حياتها كان يرن بين يدي رحمة. تضعه إلى جانب أذنها وتتحدّث، والنَّاس ينظرون إليها بدهشة أحيانًا، واستهجان في أغلب الأحيان. كان هاتف رحمة ضخمًا في حجم طوبة. طلبَت رقمًا ثم انتظرت بعض الوقت حتى أتاها صوت رجل، سمعته من مكانها. كانت تناديه بسيادة العقيد وتشرح له مشكلة سعاد وتشكي إليه أحد رجال المباحث، وتنصت مستمعةً أحيانًا.

عبر التاكسي بجوار محطة الحافلات الرئيسية في المدينة في ذروة

ازدحامها، ساعة خروج العمال والموظفين والطلاب في نهاية الدوام. أبهجها منظر الطالبات بلباسهنّ الأزرق السماوي وهنّ يتدفقنّ على ضفتي الطريق في أمواج زرقاء مرحة قاصدة محطة الحافلات. يضممن كتبهنّ إلى صدورهنّ ويضحكن ويتحدّثن بمرح، غير آبهات لشيء. ملأها مشهدهنّ بالغيرة. لو أن أقدارها كانت رحيمة لكانت بينهنّ الآن.

انعطف السائق إلى جهة اليمين بعد محطة الحافلات، وأشارت رحمة إلى معالم كثيرة، منها السينما وسوق الملبوسات والأندية الرياضية العتيقة. انحدرت الأرض تحتهم فجأة، وأسلمتهم إلى سوق للأواني المنزلية تقوم في منخفض من الأرض بطريقة فوضوية. ابتاعت رحمة أكواب شاي وفناجين قهوة وغلايات ماء، ومواقد ملأت به صندوق التاكسي المتهالكة والمقعد الكبير إلى جوار عرفة. تحسَّست بأصابعها سكّرية زجاجية في حجم قبضة اليد، مزينة في أطرافها بتشكيلات صغيرة منحوتة.

عرجوا في طريق عودتهم على سوق التوابل، التي تقع خلف سوق الخضار المزدحمة بالبائعين والمشترين وعربات الكارّو التي تجرّها الحمير. خرجتا بعد نحو ساعة تحملان في أيديهما أكياسًا مملوءة بالشاي والبن والبهارات. في الصباح التالي كانت عرفة تجلس تحت ظل شجرة نيم في أحد أركان سوق ديم سواكن، أحد أقدم أسواق المدينة، تبيع الشاي والقهوة مثل رفيقات المنزل.

(3)

سرنا داخل غابة المِسْكيت الممتدّة على كتف الوادي مسافة لا أذكر قدرها الآن، فقد كنت من شدّة الإرهاق وقلّة النوم، أغفو وأفيق على ظهر الحمارة التي تعرف طريقها جيدًا بين أشجار الغابة. كان الشجر الكثيف يحجب بطن الوادي، ورغم ذلك أمكننا أن نرى بين وقت وآخر، ومن بين فرجات الشجر، الوهج الذي يشع من رمله الناصع مثل بحر من الفضة. ولما اقتربنا، لاح ما يشبه الجزيرة وسط ذلك البياض. اقتربنا أكثر. كانت جثثًا، بعضها مكوم فوق بعض، وبعضها الآخر مسجّى، جثة بجانب أخرى، وبدا أنهم أعدموا في المكان نفسه، موثقي الأيدي والأرجل. وكانت آثار الرصاص على صدورهم، ووجوههم المغموسة في دمائهم المسفوحة على الرمل، لم تجف بعد. كان عددهم يزيد على العشرين بقليل.

- لولا أنني استخدمت عقلي لكنتُ الآن واحدًا منهم.

قال وهو يتأمّل بأسف وجوه الرجال التي يعرفها قبل أن يستطرد موجّهًا كلامه إليّ:

- ألم تسمعي اسمي في قائمة المطلوبين؟ كنا نعمل مع الحكومة، ونجنّد الناس للالتحاق بكتائب المجاهدين. لكل قبيلة عدد محدَّد من الرجال لا بد أن تفي به.

استقبل اتجاه القبلة وصلى عليهم صلاة متعجلة، ثم رفع يديه بالدعاء ومسح وجهه ولحيته. سحب جثة من تحت جثث أخرى وأصلح وضعها ثم تقدم نحوي وهو ينفض يديه.

- فليرحم الله هؤلاء الشهداء ويتقبّلهم. ليتني أستطيع دفنهم. أخشى أن يجدوني هنا، فلن أنجو مرة أخرى.

شدَّ لجام الحمارة وانطلقنا. نقلت بصري من وجوه الرجال الميتة، الطافحة بالمرارة والفزع والمأساة، إلى حيث يمتد وادي العقيق. شعرت بالجوع للمرة الأولى، وبحاجتي إلى إفراغ مثانتي.

سرنا مسافة أميال قليلة في طريق البئر ثم انحرفنا ناحية الشمال، بمحاذاة التلة التي يقع البئر والمرعى الشوكي خلفها. التففنا حول درهيب من جهة الجنوب والغرب، ثم انعطفنا ناحية الشمال. سرنا أغلب النهار، وشعرتُ بحنينٍ غامضٍ إلى هذه الفلاة القاحلة، وإلى معزاتي المسكينات اللاتي تركتهنّ بلا وصيّ.

لأول مرة يسترعي انتباهي هذا الخواء. الأودية الرمادية المليئة بالحصى. الجبال السوداء الصغيرة وانعطافات الدروب. غابات المِسْكيت القائمة على أكتاف الأودية. الشمس الحاقدة والغبار والسحالي المذعورة والحشرات الغريبة. هذا عالمي الذي لم يثر انتباهي قط. أما اليوم فأنتبه إلى كل تفاصيله بحنين جارف وكأني أراه بعد غياب طويل، أو ربما أراه للمرة الأخيرة، فتنطبع الصور في ذهني من تلقاء نفسها.

أخذني إليه أبي للمرة الأولى وأنا ما أزال طفلة في الرابعة. فرحت حين أردفني خلفه على حمارٍ أبيض رشيقٍ، لحوافره وقع رنان على الحصى. أذكر الآن أنني قلت له:

- متى يمكنني الذهاب إلى المدرسة مثل خديجة وفاطمة وعائشة وكل صديقاتي؟

فردّ عليّ:

- عندما تحسنين ركوب الحمير وتجلبين الماء وحدك.

- هذا يعجبني يا أبتي، لكن تعجبني المدرسة أكثر. خذني إليها.

- وماذا نستفيد من ذهابك إلى المدرسة؟
- أتعلّم.
- ما فائدة تعليم النساء إذا كن سيجلسن في البيت ليطهونَّ ويحبلن ويلدن؟ هاأنت تتعلّمين القرآن في خلوة الشيخ حسب الله، وهذا يكفي!
- لا أحبّ الخلوة، فهي لا تعلّم شيئًا غير القرآن. أريد الذهاب إلى المدرسة، ولا بد أن تأخذني إليها.

ولما بلغت السابعة تمرّدتُ على الخلوة. أضربت عن الطعام وعن كل عمل في البيت، فأخذني إلى المدرسة على مضض وسجّلني فيها.
- عنيدة مثل أمك، يلعن أمك يا بنت الكلب!

لم أكترث لشتائمه، فذلك أمر لا جديد فيه بالنسبة إليَّ أو لأمي. نُشتم كل يوم، ونُضرَب أحيانًا بالعصا أو الكرباج. احتفلت بنصري على طريقتي. وودّعت رفيقاتي في الخلوة. جاء الشيخ حسب الله إلى أبي محتجًّا.
- إنها طفلة نابهة. حفظت خمسة أجزاء من القرآن، فلا تضيّع جهدي هباءً يا شيخ عثمان.

ومع ذلك عاد الشيخ خائبًا.
- سنرتاح هنا قليلًا ثم نقرّر الخطوة التالية.

مال إلى ظلّ شجرة سيال قريبة من الدرب. ربط لجام الحمارة إلى جذعها. كانت الشمس قد بدأت تميل في الأفق.
- هذا طريق تسلكه بعض الشاحنات والقوافل ولعلنا نصادف واحدة منها.

نزلتُ عن ظهر الحمارة بحذر. مثانتي تؤلمني. جلست إلى يمينه مسندة ظهري إلى جذع الشجرة. الأرض رملية رخوة وتغري برودتها بالاسترخاء. خلع حذاءه الجلدي الثقيل فانحسر عن قدمين متورّمتين. تمدّد على الرمل، وجهه إلى الأعلى ويداه تحت رأسه، بينما رحت

أتأمل ما حولي، وأفكّر في طريقة لإفراغ مثانتي. ثمّة خيام قليلة قريبة من الدرب، تشبه مراكب مقلوبة. متناثرة في بطن الوادي الكبير كما لو أن بحرًا قديمًا انحسر عنها. لم يكن من أحد خارجها في هذا الوقت القائظ من النهار.

- لعنة الله على الخوف. لقد نسينا الزاد والماء.

قال، ثم استدرك:

- لكن لا بأس، لديَّ بعض التمر والبسكويت. يمكنك أن تسألي أهل تلك الخيام بعض الماء بعد أن ترتاحي.

قال من دون أن ينظر إليّ: مثانتي تؤلمني.

- لولاكِ لكنت الآن في طوكر. النساء دائمًا عبء!

لذت بالصمت. جلس نصف جلسة وخلع صديريته السوداء المهترئة عن كتفيه، ثم راح يفرغ محتويات جيوبها الكثيرة على حِجره. سقطت من جيبه حبّات من التمر وقطعتان من البسكويت. حشر تمرة في فمه وقدّم إلي قطعتَي البسكويت من دون أن يلتفت، وأخذتهما منه. أخرج الكيس الأزرق من أحد الجيوب ثم فتح لفافته المحكمة واستلَّ منها بعض الأوراق المطوية. مثانتي تكاد تنفجر. أدرت بصري حولنا. عثرت على صخرة، غير بعيدة، ترتفع عن الأرض نحو نصف قامة. حزمت أمري وهممتُ بالاستئذان. فمدّ إليّ أوراقًا:

- هذه شهادة ميلادك وشهادتك المدرسية، احتفظي بهما جيّدًا فلا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث لي أو لك!

أخذتها منه وتركتها مطوية في يدي كما سلمني إياها.

- لولا أمك، يرحمها الله، ما كنت لأستخرج أيًّا منهما. ربما تنتفعين بهذه الأوراق يومًا ما، من يدري؟

ثم تابع وكأنما يعتذر:

- لقد كنت غاضبًا ذلك اليوم.

دائمًا أنت غاضب. هل أقول له ذلك؟ لعله توقّع أن أقول شيئًا فمنحني بعض الوقت، بيد أني لذت بالصمت. كان كياني كلّه معلّقًا بما يمكن أن أفعله وراء تلك الصخرة. لمحت جوقة من الأطفال خرجت من بين الخيام البعيدة، وراحت تتطلّع إلينا. عاد إلى أوراقه واستطرد:

- رحم الله أمك وغفر لها. ورطتني بك ورحلت!

- ...!؟

ندت عنه ضحكة قصيرة بدت ساخرة، بينما كان مشغولًا بطَيّ بعض الأوراق وإعادتها إلى جيب الصديرية.

- قبل زواجي من أمك كنت متزوجًا بامرأةٍ من نواحي كَسَلا، وأنجبت لي بنتًا بعد ثلاثة أعوام من زواجنا. لم أكن متعجّلًا لموضوع الإنجاب، فقد كانت الدنيا بخير والأرزاق وفيرة والأيام خضراء. أسميتها حليمة، لا أعرف من أين جئت بهذا الاسم الذي لا يوجد في عائلتنا، لكنه خطر لي هكذا من العدم، فقلت على الفور، ليكن حليمة. لم يكن الأمر ليختلف كثيرًا لو سمّيتها عائشة أو خديجة أو آمنة. كلكن بلا مغزى في النهاية.

لم تفارق البسمة وجهه. لعل النجاة من الموت حسَّنت مزاجه. راح يتداعى.

- انقبض قلبي يوم ولادتها، فقد كنت أرغب في أن يكون ولدًا. البنات نحس. بعد ولادتها بأيام قليلة، استولت شرطة مكافحة التهريب على شاحنتين لي، كانتا تهربان سُكَّرًا عبر الحدود. كانت تجارة التهريب رائجة تلك الأيام بين السودان وإرتريا رغم حرب التحرير، ووفّرت لنا ربحًا وفيرًا بحساب تلك الأيام. تشاءمتُ من ولادة البنت رغم جمالها ولطفها، ثم ماتت بالحصبة قبل أن تبلغ العام الثالث، بينما كنت أقضي آخر أيامي في السجن. ماتت زوجتي في ولادتها الثانية بحمى نزفية ومات معها جنينها، كان ولدًا لسوء الحظ. دفنتهما في مقبرةٍ تحت جبل كَسَلا وعدتُ إلى بيتي. ساءت أحوالي سنوات بعد ذلك، إلى أن

جاءني أحدهم، وكان راغبًا في تهريب شحنةٍ من البنزين إلى إرتريا ولا يعرف طريقة لذلك، ساعدته وربحنا كثيرًا من تلك الصفقة ووقفتُ على رجليّ من جديد. مات زوج أمك السابق قبل أن ينجب منها. أخبرتني بركة أختي، وكانت مقيمة في طوكر في تلك الأيام. قلت أجرّب حظي مع هذه المرأة الطوكرية. عدتُ إلى طوكر وتزوّجتها، جمعتُ مالها إلى مالي واشتريتُ شاحنة كبيرة وتاجرتُ في التهريب مرةً أخرى، فتضاعفت أرباحي. وضعتها كلّها في صفقة واحدة لتهريب إناث الضأن عبر البحر إلى السعودية. كانت السنابك في انتظار شاحناتي على مرفأٍ مهجورٍ جنوب عَقيقْ، لكن يد السلطات كانت أقرب، ففقدت كل شيء. أظنك لا تعرفين هذه الحكاية؟

- ومن أين لي أن أعرف؟

- للضرورة أحكامها!

ضحك وهو يهزّ رأسه أسفًا.

- يوم جئتِ إلى الدنيا، كان يوم عيد. أظنه عيد الأضحى، لذلك أسمتك أمك عرفة نكاية بي، لأنني اخترتُ لك اسم حياة. كان اسم مُدرّسة جميلة أحببتها في مطلع شبابي، وكانت أمك رحمها الله تعرف هذه الحكاية. المهم، قبضوا على بضاعتي وشاحناتي وصادروها، وعدت فقيرًا يسكن في بيت حقير تحت الجبل. ستكون الحياة أفضل لو قلّ عددكنّ!

لم أعد أحتمل ألم عصر مثانتي، فقلت:

- سأقضي حاجتي وراء تلك الصخرة وأعود.

- انتبهي لمؤخرتك من الثعابين والعقارب!

استلقى على الرمل من جديد، واضعًا صديريته على وجهه، مستسلمًا للنوم.

***

دخل علينا الليل قبل أن نبارح مكاننا تحت شجرة السيال الكبيرة، ولم تظهر في الدرب الملتوي بين الحصى دابة أو شاحنة أو أي مخلوق.

قبِلنا ضيافة سكان الخيام القريبة. كانوا ثلاث عائلات، وليس بينها رجل سوى عجوز في الثمانين. قالت لي امرأة منهنّ، إنهنّ زوجات لثلاثة إخوة وذلك العجوز أبوهم. أوسطهم رقيب في الجيش ولا يعلمون مصيره حتى الآن، وأما الآخران فيعملان على شاحنة لوري ذهبت بشحنة دقيق إلى إرتريا منذ ثلاثة أسابيع ولم تعد.

كانت قرية صغيرة مدفونة في بطن الوادي بين الحصى وأجمات السيال والمسكيت الكثيرة. هرب جميع سكانها عند سماع أنباء الحرب وتركوا خيامهم وبيوتهم المصنوعة من السعف والصفيح والأخشاب نهبًا للشمس والغبار، ولم يبق في بطن الوادي غيرهم، ولعلهم ينتظرون أوبة الآباء ليقرِّروا. كل شيء في هذه الصحراء يقرِّره الآباء. ألحَّ علينا العجوز في قبول ضيافته حتى الغد، أو حتى يعود أحد أبنائه إن شئنا. لعلّه كان في حاجة إلى من يؤنس وحشته.

نمت ليلتي في ضيافة زوجة الرقيب، وكان سريرها واحدًا بحجم الخيمة الصغيرة، ويرتفع عن الأرض بنحو متر مخافة العقارب والثعابين، ويتّسع حتمًا لها ولزوجها الغائب وأطفالها الثلاثة. لم أنم من الليل إلا أقله بسبب البق وضيق المكان وروائحه، وطلع عليّ الصباح التالي وقد أضفت ليلة أخرى من دون نوم.

مرَّ النهار التالي أكثر كآبة ومللًا، لولا أنني وجدت بعض السلوى في ملاعبة الأطفال الذين يصل عددهم إلى نحو تسعة. أكبرهم ابنة مضيفتي في العاشرة أو نحو ذلك، وأصغرهم طفل في الثالثة، عدا رضيعين مطلقين للحبو في البرّية.

قضيت نهاري كلّه بينهم. أمرح معهم وألاطفهم، وأبتكر لهم ألعابًا وتسالي مرحة. طلبوا مني تعليمهم مبادئ الحساب، فجلسنا تحت

شجرة نكتب على التراب ونحسب ونمحو. كانوا أذكياء كفاية ويحفظون الأرقام، حتى إن بعضهم حفظوا مضاعفاتها من تكرارها بضع مرات قليلة. أخبروني أنهم لم يرتادوا مدرسة قط. كانوا يدرسون القرآن على يد كهل في أحد الخيام لكنه تركهم ورحل مع الراحلين.

كرّت الليالي والأيام ولم يلُح على الدرب منقذ، وأنس أبي للرجل العجوز وحكاياته. كانا يقضيان النهار كلّه تحت الأشجار القائمة على كتفي الدرب. لعل شاحنة تلوح أو تصادفهم قافلة صاعدة نحو الشمال.

رحت أساعد النساء بما أستطيع، فأرافق حينًا زوجة الأخ الأصغر إلى البئر بحمارتي فنجلب الماء، أو أطحن الذرة معهنّ على الرحى أحيانًا أخرى، أو أسلّي الأطفال أغلب الوقت. كانوا فقراء وطيبين، لكنّهم بلا آمال أو أحلام كبيرة سوى أن ينتهي يومهم على خير، فيعقبه اليوم التالي في انتظار الآباء الغائبين.

بكرور الأيام صرت جزءًا من المكان، وتماهيت مع شروطه القاسية. أدركت بحسّي أن الوقت هنا لا يُحسب بالدقائق أو الساعات، فهي ضئيلة إلى حد أنها بلا قيمة، وإنما بالأيام والجمع والشهور. لم أحص ما انحسر من أيام الله في بطن هذا الوادي إلا القليل. حسبت سبعًا ثم صرت مثلهم أحسب الوقت بالجمع. تعوّدت كذلك نوم القيلولة بسبب البق والبراغيث خلال الليل، وهي قيلولة طويلة تبدأ من توسّط الشمس كبد السماء وتستمر إلى ما بعد الزوال، وكانت كافية لتعويضي عن السهر المتّصل.

في الجمعة الثالثة لمجيئنا، استيقظت من قيلولتي على هدير شاحنة، وبدا الصوت وكأنما ينبع من حلم. فركت عينيَّ جيدًا وأنصتّ. كان صوت شاحنة حقيقي تختلط معه جلبة أطفال. أزحت ستارة باب الخيمة فرأيت شاحنة صغيرة بيضاء تقف تحت شجرة السيال الكبيرة. ورجلان، يظهر من ملابسهما أنهما من قبائل الرشايدة يقفان مع أبي ومضيفه

العجوز. أرسل أبي يخبرني أنه آن أوان الرحيل. حملت صرَّة أغراضي وودّعت حمارتي ومضيفاتي وأطفالهنّ ثم التحقت بهم.

قفز أبي إلى مقدّمة الشاحنة بجوار السائق وأفسح لي. صعد الرشيدي الآخر على ظهر الشاحنة المكشوف ثم انطلقنا. ما إن تقدّمنا قليلًا حتى أخرج أبي حزمة نقود وسلمها للرشيدي.

- الخطر الوحيد أمامنا على تخوم جبال «تَقْدَرا». نصب الإرتريون دفاعاتٍ متقدمة في الممر بين الجبلين، وإذا استطعنا تجاوزها سيزول الخطر بإذن الله.

قال بنبرة متفائلة من دون أن نبادر بالسؤال، ثم التزم الصمت، وراح يصارع مقوَد الشاحنة فوق المنعرجات. سار قليلًا باتجاه الغرب ثم انعطف مع الدرب المتعرّج ناحية الشمال بمحاذاة سلسلة جبال رمادية بعيدة. أخبرنا أنه طريق بديل يستخدمه سائقو الشاحنات في الظروف الاستثنائية كالفيضان والتهريب، لكن سكان القرى يعرفونه ويصعدون منه وينزلون.

حمل في الطريق امرأة ترافقها فتاتان جميلتان، لعلهما في سنّي أو أكبر مني بعام أو عامين، ويبدو من تطابق ملامحهما أنهما توأم، بيد أن وجه المرأة كان حزينًا جدًا.

صعدن جميعًا على ظهر الشاحنة مع الرشيدي الآخر، قبل أن ينضم إليهم رجل بصحبة صبي في العاشرة أو أقل قليلًا. كان رأس الرجل كبيرًا على نحو لافت. عيناه جاحظتان وتبرق في فمه سن ذهبية. رفض السائق في وقفة أخرى أن يحمل عائلة مكوَّنة من رجل وامرأة وصبية أصرّت أن تحمل معها معزتين ونعجة. حمل رجلًا آخر من الدرب. بين وقفة وأخرى كان يحدّثنا عن أخبار المعارك التي دارت في البلدات المتناثرة حتى الحدود الإرترية.

- دخلوا القرى والبلدات حاملين قوائم مسبقة للإعدام، وقتلوا كثيرًا

من وجهاء البلدات وشيوخها ومدرّسيها وكبار الموظفين والمجاهدين أمام بيوتهم، وعلى مرأى من نسائهم وأطفالهم. لم يتركوا بيتًا إلا وقتلوا منه رجلًا أو اثنين!

- الإرتريون أم قوات المعارضة؟ سأل أبي.

- الجبهة الشعبية الإرترية طبعًا، لكن هناك من عاونهم من أبناء البلد!

- رأيت بعض جثث الشهداء، خلف جبل الكَسْرة، وصلّيت عليهم!

قال أبي. دخلت الشاحنة منطقة رملية رخوة، وانشغل السائق بمصارعة عجلة القيادة ومقبض تغيير السرعة. قال السائق بعد أن عبرنا بحرًا من الرمال.

- الأسوأ في كل ما جرى أن طائرات الحكومة لا تفرِّق بين المواطنين والأعداء. قصفت ودمَّرت من دون حساب.

- لا تقل هذا يا رجل، حكومتنا إسلامية ولا تقتل نفسًا بغير نفس، هذا حديث المعارضين أليس كذلك؟

- بل حديث الناس. وهو ما رأيته بأم عيني!

هرب أبي ببصره قليلًا إلى الناحية الأخرى، إلى ما وراء النافذة حيث أجلس، وراح يدير مسبحته بين أصابعه ويشاركني التأمّل. بدا وادي العقيق بلقعًا شاسعًا من الحصى والرمال، ممتدًا بلا نهاية إلى حدود نهاية العالم، في الأفق الآخر.

ها هي الرحلة نحو الشمال تتحقّق. الرحلة التي لطالما تمنّيتها، من أجل علاج أمّي، ومن أجل مواصلة دراستي الثانوية في بورتسودان، ومن أجل أحلام أخرى.

- لا توجد مدرسة ثانوية للبنات في وادي العقيق كلّه، هذا أمر مؤسف وغير عادل.

هذا ما قالته لنا مديرة مدرستنا. وقد سافرت معظم رفيقاتي في المدرسة إلى طوكر وسواكن وبورتسودان. كن يسألنني إن كنت سأسافر، فأقول

لهنّ بأن هذا سيحصل قريبًا، لكنه لم يحصل، وجاء المرض واندلعت الحرب. وعدني أبي -بعد إلحاح من أمّي طبعًا- بإرسالي إلى عمّتي بركة في بورتسودان ثم حنث بوعده. وكلما سألته كان يخترع الأعذار دائمًا، أو يقول:

- لا ضير من انتظار شهر آخر أرتب فيه أموري ونسافر كلّنا!

انقضى الشهرُ والشهران وحال الحول على الوعد ثم كان ما كان. سمعته يقول للسائق:

- منذ الاستقلال لم تأتِ حكومةٌ تطبّق شرع الله وتخشى على الإسلام وتدافع عنه مثل حكومتنا هذه، كل هؤلاء عملاء ويحاربونها بسبب ذلك!

لاذ السائق بالصمت. كنّا قد بلغنا تلة صخرية صغيرة تشبه القبة، وإلى جوارها شجرتا سيال كبيرتان متشابكتان. أوقف السائق شاحنته تحتها، فتح غطاء الماكينة ثم تركها تبرد.

- سنمكث هنا ريثما تغيب الشمس. سنأخذ دورة حول ذلك الجبل -وأشار إلى جبل بعيد- وتكون بيننا وبين «تقدرا» مسيرة ساعة أو أقل، سنمشيها في العتمة إن شاء الله. تلك طريقتنا الوحيدة للإفلات منهم.

(4)

عرفة كانت صادقة مع رحمة في تلك الليلة، عندما أخبرتها أن لها أهلًا في هذه المدينة، وأن عمّتها الكبرى والوحيدة اسمها بركة ولديها عدد من الأولاد، وربما البنات، لكنها لا تعرف عنها وعن أولادها أو زوجها شيئًا. لم تر أيًّا منهم في حياتها كلّها، عدا عمتها التي زارتهم في عقيق قبل وقت طويل. تتذكّر ملامح وجهها الآن وكأنها تراه خلف ستارة ثقيلة من الضباب. كل ما تعرفه عنهم أن حالهم ميسور، ويعيشون عيشة طيبة. أدركت عرفة منذ اليوم الأول أن رحمة ليست امرأة هيّنة، لا تسأل كثيرًا، وإذا سألت فإن جوابًا واحدًا يكفيها لكي تخمّن أجوبة الأسئلة الأخرى التي لم تسألها.

- هل تفكّرين في البحث عنهم؟

قالت لها وهما تجتازان الأزقّة المعتمة بعد أنْ نزلتا من الشاحنة اللوري ليلة وصولها، ولم تكن تعرف وقتها أين تضع رأسها في هذه المدينة الواسعة.

- ليس الآن، ربما لاحقًا.

كان جوابها كافيًا لكي تفكّر لها في عمل، وليس لديها لمن مثلها غير هذه الوظيفة السهلة والخطرة في الوقت نفسه، بيد أن عرفة كانت تفكّر في أمر آخر، كان يشغلها أمر مواصلة دراستها، لكن كيف ستتمكّن من ذلك وهي لا عائل لها. اكتفت في هذه المرحلة بأن طلبت من رحمة تدبير أوراق ثبوتية بديلة لأوراقها التي فقدتها أثناء الحرب. وعدتها رحمة بذلك من دون أن تسألها عن السبب.

خرجت معها بعد صلاة الفجر إلى سوق كان قريبًا من بيتها، مسافة أربعة صفوف من البيوت. قاسمتها حمل الأغراض حتى وصلتا إلى شجرة في جوف العتمة. كانت تحتها طاولة من الحديد، مربوطة إلى جذعها بسلسلة قصيرة مغلقة بقفل ذهبيّ كبير. أخرجت رحمة مفتاحًا من صدرها ثم فتحت القفل. وصلت شاحنة كارو، تحمل نحو عشرة مقاعد صغيرة وخمس طاولات من البلاستيك، وجالونين كبيرين من الماء وجوالًا من الفحم. وضع سائق الكارو حمولته على الأرض وذهب باحثًا عن رزقه.

بدأت عرفة عملها على الفور. أشعلت النار وملأت غلايات الماء الكبيرة ووضعتها عليها. أخرجت طستيْ غسل الأواني من درج الطاولة وغسلت فيهما عدة شغلها كلّها، ثم رتّبتها فوق الطاولة بنظام إلى جانب مستوعبات الشاي والبهارات والقهوة المسحونة وأطلقت بخورًا في الهواء. جلست خلف الطاولة الخضراء التي لا تزال تفوح منها رائحة الطلاء. ساعدتها رحمة بترتيب المقاعد والطاولات حول مكان جلوسها قبل أن تقول:

- دخْل الأسبوع الأول كلّه لك، وما يليه نقتسمه مناصفة!

بدأت يومها قبيل شروق الشمس مع سائقي الحافلات والعمال الذين يذهبون إلى أعمالهم باكرًا. صعدت الشمس في الأفق، وفتح أصحاب المحلات المنتشرة حول شجرة النيم أبواب متاجرهم. راحت تلبي طلباتهم رغم ارتباكها وقلّة خبرتها، ولؤم بعضهم وتحرّشهم بها أيضًا، بيد أن العمل في حدّ ذاته، وجدته لطيفًا ومسلّيًا. أول ما كان يلفت انتباه الزبائن فيها، هو لون عينيها.

«عيناك غريبتان!»، «عيناك فستقيتان!»، «عيناك كعيني قط!»، «عيناك كعيني أفعى!»، «عيناك مثل عيون الخواجات!»، «عيناك... عيناك... عيناك...».

تتكرّر المغازلات، لكنها كانت تلوذ بالصمت دائمًا، وتبتسم لنفسها أحيانًا لطرافة بعض التشبيهات. ماذا عساها تقول لهم؟ هل تقول لهم إن جدّتها تركية أو أفغانية أو جداوية جاء بها البحر إلى ميناء سواكن؟ بم سيفيدها أو يفيدهم؟ دعهم يتخيّلون ما يشاءون. قالت لنفسها. أما السؤال الآخر، الذي لم يكن ليجدي معه الصمت أو التجاهل فقد كان معقودًا على أطراف الألسنة، وغالبًا هو التالي لسؤال العيون:؛

- من أي بلد أنت؟

مرة تقول من كسلا، وتارة من إرتريا، وثالثة من القضارف وأخرى من أي بلدة تخطر على بالها، فتنصرف أذهانهم إلى أسئلة أخرى. بيد أن السؤال، رغم تكراره المملّ ظلّ يرعبها، وكأنها تسمعه للمرة الأولى. لو أن أحد أقاربها البعيدين أو أبناء بلدتها الماكرين تعرّف إليها، فلن يتردّد في أن ينصب نفسه وصيًّا عليها ويقلب حياتها رأسًا على عقب، وما أسهل ذلك لدى الرجال في هذا البلد. لو أن أحد رجال المباحث عثر عليها، عندئذ لن يصدّقها أحد. لم تقل أبدًا إنها من عقيق.

سائل واحد فقط أرعبها هذره. كان سائق سيارة بيضاء صغيرة جاء به الطريق ذات يوم. أوقف سيارته على بعد أمتار قريبة وسحب مقعدًا وجلس. قدمت له القهوة التي طلبها، فرفض أن يذوقها حتى تجيب عن سؤاله:

- كم واحدًا قتلتِ قبل اليوم؟

إندلق شيء بارد عبر جسدها، وراح قلبها يدق بعنف. أي رجل هذا؟ وماذا يريد؟ نظرت إلى وجهه فإذا هو لا يزال مركزًا نظراته في عينيها.

- لست قاتلة؟ من الأفضل أن تخاطبني باحترام.

- بل قاتلة!

قال واثقًا، والابتسامة الغامضة لا تفارق وجهه. كان في صوته صليل قيود وصرير مشنقة، كما بدا لعرفة. راح ينظر إليها من تحت حاجبيه

الغزيرين المقترنين، بينما كانت تعد حلبة ساخنة طلبها يسلم الحضرمي صاحب دكان العجلات. هل هو من رجال المباحث؟ هل يعرف شيئًا عن حياتها السابقة؟ وضع يديه تحت ذقنه، وبدا خلف بخار الماء الساخن الصاعد من الغلاية مثل شبح مرعب رغم وسامته.

لعنت الشيطان في سرّها وقامت لتوصلَ بعض الطلبات إلى زبائنها، ولما عادت لم تجده. شرب كوب القهوة إلى نصفه وترك لها الحساب على الطاولة. انطبع وجهه الطويل في ذاكرتها، بلونه الحنطي وبأنفه المستقيم ولحيته الصغيرة التي تحيط بفمه وتتصل بشاربه الرفيع، وعينيه الواسعتين. ترقبت مجيئه لأيام تالية لكنه لم يأت، ومع ذلك أرهقها الترقّب والقلق. ظلّت، كلما رأت سيارة بيضاء تقترب من مجلسها، يدقّ قلبها بعنف ثم لا يكون هو.

في لحظات قليلة نادرة تكون عرفة وحدها، تنظّف المكان، أو تغسل الأواني، أو لا تفعل شيئًا، وإنما تتأمل أولئك العابرين في الطريق. الداخلين أو الخارجين من السوق. الصاعدين والنازلين من الحافلات العمومية، فيحوم طيف أبيها بغتة في المكان، وتراه من خلف دموعها سائرًا في طابور الأسر بين الجنود الإرتريين، أو جالسًا يقرأ القرآن، أو يؤم الناس في الصلاة. تشمّ رائحته، تسمع صوته فتشتاق إليه، وتدمع عيناها الخضراوان اللتان تسببان لها المتاعب.

تتذكّر أحيانًا رفيقاتها في معسكرات الأسر والهروب، تتذكّر الأم الحزينة وابنتيها آمنة وأمينة. الأم الحزينة اسمها بخيتة، لكن اسمها الحقيقي لا يخطر لها أبدًا. أما فرتونا الجميلة فقد امتصتها الصحراء. كانت تحلم بالهجرة وبالمستقبل. هل هاجرت أم إنها عادت قرونًا إلى الوراء في ذلك البلد القاتل للأحلام، إرتريا؟ وأم الطفلين الجميلين، ماذا كان اسمها؟ وماذا فعل الله بها وبطفليها؟

تتذكّر ماثيو الوسيم كثيرًا، وتتبع صورته في ذهنها بطيئة ناعسة، ثم

لا تلبث أن تشرق بالحياة وتتدفّق في ذاكرتها بحركاتها وسكونها. ماثيو القديس، والمحارب العظيم، يا له من معجزة. ذلك الشاب معجزة لا يمكن نسيانها، هل أحبّته؟

رأت في أحد الأيام شابًا فارع القوام، يترجّل من سيارة رمادية قاصدًا محل قطع غيار السيارات القريب من شجرتها، فوجب قلبها. هل كان يشبهه فعلًا أم إنها تخيّلته؟ لا يهم، المهم أنها عاشت لحظة سعيدة مرَّ فيها طيفه كغيمة عابرة. راحت تراقبه، تتأمّل مشيته الوئيدة وهو يصعد الدرجات الثلاث لمدخل المحل، بجلبابه النظيف الناصع وطاقيته التي تخفي نصف رأسه وحذائه الصقيل اللامع، ثم يعود مسرعًا ليركب سيارته ويغادر. التفت بغتة وابتسم لها حتى استحت من نفسها، هل شعر بنظراتها تخترقه؟ وتعيد تركيب وجهه وجسده في مكان آخر بعيد من هنا؟ تمنّت أن يبقى قليلًا ويشرب عندها شايًا أو قهوة، لكنه مضى.

أطياف ماثيو، كلّما طفت على سطح الذاكرة كانت تأخذها إلى هناك رغمًا عنها. إلى معسكرات الأسر والسخرة، وإلى مقاتلي الحرب الضائعين، وإلى الرجل صاحب الكلب، وإلى تيتو ورجال الجيش الآخرين، وإلى المُزارع الأصم ذي الوجه الحقير، وإلى سائقي الشاحنات الذين التقتهم في طريق الموت، وإلى ما حدث مرة ومرتين وثلاثًا وربما أكثر، فينقبض قلبها ويكتئب، وترى في الفضاء الأزرق طيف مشنقة عملاقة، ثم تغمر جسدها رعشة تشعر بعدها بالغَمّ، فيلازمها ذلك أيامًا. الألم في أعماقها المتوحّشة يكبر، وقلبها يدقّ مثل طاحونة قديمة. كان عليها أن تتقدّم بعزم وسط هذا كلّه، وأن تبقى قوية من أجل نفسها، لكنه ليس بالأمر الهيّن بالنسبة لفتاة وحيدة في مدينة قاسية كهذه.

فهمت مع الوقت طريقة إدارة رحمة لمملكة بائعات الشاي التي تنتشر بطول المدينة وعرضها. علمت أن لديها بيوتًا أخرى في أحياء متفرّقة، تستأجرها لسكنى بائعات الشاي اللائي تكفلهنّ، بيد أنها

تملك كل شيء، وتتعامل مع الجميع بنظام المناصفة في الأرباح. أما حين أمعنت النظر في طريقة عملها، وجدت أن رحمة تستحق هذه النسبة الكبيرة نظرًا للحماية التي توفّرها لهنّ، بل إن قسمًا كبيرًا منهنّ لا يسكن في بيوتها المعروفة لكنهنّ يتمتّعن بمظلّتها الآمنة، وإلا فإنهن عرضة للابتزاز والتحرش والحبس والتنكيل وإغلاق مصادر الأرزاق. ظلّت علاقاتها الأخطبوطية في دوائر الحكومة تحيّرها كما تحيِّر بائعات الشاي الأخريات، فهي تحيطها دائمًا، بسياج من الكتمان الضروري، الذي لا يمكن لأحد كسره.

أقبلت على العمل بحماسة، لكن ثمة مصاعب كان لا بد لها من مواجهتها بحكمة، فالانطباع السائد عن بائعات الشاي لدى معظم الزبائن، وكلّهم من الرجال، أنهنّ بائعات هوى يتخفّين خلف هذه المهنة التي تبدو مزيَّفة في أي وقت، ولا يمكن بأيّ حال تغيير هذا الانطباع إلا بعد صراع طويل وسط أمواج متلاطمة، شرّيرة، وعلى كل بائعة شاي أن تواجه مصاعبها منفردة.

معظم الزبائن لا يرتادون المكان لشرب الشاي أو القهوة وحسب. إنهم يبتكرون حيلًا كثيرة للإيقاع ببائعة الشاي واستدراجها لعلاقة جنسية. لم يكن يمر يوم إلا وتعرّضت فيه لحيلة من تلك الحيل، أو لمحاولة تحرّش أو غزل.

بمرور الأيام طفح ذلك الهاجس اللعين، وعذّبها بالترقّب والخوف مما قد تحمله الأشهر المقبلة إذا وقع المحظور. تأخّرت دورتها الشهرية لما يقرب من تسعة أيام، وهو وقت طويل لا يمكن أن يكون لأمر عارض. راحت تفكّر في ما يمكن فعله. تتذكّر الآن ما حدث معها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. تأخرت دورتها الشهرية نحو عشرة أيام بسبب التهابات عارضة، والآن كيف لها أن تتأكّد؟

***

جاءتها رحمة بالأوراق التي طلبتها. شهادة ميلاد بديلة عن شهادة ميلادها الأصلية.

الاسم: حياة عثمان إبراهيم صابراي.

تاريخ الميلاد: 21 أكتوبر 1980.

مكان الميلاد: عقيق.

اسم الأم: مريم طاهر توفيق جركس.

كانت قد أخبرت رحمة باسمها الحقيقي المدوَّن على شهادة ميلادها منذ عشرين عامًا. هي نفسها لا تتذكّره إلا نادرًا لأن الكل يناديها باسم عرفة، عدا والدها الغائب. طلبت من رحمة أن تناديها عرفة، دائمًا. طلبت منها كذلك استصدار شهادة إكمال مرحلة الأساس التي تخوّلها للتسجيل في المرحلة الثانوية. استخرجتها رحمة من الوزارة المعنية بطيب خاطر، ودعمتها بشهادة إثبات السكن من اللجنة الشعبية بالحي، وهكذا اكتمل ملف تسجيلها المدرسي. شكرت رحمة بقبلتين على خديها.

كان أحد زبائنها مدرِّسًا في مدرسة للأساس قريبة من السوق. عرفت ذلك مصادفة عندما رأته يوبِّخ طالبًا جلس ليشرب شايًا عندها خلال وقت الإفطار. كان طالبًا حزينًا، بوجه شاحب مطرق إلى الأرض، أثار انتباهها وهمّت بالتحدث إليه لكن مدرّسه سبقها. انتهره، وأجبره على مغادرة المكان وكوبه لا يزال ساخنًا فوق الطاولة.

منذ تلك الحادثة أحكمت دائرة اهتمامها على المدرّس، وراحت تعامله بلطف. تقدّم له طلباته بالطريقة التي يحبّها، وتتساهل معه في الدفع، وتتجاذب معه بعض الحديث حين يكونان بمفردهما. سألته عن موعد التسجيل للفصول المسائية بمدرسة سعدابي الثانوية للبنات، الواقعة غرب السوق، وإن كان يعرف أحدًا من إدارتها، ولما رأت نظرة استغراب في عينيه قالت.

- أبحث عن مقعد في هذه المدرسة من أجل صديقة لي!

كان قصيرًا مستدقًّا، مستدير الوجه، قصير الأطراف على نحو مثير. يمشي خببًا وهو يحمل كتبًا وأوراقًا يضمّها إلى صدره. يوحي دائمًا بأنه على عجلة من أمره.

- هاتِ أوراقها، وغدًا أنهي لك كل شيء.

قال وهو يمد إليها يده القصيرة التي تشبه عصا الجرن. رأته في اليوم التالي وأخبرته بالحقيقة. مال بنصف جسده إلى الأمام. اتسعت عيناه الجاحظتان على اتساعهما، بنظرة فيها خليط من الفرح والإعجاب والدهشة.

- هل أنت...

أومأتُ برأسها. لاذ بالصمت، يمتلئ وجهه بالإشراق.

- براڤو... براڤو...

ثم صفّق بكفيه الصغيرتين وكاد أن يعلن ذلك للسوق كلّه.

رجته أن يبقي الأمر سرًّا. وفَى بوعده، بل زوّدها بكل ما تحتاجه من كتب وأقلام ودفاتر، ومن بينها علبة أقلام وردية عليها رسم حورية البحر.

- تبدأ السنة الجديدة منتصف سبتمبر المقبل. استعدي منذ الآن، فقد أوصيت بشأنك زميلاتي المدرِّسات!

كان متحمِّسًا ومتعجلًا، فشكرته على المساعدة، وعلى هداياه الجميلة. في الأثناء، سمعت صوت سيارة تتوقّف على مقربة، وصوت ارتطام أبوابها، ثم أصوات أقدام تقترب.

- قهوة وحلبة لو (ثمحت)!

تعرف هذه اللثغة. استدارت بحذر. وجدته الشاب صاحب السيارة البيضاء برفقة آخر، وعلى وجهه الابتسامة الغامضة نفسها. غاص قلبها في صدرها لكنها تظاهرت باللامبالاة.

- جئت بشاهد معي. حتى إذا قتلتني لا يضيع دمي هدرًا!

بدا الأمر أقرب إلى المزاح الثقيل، لكنها عزمت على أن تهزم خوفها قبل أن يفلت من بين يديها مجدَّدًا ويتركها للرعب.

- ماذا تقصد؟ هاأنت، وللمرة الثانية تطلق كلامًا من هذا النوع؟ هل رأيتني أحمل سكينًا وأقتل؟

ضحك ساخرًا، وغاظتها سخريته.

- وهل لا بد أن يحمل القاتل (ثكينًا)؟

- وبماذا يقتل إذًا؟

- بعينين خضراوين، مثلًا!

بردت أطرافها بغتة. أربكها الخجل، فانعقد لسانها. سحبت نفَسًا عميقًا. راحت تشغل نفسها عن الكلام بإعداد القهوة.

- وديني وما أعبد، لم أر في حياتي مثل هاتين العينين، هل أنت من (نثل) جن أم بشر؟

- ضحكت، وخفضت بصرها إلى الأرض.

- أتقتلين وتضحكين؟ ما أنت إلا (مثتبدة)!

- لست بقاتلة ولا مستبدة يا ابن الحلال. ما أنا إلا باحثة عن رزقي بين أقدام الرجال كما ترى.

- مثلك تبحث الأرزاق عنه إذا كانت الحياة عادلة!

ثم راح يحدّثها عن عائلته وعمله وحياته وصداقاته، وكأنما يقدّم نفسه.

- أظنك طيبة وبنت حلال، والطيب لا (يثتأهل) إلا طيبًا!

كان غريب الأطوار، وبدا لها من ذلك النوع الجامح الذي لا يأبه لشيء، والحياة عنده لعبة، طالما أن المال موجود والصحة موفورة والآفاق واعدة. لم تغب عنها تلميحاته، لكن عرفة لم تأخذها على محمل الجدّ، فمضى غير يائس. تأمّلته وهو يصعد ورفيقه إلى السيارة. كان هو الأطول، بجلباب ناصع يلمع تحت ضوء الشمس، مخفيًا جسدًا ممشوقًا في غير نحافة.

***

دخلت مع رحمة إلى المطبخ لكي تساعدها في إعداد العشاء. وضعت جبنًا وزيتًا على الفول، بينما كانت رحمة تخفق البيض بأناة، ثم تضع عليه قليلًا من الملح والفلفل المطحون، وتسكبه على المقلاة الساخنة فينبسط على سطحها ثم يتجمّد كالماء.

- البنت سعاد توقّفت عن العمل منذ فترة بسبب خوفها من رجال المباحث. لا أحب جلوس البنات في البيت لأنه يفسدهنّ، يمكنها أن تتقاسم معك العمل ريثما أتمكن من تدبير مكان لها.

قالت من دون أن ترفع رأسها عن المقلاة أو تلتفت إليها.

- هل نعمل معًا أم نقتسم الوقت؟

- الأفضل اقتسام الوقت. أنت في الصباح وهي بعد الظهر، أو العكس.

- سيكون من دواعي سروري.

قالت عرفة، بينما كانت تفكّر في شأن آخر، وتبحث عن طريقة مناسبة لطرحه على رحمة.

- ربما أعود إلى الدراسة بعد عطلة الصيف. وجود سعاد إلى جانبي سيكون مفيدًا للغاية.

قالت مرتبكة، فنظرت إليها رحمة نظرة صامتة ثم أدارت رأسها إلى الناحية الأخرى. انقبض قلبها.

- هل أعجبتك علبة الأقلام التي تزيّنها حورية البحر؟

قالت بعد برهة صمت، ثم أدارت رأسها نحو عرفة وضحكتْ.

- لا بد أن تعرفي أن رحمة لا تفوتها شاردة أو واردة.

ولما أفاقت عرفة من الصدمة، استجمعت شجاعتها.

- هل أفهم أنك لا تمانعين؟

- لو كنتُ أُمانع لما تم التسجيل من أساسه أيتها البلهاء!

وضعت قبلة على خدها.

- لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك يا رحمة، لن أنسى لك هذا.

لم تقل شيئًا، وضعت طبقَيّ الفول والبيض على الصينية مع طبق فارغ آخر، ثم فتحت أحد أدراج المطبخ العلوية وأخرجت برطمان مربى وعلبة حلاوة الطحينية ووضعت منهما على الطبق.

- حين تتعلّمين تصبحين أقوى، وحين تكونين قوية تزداد خيمتنا عمودًا فترتفع وتكبر.

خرجتا من المطبخ إلى السقيفة، حيث تجلسان دائمًا وتأكلان تثرثران. قالت رحمة وهي تقطع الرغيف المستدير إلى أنصاف متساوية وتضعه في دائرة حول الأطباق.

- أكثر ما أندم عليه في حياتي يا عرفة هو أنني لم أدخل مدرسة، ولو كانت الحياة عادلة لما أمضيت سني شبابي أبيع الشاي والطعام للرجال في الطرقات، لكنني وطّدت نفسي على أن آخذ لها حقّها عنوة، كما ترين.

لطالما أثارت رحمة إعجاب عرفة. تبدو قوية عندما تتحدّث عن عملها وطموحها، وأقل من ذلك عن ماضيها. ثمة بقعة معتمة في ذلك الماضي تتعلّق بابنها أيمن لا تزال غامضة بالنسبة لعرفة.

لم تتأخّر رحمة كثيرًا. تذكّرت ابنها من جديد، وسط حكاية عن مدرِّس كان يضرب التلاميذ ضربًا مبرحًا فأطرقت صامتة. راحت عرفة تتأمّل تعبيرات وجهها، فرأت ظلالًا من الحزن تمر فوق صفحة وجهها...

- ليته يفهم كم كانت التضحية كبيرة.

قالت بنبرة هادئة، وهذا شجع عرفة على استدراجها.

- ما الذي حصل؟ هل يرفض العيش معك؟

- ليته اكتفى بذلك، إنه يشعر بالخجل من كوني أمه!

- إلى هذه الدرجة؟

قالت عرفة فزعة، فابتسمت رحمة ابتسامةً شاحبة.

- اختار طريق المجانين، ومن يمشي في هذه الطريق لا يعود!

نظرت في وجه عرفة الذي لم يفارقه الذهول، واستطردت:

- تظنين أنني أبالغ في قولي هذا؟ لكنّها الحقيقة. كل من ذهب في هذا الطريق لم يعد، ومن عاد كأنه لم يعد.

كانت ترغب في الحكي رغم حرارة الجو الخانقة. أخرجت علبة السجائر البينسون الذهبية من تحت الوسادة ثم أشعلت سيجارة ونفثت دخانها في هواء السقيفة الثقيل، فلم يتبدّد. بقي معلقًا في الفضاء بينها وبين عرفة، فأخفى وجهها عنها. ظلّ صوتها يأتيها من وراء غيمة الدخان.

- جاء مع فريق كرة القدم الذي يلعب له العام قبل الماضي ليلعب مع فريق حي العرب. دخلت الملعب لكي أراه، وامتلأتُ غبطة وأنا أتابع لعبه الرشيق طوال شوطَيّ المباراة، يجري هنا وهناك ويحاور ويسدّد في المرمى. أصفّق وحدي أحيانًا كلما ركل الكرة، وأصرخ إذا وقع على الأرض أو دفعه أحد خصومه. عرف الجمهور الذي حولي أنني أمه، لكن ابني لم يرغب في أن يتقبل ذلك.

سحبت نفسًا طويلًا من الدخان ثم تابعت والدخان يخرج من فمها:

- اقتربتُ كثيرًا من منطقة اللاعبين بعد انتهاء المباراة، ولحقت به وهو يصعد إلى الحافلة. أخذته في حضني وشممت عرقه. تظاهر بعناقي أمام زملائه ثم صعد إلى الحافلة من دون أن يقول كلمة واحدة. كنت أعرف الفندق الذي يقيمون فيه لكنني لم أذهب إلى هناك، اكتفيت بما حصل في الملعب.

أطفأت السيجارة على الأرض ثم أجابت على السؤال الذي ظل يدور بخاطر عرفة:

- يظن أنني عاهرة. كل من تبيع الشاي والطعام عاهرة في أذهان الكثيرين حتى أبنائنا، وهذه مأساتنا!

خطر بذهن عرفة الشاب الوسيم، بعينيه الواسعتين وحاجبيه الغزيرين المقترنين وهذره الغامض، ففكرت في أن تسألها عنه، لعلّها تعرفه. وصفته لها، ووصفت سيارته وطريقته في الكلام، واللثغة التي في لسانه.

- هذا ياثر (تقصد ياسر)!

وضحكت رغم الأسى الذي سبّبته لها ذكرى ابنها أيمن، ثم تابعت:

- يُعرف باللورد، ويعمل في استيراد السيارات من كوريا. لا أعرف عنه الكثير، يبدو مستهترًا في العموم!

راحت عرفة تفكّر في ما جعلها تفتح هذه السيرة، وتسائل نفسها هل تستشيرها في الأمر أم تكتفي بما قالت؟ سبقتها بالسؤال:

- ما سبب سؤالك عنه؟ هل ضايقك؟

- لا، أظنه يستلطفني.

عبرت سحابة كدر فوق وجهها، لكن سرعان ما طردتها، ثم نظرت إلي وجه عرفة بعينين تموران برغبة غامضة.

- أنت جميلة يا عرفة. أجمل من أي بنت رأيتها في حياتي!

تهدَّج صوتها، وازدردت ريقها وهي تضع يدها على فخذ عرفة.

- ماذا تقترحين علي؟

قالت وهي تضم ساقها إلى الأخرى. فسحبت رحمة يدها مرتبكة:

- سنتحدث عن هذا الأمر لاحقًا!

(5)

اقتعدنا الظل بين الشجرتين، وكان ظلًا كبيرًا وممتدًا باتجاه الشرق بعد أن مالت الشمس نحو الأفق. تقاسمنا ما توفر من زاد، وكان بعض الماء والتمر والخبز الناشف. أخرجت المرأة الحزينة أدوات القهوة من حقيبتها ثم انهمكت في إشعال بعض الحطب الجاف لتعدّها.

تواريْت والفتاتان التوأم خلف أجمة مسكيت غير بعيدة. قضينا حاجتنا ثم جلسنا تحت أشجارها المتشابكة نتحدّث ريثما يفرغ الرجال من قهوتهم واستراحتهم. علمت من الكبرى، واسمها آمنة، بأن أباهما قتل في غارة لطائرة حكومية سودانية على ضواحي مدينة قرورة الحدودية. دمرت الغارة نصف بيتهم وقتلت أباهما مع قريب لهم، ورأين أشلاءهما الممزّقة وجمعنها بأيديهنّ.

كان حادثًا مؤلمًا لم تحتملانه، بيد أن الصدمة كانت قاسية على شقيقتها التوأم، ففقدت على إثرها قدرتها على النطق. نقلت بصري إلى وجه أمينة الشارد. كان وجهًا حنطيًا جميلًا، تعلوه جبهة مستديرة، يحدّها من الأسفل حاجبان رفيعان فوق عينين نجلاوين وأنف دقيق مستقيم وفم صغير. وخدَّان ممتلئان يضيقان عند الذقن المدبب. تحمل آمنة الملامح نفسها مع بشرة مشرَّبة بالسمرة وجسد أقل امتلاء من جسد أمينة. قالت:

- تستيقظ مذعورة من نومها وتقول كلامًا مثل الخطرفة. وتتشنّج أحيانًا لأسباب غامضة. لا بد من عرضها على طبيب، وهذا أحد أسباب نزوحنا.

حزنت لأجلهما، وقطّعت نياط قلبي نظرات أمينة الساهمة المركّزة

في الفراغ. رحت أحدِّث آمنة عن الحياة في بورتسودان بالقليل من المعلومات التي سمعتها من مدرّساتي وصديقاتي في عقيق، وبالكثير من الخيال لعل ذلك يعطينا كلنا دافعًا لإكمال الرحلة.

تناهت إلينا بغتة أصوات سيارات تقترب ثم تتوقّف، وخمّنت أنها ربما لنازحين آخرين جاء بهم الدرب أو أنهم مسافرون عابرون في الاتجاه المعاكس لرحلتنا، بيد أنه -لما خرجنا من الأجمة- تبين أنهما شاحنتان عسكريتان، واحدة خضراء وأخرى ترابية، تحملان قوة مشتركة من الحلف الذي يقاتل الحكومة. يقود القوة جندي إرتري أعور يضع عصابة سوداء على عينه اليمنى. أحسست بانقباض في صدري، ورأيت ذعرًا في عينيّ آمنة، وشعرتُ برعشة خفيفة في معصم أمينة داخل يدي التي تمسك به. استدار الجنود نحونا في لحظة واحدة، مركّزين نظراتهم علينا وكأنما فوجئوا بوجودنا.

راحوا يفتشون الرجال ويأخذون كل ما تقع عليه أيديهم من أموال وأوراق، ثم أمروهم بالصعود إلى الشاحنة الخضراء وأمرونا نحن أن نركب في الشاحنة الترابية. رأيت ذعرًا في عيني أبي، كالذي رأيته في ذلك الصباح في عقيق. راح يدور حول نفسه بلا هدف، إلى حد أنه صعد إلى الشاحنة الخاطئة. انتهره أحد الجنود فزلت قدمه على سلم الشاحنة وسقط على وجهه. خف إليه جندي قريب وساعده على النهوض. كان يتصبّب عرقًا، وبدت عيناه المذعورتان مثل كرتين من اللهب وسط قناع كثيف من الرمل والعرق. كان يتمتم بكلمات غير مفهومة.

هبط الظلام على الصحراء بلفحة برد خفيفة، ازدادت ضراوة مع انطلاق الموكب عكس اتجاه الريح. الشاحنة التي تقل الرجال في المقدمة تتبعها شاحنة الرشيدي ثم الشاحنة التي تقلنا. التصقنا ببعضنا في أرضية الشاحنة تتوسطنا الأم الحزينة. لا أعرف مقدار الوقت الذي استغرقناه حتى بلغنا معسكرهم، لكن، عند وصولنا كان القمر كامل

الاستدارة قد جاوز رؤوس الجنود الذين يحيطون بنا على ظهر الشاحنة.

نزلنا في وسط المعسكر المقام على سفح أحد الجبال، وأمكننا أن نرى خلف ستارة من الغبار، جانبًا من صخوره الملساء تعكس ضوء القمر. جلسنا على الرمل في كومتين منفصلتين. الرجال في جهة والنساء في الجهة الأخرى. تركوا ثلاثة جنود لحراستنا، ثم مضوا ناحية خيام بعيدة. أبلغنا الجنود بنبرة حازمة أوامر بعدم الحركة والحديث إلى بعضنا البعض.

بعد مضي ساعة جاءتنا مجنَّدتان بطبقين كبيرين من العدس وبعض الخبز والماء، وقسمتاه بين مجموعتي الرجال والنساء. أكلنا وشربنا ونحن نتأمّل حركة الجنود والجنديات في أرجاء المعسكر الواسع، الذي يبدو أنه قيد الإنشاء.

مضى وقت طويل قبل أن يعود الجندي الأعور بصحبة ضابطين، احدهما إرتري والآخر سوداني. حقّقوا مع كل واحد منا على حدة، عن اسمه وجنسيته وقبيلته وعمله ووجهته وسبب اجتماعه بالآخرين. أجبناهم عن أسئلتهم منكرين أن تكون لنا صلة بأي جهة حكومية. بيد أنهم عجزوا عن استنطاق أمينة. ظنوا لوهلة أنها ترفض التجاوب معهم، فهدّدوها باتباع أساليب تجبرها على الكلام. شبّت الأم الحزينة تمنعهم تارة بالرجاء وتارة أخرى بالصراخ والبكاء حتى تركوها مكرهين. كان تحقيقًا طويلًا ومرهقًا، قال الضابط السوداني في نهايته:

– ستكونون في ضيافتنا هذه الليلة، وغدًا تنطلقون إلى حيث تريدون. هذا كلّه من أجل سلامتكم.

اقتادوا الرجال ومعهم الطفل، عبر الساحة الواسعة إلى نهاية المعسكر من الجهة الأخرى، ناحية الجنوب. يتقدّمهم جنديان مسلحان ويسير آخران خلفهم. دهمني شعور غامض بالخطر، وسرَت في جسدي رعشة أوقفت شعر جلدي. خطر لي أن أصرخ، أن أنادي على أبي، أو ألحق به.

وقفت على ساقيَّ وصرختُ بالفعل. التفت أبي. هممت بالركض، لكن الجندي أمسك بكتفي حتى كاد يخلعه، ودفعني إلى الأرض.

- إياكِ أن تفعلي ذلك مرة أخرى!

تهالكت إلى الأرض. خطر لي أنهم ساقوه إلى الموت، ولا بد أنهم فاعلون. ألم يكن من رجال الحكومة؟ ألم يكن اسمه في قوائم المطلوبين للإعدام؟ مرّت دقائق ثقيلة. دوى صوت طلق نار متقطع، من الجهة نفسها التي أخذوهم إليها. صرخت واضعة رأسي بين يديّ ثم حاولت أن أركض. دفعني الجندي بعقب بندقيته في ظهري. انكفأت على الأرض ورحت أنتحب وألعن الجندي. جاءت أربع جنديات إرتريات واقتدننا جميعًا إلى قبو تحت الأرض.

***

كان قبوًا بدا أنه شُيّد على عجل. لا تزال رماله رخوة ودافئة، وحجارة الجبل التي تحدّد جانبي مدخله المتدرج، كما رأيتها على ضوء الصباح، لا تزال تتماسك بطين لين. لم أذق طعم النوم قط، ولم تفارق ذهني صورة أبي وهو بين أيدي الجنود.

كانت الأم الحزينة تضع يدها على رأسي كلما سمعتني أقول:

- قتلوه... أطلقوا النار عليه... حزني عليك يا أبي! حزني عليك!

- لن يصيبه مكروه بإذن الله. هذه ساحة حرب يا ابنتي، وإطلاق الرصاص فيها أمر وارد في كل وقت. وحّدي الله.

عبثًا، ظلت الأم الحزينة تحاول طمأنتي كلما أفاقت على صوتي، بيد أن الخواطر السيئة لم تبارح خيالي قط حتى تسلّل ضوء الصباح من مدخل القبو وبلغ نهايته عند مرقد أمينة. اتّسع قليلًا وتباعدت جدرانه المخطّطة بضربات المعاول. كان بحجم غرفة مستطيلة منخفضة السقف ولها مدخل واحد.

جاءتنا مجندة بإبريق شاي وأكواب بلاستيك وقطع خبز جاف. ألقت

إلينا بما حملته وغادرت من دون أن تنبس بشيء. صبَّت الأم الحزينة الشاي في الأكواب ووضعت قطعة خبز بجوار كل كوب. كنت أشعر بألم في رأسي أشبه بضربات الطبل.

- يكفيني الشاي فقط يا خالة. رأسي يؤلمني.

- هذا من قلّة النوم وكثرة النحيب. انتبهي لنفسك فرحلتنا طويلة.

- هل تظنين أنهم أحياء؟

- أحياء بإذن الله. لعلهم باتوا ليلتهم في قبو آخر مثلنا. ما هي إلا ساعات ويلتئم شملنا ونغادر!

- أحتاج إلى حمام!

قالت آمنة، فانتبهنا إلى حاجتنا كذلك. نادت الأم الحزينة على حارس القبو وأخبرته. تحدّث إلى رفيقته ثم طلب منا الخروج في إثرها. تبعناها إلى أجمة تقع خارج حدود المعسكر. قضينا حاجاتنا تحت حراسة بندقيتها المصوّبة في وضع الاستعداد ثم عدنا.

توسّدت صرّة ملابسي ونمت. استيقظت عند الظهر مع وصول وجبة الغداء. كانت طبقًا كبيرًا من خبز الإنجيرا الرفيع، مغمور بطبيخ فاصوليا بيضاء مع البصل، وكانت سيئة الطهو. أكلنا قليلًا ثم أمرَنا الحارس بالخروج. هتفت آمنة.

- الحمد لله. أخيرًا سنغادر.

هنأنا بعضنا ولملمنا أغراضنا، بيد أن الحارس أمرنا بترك الأغراض في مكانها. تركناها وخرجنا في إثره. قادنا ناحية خيمة تحت الجبل، ودخلنا واحدة بعد الأخرى على ضابط إرتري آخر غير الذي حقّق معنا بالأمس، وراح يسأل الأسئلة نفسها التي سئلناها بالأمس. سألته كل منا عن مصير الرجال وساعة إطلاق سراحنا وكان جوابه واحدًا أيضًا:

- إنهم يخضعون إلى تحقيقات بسيطة وستغادرون جميعًا بمجرد انتهائها.

لم يعيدونا إلى القبو، بل أخذونا إلى مكان قريب من خيمة التحقيق في سفح الجبل. قال الحارس:

- يمكنكن الاستراحة هنا حتى مغيب الشمس. يرجى التزام الهدوء.

ثم اقتعد صخرة قريبة، يراقبنا. جلسنا نتأمّل حركة البناء في المعسكر. كان الجنود الإرتريون والسودانيون موزعين على جماعات متفرّقة تعمل في حفر خندق يمتد مسافة طويلة بين الجبل الذي نوليه ظهورنا وآخر بعيد في جهة الغرب. قالت الأم الحزينة:

- نحن عند جبل تَقدَرا، وهذه المسافة الممتدّة بين الجبلين هي المدخل إلى وادي العقيق، وإلى مناطق الجنوب كلّها حتى الحدود الإرترية.

كان الجنود يعملون مثل النمل وكأنهم يسابقون الزمن. إذا نزل أحدهم إلى الخندق لا يظهر منه إلا رأسه. رؤوس كثيرة كانت تتحرّك في الاتجاهين على طول الأجزاء المتقطّعة من الخندق، وكأن مغنطيسًا تحت الأرض يحرّكها.

جنود آخرون كانوا يشيّدون كهوفًا من الحجارة في الجبل خلف ظهورنا، فيما انشغل أكثرهم في تعبئة التراب المستخرج من حفر الخندق في جوالات وتوزيعها على حدود المعسكر وأركانه البعيدة. إلى اليسار منا، كانت مجموعة منهمكة في بناء أكواخ مؤقتة من القش وأعواد الشجر، متراصّة تحت سفح الجبل مثل عربات قطار.

قرب مغيب الشمس جاءت مجنّدة وتحدّثت إلى الحارس قليلًا وهي تشير بيدها ناحية الأكواخ الجديدة ثم انصرفت. أعادنا الحارس إلى القبو مرة أخرى لنأخذ أغراضنا ثم نتبعه. شملتنا فرحة مكتومة. حملنا أغراضنا وسرنا خلفه. لاحت على الناحية الأخرى من الساحة شاحنة عسكرية تئز، وعلى ظهرها بضعة رجال وامرأتان بملابس مدنية.

- هل سنغادر بهذه الشاحنة؟

سألت آمنة، لكن لم يجبها أحد. كانت نظراتي معلّقة بالرجال ذوي الجلابيب البيضاء والصديريات الملونة على ظهر الشاحنة. سألت الله أن يكون أبي بينهم فنغادر معًا.

- لا تخيّب ظنّي يا الله!

لم يكن هناك، لا هو ولا الرجال الذين كانوا معه. لم نصعد إلى الشاحنة كذلك، بل عبرنا بجوارها حتى بلغنا إحدى الخيام الجديدة. المجنَّدة التي كانت تتحدّث مع الحارس عند الصخرة كانت في استقبالنا.

- أهلًا بكن.

قالت وهي تشير إلى الحصر الأربع الجديدة المفروشة على أرضية الكوخ وإلى البطانيات العسكرية الخضراء المطوية على جانب كل منها. امتعضت الأم الحزينة، وسألت:

- هل يعني هذا أن إقامتنا طويلة؟

- لا يا خالة. أنتن في ضيافتنا هنا هذه الليلة عوض النوم في القبو!

دوت صافرة في أرجاء المعسكر، وذُعرنا من زعيق الجنود وأصوات أقدامهم وهي تنهب الأرض مهرولة ناحية الساحة المنبسطة تحت سفح الجبل. تزاحمنا على باب خيمتنا الصغير نستطلع ما يجري، من خلف ظهر الحارس.

اصطف عدد هائل من الجنود في وسط الساحة، في مربع ينقصه ضلع، ومفتوح نحو الجهة التي نقف عليها. أمكننا أن نميز أن ضلعًا واحدًا هو الذي يشغله الجنود السودانيون. كان عددهم قليلًا جدًا. وأما الضلعان الآخران فكانا لمقاتلي ومقاتلات الجبهة الشعبية الإرترية بأزيائهم الملتصقة بأجسادهم وشعورهم الكثّة المألوفة عنهم طوال مرحلة حرب التحرير.

مع انتظام الجنود تقدّم نحو الطابور ثلاثة رجال بلباس عسكري، يبدو من هيئتهم ومشيتهم أنهم قادة المعسكر. لم يكونوا متعجّلين كبقية

الجنود ولا مسلحين كذلك، لكنهم محروسون بجنود آخرين يشكّلون دائرة واسعة تتحرّك حولهم حتى بلغوا وسط الطابور تمامًا. تراجعت دائرة الحراسة حتى صنعت قوسًا كبيرًا أكمل الضلع المفقود في مربع الطابور.

استمرّ الطابور ساعة أخرى بعد مغيب الشمس. تحدّث الضباط الثلاثة واحدًا بعد الآخر، وكان واضحًا من ملامحهم حين مروا من أمامنا أنهم يمثلون التحالف الواسع الذي تتألف منه هذه القوات. ملامح المتحدّث الأول قريبة من ملامح رجالنا البِجا سكان المنطقة، بالشلوخ البائنة على وجهه. وأما السوداني الآخر فقد كان أسود، طويلًا ونحيلًا، الأرجح أنه من جنوب السودان. أما الأخير فقد كان إرتريا خالصًا.

تأكّدت أخيرًا تخميناتي التي كوّنتها أثناء سماعي لنتفٍ من أحاديثهم، حين كان الهواء يأتي بها ويصرفها كيفما شاء. كان واضحًا أن الإرتريين يسيطرون على كل شيء، والكلمة الأخيرة لهم.

انتهى يومنا الأول في معسكر تقدرا مثلما بدأ، بإبريق شاي وقطع خبز ناشف. ألقت بها مجنّدة أمام باب الخيمة وغادرت من دون أن يكلمنا أحد مرة أخرى، أو نعرف مصير رجالنا.

(6)

لقد وقع ما كانت تخشاه عرفة. وفي خلال أسابيع قليلة، لن يكون بمقدورها إخفاء الحقيقة. ستكبر بطنها، وستثير الكثير من الأسئلة والنظرات الفضولية التي لا مفرَّ منها. ماذا ستفعل عندئذ؟ هل ستبحث عن صخرة أخرى كما فعلت في عيْتربة؟ لقد رأت الموت في تلك الحادثة ولا ترغب في تكرارها الآن. إنها ترغب في حل أقل ألمًا!

عذبتها الحيرة أيامًا، وقرّرت في النهاية، أنها لا بد أن تسبق الساعة التي تتجلّى فيها الحقيقة أمام الناس بخطوة واحدة، عِوَض أن تمشي أميالًا طويلة لتغييرها بعد أن تقع. خطوة واحدة إلى الأمام كفيلة بتقرير حقيقة جديدة، مختلفة تمامًا. كل أحد في هذا العالم، يستيقظ ليخطو خطوته المثلى فيغير حقيقة بأخرى، قالت في نفسها.

الأمور في العمل لم تكن مثالية، فسعاد التي تجلس مكانها تحت شجرة النيم خلال ساعات الصباح كانت تسرقها وتسرق رحمة. تستهلك ضعف ما تستهلكه عرفة من التموين لكنها تسجّل في الدفتر مبلغًا زهيدًا، رغم أنه وقت ذروة العمل. واجهتها عرفة بالحقيقة فادّعت في البداية أن عدد الزبائن قليل خلال ساعات خدمتها، لكن حين حسبت أمامها كمية المواد التي تستهلكها خلال تلك الساعات ادّعت مرة أخرى أن بعض الزبائن لا يدفع في الحال وإنما في نهاية الأسبوع، أو في آخر الشهر. فكّرت في أن تخبر رحمة لكنها خشيت أن يدفعها ذلك إلى القسوة عليها. من جهة أخرى، شعرت بأن سعاد تتعمَّد فعل ذلك، وكأنما تريد الوقيعة بينها وبين رحمة، لذلك تجاهلت الأمر وراحت تسوّي الحسابات اليومية على طريقتها.

جلست الآن وحدها خلف طاولة الشاي ونسيت أمر سعاد. هكذا، طوال ساعات عملها تظلّ تفكّر في مصيبتها. في النطفة التي بلغت شهرها الثالث ولا تزال تكبر في أحشائها بصبر. دهمها صداع حاد، كاد أن يشقَّ رأسها. ارتبكت. ملاحظات الزبائن على عملها لا تنقطع. كانت تحمل قهوة لمن يطلب شايًا، وتضع سكرًا لمن لا يتناوله، وتحمل طلبًا لمن لم يطلبه، ناسية من طلبه أصلًا.

جاء ياسر صاحب السيارة البيضاء بغتة، في غير الموعد الذي اعتاد أن يمر فيه على شجرة النيم. سحب كرسيًا وأشعل سيجارة واضعًا رجلًا فوق أخرى.

- أريد شايًا أخضر مثل هاتين العينين الجميلتين.

كان مزاجها كدِرًا ولا رغبة لها في المزاح أو الهذر. بوجهٍ مقطَّب أعدّت له الشاي ووضعته أمامه. نظر إلى وجهها نظرة مشفقة، وقال:

- هل قلت شيئًا أغضبك؟

- لا، لم تقل شيئًا ولكنني أعاني من صداعٍ حادٍّ.

خفَّ إلى سيارته من دون أن يسألها، وجاءها بحبتي بانادول.

- خذي هذه و(ثـ)تشعرين بتحـ(ثـ)ن.

شكرته. تركتها في يدها بينما راحت تلملم آنيتها المبعثرة. أباريق القهوة وأكواب الشاي الفارغة والسكّريات. جمعتها من الدكاكين والمحلات القريبة وغسلتها ثم أودعتها خزانة الطاولة الحديد وأغلقتها من الخارج. قرَّبت الطاولة من جذع الشجرة كما تفعل كل يوم ثم ربطتها بالسلسلة. جمعت الطاولات والمقاعد فوق بعضها وأودعتها مطعم العم عبد الرسول القريب منها. لم يبق إلا المقعد الذي يجلس عليه ياسر والطاولة والكوب. شعر بالحرج فوقف دفعة واحدة.

- أظنك تتهيئين للمغادرة، هل آخذك في طريقي؟

- شكرًا، بيتي قريب من هنا.

وضع الحساب على الطاولة ثم غادر إلى سيارته وبقي جالسًا

داخلها. راحت تراقبه من زاوية عينيها وقد أقلقها انتظاره غير المبرّر، بيد أنها تجاهلت الأمر. نظّفت المكان وغادرت سالكة الطريق إلى البيت، تشعر بنوبة غثيان.

كانت الشمس تميل إلى الغروب وتدهن قبة السماء المغبرّة بلون برتقالي يبعث على الكآبة. شوارع الحي خالية من المارة إلا من قلة تجلس أمام البيوت بسبب الحرّ وتستمع إلى الراديو، أو تراقب الأطفال الذين يلعبون في الأزقة. خليط من الأصوات يتزاحم في فضاء الحي. ضجيج الأطفال مع أصوات الراديو مع أصوات أنثوية تصدر من داخل البيوت، ترتفع وتنخفض. زادت حدّة الصداع في رأسها، وصار وخزُه في جمجمتها منتظمًا مع وقع خطواتها، فأبطأت حتى يخفّ.

خفّ الوخز بالفعل لكنه تحوّل إلى دمدمة مكتومة أكثر إيلامًا. ركل طفل كرة في اتجاهها فأخطأتها، لكن الطفل الراكض خلفها صدمها. ضرب رأسه أسفل بطنها، فشعرت بألم خفيف وتمنّت لو أن الضربة كانت أقوى.

أحد الرجال الجالسين أمام بيوتهم كان يتأمّلها بنظرات لها مغزى من خلف نظارته الرفيعة، وردّ عليها سلامًا لم تلقِه عليه. أصوات أجهزة الراديو كانت موحّدة طوال الطريق بأغنية لمحمود تاور، عدا راديو دكان آدم الغسّال، القريب من بيت رحمة، فقد كان مضبوطًا على إذاعة دينية سعودية. تداخل صوته مع موسيقى محمود تاور وأذان المغرب الذي انطلق من مآذن الحي وهي تقترب من البيت.

انتبهَت إلى صوت سيارة تقترب من الخلف. التفتت ورأت ياسر. خفق قلبها من الخوف، وراحت تتلفّت لئلا تدركهما الأعين. تذكّرت تعليمات رحمة الصارمة التي تحظّر عليهنّ النزول من السيارات الخاصة أو الصعود إليها من أمام البيت. «التاكسيات فقط»، هذه عبارتها. أرخى زجاج النافذة المظلّل وابتسم لها:

– أريد أن أتحدّث إليك، هل يمكن أن ترافقيني في جولة (قثيرة)؟

نظرت إليه غاضبة.

- أعرف أنك عائدة من عملك ولن يأخذ الأمر غير دقائق معدودة!

تجاهلته ودفعت الباب وأغلقته خلفها. سمعت أزيز سيارته وهي تبتعد. دخلت إلى غرفة رحمة واعتصمت بها طوال الليل، ولم تخرج حتى لتناول العشاء معها كما تفعل كل ليلة. فجاءت رحمة مستطلعةً:

- ما بك؟

- رأسي يؤلمني.

رأت رحمة أنها تبدو متعبةً بالفعل، فانسحبَت إلى الخارج بهدوء بعد أن أطفأت نور الغرفة. نامت عرفة لوقت لم تستطع تحديده، بيد أنها أفاقت في العتمة على أنفاس دافئة قريبة من وجهها، وكف باردة تتحسّس جبهتها. تراجع ألم الرأس قليلًا وخلَفه دوار خفيف أضاع جغرافيا الغرفة في ذهنها. كلّما تخيلت أن باب الغرفة من هذه الناحية أو تلك أحست بأن السرير يميد بها. أغمضت عينيها واستسلمت لكفَّي رحمة وهما تمسّدان رأسها وكتفيها ويديها وظهرها، وتنزلقان حتى ساقيها ثم تعيدان الكرة صعودًا ونزولًا.

أراحها ذلك، وأعادتها لحظات الاسترخاء إلى التفكير في الأمر من جديد. هل تخبر رحمة بحملها؟ وإذا أخبرتها، هل ستساعدها؟

انتبهت فجأة إلى أن تمسيدها طال أكثر مما يجب، وأن ضغط كفّيها على جسدها تحوَّل إلى شيء آخر. باتت حركة أصابعها أقرب إلى الارتعاش منها إلى التدليك، وخيل إليها أن أنفاسها مضطربة وآخذة في التصاعد، وراحت أصابعها تقترب من نهديها، ثم تبتعد. صالبت يديها فوق صدرها بحركة لا إرادية. لعل انتباهها كان متأخّرًا أو أن ما تخيّلته لم يكن حقيقيًا، لأن رحمة تركتها عندئذ وذهبت إلى سريرها وخلدت إلى النوم.

(7)

ذهبت عرفة إلي الصيدلية وطلبت أقراصًا للإمساك المزمن. تخيلت علاقة ديناميكية بين الحمل والإمساك.

قالت للصيدلي إنها تعاني من امساك مزمن وتحتاج إلى دواء فعّال. عرض عليها مسحوقًا أصفر له لون الكركم، وأرشدها إلى تناول مقدار ما يملأ راحة يدها عقب كل وجبة، لكنها اشمأزت من لونه وطلبت أقراصًا. عرض عليها حبّات بنية اللون، كبيرة وخشنة الملمس، ونصحها بتناول حبة منها عقب كل وجبة إلى أن تتحسّن حالتها ويختفي الإمساك. شكرته وخرجت.

في الليل، تسلّلت إلى المطبخ، وتناولت خمسًا منها دفعة واحدة، ثم شربت في إثرها ثلاثة أكواب من الماء حتى اطمأنت إلى أنها استقرت حيث تريد وعادت إلى سريرها. تغطّت جيدًا في انتظار أن تفيض أحشاؤها مثلما تخيّلت. كان الجو خانقًا في الخارج، وكثافة الرطوبة تجعل التقاط الأنفاس أمرًا شاقًّا. غسلها عرق غزير تحت اللحاف، وأنهكها دوار يمور في رأسها، وقرقرة وتقلّصات في أسفل بطنها وإمعائها، تزداد حدّة مع الوقت، ورغبة في دخول الحمام.

تحاملت على وجعها وجلست على حافة السرير متّكئة على يديها. راح السرير يميد بها، ووعيها يأتي ويغيب، ولسانها يخطرف بكلام لا تذكر منه شيئًا. كذلك قالت لها رحمة كلامًا مبهمًا ضاع بين الوعي والغياب.

تحاملت على نفسها مرة أخرى وقامت. خطت على أرضية الغرفة خطوتين؟ ثلاثًا؟ أربعًا؟ باتجاه الحمّام، لا تتذكّر العدد لكنها تتذكّر باب

الحمام المضاء وهو يتأرجح أمام ناظرَيها، وتتذكّر بلاط الغرفة البارد تحت قدميها الحافيتين، وصرخة رحمة. سقطت غائبة عن الوعي ولم تفِق إلا في المستشفى على ألم مبرح أسفل بطنها، وعلى صوت رحمة أيضًا.

وجدَتها إلى جوارها بثوبها الأحمر نفسه الذي كانت ترتديه يوم أن صعدت إلى جوارها من طوكر في ذلك اللوري اللعين، وتضع العطر نفسه، وتتحدّث بالطريقة نفسها، هل يبدو الأمر مصادفة؟

- الحمد لله على سلامتك، أنت الآن بخير.

- ماذا جرى؟

قالت بصوت مرتعش. كانت تحت تأثير رغبتين متعاكستين، أن تعرف ما حصل وألّا تعرفه في الوقت نفسه. ابتسمت لها رحمة وربتت على كتفها.

- لا شيء، لقد جاء كل شيء على ملابسك. المهم أنك بخير الآن.

- هل أخبرك الطبيب شيئًا؟

لاذت بالصمت لبرهة، وكان رأسها مطرقًا إلى أرضية الغرفة ثم راحت ترفعه على مهل. تبعت عرفة حركة نظراتها وهي ترتفع من الأرض إلى الكانيولا المثبتة على ظهر يدها، ثم إلى بطنها وصدرها، وأخيرًا إلى وجهها. ابتسمت مرة أخرى حين التقت نظراتهما، وخفق قلب عرفة بغتة حين مالت نحوها لتقول شيئًا.

- تسمم طفيف بسبب جرعة دواء زائدة وراح إلى حال سبيله. نتحدّث في كل شيء عندما نعود إلى البيت وتستردّين عافيتك.

شعرت عرفة بما تشعر به طفلة جامحة بين يدي أمّها. رحمة طيبة، وربما ساعدتها في إنجاز الأمر بطريقة أقل كلفة لو أنها أخبرتها، لكن فات الأوان. زفرت من صدرها وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى. نوبات الألم أسفل بطنها تزداد ضراوة، كأن أحدًا يقطع أحشاءها بسكّين، وبعد برهة من الصمت سمعت صوتها يحمل رنة عتاب.

- كان من الأفضل أن أعرف، أليس كذلك؟
لم تقل شيئًا، فتابعت رحمة وكأنما تعتذر عن شيء ما.
- على كل حال، أخبرتني رائحتك في ذلك اليوم، حين رأيتك أول مرة. صدّقيني، لن أترك السائق هجام ينجو بفعلته!
- لا أريد فضائح يا رحمة. لقد مرق السهم إلى غايته ولا رادّ له!
راحت رحمة تربّت بيدها على رأس عرفة. اشتد الألم فجأة، فشهقت شهقة عالية. كان الألم يشد روحها إلى حلقها، وقد تعرّقت واحتقن وجها، فأمسكتها رحمة من كتفيها وضمتها إليها. رنّت جرس استدعاء الممرّضة وأبلغتها بأن تفعل شيئًا من أجل تخفيف ألمها...
لم يمضِ سوى وقتٍ قليلٍ حتى عادت الممرّضة. طلبت من عرفة أن تستلقي على ظهرها. أفرغتْ حقنة مهدئة في وريدها.
ارتخت قبضة الألم بالتدريج ودهمتها رغبة في النوم فاستسلمت لها. رأت في إغفاءتها صورًا متداخلة لجنود ومركّبات وقافلة جِمال ونيران مشتعلة. أعقبتها صور أخرى لباخرة ومياه خضراء ممتدة بلا نهاية، وشاحنة تمشي فوق الماء محاولة اللحاق بالباخرة. رأت نفسها تسقط عن ظهر الشاحنة إلى أعماق معتمة يتمدّد في قاعها وجه فرتونا مكبرًا عشرات المرات، ثم رأت نفسها جالسة في مسجدٍ خالٍ من الناس، وانتبهت إلى أبيها جالسًا في المحراب، يمرر حبّات مسبحته بين أصابعه. بدا غاضبًا، عاقدًا حاجبيه وهو ينظر ناحيتها. تحوّل الغضب إلى حزن أصفر غسل وجهه كلّه، ثم غام الوجه تمامًا وأشاح عنها. تدلّى من سقف المحراب حبل مشنقة، كما تتدلّى أفعى بغتة. صرخت ملء حنجرتها. شعرت بأن شيئًا دافئًا راح يسيل بين ساقيها حتى بلل سجاد المسجد. وجدت نفسها تقف في وسط الغرفة التي ترقد فيها، والدم يسيل عبر ساقيها حتى صنع بركة من الدم. أفاقت مذعورة ولم تجد شيئًا من ذلك، وكان مقعد رحمة خاليًا. راحت تبكي.

***

قالت رحمة وهي تسندها:

- قولي يارب.

وبينما كانتا تعبران بوابة المستشفى، في طريقهما إلى الخارج. ردّت عرفة:

- المرّات التي ناديته فيها تكفيني العمر كلّه يا رحمة!

فانتفضت رحمة مذعورة.

- لا يا عرفة، لست أنت من يقول ذلك. أنت طيبة ومؤمنة!

لم تعد بها إلى البيت في تلك الليلة، أخذتها في سيارة أجرة حمراء صغيرة وأخبرتها في الطريق أنها ستأخذها إلى مكان آمن، لن ترى فيه أحدًا حتى تضع حملها.

- سأخبر البنات أن إحدى قريباتك أخذتك من المستشفى!

أومأت برأسها موافقة من دون أن تنبس بشيء. استطردت بعد برهة صمت قصيرة.

- صاحبة البيت امرأة شديدة وطيّبة في الآن نفسه. الأمر يتوقّف عليك أنت. الوقت الذي ستقضينه في ضيافتها طويل ولا بد من أن تكوني صبورة!

- ألا يمكنها أن تسقطه؟

- فات الأوان على ذلك يا عرفة!

كانت السيارة تشقّ شوارع المدينة الخالية من المارّة، ويغسلها المطر وتدهنها بروقُه بأضواء زرقاء وبيضاء. ضايقها دخان السجائر الذي كان ينفثه السائق بشرَهٍ. فتحت زجاج نافذتها تعبّ من الهواء البارد المشبع برذاذ المطر.

- لم يحدث أن هطل المطر في أغسطس!

قالت رحمة. فهزّ السائق رأسه ثم قال بنبرة خاشعة:

- «إذا غضب الله من قوم أمطرهم صيفًا».

وعندما أشعل سيجارة أخرى صعدت معدتها إلى حلقها مع رائحة الدخان وتعرّجات الطريق. طلبت منه بلطف ألّا يدخن، فألقى السيجارة عبر النافذة واعتذر. دخلت السيارة أحد الأحياء العشوائية التي تقع في طرف المدينة. وقعت عيناها على لافتة حديد مغروسة على جانب الطريق، ومكتوب عليها بخط جميل «اللجنة الشعبية لحي أم القرى» قرأتها على أضواء البروق المتقطّعة.

عبرت سيارة الأجرة الحمراء أزقة كثيرة ملتوية وتوقّفت أخيرًا أمام بيت طيني. نزلت رحمة وحدها. نقرت على الباب الحديد ثلاث نقرات وانتظرت. فتح الباب. تحدّثت قليلًا مع شخص في العتمة ثم أشارت إلى عرفة أن تترجّل. دخلتا، تتبعان امرأة سوداء نحيلة تحمل مصباحًا في يدها. أخذتهما إلى الصالون ثم جاءت امرأة أخرى، سوداء بدينة، وفي صوتها كرير مثل كرير الناقة. أدركت عرفة على الفور أنها المرأة المقصودة.

- سلّمي على أم البنات يا عرفة!

قالت رحمة وهي تقدمها إليها، ثم تابعت:

- لن أحتاج لأوصّيك بعرفة. إنها أختي، لكنّها وقعت في ورطة!

نظرت المرأة السوداء إلى عرفة نظرة متأنّية فاحصة كادت تخترقها.

- كلّهن يقلن الكلام نفسه!

تحدّثن بعد ذلك عن تقلّبات الطقس، وعن المطر المباغت في آب/ أغسطس، وعن الكهرباء التي وعدت الحكومة مرارًا بتوصيلها إلى هذا الحي النائي ولم تفِ بوعودها. تحدثن أخيرًا عن شروط الإقامة في البيت. كان حديثًا مقتضبًا أنهته أم البنات بصوتها الذكوري قبل أن تهبَّ واقفة، بعناء شديد، لكي تودّع رحمة:

- ما يسري عليهنّ يسري عليها!

بعد حديث قصير هامس مع أم البنات عند الباب ذهبت رحمة. وفي

أثناء ذلك كانت عرفة تتأمّل الفتيل المتراقص للمصباح يرمي أضواءه الشحيحة على أرجاء الصالون، فيتّسع تارة ويضيق تارة أخرى. لم تكن محتويات الصالون تزيد على سرير واحد وأربعة مقاعد مغطاة بقماش أخضر أو أزرق أو ربما نيلي، وتتوسّطها طاولة مستطيلة من الخشب. كانت تسمع همهمات صادرة من الجانب الآخر من البيت، ومواء قطة وصوت راديو بعيد.

«اتبعيني». قالت أم البنات، ثم سارت خلف مساعدتها النحيلة التي تحمل المصباح واضعة ثقل جسدها الضخم على أحد ساقيها مع كل خطوة. عبرت في إثرهما باب الصالون الداخلي المفضي إلى صالة صغيرة معتمة فيها سريران متقابلان، ومن جهة اليسار بابا غرفتين، كان أحدهما موصدًا والآخر مواربًا. كانت تصدر أصوات أنثوية وضحكات خافتة من الغرفة الموارب بابها. أخذتهما مساعدتها نحو الغرفة الموصدة. وضعت المصباح على الطاولة ثم غادرت.

كانت غرفة صغيرة تضم سريرين صغيرين أيضًا وطاولة أصغر في الوسط. سحبت أم البنات جلبابها إلى الأعلى من عند ردفيها لكي تجلس. كانت ضخمة إلى حد أنها كادت تملأ السرير حين جلست وتمدّد فخذاها إلى يمينها ويسارها. بدا لها نصفها العلوي -الأقل ضخامة من نصفها السفلي- كأنه نصف مستعار، ومثبّت بحيلةٍ ما على تلك الكتلة الهائلة من اللحم التي تترجرج فوق السرير. رأت وجهها بوضوح. كانت تشبه آلهة من المطاط، بوجه أسود مستدير، سواده فاحم مصقول مثل حجر الكحل. تتوسّط وجهها عينان شديدتا البياض وأنف أفطس ضخم، يقوم فوق شفتين غليظتين ممتلئتين، ترتعشان حين تتكلّم.

- الخروج ممنوع. الحديث إلى أي من الجيران ممنوع. أنت مسؤولة عن تحضير أكلك وشربك وغسل ملابسك وتنظيف غرفتك والاهتمام بمتعلّقاتك. أنت مسؤولة عن مصير المصيبة التي ستخرج من بطنك في

النهاية! ولن تبقي ساعة واحدة في هذا البيت بعد أن تضعيها. هل هذا واضح؟

أومأت عرفة بالإيجاب. ضيّقت المرأة عينيها الصغيرتين حتى ضاعتا في بحر وجهها المعتم، ثم رفعت كفها الصغيرة أمام وجهها وقالت بصوتها الخشن:

- تأتي بنات كثيرات إلى هذا البيت في مثل حالتك، تبقى بعضهن لساعات وأخريات لأيام أو أسابيع ثم يغادرن، أنصحك بعدم الثرثرة مع أي منهنّ أو العراك أو المزاح المزعج إذا كنت ترغبين في البقاء، فأنا لا أحب الألسنة الطويلة. هل فهمت؟

وأشارت بأصبعيها أمام فمها إشارة المقصّ. ركزت نظراتها في عيني عرفة مليًا، ثم قامت على دفعات مثلما جلست أول مرة. تابعتها بنظراتها الخائفة خطوة خطوة، حتى توارت آخر كتلة من ردفيها الكبيرين خلف مصراع الباب.

بقيت وحدها بعد ذلك، تتأمّل الجدران الطينية العارية. تستمع إلى النقر المنغَّم لحبّات المطر فوق السقف الزنكي المموَّج. تفكّر في ما مضى وما سيأتي مثل سجين يائس، يعيش أيامه الأخيرة قبل أخذه إلى غرفة الإعدام.

***

بعد أربع ليالٍ من إقامتها في بيت أم البنات، رأت الصبيَّتين اللتين كانتا تشغلان الغرفة الأخرى. كانت إحداهنّ تحمل مولودها تحت ثيابها. رأتهما تغادران البيت خلسة، صامتتين وخائفتين إلى حيث لا يدري أحد.

على مدى ليلة ونهار، كانت قد تابعت معركة الولادة الطويلة من غرفتها. كان أمرًا مرعبًا بالنسبة لها، إلى حد أنها لا تستطيع وصفه، أو تخيل تفاصيله من دون شعور بالألم. معايشة الطلق من هذه المسافة

القريبة بدت لها أشبه بهرس زجاج مطحون فوق جسد عار. تحسّست جسدها بيديها. تملّكها شعور مبهم بأنها سوف تموت أثناء الولادة، وراح هذا الشعور يتحوّل إلى ما يشبه اليقين مع مرور الوقت.

زارتها رحمة في المساء حاملة معها بعض الطعام. طلبت عرفة من أم البنات، بحضور رحمة، أن تخلّصها من حملها بحقنة أو دواء، أو حتى عملية مستعجلة أيًا كان ألمها أو ثمنها.

- أبدًا... أبدًا...

قالت وهي تهزّ وجهها الإلهي الضخم، ثم تديره باتجاه العتمة.

أنا أستركنّ حتى تضعن أحمالكنّ وآخذ أجري مقابل ذلك، هذا كل الذي بيننا، وما يسبق ذلك أو يعقبه فلا شأن لي به.

صمتت قليلًا ثم تابعت بنبرة حازمة. «أنا لا أقبل أن تُزهق روح!».

- أي روح؟

- تنفخ الروح في الجنين عندما يبلغ شهره الرابع، ألا تعرفين ذلك أيضًا؟!

ورفعت أصابع كفها الأربعة في وجه عرفة، التي قالت غير مبالية:

- فليكن!

صدرت عنها زمجرة غاضبة. فتراجعت عرفة.

- كما تشائين، كما تشائين.

كانت ترغب في إنهاء الحوار. وبعد أن أنهين العشاء، انتقلت مع رحمة إلى غرفتها. جاءتهما الخالة سكينة بالقهوة وغادرت. حدّثتها مطولًا في تلك الليلة -كما لو كانت تحدّث أمها- عن رعبها مما حدث لتلك الصبية النحيلة في غرفة الولادة، وعن خوفها من الموت أثناء الطلق.

- لا أريد أن أموت في هذا المكان يا رحمة!

قالت رحمة محاولة أن تطمئنها:

- ما من امرأة إلا وتخاف من الطلق، تجلّدي وحسب. لن يحدث إلا الخير!

بدت رحمة شاردة على غير عادتها، وتوارت روحها المرحة خلف وجوم مقلق. سألتها إن كان هناك ما يشغل بالها. أخبرتها بكلمات مقتضبة أنها قلقة على ولدها الذي لا تعرف أين هو، بعد أن ورد اسمه في الصحف ضمن شبكة متطرفين كانت تخطط لتفجير سفارات واغتيال دبلوماسيين.

زارتها بعد ذلك مرتين أو ثلاثًا من دون أن يغادرها ذلك الوجوم، وقد نقص وزنها وأكل وجهها شحوب مقلق، ثم انقطعت عن زيارتها قبل شهرين من الولادة.

لم تحمل لها عرفة في خاطرها أي نوع من العتاب. شغلت نفسها بالمشاركة في أعمال البيت، ومساعدة الخالة سكينة في أعمال التنظيف وغسل الأواني والطبخ ونشر الغسيل، رغم المشقّة التي كانت تجدها في كل ذلك بسبب الحمل وزيادة الوزن، بيد أن ما أبهجها حقًّا كان نظرة الامتنان التي تشعّ في عينيّ الخالة سكينة المطفأتين كلما نظرت إليها.

- عيناك تشبهان عيني أفعى، وتخيفانني أحيانًا، لا سيما في العتمة!

قالت لها ضاحكة ذات مرة، ثم اعتذرت لها بلطفٍ. لم يتعكّر خاطر عرفة من ناحيتها أبدًا. كانت بسيطة وطيبة وتتصرّف على سجيتها. كثيرًا ما جلستا إلى بعضهما بعد انتهاء أعمال البيت، تشربان قهوة أو شايًا وتتبادلان الحديث. علمت منها أنها من نواحي كردفان، وهربت من أهلها في سن الرابعة عشرة لأن أباها قرّر تزويجها إلى رجل أعمى من قريتهم. كان أهله ميسورين وطمع أبوها في المال.

جاءت إلى بورتسودان في تلك السن البعيدة، وعملت فرّاشة في المستشفى حتى التقت بالقابلة حواء، التي هي أم البنات، ولم يفترقا بعد ذلك سوى أربعة أعوام تزوجت خلالها سائقًا كان يعمل في المستشفى.

توفِّى السائق في حادث سير أثناء جولة لتطعيم الأطفال في الريف. لم تنجب منه، لكنها لم تتزوّج بعده. ظلّت وفيّة لحبّه وذكراه، رغم أنها كانت مرغوبة في شبابها مثلما ادعت.

- لم يكن وسيمًا ولا غنيًّا، لكنه كان رجلًا!

قالت وهي ترفع قبضتها إلى الأعلى:

- وما الفرق؟ كلّهم رجال في النهاية!

- إلّا عوض. لقد ذهب إلى أهلي وطلبني منهم كما تقتضي الأصول. وجد أبي وأمي قد أدركتهما حمى التيفوئيد فماتا. جاء بأعمامي وأخوالي وصالحني معهم، وحضروا عرسي.

- رجال كثر يفعلون ذلك يا خالة!

لم تعقب على قولها. كان وجهها مشرقًا بالذكرى، فأكملت:

- كنّا نعود من العمل معًا، فلا يبدّل ثيابه أو يخلد إلى الراحة حتى أنهي عمل البيت ونجلس معًا للغداء. إنه من نوع الرجال النادرين الذين يأكلون الطعام مع زوجاتهم، ويساعدوهنّ في أعمال المطبخ والتنظيف، ويمشون إلى جوارهن في الشارع كتفًا إلى كتف. السنوات القليلة التي عشتها معه هي الوقت الذي شعرت فيه بأنني إنسانة كاملة طوال حياتي كلّها، لذلك لم أتزوج حتى لا يدركني النقص.

قالت عرفة ضاحكة:

- وهل يُنقص الزواج من أحد؟ أليس هو كمال الدين؟

- إن الزوجين كالنهر والشط، كلما زاد أحدهما نقص الآخر!

- وأيهما عوض؟

- مرة يكون نهرًا، ومرة يكون شطًّا!

وضحكت الخالة سكينة حتى بانت لثتها الخضراء الخالية من الأضراس. هكذا كانت عرفة تزجي الوقت هربًا من فكرة الموت أثناء الولادة. بثّت هواجسها للخالة سكينة فدعتها إلى الإكثار من الصلاة

والدعاء وقراءة القرآن. جاءتها بمصحف وسجادة صلاة من السعف وإسدال للصلاة، لكنها لم تتحمّس للأمر.

- لطالما صلّيت ودعيت، سرًّا وجهرًا، في الليل والنهار، فلم يصرف عني مصيبة واحدة من مصائب حياتي الكثيرة، فلِمَ الآن يا خالة؟

- ما للبنت من أحد غير ربّها وأبيها!

- حتى لو أجبرها الأب على الزواج من أعمى، وأخذ الرب منها زوجها في ريعان الشباب؟

نظرت إليها سكينة نظرة حائرة، أقرب إلى الذعر، ثم انصرفت إلى عملها. كانت تنظّف حجرة صغيرة ملحقة بالمطبخ، مليئة بصناديق قديمة وكراكيب مهملة، ومغطاة بطبقة سميكة من التراب. وجدت أثناء تنظيفها مصحفًا قديمًا ملقًى خلف أحد الصناديق، مشبعة أوراقه بالماء والتراب. حملته برفق ثم وضعته على حافة نافذة المطبخ لكي يجفّ.

- مثل هذا الإهمال يجلب الفقر والشياطين. يا رب اغفر لنا!

كأنها صدَقَت. لم يحدث أن أطفأت عرفة المصباح وأغفت إلا وتناوشتها الكوابيس. كثيرًا ما كانت ترى المزارع الأصم، مطبقًا على رقبتها بكلتا يديه القويتين، أو يحمل فأسًا فيهوي بها على رأسها فتستيقظ مذعورة، أو حاملًا السكين الذي قتلته به ويطاردها في صحراء لا نهاية لها. ترى نفسها تركض فوق رمال، تصعد كثيبًا وتنزل من آخر. مرة واحدة رأت المجاهد الذي ضربت مؤخّرة رأسه بالفأس يدلق على جسدها العاري ماء حارًّا ثم يعلّقها على حبل مشنقة ويسحبها من طرفها الآخر إلى الأسفل، ومرّات كثيرة ترى نفسها تسقط في بئر لا قرار لها، وتسمع جلبة أصوات كتلك التي كانت تسمعها في معسكرات الأسر في وادي العقيق.

ظل نومها متقطعًا، لا سيما في الليل، فراحت تعوّضه بنوم ساعات قليلة خلال النهار. شكت الحال إلى الخالة سكينة ورجتها أن تنام

إلى جوارها في الغرفة، بيد أنها رفضت خوفًا من أم البنات. قالت إنها الشياطين، وعادت إلى نصحها بالصلاة وتلاوة القرآن ليحفظها الله، لكنها تجاهلت مجدّدًا نصائحها.

مرّت أشهر الصيف الطويلة على ذلك النحو، وظلّت تحسب الأيام التي تبقت على ولادتها. تراقب بطنها وهي تكبر أمامها يومًا بعد آخر، وتراقب جسدها الذي أذعن لحكم الطبيعة. تقوَّس ظهرُها إلى الداخل، وانفرجت ساقاها المتورمتان إلى الخارج وازداد وزنها أكثر مما ينبغي. انقطع حبل الغثيان وانقطعت معه حموضة المعدة المريرة التي كان لها في حلقها طعم اليأس، لكن ازداد ألم أسفل البطن حِدّة، وراحت ركلات الجنين القوية توقظها من النوم.

أرسلت لها رحمة بعض المال، ومعه رسالة تبلغها بأنها غادرت إلى الخرطوم في شأن يخصّ ابنها أيمن، ولا تعرف إن كانت ستعود قريبًا أم لا. تمنّت لها السلامة وتمام العافية، بيد أنها أبلغتها في رسالتها ألّا تعود إلى البيت قبل أن تكلّمها عبر الهاتف. كان رقم هاتفها الجوّال مدوَّنًا على الورقة التي لفت فيها الأوراق النقدية.

طلبت عرفة من الخالة سكينة أن تشتري لها أقمطة وحفاضات وملابس شتوية ثقيلة للطفل الذي في الطريق. أعطتها نصف ما لديها من المال، واحتفظت بالباقي.

(8)

كرّت أيام الأسر في معسكر تقدرا، يومًا في إثر يوم. تضاءل الأمل في الخلاص.

- الإرتريون لا يحبون الأسئلة، بل تضايقهم. الأفضل التزام الصمت حتى لا يطول أسركنّ!

أسرّ لي ضابط سوداني التقيته في ساعة الاستراحة. بدا لي أن الضباط والمقاتلين السودانيين على قلّتهم، مثلنا نحن الأسرى، لا يعلمون الكثير عما يدور حولهم «الأمر كله بيد الإرتريين»، جميعهم يقولون الكلام نفسه. سُمح لنا بساعات استراحة إضافية خلال النهار بشرط ألا نحاول الهرب، كما سمح لنا بالتجوال في بعض أرجاء المعسكر، عدا المنطقة التي يسمّونها مخازن السلاح، وهي عبارة عن ثلاث خيم كبيرة تقع ناحية الجنوب، وأنا قلبي معلّق بتلك الجهة، ويخافها في الوقت نفسه. أما الليل فكان لصلوات الأم الحزينة وتسبيحها الذي لا ينقطع. نشاركها أحيانًا، وننام عندما نتعب أو يصيبنا الملل.

أدهشتنا المهارة التي كانوا ينجزون بها العمل في حفر الخنادق وتشييد المتاريس والكهوف وتدريب الجنود. أما قدرة المجنَّدات الإرتريات على القيام بأعمال شاقّة كالحفر ونقل الحجارة وتكسيرها، فهي الأكثر إثارة للعجب، فضلًا عن مهامهنّ الأخرى في الطبابة وجمع الحطب والطهو ونقل الماء في ذلك الحرّ القائظ.

ظللنا على هذه الحال أشهر الصيف كلّها برياحها العاتية وغبارها الأصفر الثقيل. رياح الهبباي. وهي رياح موسمية تبدأ من أوئل حزيران/

يونيو وتنتهي عند مطلع أيلول/ سبتمبر. طوال هذه المدة لم يكلمنا أحد أو نُستدعى لتحقيق، لنعرف مصيرنا ومصير أبي وبقية الرجال.

تزوِّدنا مجندة صلعاء بالشاي والخبز صباحًا ومساء، وبينهما وجبة من خبز الإنجيرا الحمراء مع العدس المطبوخ بالماء والبصل، وأحيانًا مع الفاصوليا البيضاء أو مرق البصل، تحملها إلينا مجنّدة بدينة تتحدّث اللهجة السودانية بطلاقة. أخبرتنا أنها عاشت طفولتها وجزءًا من صباها في السودان. كانت تشاركنا الغداء أحيانًا وتتبسَّط في الحديث معنا. سألناها عن وضعنا. قالت إن الأمر كله بيد الكولونيل قرقيس قائد المعسكر، ثم استدركت:

- لكن من الخير ألّا تسألن كثيرًا، فسعادة العقيد لا ينسى شيئًا ولا يهمل شيئًا ولا يحب أن يُسأل.

- نريد أن نخرج من هنا ونواصل رحلتنا، هل نحن سجينات أم رهائن أم ماذا؟ وبأي تهمة؟ وأين الرجال الذين كانوا معنا؟

سألتها الأم الحزينة غاضبة. فنظرت إليها المجنّدة البدينة نظرة ذعر:

- أنت وبَنَاتُك تحت حمايتنا يا أمي، فلا تقلقي.

- لست قلقة ولا أريد حماية من أحد ولم أطلبها، لماذا جئتم بنا إلى هنا ولماذا تحتجزوننا؟

تسبّب احتجاج الأم الحزينة في غياب المجنّدة البدينة عن خيمتنا لأيام. كان اسمها سليماويت. عندما قابلتها مصادفة في الساحة خلال وقت الاستراحة اعتذرت منها. فقالت:

- الأمر لا يتعلّق بغضب الأم، ولا يستوجب الاعتذار. انشغلت ببعض المهمات وسأزوركنّ قريبًا.

بعد يومين جاءتنا بالغداء، وتحدّثت معنا بلطف. وفي اليوم التالي أخذتنا إلى مكتب أحد الضباط الإرتريين. وقد أخبرتنا في الطريق أننا سنقابل الملازم أبراهام، وهو -كما قالت- شاب لطيف يتحدّث العربية،

ويمكننا التفاهم معه إذا ما أحسنّا طريقة عرضنا لمشكلتنا. نصحتنا بالوضوح والإيجاز.

مكتب الملازم عبارة عن سقيفة من الحصير والأخشاب تتوسّطها طاولة صغيرة ومقعد، وفي أحد أركانها خزانة صغيرة ترتفع بقامة رجل أو أطول قليلًا، فيما يتوارى جزء آخر من المكان خلف ستارة ثقيلة لا يبين ما وراءها. لعلّه مكان نومه في الليل.

ألقت المجنّدة التحيّة وقدمتنا للملازم بكلمات مقتضبة وخرجت. نظر إلينا نظرة خاطفة، ثم واصل تقليب بعض الأوراق التي أمامه، متجاهلًا وجودنا. كان نحيلًا ومتوسط القامة، تبين في تقاطيع وجهه الطويل وسامة لا تخطئها العين، لا سيما في الأنف العربي المستقيم والعينين الناعستين وبشرته الذهبية المشربة بسمرة خفيفة.

ظلّ على تلك الحال بعضًا من الوقت. نهض باتجاه الخزانة بعد أن رتّب أوراقه وثبّتها إلى بعضها بمشبك عريض ثم ربطها بخيط أحمر متصالب. وضعها بعناية داخل أحد تجاويف الخزانة العلوية، ثم استلّ ملفًّا آخر مربوط بالطريقة ذاتها وباللون نفسه. عاد به إلى الطاولة وظلّ يقلبه، ويدوّن هوامش على بعض أوراقه، ويعبئ أخرى حتى ظننا أنه نسينا. تعبت الأم الحزينة من طول الوقوف أو أنها قرّرت المواجهة. سحبت المقعد الوحيد الموجود أمام طاولته جلست عليه من دون تردّد. وسألته:

– ما مصيرنا يا ابن العم؟ لقد أمضينا ساعة حتى الآن ولم يفتح الله عليك بشيء!

نظر إليها نظرة فارغة، سرعان ما ألحقها بابتسامة ماكرة وهو ينحّي ملف الأوراق جانبًا:

– لقد انتهى كل شيء يا أمي. ستغادرن في أول شاحنة متّجهة نحو الشمال.

- وأين ذهبت الشاحنة التي كنّا عليها، والرجال الذين كانوا برفقتنا؟

ساد صمت قصير وهو يتأمل وجوهنا نحن الواقفات. تجاهل حديثها حين رأى التطابق في الشبه بين التوأم آمنة وأمينة، ووجد في ذلك مناسبة لتوجيه الحديث إلينا.

- هل أنتن أخوات؟

- لا. هما فقط.

أجبت، فنظر إليَّ متمليًا مني حتى خجلت وخفضت بصري إلى الأرض.

- وهل هذه أمك؟

- بل أمهما.

- وما الذي جمعك بهنّ؟

- الطريق.

- وحدك؟

- كنت برفقة أبي. أخذوه ورجالًا آخرين وطفلًا، ولا نعرف مصيرهم حتى الآن.

- ما اسمه؟

- عثمان إبراهيم صابراي.

اتسعت حدقتا عينيه قليلًا عند سماعه الاسم لكنه لم يقل شيئًا. تجاوزني إلى التوأم وأخذ يتحدّث إليهما ويستجوبهما بطريقة بدت أقرب إلى الملاطفة منها إلى التحقيق. سألهما عن بلدهما ودراستهما واحتمال زواجهما، وأبدى أسفًا مصطنعًا حين علم بموت أبيهما بسبب غارة حكومية.

انتبه فجأة إلى أن آمنة هي من تتولّى الحديث دائمًا. حتى حين يسأل أمينة فهي التي تبادر إلى الحديث. ألحّ على أمينة في الكلام. تدخّلت الأم الحزينة وأخبرته أنها خرساء، ولا تزال تعاني من صدمة موت أبيها،

وأنهنّ كنّ في الطريق إلى بورتسودان لعلاجها. أبدى أسفًا جديدًا، بدا مصطنعًا أيضًا، ثم قال.

- ريثما نجد شاحنة يمكن أن تحملكنّ إلى بورتسودان، قد نحتاج إلى مساعدتكنّ في بعض الأعمال. تعرفن أن المعسكر جديد وكبير وتنقصه أشياء كثيرة، وأظننا...

قطع حديثه منصتًا. تناهى إلينا صوت أزيز بعيد. اقترب الصوت على نحو مباغت، ورجَّ الأرجاء من حولنا رجًّا، فصرخ:

- انبطحن على الأرض!

ولما تأخّرت الأم الحزينة دفعها من فوق الكرسي وانبطح معها ريثما عبرت الطائرة وابتعد صوتها. صرخت أمينة، وراحت أطرافها تتشنّج. تمدّدت في رقدتها مثل حطبة جافة. جلست الأم وأخذتها في حجرها وراحت تهدّئ من روعها وتتلو عليها شيئًا من القرآن. تراخت أطرافها بالتدريج وسكنت. أمرنا الضابط -من دون أن تفارق عينيه نظرات الذعر إلى أمينة- بالبقاء هادئات. استل جهازًا لاسلكيًا من حزام بنطاله. وضعه على فمه واتجه ناحية الباب.

- مضادات الطائرات. استعداد. حوِّل.

اقتربت الطائرة من جديد عابرة سماء المعسكر. أعقبها صوت دوي ثم أصوات نيران أرضية متلاحقة، صرخت أمينة مرة أخرى متشبّثة برقبة أمها، وأنشبت فيها أظفارها حتى أدمتها. ابتعد صوت الطائرة بعد لحظات وتلاشى. وظلّت أمينة ترتعد وتموء مثل قطة مذعورة.

عادت إلينا المجنّدة سليماويت واقتادتنا إلى خيمتنا. طلبت منا ألا نغادرها إلا لضرورة قصوى، ونبّهتنا أن نستلقي على الأرض في حال حدوث غارة مماثلة، أو النزول إلى الخندق إذا كنا في الخارج.

قامت الأم الحزينة إلى الصلاة، وصلّينا معها إلا أمينة، فقد انكمشت على نفسها وسط الحصيرة. كانت ترتعش مثل المقرورة ثم راحت

تغمغم بكلام غير مفهوم. استعاذت الأم من الشيطان وأخذتها في حضنها وراحت تقرأ عليها شيئًا من القرآن حتى استسلمت للنوم.

عادت إلينا سليماويت تحمل طبقًا من الإنجيرا وعليه قطع من اللحم والأرز للمرة الأولى. وقالت:

- سأتغدّى معكنّ اليوم.

وضعت الطبق على الأرض وجلست مثلما نجلس للصلاة. ألقت نظرة على أمينة وأضافت:

- كانت رياح الهبباي تمنع تحليق الطائرات فوقنا، لكننا سنعيش هذا الرعب طوال الشتاء!

ندت عن أمينة آهة طويلة، فقالت سليماويت.

- الصدمة لا تعالجها إلا صدمة مثلها. غارة أو غارتان أخريان ستعيدها إلى حالتها الأولى!

***

في الصباح التالي جاءتنا مجنّدة أخرى بالإفطار. كانت سوداء نحيلة، ويظهر تحت حنكها الأيسر ما يشبه أثر جرح قديم أو طلقة. وضعت الإفطار على الأرض وذهبت، ثم عادت قبل أن نكمل إفطارنا وألقت إلينا بأربعة أكياس شفافة، في داخل كل منها طقم ملابس أخضر وحذاء من البلاستيك. وقالت بلهجة آمرة:

- سأعود إليكنّ بعد قليل وأرجو أن تكنّ مستعدات.

همّت الأم الحزينة بقول شيء لكنّها ألجمتها بإشارة من يدها. كان الأمر صعبًا على أمينة، مع أنها لم تكن تبدي مقاومة في مثل هذه الحالات إلا نادرًا، بل تفعل كل ما تفعله توأمها آمنة باستسلام تام. ونحن قررنا أن نعاملها كما نعامل بعضنا بعضًا، لعل ذلك يعيدها إلى سويتها. ارتدينا الملابس والأحذية كيفما اتفق، وفعلت أمينة مثلنا. وانطلقنا خلف المجنّدة من دون أن نسأل.

انتهى بنا المسير إلى الخندق. ثمة خيمة مؤقتة تقوم على طرفه الجنوبي، وإلى جوارها تجمّع كبير للجنود، يحيط بحفّارة صغيرة تشبه عقرب الصحراء، تتحرّك بين خطين مرسومين على الأرض بالجير الأبيض ممتدين إلى الجبل الآخر في أقصى الغرب. ترفع شوكتها الحادّة نحو السماء ثم تغرسها بين الخطين وتعود رافعة التراب خارجهما حتى تبتلعها الحفرة فلا يبين منها إلا شوكتها الطويلة في حركتها الصاعدة والنازلة. ما إن تفرغ العقرب العملاقة من تجهيز العمق المطلوب في جسم الخندق حتى تتقدّم إلى الأمام، فينزل خلفها بعض الجنود، ويساعدهم آخرون بمناولة قطع مشذّبة من حجارة الجبل، مكوَّمة إلى جانبي الحفرة. يباشر آخرون بتجهيز خليط الرمل والإسمنت والماء، ليستمر بناء الجدران الداخلية للخندق كأنهم ينوون البقاء إلى الأبد.

تحدّثت المجنّدة إلى المشرف الجالس في الخيمة لبعض الوقت، ثم أشارت إلينا أن نتبعها. تقدمتنا في الاتجاه المعاكس لسير الحفّارة، بمحاذاة الخندق. نظرت إليّ الأم الحزينة نظرة مستفهمة، غاضبة، ثم هرولت بجسدها المترهّل خلف المجنَّدة وأمسكتها من كتفها، وسألتها:

- إلى أين تأخذيننا؟

أزاحت المجنّدة يد الأم عن كتفها بضيق واضح.

- نحتاج إلى مساعدتكن في بعض الأعمال، هذا كل ما في الأمر.

- ألم يُطلق سراحنا؟ ألسنا على أهبّة السفر؟

- صحيح، وهذا العمل مؤقت ولا يمنع سفركنّ بأي حال!

- وما العمل الذي سنؤديه؟ لسنا مدرّبات حتى نؤدي أعمالًا عسكرية، ولسنا مجنّدات لنقوم بالأعمال الشاقة.

استدارت المجنّدة مواصلة سيرها.

- ستعرفن كل شيء بعد قليل، لا داعي للعجلة.

تبعناها حتى بلغنا الجهة الشرقية من الجبل. صرنا الآن في مواجهة

الشمس التي ترسل أشعتها مثل سياط حارقة على ظهور الرجال العارية. نظرة واحدة إلى ما حولنا كانت كفيلة لنعرف أي نوع من العمل ينتظرنا.

مجنّدون ومجندات في سراويل قصيرة إلى منتصف الفخذين، وصدور شبه عارية تلمع تحت وهج الشمس. كانوا ينقلون صخورًا كبيرة، ويجتهدون في تكسيرها بمعاول بدائية ويعاونهم بعض المدنيين لا أعرف من أين جيء بهم. سلمتنا المجندة إلى مشرف العمل في الموقع وغادرت.

إنه مقلع يشبه فوهة المنجم. أخبرنا المشرف، ذو الظهر الأحدب، أن عملنا سيكون بسيطًا. تفتيت الحجارة وتشذيبها، ثم تحميلها على الشاحنات الرابضة في الأسفل لتنقلها إلى حيث يحتاجونها، ثم أشار إلينا لنتبعه. سار بين تجمعات المجندات المنهمكات في تكسير الحجارة وطحنها واختار لنا مكانًا كيفما اتفق وطلب منا أن نجلس.

اقتربت منا المجنَّدة المسؤولة عن المكان وألقت إلينا بمعدات التكسير. قالت إن اسمها هيلين، ثم راحت تشرح لنا الطريقة المثلى لتقسيم الحجر الكبير إلى حجارة أصغر، وتشذيب الصغرى إلى أشكال قابلة للاستخدام. أما عند الخطأ في تكسير الحجر فإنه يتحوّل مباشرة إلى مسار آخر إذ يُطحن إلى قطع أصغر في حجم عقدة الأصبع، وهي عقوبة من يقع في الأخطاء. جلسنا نستمع إلى إرشاداتها مثل التلاميذ.

- أي نظام ناجح في هذا الكون لديه طريقة لتصحيح أخطائه، لأنه إذا تركها من دون علاج يمكن أن تفسد النظام كله.

وضعت الحجر المكعّب فوق أحجار أخرى متباينة الأشكال والأحجام وكأنها تتعمّد أن تلفت انتباهنا لنفهم ما قصدته.

- الاختلاف ليس عيبًا لأي نظام، لكن ينبغي أن يكون محدّدًا سلفًا من قبل النظام نفسه، واختلافاته مضبوطة كمًّا ومقدارًا، وإلا فإن النظام يعاني من خلل واضح. إذ لا بد له أن يتوقّع كل شيء، وأن يصنع هذا التوقّع أيضًا إذا لزم الأمر.

كان من الصعب علينا أن نفهم ما تقوله. مالت عليّ الأم الحزينة:

- ماذا كانت تقول؟

- إنها تشرح لنا طريقة تكسير الحجارة!

- لعلّ كلامها هو الذي يحتاج إلى التكسير، وأما الحجارة فتكسيرها سهل!

في الأثناء جاء مجنّدون يحملون حجارة من أعلى المقلع، ووضعوا أمام كل واحدة منا نصيبها. حجر في حجم بطيخة كبيرة.

- عليكنّ تقسيم كل حجر إلى قسمين متساويين ثم تشذيبه!

قالت المجندة قبل أن تغادرنا إلى مجموعة أخرى. نظرنا إلى بعضنا ثم رحنا نفحص معدات عملنا. أزاميل ومطارق مختلفة الأحجام. توقّعنا أن ننجز العمل في وقت يسير بحسب تعليمات المجنّدة هيلين.

- تتم عملية التكسير بتقسيم الحجر إلى قسمين متساويين في كل مرحلة، فتصبح جميع الأجزاء في الحجم الذي يريده النظام.

وبما أننا كنّا إزاء مرحلة واحدة من التكسير تحمَّسنا لإنهاء العمل في وقت قصير، لكننا سرعان ما اكتشفنا خطأ ذلك التصور. تمكّنت كل منا، وبعد جهدٍ مضنٍ استمر حتى موعد استراحة الغداء، من فتح شقٍّ صغير في حجم الأصبع تقريبًا، وعندما مالت الشمس نحو المغيب كانت أصابعنا تؤلمنا، وانتفخ باطن أيدينا بسائل تحت الجلد ولم يكبر الشق إلا بمقدار أصبع آخر في الحجارة الثلاثة. تركت الأم الحزينة حَجَرها كما هو، وقضت يومها كلّه تطرق حجر ابنتها أمينة.

(9)

في ليلة باردة، من ليالي كانون الثاني/ يناير، ستذكرها عرفة دائمًا كلّما حل هذا الشهر، جاءت لحظة المخاض التي أرعبتها طويلًا، وسلبتها السكينة خلال شهور الحمل. تألّمت كثيرًا لكنها لم تمت.

في الليلة السابقة لولادتها رأت أباها في المنام، غاضبًا، ويلومها على هجرانه. ورأت نفسها تعتذر منه، متعلّلة بانشغالها بنفسها، فيهزّ رأسه أسفًا ثم يدير ظهره لها ويكبّر للصلاة. تراه بعد ذلك مادًّا إليها كفَّيْه، مملوءتين بحليب أبيض ويقول لها: ماذا أنجبت؟ فتقول: أنجبت ولدًا. يشرق وجهه، ثم يقول: إشربي... اشربي واسقيه، قبل أن تنضب الرحمة. وقد استيقظت مملوءة بالخوف، وبالحنين إليه.

جاء الطلق في منتصف الليل، وانتهى مع بزوغ الفجر. عبرت عرفة فوق ظلّ الموت الثقيل مثلما يعبر الإنسان نهرًا مليئًا بالتماسيح لكنه ينجو بأعجوبة. لقد كان مخاضها عبورًا إلى شطٍ لم تتخيّل نفسها فيه قط. سمعت صراخ الطفلة، وبدا لها مثل رنين أجراس بعيدة، غامضة.

لا تذكر الآن كيف أكملت أم البنات ومعاوِنتها الخالة سكينة عملهما بين ساقيها. كانت روحها معلّقة بذلك النداء العجيب. نظرت في وجه الصغيرة وتأمّلت عينيها المغمضتين في سلامهما الأبدي وأذنيها الملتصقتين برأسها. لمست برفق أصابعها الصغيرة الغضَّة وضمَّتها داخل كفّها. تذكّرت أمها في تلك اللحظة وبكت. اختلط بكاؤها بصوت مناغاتها.

- أرضعيها.

قالت لها الخالة سكينة وهي تلملم الآثار وتغادر. قرّبت الصغيرة من صدرها ثم ألقمتها الثدي الأيمن مستلقية إلى جوارها ومتوسدة يدها. اسمتها مريم، على اسم أمها. أغمضت عينيها لبرهة تفكّر في نفسها بعد أن غادرها شبح الموت بحضوره الثقيل.

قفز إلى ذهنها السؤال الذي لم تفكّر به قط، ما هي الخطوة التالية؟ وأخذها الجواب، بل الأجوبة الكثيرة التي خطرت لها إلى حدود الخطر. حاصرتها في النهاية فكرة وحيدة لم تستطع تجنّب التفكير فيها طوال ذلك اليوم. كانت الخالة سكينة قد أخبرتها أن أم البنات لا تمانع في بقائها بعد الولادة الوقت الذي تشاء.

- إنها تسدي إليك معروفًا لم تسدِهِ لأحدٍ من قبل، ولا بد أن تشكريها!

لم تختبر صدق الخالة سكينة بشأن ما قالت، ولم تتحدّث مع أي منهما بعد الولادة. لزمت غرفتها في انتظار الليل، حيث يمكنها تنفيذ ما عزمت عليه. بيد أنها، كلّما فكّرت في التفاصيل شعرت بانقباض في معدتها، وصار هواء الغرفة ثقيلًا وعصيًّا على الدخول إلى رئتيها. هل يبدو ذلك صائبًا أم إنه جنون آخر؟ تجنّبت النظر في وجه مريم لكي لا تغيّر رأيها ولاذت بالسقف والحوائط، إذا جاعت أرضعتها، وإذا نامت أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى، تنتحب.

في الوقت المحدّد، تسلّلت إلى المطبخ وأكلت شيئًا، ثم جهزت بعض ما تحتاجه للرحلة المجهولة. كانت الثالثة فجرًا. تخفّت وخرجت من باب الدار تحمل مريم الصغيرة بين ذراعيها، وحقيبة كتف صغيرة تحمل فيها قليلًا من ملابسها.

لم يغِب عنها أنها غريبة على الحي، لا تعرف جغرافيته ولا مداخله ومخارجه، وفوق ذلك كان البرد قارسًا والعتمة شديدة، حالكة، والرؤية في حدّها الأدنى. تجاسرت على خوفها واقتحمت العتمة. تعثّرت في الرمل مرات كثيرة، وتناوشتها كلاب الحي. راحت تسير بحذر شديد،

وتتبع الشوارع الفسيحة، والخالية من نباح الكلاب ومواء القطط، حتى خرجت من الحي كلّه.

لا تزال، كلّما طافت بخاطرها تفاصيل تلك الليلة تتعجّب! ما الذي دفعها إلى حماقة الخروج في تلك العتمة الموحشة رغم أن أم البنات ما كانت تمانع في مغادرتها وقتما تشاء؟

عبرت أخيرًا شارعًا اسفلتيًا يقوم خلفه حي آخر أكثر تنظيمًا، وتشع فّي طرقاته وخلف نوافذه أنوار الكهرباء. قالت في نفسها، سأتركها أمانة عند أهل هذا الحي، لا أعرفهم ولا يعرفونني لكننا جميعًا بشر.

ارتفع أذان الفجر فوق المآذن. بكت الصغيرة، وبكت هي أيضًا. جلست على مصطبة أمام أحد البيوت وأرضعتها رضعة طويلة مشبِعة، لعلها تكون الأخيرة ثم تبعت أضواء مئذنة بعيدة تقوم فوق هامات المنازل، حتى بلغتها.

تخيّرت مخبأً بين سيارتين مركونتين قرب بعضهما تراقب بوابة المسجد الذي لا سور له. لم يكن توافد المصلّين قد بدأ. رأت عند الزاوية التي تقوم عليها المئذنة سياجًا صغيرًا من الطوب يرتفع عن الأرض بمتر واحد أو أقل. يبدو حمًى آمنًا من الكلاب الضالة. ثم خطر لها أنه بعيد عن مدخل المسجد ولن يراها المصلّون في خروجهم أو دخولهم.

فكّرت في وضعها عند الباب لكنها خشيت عليها من البرد. بعد تفكير طويل خطر لها أن تفتح باب المسجد وتضعها في الداخل وتهرب. خشيت أن يراها المؤذن أو أي شخص آخر قد يكون موجودًا داخل المسجد فيقبض عليها. قرّرت أخيرًا أن تضعها قرب الباب، وسيراها أول داخل إلى المسجد فيحسن إلى الطفلة وإلى أمها، وربما يأخذها إلى الداخل أو إلى بيته. ضمَّتها إلى صدرها وقبّلتها قبلة الوداع وغرزت أنفها في عنقها وصدرها تتشمّمها وتبكي.

خطر لها خاطر عابر أن تلغي الخطة كلّها، وتواجه معها منذ الآن هذه الحياة بكل مصاعبها. هل تبدو فكرة صائبة يا مريم؟ سألتها. ضمتها إلى صدرها، ثم راحت تقول لها بصوت هامس، من يضمن لنا أن المواجهة ستكون عادلة يا ابنتي؟ إذا كنت قد عانيتُ وحيدة فما بالنا معًا؟ ثم ما ذنبك إذا عرفت ذات يوم أن أمك زانية وقاتلة؟ طردت ذلك الخاطر سريعًا، وألقمتها ثديها كنوع من الاعتذار.

همّت بالوقوف لكي تضعها حيث استقر رأيها لكنها رأت ثلاثة من المصلّين يتقدّمون نحو المسجد، وشعرت في الوقت نفسه بألم شديد بين فخذيها وبشيء دافئ يبلّلهما. إنه جرح الولادة. لم ينقطع توافد المصلّين حتى أقيمت الصلاة واستمرّ توافدهم بعد ذلك بوتيرة أقلّ. كانوا يأتون مجموعات وفرادى.

خلا فناء المسجد، وكذلك الطرق المؤدّية إليه من المصلّين. حملتها بين ذراعيها، وتقدّمت بها نحو الباب بخطوات مرتبكة. وضعتها برفق في تجويف صغير يتوسط إحدى قائمتي الباب البارزتين إلى الخارج لكي لا ينهشها البرد. وضعت إلى جوارها كومة من أحذية المصلين. حشرت بعض المال الذي كانت ادخرته داخل قماطها واحتفظت بالباقي لوجهتها التالية التي لا تعلم إلى أين. ودّعتها بقبلة أخيرة وأدارت لها ظهرها، تخنقها غصّة. ما إن ابتعدت خطوات قليلة حتى بدأت الصغيرة في البكاء. لم تستطع تحمّل صراخها فعادت وحملتها من جديد. هدهتها قليلًا لتسكت. قبّلتها مرات، ثم وضعتها في مكانها برفق، وابتعدت مسافة أكبر هذه المرة، بيد أن خطواتها التي أرادت لها أن تكون واسعة وسريعة، كانت ثقيلة وغير متوازنة، أشبه بمن يمشي على الماء.

خُيل إليها من جديد أنها تبكي وتردّدت صرخاتها في أذنيها. همّت بالعودة مرة أخرى لكن الصلاة انقضت ورأت المصلّين يخرجون من المسجد. توارت خلف عمود كهرباء يقوم على ناصية الشارع، وراحت

تراقبهم. تحلّقوا حولها، وتناهى إليها لغطهم. ابتعدت تمزّقها الحسرة وقلة الحيلة. راحت تقول لنفسها:

«لا بد أنهم لعنوني، لا بد أنهم وصفوني بالساقطة، ولا بد أنهم قالوا كلامًا كثيرًا عن بنات الحرام اللائي يستجبن لشهوات الشيطان، ثم يلقين ثمار سفاحهنّ في الطرقات. لكنهم لن يلعنوا أبدًا أولاد الحرام الذين أجبروها واغتصبوها. لن يدور في خلدهم أبدًا أن أمها امرأة مغلوبة، وأن اللقيطة التي يقلّبونها بين أيديهم الآن إنما هي ثمرة لهزائم كثيرة خاضتها أمّها مرغمة. إنها مثلكم أيها الآباء المؤمنون، حائرة ومصدومة. إنها تسامحكم الآن على كل ما يمكن أن تقولوه في حقّها أو تفكّروا فيه، وستسامحكم حقًّا إذا اعتنيتم بقطعة اللحم التي تركتها بين أيديكم».

(10)

أشرقت الشمس، ساطعة ودافئة، واتسعت الطرقات الرملية الضيّقة، وتباعدت البيوت عن بعضها البعض. راحت عرفة تتأمّل بيوت الحي. أغلبها من الأسمنت المسلح، ويدل على يسر أهلها النسبي وسِعة أرزاقهم بالمقارنة مع الحي الطيني الذي أمضت فيه الشهور الماضية.

ركبت حافلة متّجهة إلى سوق المدينة، والسوق يسميه السودانيون «قدح النبي» يأكل منه الجميع ويسترزق. لعلي أجد رزقي مثلهم، قالت لنفسها. لكن من أين ستبدأ؟ تذكّرت رحمة، وتذكّرت طاولة الشاي خاصّتها، لكنها نسيت رقم هاتفها في بيت أم البنات. طافت بخاطرها أشياء كثيرة، رحلتها الطويلة التي قطعتها، بدءًا من بيتها في عقيق تحت زخّ الرصاص وانتهاءً بهذا التشرّد الجديد، المجلّل بالعار والندم. شعرت بالقهر وأخفت وجهها داخل طرحتها السوداء، تغالب ألمها في صمت.

طوال الطريق إلى السوق أبقت عينيها في العتمة، خلف طرحتها التي بلون الندم. غدت العتمة مسرحًا لتزاحم الوجوه والأحداث. وجوه كثيرة التقتها، وأخرى انتهت لقاءاتها معها بمآسٍ لا تحبّ أن تسترجعها في خاطرها أبدًا. فالناس الذين تحبهم لا تصادفهم مرة أخرى في الواقع، لكنها تراهم في مثل هذا التداعي. هذا يحدث دائمًا.

عبر في العتمة وجه الأم الحزينة وكذلك وجها ابنتيها الطيبتين، وفرتونا النحيلة، ووجه أمها، بخدّيها الممتلئين وعينيها الخضراوين الجذّابتين. حقيبة الكاروات الحمراء خاصّتها، خلف باب مغلق. فستان ليمونيّ معلّق على الجدار. أحذية لامعة وساعة سيكو ذهبية. عبر بخاطرها وجه آخَر جميل وعذب هو وجه ماثيو، وآخر أشبه بتمثال الصخر كان وجه

أبيها. تزاحمت بعد ذلك وجوه كثيرة، وجه البنت المسكينة التي اغتصبها المجاهد في الغابة، وجه المزارع البشع، وجه تيتو وعصابته الحقيرة، وجه سعاد، وجه ياسر الوسيم. انحسر نهر الوجوه عن ذكرى يتيمة قفزت إلى ذهنها بلا وجوه ولا ملامح مؤكّدة. عمَّتها بركة وأبناؤها الذين يعيشون في هذه المدينة من قبل أن تولد. لم تتعرّف إليهم قط ولا تعرف عنوانًا لهم، هل تذهب للبحث عنهم؟

نزلت مع ركاب كثيرين في محطة الحافلات الرئيسية بقلب السوق، وراحت تتلفّت حولها مثل سجين خرج بعد طول أمد. أخذتها حيرتها في جولة بطيئة بلا هدف. تأمّلت خلالها وجوه السابلة، والمحال والباعة والمشترين وسائقي المركبات والتاكسيات وعربات الكارو والشحاذين والمجانين، وغمرتها روائح التوابل والعطور والأسماك والخبز وأبخرة السيارات وأدخنة المقاهي. جرفتها أنهار البشر في حركتها حتى شعرت بأنها جزء أصيل في المشهد وليست طارئةً عليه. قطرة في سيوله المتدفِّقة في ممرّاته وأزقّته. تضاءل إحساسها بالغربة والوحدة لبرهة، وزاد شعورها بالأمان.

زاد الألم الناشب بين فخذيها، وأفسدت مزاجها لزوجة الدم التي تشعر بها. صدرها ثقيل، ويؤلمها من فرط امتلائه بالحليب، ماذا تفعل فيه أيضًا؟ لا بد أن مريم جائعة الآن وتبكي. جلست على مصطبة في مدخل إحدى البنايات القديمة التي تعجّ بحركة الناس. متاجر كثيرة مفتوحة حول مكان جلوسها، وتتوزّع في الممرّات ماكينات الخياطين وطبليّات السجائر ومواقد بائعات الشاي.

بائعة شاي في مرمى نظرها الآن. رملية اللون، نحيلة، ذات عينين ضيقتين مع حَوَلٍ خفيفٍ يضفي على وجهها جمالًا له منطقه الخاص. كانت تشملها بنظراتها كلّما أدارتها في المكان. خطر لها أن هذه البائعة تعرفها وإلا فما سرّ اهتمامها؟ استعرضت في ذهنها كلّ الوجوه التي عرفتها في بيت رحمة ولم تتذكّر وجهها. وجه مثل هذا ما كانت لتنساه لو أنها رأته من قبل، ورغم ذلك ارتابت في نظراتها وبدت لها ذات مغزى.

تبادلا نظرات كثيرة، لكنها لم تتطوّر إلى شيء آخر. كانت عرفة جائعة وتشعر بالبرد. فكّرت في أن تطلب منها كوبًا من الشاي أو قطعًا من الزلابية الذهبية المكوَّمة أمامها في شكل هرم، بيد أنها حسبت في سرّها ما بقي لديها من نقودٍ. إنه لا يكفي لشيء، فصرفت النظر عن الأمر.

ابتسمَت لها البائعة فجأة فابتسمْت عرفة. أشارت بيدها إشارة سريعة ملغّزة لم تفهم مغزاها، وضعت سكّرًا في كوب شاي ثم ابتسمَت مرة أخرى وهي تأخذ نصف استدارة في اتجاه موقدها لتفتح غطاء غلاية الماء وتنظر إلى درجة غليان الماء. كان البخار شحيحًا، لم يصل إلى الحدِّ الذي تريده، فأعادت الغطاء إلى مكانه. نظرت إليها عرفة مستفهمة فلم ترد.

انشغلت البائعة بزبونين جلسا قريبًا منها وطلبا قهوة، وانشغلت هي عنها بما تعانيه من ألم بين فخذيها. تلفّتت حولها ولم تجِد ما يدل على وجود حمّامات قريبة. رأت رجالًا يتوضأون أمام المحلات من أباريق بلاستيك استعدادًا لصلاة الظهر، وانتبهت إلى أن أحدهم يخرج بإبريق من مدخل مبنى مقابل. هل يوجد حمّام هناك؟ هل هو للرجال فقط أم يمكنها دخوله؟ قرّرت أن تذهب إلى هناك وتلقي نظرة.

وجدتها أمامها فجأة تحمل في يدٍ صينية صغيرة عليها كوب شاي وبعض الزلابية، وقد رشت فوقها سكرًا مطحونًا، وفي اليد الأخرى طاولة بلاستيك صغيرة. وضعتها أمامها ثم قالت وهي تنحني لتضع عليها ما جاءت به.

– هذا لك!

– لكنني لم أطلب شيئًا.

– لا بأس، حالتنا واحدة.

– هل يوجد حمّام هنا؟

سألت بصوت هامس خجول، وظنّت أنها لم تسمعها لأنها لم ترد. أكلت وشربت على مهل كأنها دفعت ثمنها. فكرة البحث عن حمّام تسيطر على كيانها، أي حمّام ولو كان للرجال. صدرها وما بين فخذيها كلّه مبتّل، ماذا تفعل؟ هل تسألها مجدّدًا؟ نظرت حولها. ثمة قصاصات متناثرة تحت

أرجل وماكينات الخياطين، وعلى طول الجدار الممتد خلف ظهورهم وحول مكان جلوسها. أوحى لها ذلك بفكرة. ارتفع أذان الظهر في المآذن، والتحق أغلب الرجال بصلاة جماعة أقيمت على عجل في أحد ممرات المبنى المقابل وامتدت حتى بلغت منتصف الطريق. جمعت بعضًا من تلك القصاصات وتظاهرت بتأملها وتنسيقها بين يديها. جاءت لتأخذ آنيتها من أمامها، فسألتها والخجل يقطع كلماتها:

- هل يوجد حمّام هنا. إنه وقت دورتي!

- انتظري قليلًا.

أخرجت من درج طاولتها مفتاحًا صغيرًا وجاءتها به. أشارت لها ناحية اليمين.

- تجدين بابًا صغيرًا بين دكان التمباك والبقالة، يأخذك إلى ممر ضيق ينتهي بحمّام إلى جهة اليمين، بابه أخضر، وهذا مفتاحه!

شكرتها بنظرة امتنان.

- توجد فتحة تهوية في أعلى الجدار، تجدين فيها كيسًا أسود، ربما تحتاجين إلى ما بداخله.

شكرتها مرة أخرى بكلمات متلعثمةٍ لكنها محمّلة بالامتنان. قالت إن اسمها طيبة. أما هي فلم تقل لها اسمها، بل سارت في الاتجاه الذي وصفته.

كان حمّامًا صغيرًا وضيقًا لا يتسع لمد ذراعها في أي اتجاه. يضم مقعدًا أرضيًا وصنبور ماء وإبريقًا أزرق جديدًا، بيد أن سقفه بعيد وتقوم فوق بابه الخشبي الأخضر فتحة عرضها نحو شبر واحد. أغلقته من الداخل ثم رفعت يدها إلى فتحة التهوية، كان الكيس الأسود هناك، مثلما أخبرتها. وجدت داخله قطنًا وفوَطًا صحية وصابونة عطرية زهرية اللون وعلبة فازيلين ومشطًا وفرشاة ومعجون أسنان، وكذلك علبة أمواس صغيرة.

تحسّست الجرح بيدها. كان وربة جانبية صغيرة لكنها لا تزال طرية لم تلتئم بعد. وضعت عليها شيئًا من القطن المبلّل بالفازيلين، لعلّه يمنع تدفق الدم من جديد. كانت محاولة يائسة أكثر منها فكرة مؤكّدة. في الأثناء راحت تستحلب ثدييها لتتخلّص من الحليب الذي يضايقها. كان كثيفًا ومائلًا إلى

الصفرة. غسلت بين فخذيها بالماء ثم وضعت فوطة حيث يجب أن توضع، وأعادت كل شيء إلى مكانه وخرجت مبتهجة.

***

جاءها الليل وهي تتسكّع خائفة في أزقة السوق وطرقاته الخالية من المارة والسيارات. أغلقت معظم المحال وأطفأت أنوارها وبدأت الدنيا تميل إلى العتمة. كان البرد شديدًا. رأت أطفالًا مشرّدين، يتصارع بعضهم على بقايا أطعمة بجوار مطعم، وبعضهم الآخر يحتلّ أزقّة السوق المظلمة يستنشق قطع الأقمشة المبلّلة بالبنزين، وأكثرهم متكوم على بعضه يتّقي البرد. أخرجها خوفها من الأزقّة المعتمة ووضعها على طريق طويلة مضاءة تنتهي إلى شاطئ البحر. رأت على جانبيها مسجدًا كبيرًا ومبنًى حكوميًا يرفرف فوقه علم مهترئ، منصوب منذ الأزل فوق عمود ضخم تزيّنه ساعة عتيقة. رأت كنيسة بيضاء تشعّ بالأنوار وينتصب فوقها برجان. رأت بنوكًا وصيدلية مضاءة من الداخل، ومطعمًا للأسماك ذكّرها بجوعها، ومبنًى غامضًا يحرسه جنود.

لا زحام في الكورنيش المطلّ على مرابط الميناء سوى بعض السمّار المتفرقين هنا وهناك بين الضوء والعتمة. البواخر الضخمة نفسها التي رأت مثلها من نافذة التاكسي برفقة رحمة، تربض إلى جوار الرصيف مثل جبل. تبعت طريق الكورنيش الملتفّ حتى أعادها إلى السوق من جهة أخرى. كان اكتشافًا سعدت له لبعض الوقت قبل أن تبدّد تلك السعادة دوريات الشرطة التي تجوب شوارع السوق الخالية. تجنّبت السير في الطرق الرئيسية لكي لا تقع في أيديهم، بيد أن حظّها العاثر كان يدّخر لها ورطة لم تحسب حسابها.

خرجت من أحد الأزقة المعتمة على شارع فرعي شحيح الإضاءة وقريب من سوق الخضار الذي رأته في الصباح. كانت تفكّر في النوم تحت إحدى طاولات الخضار الخشب، المتراصّة إلى جوار بعضها مثل بيوت عقيق، وتفكّر في طريقة تسكت بها جوعها. بلغت نهاية الزقاق وانعطفت إلى اليمين، وإذا بدورية شرطة عند الزاوية تمامًا. توقّفت فجأة وبان عليها الارتباك. رأوها، ولم يكن لها سبيل إلى التراجع أو الهرب. كانوا أربعة يقودهم ضابط يجلس

في مقدمة الشاحنة المكشوفة يدخن سيجارة. نظر إليها الضابط بعين فاحصة ثم سألها عن سبب خروجها إلى الشارع في هذا الوقت.

- أعمل خادمة في بيت قريب من هنا، وأرسلوني أشتري خبزًا!

نظر إلى ساعته ثم نظر إليها.

- أي بيت؟

ارتبكت وأشارت إلى جهة خلفها. أخرج رأسه من النافذة.

- بيت من؟ أنا أعرف كل من يسكن هنا!

تلعثمت: بيت عثمان... نعم الحاج عثمان.

- أين يعمل؟

- في الميناء.

صمت قليلًا ثم سألها متشكِّكًا: مؤكد أنك تعرفين البيت؟

هزت رأسها بالإيجاب بعد صمت أيضًا.

- سنوصلك في طريقنا، ما رأيك؟

- المكان قريب، لا أرى داعيًا لذلك.

- قرّرت أن تركبي معنا. انتهى الأمر!

تعمّدت إظهار الثبات. تقدّمت نحو الشاحنة وصعدت. قالت في نفسها هؤلاء العسكر قوم أعرفهم، وأعرف حيلهم. ماذا سيحدث في النهاية؟ على الأقل سأجد مكانًا أبيت فيه إذا اكتشفوا أنني كذبت عليهم. عَبَرَ طيف المشنقة سريعًا بخاطرها. جزعت لكن لا سبيل إلى التراجع. صعدت في الخلف، وأخلى لها الشرطي الجالس في الزاوية القريبة من السائق مكانه لكي تتمكّن من إرشاده إلى البيت.

تحرّكت الشاحنة. هبّت ريح خفيفة باردة وتساقط رذاذ. تمسّكت جيدًا بالزاوية القائمة خلف كابينة القيادة. انحنت قليلًا في اتجاه السائق عندما اقترب من نهاية الشارع وطلبت منه بثقة أن ينعطف إلى اليمين، ثم تركته يسير لبعض الوقت ثم طلبت أن ينعطف إلى اليسار، ثم إلى اليمين، فإلى اليسار داخل أزقة ضيقة مظلمة.

لفت نظرها بيت رمادي مكوَّن من طابقين، له شرفتان في الأعلى مزينتان بالورود وتتدلّى من فوق سوره القصير شجرة جهنمية. كان بابه الكبير مفتوحًا، وتظهر سيارة حمراء في فنائه الصغير المرصّع بقطع الرخام الملون. أوقفتهم على مسافة بيتين تقريبًا، وقالت بثقة:

- ذاك هو البيت.

نزل الضابط إلى الأرض وأشعل سيجارة ونفث دخانها نحو الأعلى وهو يتأمّل السماء الداكنة وتساقط حبّات المطر على كتفيه وملابسه. لم يعلّق على ما قالت، بدا مأخوذًا بتأمل البروق البعيدة التي تلمع بين وقت وآخر. كان في مزاج جيد. نظر إليها لبرهة ثم أدار بصره باتجاه البيت، حيث ظهرت الخادمة وهي تغلق إحدى مصراعي الباب وتنظر إليهم. أشار لعرفة بيده، إشارة متعجرفة، لكي تنصرف. وقال متهكمًا:

- بلغي سلامي إلى الكاهن المبجَّل!

تقدّمت باتجاه البيت. كانت الخادمة تهم بإغلاق مصراعي البوابة لكنها لما رأت عرفة تتقدّم نحوها واربت المصراع الآخر ووقفت تنظر إليها. كان المطر قد بدأ يشتد، فقلت:

- أسألك بالله ألا ترديني، فقط حتى ينصرفوا!

أزاحت المصراع بحذر وأفسحت لها، فانصرفت شاحنة الشرطة. سحبت عرفة نفسًا عميقًا، بينما راحت الخادمة تتأمّل هيئتها نصف المبلّلة ووجهها الشاحب الجدير بالازدراء. نظرَت إلى الأعلى، في اتجاه الشرفتين، كانت الأنوار مطفأة، ثم نظرت حولها وأغلقت البوابة. تقدّمتها بخطوات سريعة متحفّزة، وتبعتها عرفة من دون تردّد. عبرتا الفناء المبلّط بقطع الرخام المكسور ثم دخلتا زقاقًا معتمًا يقود إلى الفناء الخلفي للمنزل، حيث تقبع غرفة صغيرة وحيدة كانت غرفتها.

رسمت إشارة الصليب على صدرها بمجرد أن أضاءت النور وظهرت صورة العذراء وهي تحتضن المسيح على الجدار إلى جوار النافذة. كانت غرفة صغيرة، تتّسع لسرير واحد تحت صورة العذراء وطاولة ركنية مملوءة

بالكتب المدرسية والدفاتر والأقلام، لكنها مصفوفة بنظام. يقوم فوق الطاولة صليب فضّيّ كبير معلّق في ركن الغرفة تمامًا وإلى اليسار خزانة ملابس بارتفاع كتف عرفة.

أخرجَت من تحت السرير مرتبة إسفنج رفيعة. فرشتها في المساحة الصغيرة المتبقية من الغرفة ثم اتجهت نحو الخزانة وأخرجت منها لحافًا رمادي اللون ووضعته فوق الفرش الذي أعدته لها. وقالت بعربية ركيكة:

- اسمي سارا، ويمكنك أن تنامي هنا الليلة!

كانت مسيحية من إرتريا، مثل فرتونا. أنِست لها. سمراء نحيلة، طويلة العظام وصغيرة الوجه، تبدو على ملامحها سَكينة عميقة وطيبة مسيحية.

- يستيقظ (أبونا) عند السادسة، ويجب أن تغادري قبل ذلك، أرجو ألّا تورّطيني!

قالت كلماتها ثم أطفأت النور، لكنّها سرعان ما عادت وأشعلته. فتحت باب الغرفة من جديد، وطلبت منها أن تتبعها إلى الخارج.

- ذاك هو الحمّام. إن كنت تحتاجينه الآن فيجب أن تسرعي، لأنني أريد أن أنام.

كان حمّامًا صغيرًا يحتل الركن القصي من الفناء، يفصل بينه وبين الغرفة حائط طويل، يتوسطه باب صغير ويقوم تحت الحائط حوض زهور رفيع ينم عن ذوق. عادتا سريعًا إلى الغرفة لأن هطول المطر يشتدّ. كانت خجلى من كرَمها، لكن لم تجد مفرًا من سؤالها عن فوطة صحية وعمّا إذا كان لديها مطهّر للجروح. لم تفهمها في البداية لكن مع استخدام الإشارات فهمت ما تريد. فتحت الخزانة ومدّت إليها فوطة وبيجامة زرقاء داكنة ومرهمًا أصفر في حجم الأصبع، مجعّدًا وبلا غطاء، وليس فيه سوى القليل. شكرتها بابتسامة عريضة ثم ذهبت إلى الحمّام.

حلبت ثدييها الثقيلين جيدًا، وتفقدت ذلك السر الكبير الذي يختبيء بين فخذيها. بدا لها منتفخًا وملتهبًا. كان الماء دافئًا، فاستحمّت جيدًا ثم وضعت قليلًا من المرهم الأصفر على الجرح الملتهب وعادت لتنام.

(11)

أمضينا نحو ستة شهور في العمل المضني في مقالع الحجارة، كان معها الأمل في الحرّية ينعدم. دُرّبنا في جميع أقسام المقلع، إذ اقتضى النظام قضاء نحو أسبوعين في كلّ قسم، إلى أن ثبَّتنا المشرف ذو الظهر الأحدب في القسم الذي يقوم بتكسير الحجارة الهشّة، أو تلك التي تم تكسيرها بطرق خاطئة إلى قطع صغيرة جدًا ومن ثمّ تعبئتها في جوالات وتحميلها على شاحنة تكون رابضة بالجوار دائمًا. إنه القسم الذي يقوم بتصحيح أخطاء النظام وفق ما تعلّمنا في اليوم الأول.

ولكي نقوم بذلك على الوجه الأكمل، تحتّم علينا أن نقضي نهارنا كلّه وسط غبار الحجارة وضجيج تكسيرها، وعناء الطرْق والانحناء والنقل والتحميل على الشاحنات، ونعود بعد مغيب الشمس بأجساد ممزَّقة، ثم نطبق أجفاننا المحمرّة التي أكلها الغبار، بصعوبة.

اكتشفنا وجود عدد آخر من الأسرى، من الرجال والنساء. بعضهم يشغل خيامًا في الناحية الشرقية من الجبل، وآخرون نراهم فقط في مقالع الحجارة ثم يأخذونهم إلى معسكر آخر يبعد مسيرة ساعة بالشاحنة كما أخبرونا. أحيا ذلك أملي في العثور على أبي، ورحت أسأل خلسة كل من أصادفه خلال نوبات العمل وكل من ينضم إلينا من الأسرى الجدد، لكن لم أعثر على رأس خيط مفيد.

في الأسبوع الأخير من الشهر السادس أصيبت الأم الحزينة بحمّى فلزمت الخيمة، ومُنحت آمنة إجازة مؤقتة عن العمل لتبقى إلى جوار أمّها، وتحتم عليّ أن أقوم بعملٍ مضاعفٍ، خاصّة وأن أمينة الصامتة التي

كانت تصحبني إلى المقالع لا تساعدني إلا بالشيء القليل. والأسوأ من ذلك أن أحدًا من المشرفين الجدد لم يكن يصدّق حكاية أمينة فيتعمد القسوة عليها، وأضطر بين وقت وآخر إلى حمايتها وإلى تحمّل الكثير من الإهانات في سبيل ذلك.

أبلغنا المشرف ذات ظهيرة بوقف العمل في المقلع من بعد استراحة الغداء. ثم أخبرتنا إحدى المجنّدات الإرتريات ونحن في طريق العودة إلى خيامنا أن غدًا يصادف الرابع والعشرين من مايو، وهو عيد استقلال دولتهم، وتحريرها من الاستعمار الأثيوبي. ستقام الليلة حفلة للجنود بهذه المناسبة العظيمة، وقد مُنح الجميع راحة من العمل لكي يتمكّنوا من المشاركة في الحفلة، ثم أضافت بحماسة.

- اليوم التالي هو عطلة رسمية في أي مكان يتواجد فيه جنود من جيش التحرير الإرتري، عدا المكلّفين بنوبات الحراسة والتأمين، وما إلى ذلك من الأعمال التي لا ينبغي أن تتوقّف تحت أي ظرف.

اشتعل المعسكر بالضجيج والغناء من بعد مغيب الشمس، ورأيت من شق باب الخيمة خليطًا من الجنود الإرتريين والسودانيين يطوفون ويرقصون حول فرقة الموسيقى في وسط الساحة. أبهجني المشهد النادر.

كان جسد الأم الحزينة مسجّى على الأرض، يلتهب بالحمّى. تحلّقنا حوله نضع الأقمشة المبلّلة على رأسها وبطنها وأطرافها حتى تجفّ ثم نغرقها في سطل الماء ونعيد الكرة. هرولت إلى خيمة الطبيب فلم أجده، وبحثت عنه وسط تجمّع المحتفلين في الساحة حتى اهتديت إليه بصعوبة، ورجوته أن يلقي عليها نظرة. راح يطمئنني بطريقة بدت لي سخيفة، ولما ألححت عليه تهكّم مني أمام جمع من الجنود:

- كان جنودنا يقاتلون وهم ينزفون، يقاتلون وهم يتألّذمون، ثم يموتون وأيديهم على الزناد ولم يكونوا مثل زوجها الخرع! بعض الإسهال لن يقتلها.

كان ثملًا.

- دعيها. لن تموت بسبب ألم عابر في بطنها. إذا لم تمت حتى الصباح سأتكفّل بذلك.

عدت إلى الخيمة وأنا أفكر في ما قاله الطبيب الثمل. حديثه ذكّرني بشجار جرى بين الأم الحزينة وإحدى المجنّدات خلال أيامنا الأولى. غضبت الأم الحزينة على إثره غضبًا حقيقيًا، قام فجأة كالإعصار ثم كاد أن يتحوّل إلى شيء آخر.

كانت المجنّدة تتحدّث عن بسالة مقاتلي الجبهة الشعبية الإرترية، وكيف أنهم خاضوا حربًا شرسة ضد من كانت تسميهم بالخونة ومقاتلي القبائل أكثر من حربها ضد المحتل الأثيوبي. استعرضت خلال سردها عن الحرب الأهلية بين فصائل التحرير أسماء بعضهم، ولا أعرف أي اسم هو الذي أثار حفيظة الأم الحزينة فخرجت عن طورها، وتحدّثت بعبارات من اللغة التغرينية التي لا أفهمها ولم أكن أتخيّل أنها تعرفها، لكنها سرعان ما تداركت ذلك بقصة ملفقة عن التوائم الذين يتحوّلون إلى قطط في الليل وحوّلت مسار الحديث.

وصلت إلى الخيمة، ووجدت الأم الحزينة ممسكة ببطنها وتتلوّى على الأرض من شدّة الألم، وتتقيّأ سائلًا أصفر كريه الرائحة، حتى انقضى من الليل أكثره وتلاشت أصوات الحفلة في الخارج وسكنت الدنيا. قلت لآمنة، لا يمكننا أن نبقى في عجزنا هكذا. أيّدتني، لكن لم تقدّم حلًّا. خطرت لي فكرة فعزمت على تنفيذها فورًا. طلبت منها أن تبقى إلى جوار أمّها وشقيقتها النائمة حتى أعود.

توجهت مباشرة نحو خيمة الملازم أبراهام. لا أعرف ما الذي دفع به إلى ذهني في تلك الساعة المنحوسة لكنه خطر لي من دون تفكير. وقفتُ لبرهة أمام باب خيمته قبل أن أطرق. سمعته يتحدّث بجمل قصيرة متباعدة، وتريثت لأعرف إن كان معه أحد. استجمعت شجاعتي

وطرقت طرقًا خفيفًا.

- من هناك؟

لزمْت الصمت، فكرّر النداء مرة أخرى وثالثة حتى قلت بصوت واهن.

- أنا حياة. من خيمة السجينات.

مرت برهة من الصمت قبل أن أسمع ضحكته، ثم أصوات خطواته على الأرض وبقية من أغنية سمعتها خلال الحفل ولعلها لا تزال عالقة بلسانه.

- وووووووه ناصنّت... وووووه ناصنّت...

فتح الباب، واستقبلني بصدر عارٍ ومسدسٍ في يده اليسرى! تراجع خطوات إلى الوراء من دون أن تفارق عبارات الترحيب لسانه الثمل. صافحني، ثم أمسك بكفي وأبقاها داخل كفه. حاولت تخليصها وفشلت. أخبرته بجمل مرتبكة بأننا نحتاج إلى طبيب.

- الطبيب موجود، وأنا موجود، والله نفسه موجود.

- أعرف سيدي لكنه رفض أن يراها.

- لا لا، لن يرفض، لن يرفض. ادخلي الآن وسأستدعيه أمامك وإذا رفض سأطلق النار على رأسه فورًا!

قال بلسان ثقيل موجِّهًا مسدسه إلى رأسه. جرّني إلى الداخل وأغلق الباب. شعرت بألم ممض في معدتي، وباغتني ذلك الحدس المبهم بالخطر.

- أتركني، وإلا صرخت وجمعت عليك المعسكر كلّه.

ضحك ساخرًا.

- أصرخي. اصرخي بحرّية، فهذا هو يوم الحرية، وعيناك خضراوان مثل غصنَي زيتون!

صرخت. ناديت على آمنة وعلى أمها وسليماويت وكل من جاء اسمه

على لساني. ناديت على ابي يائسة، وقفزت إلى ذهني عبارته المنجّية من الضيق، ورحت أرددها: «إن ربي لطيف لمّا يشاء» عشرات المرات سرًّا وجهرًا، وأكثرت من الاستغفار.

- هل تصلّين؟

- ...

- صلّي من أجلي أيضًا!

كانت الستارة المسدلة خلف مكتبه مفتوحة، ورأيت على ضوء الشمعة الباهت سريرًا وملابس معلّقة على الحائط وبندقية ورفًّا صغيرًا للكتب. «إن ربي لطيف لما يشاء «، زاد الألم في معدتي. سرت في جسدي رعشة من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ. قلبي يخفق بعنف، يكاد يشق صدري. «إن ربي لطيف لما يشاء»، أطلق ضحكة. اقترب مني. شعرت بأنفاسه على وجهي اقشعر بدني ووقف شعر جلدي مثل المسامير. «إن ربي لطيف لما يشاء»، حاول لمس صدري فدفعته بكل قوّتي حتى سقط على المكتب. انتهزت الفرصة وحاولت الهرب، بيد أني لم أتمكن من فتح الباب في الوقت المناسب. طوّقني من الخلف بكلتا يديه ورفعني إلى الأعلى. طوَّحت ساقاي في الهواء. «إن ربي لطيف لما يشاء». ألقاني على السرير واستباح جسدي.

مكتبة
t.me/t_pdf

(12)

بعد أسابيع من التشرّد، والنوم تحت طاولات الخضار ومداخل الأبنية، والتردّد في بعض الليالي على غرفة الخادمة الإرترية سارا، وجدت لها طيبة عملًا، ومأوى مؤقتًا لدى محامية ينادونها الأستاذة بثينة. سوداء قصيرة وبدينة كانت. بدانتها أقرب إلى الاستدارة. يقع مكتبها في الطابق الثالث من المبنى ذاته، حيث تبيع طيبة الشاي والزلابية، وتئز ماكينات الخياطين ويصيح الباعة الجوالون الذين تطاردهم دوريات البلدية في الغالب.

تصعد الأستاذة إلى مكتبها عبر درج أسمنتي معتم. تستريح ست مرات قبل أن تبلغ مكتبها متعرّقة ولاهثة تفوح منها رائحة مثل رائحة الحديد، وتقسم كل يوم أنها ستنقل مكتبها إلى بناية أخرى ولا تفعل.

المكتب مكوَّن من غرفة استقبال صغيرة ومكتب ومطبخ وحمام. تقوم عرفة بتنظيفه في الصباح ثم تعِدّ الشاي والقهوة للأستاذة، وتتفرّغ بعد ذلك لتلبية طلباتها وطلبات ضيوفها وزبائنها. تغادر الأستاذة المكتب بين الواحدة والثانية ظهرًا، وتبقى فيه عرفة بعد ذلك بقاءً مشروطًا، كان مقدَّرًا له ألّا يستمر أكثر من شهر لكنه استمر.

سمحت لها باستخدام غرفة الاستقبال كمكان مؤقت للنوم ريثما تكمل الشهر الأول في العمل وتقبض راتبها الذي حدّدته بثلاثين ألف دينار، تحسم منه مبلغ عشرة آلاف دينار ثمن المأوى الذي تنام فيه. اشترطت عليها كذلك ألا تستقبل أحدًا في المكتب في أي وقت، وأن تعوّضها عن أي تلف يحدث. لم تكن أيٌّ من تلك الشروط محل مجادلة بالنسبة لعرفة، ولو أنها اشترطت أن تعمل فقط مقابل المأوى لما تردّدت.

بين الثانية ظهرًا والسادسة مساء تكون مع طيبة، ولا تصعد إلى المكتب إلا

لأمر مهم. تأكلان معًا، تتحدّثان، تساعد طيبة في عملها، وترافقها أحيانًا إلى السوق لشراء أغراضها، وتودعها آخر النهار عند محطة المواصلات العامة.

لم يخب ظنّها فيها، كانت طيبة اسمًا على مسمّى ومرحة أيضًا. بيد أن عرفة حزنت كثيرًا عندما علمت أن زوجها في السجن، وينتظر تنفيذ حكم بالإعدام. قتل صديقه بعد أن استدرجه إلى جلسة سُكر. كان صديقه القتيل على علاقة حميمة بأخته التي حبلت منه. أخته ذاتها خافت من الموت وهربت، والله وحده يعلم أين هي الآن.

ترك لها الزوج القاتل توأمًا تقوم عليها تربيتهما من بيع الشاي. سامح وسماح، لم ترهما بعد، لكنها أخبرتها أنهما في التاسعة من العمر ويذهبان إلى المدرسة، ولا يعرفان شيئًا عن الأب المختفي، ولا عن طبيعة عملها. ظلّت تقول لهما إنه مقيم في السعودية وسيعود قريبًا، وتخطط لأن تقول لهما إنه مات في حادث سير حين ينفّذون فيه حكم الإعدام.

قالت لها في أحد أيام السبت، وهما في طريقهما إلى السجن للزيارة:

- عندما يكبران سيعرفان الحقيقة وربما يسامحاني. الأمر متروك لتقديرهما.

كانت عرفة تسمع حديثها بأذنيها فقط، لأن عقلها كان يفكر في أمر آخر. في السجن وفي حبل المشنقة. مرت سريعًا وجوه من قتلتهم أمام عين خيالها. وسألت كأنها تحاكي نفسها:

- هل يعدمون كل من قتل نفسًا؟

تنظر إليها طيبة باستغراب، وتقول:

- نعم، كل من ثبت أنه قتل متعمّدًا!

- وكيف يتأكّدون من ذلك؟

- لديهم طرائقهم.

وتعود إلى نفسها، وتذكر جميع من قتلتهم وكيف قتلتهم، وتذكر إلى أين تأخذها خطواتها الآن. لولا إلحاح طيبة لما تجرّأت على زيارة مكان كهذا. أخفت جزءًا من وجهها خلف طرحتها.

- ما بك؟

- لا أحب مخافر الشرطة ولا أحب رجال البوليس ولا منظر السجون.

ووافقتها طيبة بهزّة من رأسها وتلثّمت مثلها. يبهجها ذلك فتميل عليها وتلكزها بمرفقها لتطرد هواجسها.

- أما زلت تحبينه؟

تصمت لبرهة، كأنما السؤال لم يخطر لها قبل هذا.

- صلاح أب أولادي، ولن أستطيع النظر إلى سامح وسماح من دون التفكير فيه.

تصمت لبرهة ثم تستدرك:

- ليته لم يكن بتلك الحماقة!

راحت تروي لها حكاية قتله لصديقه بصوت مجروح. وكيف كان زوجها ميّالًا إلى العنف عندما يشرب، وكان يضربها لأتفه الأسباب. عرفت كذلك أن صلتها بأهل زوجها انقطعت بعد سجنه، ورفضت محاولات أهله لمساعدتها في تربية ولديها، رغم أن الناس في هذا البلد يتضامنون مع الضعفاء في أوقات المصائب. جميعهم، كما أخبرتها، ظلّوا يعتقدون أن صلاح فعل الصواب، وثأر لشرفهم جميعًا، عداها هي وأخته الأصغر التي تدرس في الجامعة. هي الوحيدة التي بقيت على صلة بها وتزورها لتطمئن على الولدين بين وقت وآخر.

دخلت عرفة معها إلى قاعة الزيارة، تقدِّم رجلًا وتؤخِّر أخرى. تعرف طيبة شرطي البوابة ذَا الشارب الأسطوري. اكتشفت عرفة أنها تعرفه أيضًا، وتعرفه المدينة كلّها بسبب شاربه الخديوي المميز، المسنَّن والمعقوف إلى الأعلى من جانبيه. رأته يشرب القهوة عندها مرتين أو ثلاثًا بلباس مدني. ستخبرها طيبة لاحقًا أنها تساعده ببعض المال، وبالمقابل يساعدها في معرفة أخبار زوجها السجين، وينقل إليه الأخبار التي تحبّ هي أن تصله عن ولديه، ويحمل إليه مالًا وطعامًا وسجائر. إنها طريقة الكثيرين في الالتفاف على القانون في البلد.

جلسا في الانتظار، في حجرة رمادية طويلة، مليئة بصفَّين من المقاعد الخشب المتقابلة، حيث يجلس الزائرون والسجناء يتحدّثون بأصوات هامسة، ويتراجع السجّانون إلى حدود الحوائط والأبواب. جلستا في مواجهة الباب تترقّبان مجيئه. مر الوقت ثقيلًا، من دون أن يفارق خاطر عرفة طيف المشنقة. صرخ السجان بصوتٍ أفزعها:

- السجين صلاح أحمد سالم.

ابتسمت طيبة وبدا عليها الارتباك. دخل من الباب يرافقه سجانان، في موكب من قعقعة السلاسل التي تتدلّى من معصميه حتى كاحليه فيمشي بصعوبة. شعرت عرفة بألم ممضّ في معدتها. تماسكت. إنه أسمر، فارع الطول. مسح المكان بنظرة شاملة ثم استقرّت نظراته عليهما. تقدّم بخطوات وئيدة حتى بلغهما. انسحب السجانان إلى الحائط بينما راح صلاح يلملم أطراف السلسلة الطويلة التي تقرقع حتى يجلس بارتياح. رفع رأسه ونظر إليهما.

- عرفة، صديقتي الجديدة، تعمل في مكتب للمحاماة!

قالت وهي تُخرِجُ علبة سجائر من نوع برنجي من حقيبتها ثم تضع سيجارة في فمه وتشعلها. ارتخت عضلات وجهه المتوتّرة قليلًا وهو يحاول أن يبتسم في وجه عرفة، ثم ضايقه الدخان الذي لامس عينيه. رفع كلتا يديه ليضع السيجارة بين أصبعيه. قرقعت السلاسل من جديد، فقالت طيبة:

- نحفتَ كثيرًا، هل تأكل وتنام جيّدًا؟

- شهيتي ضعيفة ولا أنام إلا لمامًا.

نظرت إليه بذعر.

- لا بد أن تبقى قويًا يا حبيبي، المحامية تعمل ما في وسعها لكي تنقض الحكم وتخفّف العقوبة.

- ما كتبه الله سيكون. كيف حال التوأم؟

تأمّلته عرفة وهو مائلٌ بجسده كله إلى الأمام يستمع إلى حديث طيبة. إنه وسيم، وسامة تقرب من الفتنة. فمه صغير جدًا، لكنه بدا لها مثيرًا،

ويمكن التهامه كله في قبلة واحدة إذا خرجت الأمور عن السيطرة. يحرس وجهه أنف حربيّ مستقيم، يذكّر شموخه بنبلٍ عائليٍّ غابر. عيناه واسعتان، جميلتان، لا تشبهان عيني قاتل. يقوم فوقهما حاجبان غزيران مستقيمان، تحت جبهة سمراء مسطحة، واضحة الأركان، وشعر أسود كثيف ومجعّد. قفز ماثيو إلى ذهنها بغتة، من اللامكان، وأصابتها رعشة. وقفت تستأذنهما الانتظار في الخارج. نظرا إليها وحسب، ثم واصلا ما انقطع من حديث.

انضمت عرفة إلى طابور طويل، ممتد بطول حائط السجن الخارجي، الذي غدا ظلّه مجرّد شريط ضيّق يجبر المصطفين على الالتصاق بالحائط. نسوة ورجال وأطفال بائسون ينتظرون أدوارهم لزيارة سجنائهم. يقف ثلاثة من السجّانين تحت شمس أبريل اللاهبة يحفظون النظام، وينادون على الزائرين واحدًا بعد الآخر بأسماء أقربائهم السجناء. يتحتّم على الذي يسمع اسم سجينه أن يتقدّم من السجّان، فيتحرّك الطابور كلّه ليملأ الفراغ الذي تركه.

مضى معظم اليوم بين السجن والتسكّع في سوق الملبوسات، حيث قرّرت طيبة أن تشتري ملابس جديدة للتوأم، ثم تضعها في أكياس مستوردة نظيفة، وتغلّفها بشريط لاصق، تكتب عليه اسميهما مثلما يفعل أغلب المغتربين حين يرسلون هدايا إلى ذويهم.

قالت لها طيبة إنها ستأخذهما في المساء إلى الكورنيش ليستمتعوا بعطلة شم النسيم. اشترت لعرفة هدية أيضًا، كانت طقمًا من تنورة زرقاء طويلة، عليها ورود صغيرة باللون التركوازي، مع كنزة قطنية باللون نفسه وطرحة زرقاء. شكرتها بقبلة، وقررت أن تشتري هدية للتوأم. رفضت طيبة لكنها ألحّت. اشترت لهما ساعتين، السوداء لسامح والوردية لسماح. تخيّلت عرفة فرحتهما بالهدايا، وتذكرت مريم التي رمتها عند باب المسجد، في عتمة الفجر. شعرت بالأسى.

(13)

رغم جشعها، إلا أن الأستاذة بثينة تعرف عملها جيدًا، وتحرص على أن تكون سمعتها المهنية لامعة، فتتطوّع للدفاع عن قضايا بعينها من دون مقابل، إذ تدرك بحسّها المهني السليم أن القضايا التي تختارها بعناية، تضعها في الموقع الصحيح في أذهان الموكّلين المحتملين في المستقبل، والمال يأتي مع الوقت.

انتزعت الأستاذة، الشهر الماضي، حكمًا بالبراءة لطبيب مشهور، معارض. اتّهمته الحكومة بالمشاركة مع عسكريين في محاولة انقلابية لفصل ولاية البحر الأحمر عن بقية البلاد، ودسَّت منشورات ومستندات تؤكّد روايتها في سيارته. أدانته المحكمة الابتدائية، وأيدت محكمة الاستئناف الحكم الأول، بيد أن الأستاذة نجحت في الحصول على حكم بالبراءة لدى محكمة أعلى في العاصمة الخرطوم.

اجتمع أهل الطبيب ومحبّوه وأفراد قبيلته وذبحوا عجلًا أمام بناية الخياطين، ثم ألحقوا ذلك بوليمة كبيرة عندما خرج الطبيب من السجن وعاد إلى بيته. كان حدَثًا مدوّيًا، تناقلته مجالس المدينة بكثير من الفرح والإعجاب، وربما ستحتفظ به في ذاكرتها عقودًا أخرى، وسيبقى اسم الأستاذة مرادفًا لهذه القضية، ولعل ذلك ما استحق سفرها المتكرّر إلى الخرطوم على نفقتها حتى انتزعت البراءة.

وظيفة عرفة لم تتح لها الاطلاع من الأستاذة على كيفية حصولها على تلك البراءة التاريخية، بيد أن زهوها الملحوظ كان يضيء لها بعض جوانب القضية كلّما تحدّثت عنها مع أحد زملائها أو معارفها الذين كانوا يتوافدون إلى المكتب لتهنئتها. كانت تقول لهم بتواضع مصطنع:

- لم تكن سوى اتهامات وقرائن ملفَّقة يمكن لأي محامٍ مبتدئ أن ينسفها.

ثم تضيف بعد أن تتأكّد بأن جملتها السابقة استقرّت حيث تريد.

- النيابة قادرة في أي وقت أن توفّر شهودًا مزيَّفين، سواء من رجال الأمن أو غيرهم، وعملنا كمحامين متمرّسين هو الكشف عن ذلك، هذه هي المعادلة.

رأت عرفة الطبيب المفرج عنه بعد شهور قليلة حين جاء إلى المكتب. كان خمسينيًا نحيًلا، بوجه أصفر طويل، تتوسّطه عينان ضيّقتان وعظمتا خدين بارزتان، وشعر أكرت، حالك السواد وخطته شيبات قليلات عند فوديه. جاء ليشكر الأستاذة ويودعها، لأنه قرّر ترك البلاد إلى غير رجعة. قال لها بصوت هادئ، لا يخلو من رنة حزن، إنه وافق أخيرًا على الفكرة التي ظل يرفضها طوال حياته بسبب حبّه للبلد. سينتقل للعمل في السعودية ليتمكّن من تربية وتعليم أولاده كما يجب، وليتمكّن من الفصل بين حياته وحياتهم بطريقة عادلة.

وسط ذلك الجمع المحتفل أمام مكتب الأستاذة رأت عرفة الشيخ معاوية الأبرص للمرة الأولى. أحاطها بنظرات مريبة، ولاحقها باهتمام صامت طوال الساعات الثلاث التي أعقبت ذبح العجل أمام المبنى. اقترب منها، وهمس بشيء لم تتبيّنه، لكنها ميّزت رائحة صندل نفّاذة كانت تفوح منه. أشار بأصابعه إشارة ملغّزة فهمت منها أنه يرغب في الحديث إليها. لم تردّ. بقي على تلك الحال المريبة حتى انفضَّ الجمع.

عاد طيف وجهه الأبرص إلى ذاكرتها في الليل عندما أطفأت أنوار المكتب وتهيّأت للنوم. انطبع في ذهنها منظر فمه الذي يشبه فم كلب، بشفتيه السوداوين وأسنانه الصغيرة الصفراء، المتفرّقة. كان ينطق بكلمات هامسة، لا تُسمع.

صار زبونًا عند طيبة. يأتي في الصباح، وفي ساعة الغداء، وقبيل مغيب الشمس، وفي أي وقت. لا يتكلّم كثيرًا، لكن تبقى نظراته مركّزة على عرفة حتى يغادر أو تغادر، وكانت كلما رأته لا ترى إلا فمه البشع الذي

يتمتم دائمًا بكلمات مهموسة، حركة أشبه بارتعاش المقرور، ثم تبقى في مخيلتها، وتراها في منامها أحيانًا.

دفعها الخوف والفضول لكي تسأل عنه طيبة. قالت لها إنها لا تعرف عنه شيئًا، لكنها وعدتها بالسؤال عنه. أخبرت حامد، أحد زبائنها من رجال المباحث فتحرّى عنه، ثم أخبرها أنه إمام مسجد وصاحب خلوة لتحفيظ القرآن في قرية تقوم على التخوم الجديدة للمدينة. تجرّأ ذات مرة وسأل طيبة عنها، وما إذا كانت ستأتي في ذلك اليوم أم لا، فادّعت أنها لا تعرف.

في تلك الأيام، كانت عرفة تنام بعض الليالي مع صديقتها الإرترية سارا. سافر القسيس وشقيقته إلى مصر لقضاء إجازة الصيف، وتجنّب الحرّ القائظ الذي يفتك بالمدينة حتى نهاية أيلول/ سبتمبر. راحت تتجنّب البوابة الرئيسية لبناية الخياطين حين تقرّر الذهاب عند سارا، وتستخدم أحد المخرجَيْن الآخرَين للبناية.

في صباح أحد أيام تموز/ يوليو الحارّة، خرجت عرفة قبل شروق الشمس من عند سارا، حتى تتمكّن من اللحاق بعملها قبل مجيء الأستاذة. وجدت طيبة تشعل النار وتملأ غلايات الشاي بالماء استعدادًا ليوم جديد، ووجدت معاوية الأبرص مقعيًا على مقربة منها، خلف أحد صناديق الخياطين، كأنه لص. ذُعرت، وانقبض صدرها.

صعدت إلى المكتب وأكملت عملها مغمومة، ولم تنزل قط إلا بعد أن غادرت الأستاذة. وجدت طيبة وحدها، لم يكن معاوية الأبرص موجودًا. ضحكت ملء وجهها حين رأت عرفة. دعتها إلى غدائها المكوَّن من قطعتَي سمك مشويتين، ملفوفتين في صحيفة وإلى جوارهما قِطع الليمون والبصل الأخضر والفلفل الأخضر. خفّت عرفة إلى الفرن المجاور وجاءت بخبز ساخن وجلستا تأكلان. عادت طيبة إلى الضحك من جديد، وأدركت عرفة أن وراء ذلك كلامًا. قالت ساخرة:

– معاوية الأبرص يريدك زوجة على سنة الله ورسوله!

ثم اتّصلت ضحكتها. قفز إلى ذهن عرفة وجه معاوية الأسود المستدير،

المرصَّع بدوائر من البرَص حول فمه وعينه اليسرى ورقبته من جهة اليسار وجبينه عند منبت الشعر. اقتربت صورة وجهه في ذهنها أكثر حتى تركّزت على الفم، وكيف تمتمت شفتاه بالكلمات الميتة نفسها:

- هل تمزحين؟
- وهل تظنينني أمزح؟
- ...
- يقول إن لديه المال، وسيكون زوجًا جيّدًا!

ضحكت ساخرة في البداية ثم لاذت بالصمت، وشعرت بأن طيبة تكدّرت بسبب ذلك، بيد أنها لم تعرف كيف تجيب على مثل هذا الكلام. قرّرت أن تعتذر منها لاحقًا.

عادت إلى المكتب. كان الطقس سيئًا. فتحت نوافذ صالة الاستقبال المطلّة على شارع سوق الخضار، وفتحت كذلك باب الصالة المطلّ على الممر الداخلي للمبنى لكي يتحرّك الهواء الساكن بسبب الرطوبة والحر، ثم شغّلت مروحة السقف لتدور بأقصى سرعة. نظرت من النافذة، كانت عربات الكارو تخرج من السوق تباعًا، وكذلك سيارات التاكسي وحافلات المواصلات العمومية، فيما كانت بعض المحلات تغلق أبوابها، وأخرى تستعد لنوبة العمل المسائية ولا سيما المقاهي. كانت آخر خيوط النهار الذهبية تنزلق فوق واجهات الأبنية الجديدة والجدران الحجرية المتآكلة للأبنية القديمة.

سمعت صوتًا خلفها فاستدارت. لم تر شيئًا، ولكن خُيل إليها أن شبحًا ما عبر أمام الباب، في الممر شبه المعتّم. تناهت إلى أنفها رائحة صندل. تحرّكت بحذر حتى بلغت الباب ثم نظرت في وجهتيْ الممر ولم تر شيئًا. كانت جميع المكاتب مغلقة. شعرت بدوار خفيف. أغلقت الباب جيدًا ثم عادت إلى النافذة. رأت معاوية الأبرص هناك، عند موقف التاكسيات القريب من سوق الخضار، وعرفته من شاله الأخضر الكبير الذي يتدرَّع به دائمًا. ينظر إلى النافذة حيث تقف. كيف يمكن أن يوجد الشخص في مكانين في الآن نفسه؟

بعد أيام من ذلك اندلع حريق في المبنى، في حوالى الخامسة مساءً. كانت الكهرباء مقطوعة والرطوبة خانقة، والحر يكاد يفتك بالعصافير القليلة التي تجمعت على نوافذ الأبنية، والغربان التي تنعق بألم فوق رؤوس الأشجار وأسلاك الكهرباء. عادت الكهرباء بغتة، مندفعة بقوة على الأسلاك المهترئة والمحولات الفضية المنصوبة فوق الأعمدة عند الزوايا. انفجر المحول القريب من المبنى، واشتعلت النيران فيه ثم التهمت جانبًا من المبنى.

كانت عرفة قد نزلت قبل الحريق بدقائق، لترافق طيبة إلى محطة الحافلات الرئيسية، وتشتري بطاريات جديدة للكشاف الذي تستخدمه عند انقطاع الكهرباء، لا سيما في الليل. عادت لتجد المكان محاطًا برجال الدفاع المدني وشاحناتهم التي تزعق بصفير حاد وتومض بأضواء صارخة، متقطّعة، وحولهم مئات المارّة. كانت ألسنة اللهب تخرج من نوافذ الطابق الثاني، القريبة من ذلك المحوِّل الفضّي الذي تحول إلى كتلة مشتعلة، يتصاعد منها دخان أسود. كانت نافذة المكتب في الطابق الثالث مفتوحة كما تركتها، ولم تصلها ألسنة اللهب بعد. حاولت دخول المبنى لكن رجال الدفاع المدني منعوها. انضمت إلى جموع المتفرجين تراقب ما يجري.

أحسّت فجأة بأنفاس حارّة، قريبة من أذنها اليسرى، وصوت أشبه بالشخير. يصعد ويهبط بهدوء كما لو كان لشخص نائم. لم تلتفت إلى الوراء، لكنها شعرت بثقل جسد دافئ على ظهرها. يلتصق بها من الخلف ثم يبتعد قليلًا، ثم يعود ويلتصق بها ثم يبتعد. غمرها تيار غامض وسيطر على جسدها كلّه. شلَّ حركته. أرادت أن تلتفت، أن تقول شيئًا لكن لسانها انعقد فجأة وعجز جسدها عن الإتيان بأي شيء.

ماذا كان ذلك؟ وكيف حدث ما تلاه؟ لا تذكر، لكن عقلها كان صاحيًا، مثل عقل النائم حين يسيطر عليه الجاثوم، فيخيّل إليه أنه حرّك أحد أطرافه أو صرخ أو تكلّم، لكنه في الحقيقة لم يفعل شيئًا من ذلك.

تتذكّر الرائحة التي زحمت أنفها. كانت رائحة صندل قوية، مخلوطة

برائحة قرنفل، أو ربما زعفران أو كافور، لا تذكر على وجه الدقة. كانت قريبة هذه المرة إلى حدٍّ أنها ميَّزت الروائح الأخرى المختلطة بها. غامت الأشياء أمام ناظريها. مادت الأرض وتمايل المبنى المحترق حتى ظنّت أنه سيسقط فوق الرؤوس.

خُيِّل لها أنها صرخت، واستدارت لتهرب، لكنها اصطدمت بجثة ضخمة. تتذكّر جلبابًا أبيض، طرفًا من شال أخضر. الرائحة نفسها لكن بتركيز أقوى. صوت يقول: تراجعوا قليلًا. إنها أختي. ثم غابت عن الوعي.

***

أفاقت هذه المرة على أصوات طنين ووقع أقدام. كانت الدنيا ثابتة والضوء حقيقيًا والمروحة تدور في سقفٍ حقيقيٍّ. كانت تصحو وتغيب، وترى بحرًا من الضوء يموج، وثمة شيء يدور ويدفعه بهذا الاتجاه أو ذاك.

فتحت عينيها ببطء. كانت غرفة بيضاء تغمرها أضواء مصابيح كهرباء خافتة. لم تستطع تخمين الوقت. لا تزال رائحة الصندل في أنفها، تزحمها روائح ديتول ونفتالين. انتبهت إلى محلول وريدي معلّق إلى جانب السرير يتّصل بيدها الممددة على السرير. كيف جاءت إلى هنا؟

دخلت طبيبة بيضاء قصيرة وفي إثرها طبية. فرحت لمرآها.

- نشكر الرب على سلامتك.

قالت وهي تسحب المقعد لتجلس.

- ماذا حدث؟

- هبوط في الدورة الدموية لكنه مرَّ على خير.

قالت الطبيبة البيضاء ذات الملامح المصرية وهي تقرِّب جهاز قياس الضغط من السرير وتجلس. نظرت عرفة إلى الديباجة المثبتة على صدرها وقرأت «د. مجد جرجس - اختصاصي أمراضٍ باطنية». أجرت فحوصها ثم قالت بصوت مبحوح.

- أنت الآن بخير، ويمكنك أن تغادري متى تشائين. لا بد أن تكثري من شرب السوائل وتنتبهي إلى نفسك في هذا الحر الشديد.

ودّعتهما وغادرت. نظرت إلى طيبة مستفهمة.

- نقلك العم يحيى الخياط وأحد رفاقه إلى المستشفى ثم اتصل بي وأبلغني.

- كم يومًا قضيت هنا؟

- ليس كثيرًا. منذ مساء الأمس، ونحن الآن في العاشرة صباحًا.

دخلت ممرضة سمراء نحيلة. أزالت إبرة المحلول الوريدي من يدها ومدّت إليها ورقة عليها أمر الخروج، وغادرَت. ساعدتها طيبة على الجلوس. شعرت بدوار خفيف. مدت إليها ثيابًا نظيفة اشترتها من أجلها. اتكأت على كتفها ودخلت الحمام. اغتسلت وبدلت ثيابها. شعرت بنشاط وانتعاش. أصلحت هيئتها ثم خرجت.

في الطريق إلى بيتها أخبرتها أن معاوية الأبرص حاول اختطافها بالأمس.

- كان يقول للناس إنك قريبته وسيوصلك إلى المستشفى لولا أن العم يحيى الخياط تدخّل في الوقت المناسب، وهرب الأبرص!

- جسدٌ دافئٌ. شال أخضر مطرّز. صوت يصرخ «إنها أختي»، رائحة صندل. هذا آخر ما أتذكره، ولا تزال الرائحة في أنفي.

- لا أعرف، لكنني سأطلب الشرطة إذا جاء مجدّدًا.

يقع بيت طيبة في حي كوريا، في جنوب المدينة، وهو نصف بيت مستأجر. يتكوّن من غرفتين وصالون صغير، يكفيها وتوأمها الجميل الذي تعرفت إليه للمرة الأولى. إنهما توأم غير متشابه، فسماح هادئة وجميلة وأقرب في الشبه والطباع إلى أبيها، وسامح مرح وكثير الكلام وأقرب إلى أمه.

- عيناك تشبهان أبطال الكرتون، هل تضعين عليهما عدستين؟

ومدَّ أصبعه ليختبر صلابة عينيها. قالت له.

- أنا توأم مثلك، لكن توأمي الآخر بنت. كنا في صغرنا نتحوّل إلى قطتين في الليل ونتسلّل إلى بيوت الجيران بحثًا عن طعام أو حليب. دخلنا مرة مطبخ امرأة شريرة فضربتني على رأسي بمكنسة، فصرخت وهربْت من

النافذة. عندما استيقظت في الصباح وجدت عينيّ القط هاتين لا تزالان في رأسي!

- يا إلهي، وماذا حدث لتوأمك الأخرى؟

- حبستها المرأة الشريرة في بيتها ولم تستطع أن تتحوّل إلى بنت مرة أخرى!

اتسعت عيناه من الذعر واقترب من أخته، يُشركها في اكتشافه.

- هل تقصدين أنها تعيش حياتها قطة؟

أومأت برأسها متظاهرة بالحزن: وهل تزورينها؟

- نعم أزورها، وأحمل لها طعامًا وهدايا!

- وكيف تتحدّثان إلى بعضكما؟

- بهذه العيون الخضر عندما نكون مع الناس، وأما عندما نكون وحدنا فإنني أفهم مواءها!

- يا إلهي، كم ستكون تجربة مثيرة لو صحبناك في زيارة لها!

قال بحماسة، فضحك الجميع. فقالت سماح مشكّكة في حقيقة الرواية:

- لست متحمّسة. لا بد أن هذه القطة عجوز الآن!

شملتهم بنظرة مرتابة ثم تابعت.

- ولماذا لا نتحوّل أنا وسامح إلى قطط؟

- لأنكما مختلفان، فأنت بنت وسامح ولد، ثم إنكما غير متشابهين.

- لن أصدق حتى أراها. قالت سماح.

أعجبت عرفة بذكائها، فقالت:

- سآتي بها ذات يوم وستريانها، ما رأيكما؟

فقال سامح:

- فليكن ذلك غدًا يا خالة!

- إنها في بلدة بعيدة اسمها عقيق، ولن أتمكّن من زيارتها قبل نهاية الشهر. سأحضرها معي إذا ذهبت لزيارتها. أعدك يا سامح!

قضت معهم نحو أسبوع، كان من أعذب أيام حياتها.

(14)

تجاوزت الأم الحزينة محنة مرضها في أيام قليلة، ذلك لأن الطبيب المتعجرف زارها أخيرًا. أذهلنا حرصه على الاهتمام بها كلما وجد وقتًا لذلك وكأنما يعتذر أو يستجيب لضغط ما. بيد أني رقدت إلى جوارها منذ تلك الليلة المشؤومة. عدت من خيمة الملازم أبراهام بنفس محطمة، مجلّلة بالقهر والعجز والألم. عدت بألم هائل بين فخذي وفي أسفل بطني وفي مواضع كثيرة من جسدي، بيد أن الألم الأكبر كنت أحسّه في روحي، لكنني لم أشتكِ أبدًا.

تدبّرت آمنة قطنًا طبيًا ومرهمًا ومطهرًا للجروح. حاصرتني هي وأمها، وألحّتا عليّ لأحكي لهما ما حدث معي في تلك الليلة. كنت كلما رغبت في الحكي تنهمر دموعي ويعجز فمي عن قول كلمة واحدة. لقد عرفتا بالطبع، بيد أني لم أفهم أن إلحاحهما كان من أجل معرفة الفاعل.

علمت لاحقًا أن الأم الحزينة ذهبت إلى الملازم أبراهام وقدمت له شكوى بالحادثة. وعدها بفتح تحقيق فور انتهاء بعض الترتيبات العسكرية المهمّة، ثم عمد إلى التسويف والمماطلة، ومثله فعل قائد المعسكر قرقيس الذي لم تستطع مقابلته غير مرة واحدة. حتى الضباط السودانيين الموجودين في المعسكر تحدّثت إليهم لكن أحدًا منهم لم يتحمّس للأمر، وكلّما عادت لتذكِّرهم، تحجّجوا بالانشغال بمعارك وشيكة مع القوات الحكومية حتى يئسَت وجلست تواسيني.

مع دخول شهر حزيران/ يونيو توقّف العمل في مقلع الحجارة بسبب رياح الهبباي. كانت نقاهة إجبارية برأت فيها قروح الجسد، لكن ندوب

روحي بقيت على حالها. الحبس الطويل في الخيمة المعتمة طوال الوقت زاد من شعوري باليأس والكآبة، رغم محاولات الأم الحزينة وابنتها آمنة في التسرية عني، غير أن نفسي الكسيرة امتلأت بالشك في كل شيء. هجرت الخروج والأنس والصلاة وكل ما يجمعني بالناس.

عدنا إلى العمل في المقالع مع دخول الشتاء، واستغرقني تكسير الحجارة وتفتيتها. رحت أفرغ فيها طاقة الحقد التي أنوء بها. أعود نهاية كل يوم أكثر رغبة في استمرار الحياة وأقل ميلًا إلى التعصّب. توسّع العمل في مقالع الحجارة. كانت شاحنات إضافية تدخل من البوابة الشرقية للمعسكر وتحمّل أطنانًا من الحجارة الجاهزة ثم تغادر عبر البوابة نفسها إلى وجهات لا نعلم عنها شيئًا.

أصيب الكثيرون من الجنود والأسرى العاملين في المقالع بنوبات ربو وأمراض في عيونهم، وطفح غريب في جلودهم، فضلًا عن تآكل أطرافهم يومًا بعد آخر.

تضاعف حجم العمل عمَّا كان عليه عندما بدأنا. ازدادت الحاجة إلى الحجارة في بناء عنابر للمجنّدين بدل الخيام، وتشييد مقار شبه دائمة لما كانت تسميها -فصائلُ المعارضة السودانية- سلطة المناطق المحرّرة. عينوا مسؤولًا عن المنطقة وطاقمًا إداريًا مساعدًا له من أبناء البِجا المقاتلين، ورفعوا علمًا فوق أحد المقار. كان علمًا مخططًا أفقيًا، بالأزرق والأصفر والأخضر من أعلى إلى أسفل، مع خط أحمر على الجانب. رأينا لأول مرة مواطنين من تقدرا والقرى الأخرى القريبة منها يدخلون المعسكر ويقابلون مسؤولين في تلك المقار ويتلقون بعض المساعدات والعلاج. حدّدت السلطة الجديدة يوم السبت من كل أسبوع لمقابلة المواطنين وتلقي شكاواهم.

انتظرت السبت التالي لتقديم شكوى بأوضاعنا، باعتبارنا مواطنات من المنطقة، ويحقّ لنا مثل غيرنا مقابلة بني جلدتنا، وإن كنت لم أحسم

تمامًا ما يتعلّق بحادثة الاغتصاب، هل أدرجها في الشكوى أم أتركها لوقتٍ لاحقٍ. مزيج من الخوف والخجل كان يحملني على التردّد.

طلبت من آمنة أن تقوم بعملي ريثما أفرغ من شأنٍ لي. ذهبْت إلى مقر السلطة، وبعد طول انتظار قابلت مسؤولَيْن بلباس عسكري. أحدهما كان يستمع والآخر يدوّن. أودعت لديهما حياة عام ونصف من السخرة والإذلال في المعسكر وفي مقالع الحجارة، وحدّثتهما عن موت أمي وعن رحلة النزوح من عقيق وغموض مصير أبي ورفاقه منذ أن جيء بنا إلى هذا المعسكر. أخبرتهم كذلك أننا لا نعرف على وجه الدقّة سبب أسرنا وتسخيرنا في مقالع الحجارة، ونجهل حقًّا الجريمة التي ارتكبناها واستحققنا عليها هذه المعاملة المهينة، ولا نفهم سببًا للتسويف والخداع المستمرّ بشأن موعد إطلاق سراحنا، وكيف يؤجّل بأسباب واهية كلّما حل. استمعا إليّ باهتمام، ولما أكملت، طلب مني من كان يتولى توجيه الأسئلة أن أبصم على الأوراق قبل أن يقول:

- لقد جئنا هنا من أجلكنّ.

سكت قليلًا قبل أن يستدرك:

- أقصد من أجل كل مواطنينا في هذه المناطق. نحن منكم وفيكم، وسنرفع هذه الشكوى إلى مكتب محافظ المناطق المحرّرة في «قرورة» وحين يأتي الرد سنستدعيك.

- وهل سننتظر حتى يردّ؟ إرفعوا عنا هذه السخرة المهينة على الأقل!

نظر إلى رفيقه الآخر نظرة مرتبكة.

- سنتحدث في هذا إلى رفاقنا الإرتريين، وسنجد حلًا في أقرب وقت.

نظر في وجهي نظرة مطولة ثم إلى ساعته موحيًا بانتهاء وقت المقابلة. قلت متهكّمة:

- هل هذا كل ما تقدرون عليه؟

- نقدر على أشياء كثيرة، لكنها تحتاج وقتًا!
- قل لي مثل ماذا؟
تأفف.
- هل يمكنكم التحقّق من أسباب اعتقالنا مثلًا؟ هل يمكنكم إخباري بمصير أبي إن كان حيًّا أو ميتًا؟ لقد جيء بنا إلى هذا المكان في ليلة واحدة ثم اختفى وكأنه تبخّر، أو ابتلعته الأرض. هل نحن في بلدنا حقًّا أم في بلد آخر؟ هل جئتم لتحرِّرونا أم لتجلبوا إلينا محتلًا؟ نحن مواطنون سودانيون يا سيدي، وبجاويون مثلكم، وتقع سلامتنا تحت مسؤوليتكم طالما أنكم من يحكم الآن!
- هذا صحيح ولذلك نستقبلك اليوم. لا بد أن تعلمي أننا جزء من تحالف عريض، فبالإضافة إلى جيشنا، جيش مؤتمر البِجا، هناك ثلاثة جيوش سودانية أخرى على الأقل، وجميعها تتبع للقيادة العسكرية العليا في التحالف الوطني الديمقراطي، وتشاركنا الجبهة الشعبية الإرترية بالدعم والإسناد. لذلك، فإن أي مسألة تخصّ الشأن العسكري لا بد أن تمر بسلسلة معقدة من الإجراءات ولا بد أن تعرض على جميع هذه الفصائل ثم ترفع إلى هيئة القيادة المشتركة في أسمرا وتعود بالمسار نفسه الذي اتّخذته في صعودها.
- وما علاقتنا نحن بكلّ هذا؟ بل ما هي صلتنا أساسًا بالشأن العسكري؟
تعكّرت ملامح وجهه بسحابة ضيق.
- كل ما يقع في المناطق التي نتحرّك فيها هو شأن عسكري ويخضع للترتيبات العسكرية. حتى الحجارة التي تقمن بتكسيرها في المقالع، والمباني التي نشيّدها، والرسوم التي نأخذها من المواطنين والخدمات التي نقدّمها لهم مقابل ذلك، كل هذه الأشياء إنما هي إجراءات عسكرية مؤقتة، وتخضع للنظم العسكرية، وستبقى كذلك حتى تنتهي جميع

العمليات ونحرّر الخرطوم من مغتصبي السلطة، ونقيم نظامًا مبنيًا على الإرادة الحرة يعيد تسمية الأشياء باسمائها الصحيحة. فقط نطلب منكنّ الصبر حتى تكتمل الدائرة ويكون بوسعنا خدمة مواطنينا على الوجه الأكمل والصحيح.

ضحكت. بيد أن وجهه الطويل الذي تزحمه عينان جاحظتان ظلّ محتفظًا ببروده وصرامته. خشيت أن يفهم ذلك على أنه سخرية.

- وهل سنبقى على هذه الحال حتى تحرّروا الخرطوم وتحقّقوا كل الذي تفضّلت به منذ قليل؟

ندت عنه ضحكة قصيرة ساخرة وكأنما يثأر من ضحكتي.

- ليس الأمر كما تفهمين يا ابنة العم. نحن لا نستطيع أن نتصرّف كما تتصرّف السلطة المدنية، هذا كل ما في الأمر.

ثم وقف على طوله جملة. وضع البيريه العسكرية على رأسه.

- على كل حال سنحاول أن نبذل ما في وسعنا ونستعجل هذه الشكوى. نراكِ على خير.

(15)

- فليباركك الرب يا ابنتي.

قال الأب فانوس، وهو يمسح على رأسها. خفضته في حضرته احترامًا، ولما رفعت بصرها خلسة، طالعها وجه شقيقته التي تقف إلى جواره بابتسامة عذبة، قبل أن تقول:

- غدًا في الصباح تتسلّمين عملك، والآن يمكنك أن تخلدي إلى الراحة.

شكرتهما بإيماءة من رأسها، ثم تراجعت خطوات إلى الوراء حتى بلغت سارا الواقفة إلى جوار الباب. بدا الصالون واسعًا وشديد الفخامة. جدرانه مطلية بالأزرق النيلي، وتتدلّى من سقفه الأبيض الشاهق نجفة ذهبية بديعة التصميم، يتدفّق ضوؤها الذهبي الخافت على الجدران وعلى المقاعد المخملية السوداء، والأثاث البُني المعتق المصقول المائل إلى السواد. السيدة العذراء والمسيح الطفل في الصورة الكبيرة، على رأس كل منهما تاج مذهّب، وتحيط بهما هالة من النور. يحرس اللوحة صليبان ذهبيان كبيران مثبتان على الحائط عن اليمين وعن اليسار.

ألقت نظرة خاطفة على الكاهن الذي استمرّ واقفًا بأدب وسط الصالون، وتقف شقيقته مارتا إلى يساره عاقدة ذراعيها على صدرها. كانت يداه مضمومتين إلى صدره حيث يتدلّى صليب من الخشب، ويشرق وجهه الأبيض، داخل شملته وردائه الكهنوتي الأسود، بطيبة مسيحية.

ودّعاها بإيماءة مؤدّبة من رأسيهما، وتبعت سارا إلى غرفتها في الفناء الخلفي. حدّثتها عن طبيعة عملها الجديد مع الأب فانوس، وعمّا يجب

أن تحرص على القيام به، وما يجب أن تحذره. كانت لطيفة، مسترسلة كعادتها، وكانت عرفة متعبة. حدّثتها عن احتمال هجرتها في وقت قريب، وذلك يتطلّب منها على نحو ما استعدادًا للقيام بجزء من عملها إلى جانب عملها في الكنيسة، أو الحلول مكانها في حال تعذّر إيجاد بديل.

***

في الصباح ذهبت برفقة الأخت مارتا إلى الكنيسة لتتسلّم وظيفتها. كان وجه مارتا مشرقًا وهي تتأمّل عبر نافذة السيارة شوارع المدينة التي دبّت فيها حركة أول النهار. مرّتا في الطريق بكنيسة قديمة، تبدو مغلقة منذ أمد بعيد.

- هذه كنيسة أرثوذكسية كانت للإغريق الذين سكنوا هذه المدينة قبل أن يهجروها.

منحتها زحمة السير في التقاطع الكبير الذي يطلّ عليه مبنى الكنيسة، من جهة الغرب، فرصة لتأمّلها. «تبدو عتيقة بالفعل». قالت عرفة لنفسها. كان يحيط بها سور رمادي قصير، يطل من ورائه مبنى الكنيسة الضخم بسقوفه المائلة وقبّته المكوَّرة ذات النوافذ، حيث تعلَّق أجراس قديمة صدئة. بوّابة الكنيسة سوداء كبيرة، يعلوها الصدأ وتطلّ على شارع واسع.

- يبدو أنها كانت كنيسة جميلة ذات يوم!

- نعم، في صباحات الآحاد، مثل الآن تمامًا، كانت هذه الكنيسة تعج بالمصلّين والراهبات والرهبان. وعندما فرض النميري قوانينه الإسلامية، ثم جاءت هذه الحكومة الأكثر تشدّدًا. لم يستطيعوا التأقلم مع هذه القوانين فغادروا. بعضهم عاد إلى البلد الذي جاء منه، وبعضهم هاجر وتفرّق باحثًا عن مكان يستطيع فيه العيش بحرّية.

صمتت لبرهة قصيرة وهي تتأمّل الكنيسة الساكنة، ثم أكملت:

- كان إغريق هذه المدينة يملكون بيوتًا ومحلات كثيرة، تركوها هكذا ورحلوا. بعضهم تنازل عنها لمن كان يعمل عنده من السودانيين،

وبعضهم باعها، وبعضهم الآخر تركها من دون وصي! أظنّهم غادروا البلاد إلى الأبد.

- هل طردتهم الحكومة؟

- لا. الطرد، بمعنى الإجبار على المغادرة، لم يحصل، لكن سياساتها وقوانينها ضيّقت على الجميع. ولم يكن الإغريق وحدهم من هاجر، فالكثيرون من إخوتنا الأقباط الأرثوذكس المشرقيين هاجروا أيضًا إلى بلاد بعيدة!

أقباط، أرثوذكس، إغريق، كانت كلّها كلمات جديدة. ردّدتها عرفة في نفسها كي تحفظها جيدًا، وربما تسأل عنها مارتا في الغد. عبرت السيارة الحمراء الصغيرة التي تقلّهما، التقاطع الذي تقوم الكنيسة الإغريقية على إحدى زواياه، ثم اجتازت مبنى عتيقًا إلى يمين الشارع، ترتفع فوق برجه ساعة كبيرة تتذكّرها عرفة من ليالي تشردها. كانت الساعة الثامنة وست دقائق. سمعت رنين أجراس قريبة وأبطأت السيارة من سرعتها لتلتفّ وتعبر بوابة كبيرة حيث لاح لها مبنى أبيض أدركت أنه كنيسة.

تواصل رنين الأجراس حتى بعد أن نزلتا إلى باحة الكنيسة. كان الصوت يأتي من السماء. رفعت عرفة رأسها، وقعت عيناها على اللافتة الكبيرة المنصوبة فوق باب الكنيسة، وكان مكتوبًا عليها «الكنيسة القبطية الأرثوذكسية للسيدة العذراء مريم»، ورأت فوقها الأجراس وهي تتأرجح داخل برجين كبيرين يقومان فوق المبنى. نقلت بصرها إلى الباحة، حيث تعبر جموع المصلّين في خشوع.

تأمّلتهم لبعض الوقت، وتعجّبت من أنهم لا يشبهون أهل البلد. الغالبية من نساء الأحباش، يخطرن مثل الحمام داخل أثوابهنّ البيضاء الناصعة، والمطرَّزة في أطرافها بألوان الحياة، الأخضر والأحمر والأصفر، والصلبان المنقوشة تزيّن أطرافها. بعض المصلّين والمصليات، ولا سيما الرهبان والراهبات بثيابهم البيضاء والرمادية الخالصة، كانوا بيض

البشرة، مثل الأب فانوس والأخت مارتا. يشبهون المصريين الذين رأتهم في التلفزيون من قبل.

تقدّمتها مارتا باتجاه المبنى. ظهرها محدودبٌ قليلًا ورأسها يميل إلى الأمام، فتظهر سلسلة ذهب تلمع حول عنقها الناصع من الخلف، ويختفي الباقي منها داخل فستانها الأسود اللامع. عبرتا من جوار باب القاعة الكبير، ورأت عرفة المصلين جالسين على مقاعد، رجالًا ونساء، كما يجلس التلاميذ في الفصل، وذلك ما عجبت له. هذه أول مرة تدخل فيها إلى كنيسة في حياتها. أحد الرهبان كان هناك، في مكان مرتفع -يشبه خشبة مسرح- أمام المصلين الجالسين. كان في رداء أبيض مليء برسوم الصلبان الحمراء، ويطوف بمجمر بخور. تمنّت لو تبقى قليلًا لترى صلاتهم؟ أهي مثل صلاة المسلمين أم إن لديهم طريقة أخرى؟

كانت تسير خلف مارتا التي دخلت إلى مكتب كبير ملحق بمبنى الكنيسة. يقع المكتب في نهاية ممر طويل، على جانبيه ثلاث غرف في كل جانب، أبوابها جميعها مغلقة، ومعلّق عليها صلبان برونزية صغيرة في حجم كف اليد. ينتهي الممر عند باب المكتب الكبير، حيث تقوم فوق بابه نسخة مصغرة من لوحة العذراء والمسيح بالتيجان المذهَّبة، كالتي رأتها في صالون الأب فانوس.

زحمت أنفها رائحة اللبان المرّ التي شمّتها في صالون الأب فانوس يوم أمس. اتّسع المكتب وتراجعت جدرانه أمام نظراتها المركّزة. المكتب مؤثّث بعناية وذوق. خلف المكتب الصغير الأنيق، ثمة لوحة كبيرة، بعرض الجدار، من الحرير الأسود وبنقش ذهبي مكتوب عليها بخط أنيق: «لا تستحي أن تعترفَ بخطاياك، ولا تغالب مجرى النهر» (سفر يشوع بن سيراخ 31:4).

قالت مارتا وهي تتجه ناحية مشجب يقوم في ركن المكتب، وتُنزل عنه بعض الثياب الكهنوتية المعلّقة وتطبّقها فوق طاولة المكتب.

- ستهتمين بهذه الأشياء بعد الآن. تأخذينها إلى المغسلة في الخلف، إلى جوار المخبز، ثم تعيدينها إلى تلك الخزانة وترتّبينها بالطريقة التي سأعلمك إياها.

وضعت مارتا الثياب في سلّة ثم أخذتها إلى خزانة محفورة داخل الحائط وتبدو مثل باب يقود إلى غرفة أخرى. كانت الخزانة نظيفة ومرتبة، ومقسّمة إلى جزأين، أحدهما بأرفف والآخر للتعليق.

- أردية الأب وتونيّاته تعلَّق هنا مغطاة بأكياس حتى لا يدركها الغبار كما ترين، وتوضع الشملات والقمصان الداخلية والصلبان والعطور على هذه الأرفف.

حملت سلة الثياب ثم تبعت مارتا إلى الغرف الخلفية. من داخل مصلّى الكنيسة تناهى إلى سمعها أصوات كانت تصلها منغَّمة ومصحوبة بموسيقى هادئة. أعجبتها الأصوات ونغماتها، ولم تكن تدرك أنها الترانيم.

فهمت من مارتا أن عملها هو الإشراف على الغرف والمكاتب الخلفية للكنيسة، بما فيها التنظيف والترتيب، والحرص على بقائها في أبهى صورة. وأبلغتها أن المصلّى الرئيس للكنيسة وباحته الأمامية فهي من مهمات شخص آخر لم تذكر لها من هو.

طافت بها الأخت مارتا على جميع الغرف الملحقة بالكنيسة. إحدى الغرف عبارة عن متحف خاص بمقتنيات الكنيسة وتاريخها، وأخرى، إلى جوار غرفة الغسيل، جُهِّزت لتكون مخبزًا صغيرًا لإعداد القربان، وفيها طاولة وفرن صغير وأرفف يوضع عليها الطحين. خلف الفرن مباشرة توجد غرفة الكانتين، حيث ترقد العديد من التوابيت والأقمشة والمباخر. أخبرتها مارتا أنها خاصة بأغراض الموتى. غرفة واحدة فقط بقيت مغلقة. لم تسألها عن السبب، ولم يسفعها الوقت لتعرف كل شيء منذ اليوم الأول. مارتا نفسها كانت متعجّلة للّحاق بالصلاة وحضور

قداس الأحد الذي يترأسه الأب فانوس، ثم انشغلت عرفة بترتيب الغرفة التي ستكون غرفة إقامتها.

كانت غرفة صغيرة تقع في الطابق الأرضي من مبنى مؤلّف من ثلاثة طوابق في أحد أركان الفناء الخلفي للكنيسة، وملحق بها حمّام صغير. كل شيء فيها جديد، أو هكذا بدا لها. الفرش والخزانة، وكذلك طاولة المكتب الصغيرة مع المقعد المخملي ذي اللون الرمادي، وجهاز تكييف الهواء المثبَّت في الحائط. ماذا تريد أكثر من هذا؟ رتّبت أغراضها القليلة ثم اتّجهت إلى غرفة غسل الملابس لتبدأ العمل مثلما علّمتها الأخت مارتا.

كان القداس قد بدأ لتوّه، وبدأ الأب فانوس بالصلاة، ثم انتقل إلى عِظته التي كان موضوعها الدعوة إلى تحقيق السلام ولجم الحرب التي اندلعت في دارفور. كانت عرفة تعمل على تنظيف الغرف الملحقة بمصلّى الكنيسة، وكانت السماعات الداخلية في الغرف تعمل وتنقل لها صوت الأب فانوس كما لو كان يتحدّث في الراديو.

انفتحت إحدى مقابض الأبواب على يدها بالخطأ بينما كانت تنظّفه، وغمرها صوت الأب فانوس وهو يعِظ. واربت الباب وتظاهرت بالتنظيف لكي تسمع ما كان يقوله:

«عندما يتكلّم الربّ فإن السلام العميق الداخلي الذي يعطيه لنا، يؤكّد أن تلك الرسالة هي الحقيقة منه. حتى حين يوبّخنا فإن كلماته تترك في نفوسنا إحساسًا عميقًا بالراحة. قال يسوع: أترك لكم سلامي الخاص بي. أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب».

دخلت مع مارتا بعد انتهاء القدّاس إلى غرفة الغسيل، لكي تعلّمها كيف تستخدم غسالة الملابس الكهربائية. كانت تتألّف من قسمين، أحدهما، وهو الأكبر للغسيل، والآخر للتجفيف. أخذتها بعد ذلك إلى غرفة متحف مقتنيات الكنيسة، وإلى الغرفة المغلقة.

- هذه هي المكتبة. يمكنك أن تقضي فيها الوقت الذي تشائين، شرط أن تحافظي عليها.

كانت مساحتها صغيرة على كونها مكتبة، ومع ذلك كانت المساحات مستغلّة بشكل جيّد، إذ تقوم أرفف الكتب على الحوائط الأربعة حتى السقف، وتتوسّطها طاولة على شكل صليب كبير تتدلّى فوقها أربعة مصابيح كهربائية من السقف. ثمة بطاقات صغيرة مثبتة على أركان الأرفف تشرح محتويات كل رف. الأناجيل بنُسَخها المختلفة، كتب القساوسة والعِظات التاريخية، كتب بلغة مطلسَمة، الفلسفة، الشعر، علم الاجتماع، التاريخ، حتى إن هناك رفًا لنسخ من القرآن والعديد من الكتب الإسلامية، وتحتلّ الكتب المكتوبة بلغات أجنبية حائطًا بأكمله.

وعندما نادتها بالسيدة مارتا، قالت لها وهي تغلق باب المكتبة:

- ناديني دائمًا، الأخت مارتا. دعوة المسيح هي دعوة الأخوّة الحقّة والمحبة: «من يحبّ أخاه يثبت في النور، وليس فيه عثرة».

ثم استدارت نحوها وكأنما تذكّرت أمرًا نسيته.

- يمكنك أن تؤدّي صلاتك في غرفتك كيفما تشائين، الأب فانوس يوصي بذلك!

لم تكن تصلّي منذ أمد طويل، بل لم تكن تأخذ مثل هذه الأمور على محمل اليقين منذ حادثة الغرفة الأرضية في معسكر عيتربة، بيد أن وصية الأب غمرتها بدفء غامض، ضاعف من شعورها بالأمان.

(16)

طوال هذه المدّة لم أصادف الملازم أبراهام اللعين قط. تجنّبت عامدة جميع المسارات التي يمكن أن تجمعني به. حتى فرجتنا اليومية لطابور السادسة مساء قاطعتُها للسبب نفسه، رغم أن تجنّب شخص مثله، في مكان كهذا يبدو أمرًا صعبًا، إلا أنني نجحت فيه لوقت طويل.

كنت في طريقي إلى المقلع حين رأيته مصادفة واقفًا عند النقطة التي يلتقي فيها الخندق بالجبل، فالذاهب إلى مقالع الحجارة لا بد أن يمرّ من هذه النقطة، فيتجاوزها ملتفًا حول الجبل من جهة الغرب إلى الشرق. كان يتحدّث إلى ضابط سوداني. ارتبك عندما وقعت عينه على عيني، وركبني عفريت حين بصق على الأرض، ثم أشاح بوجهه إلى رفيقه الآخر. شتمته بالنصراني الكافر، ثم قفزت على رقبته من الخلف. أحكمت الخناق حول رقبته حتى سقطنا على الأرض معًا. أنشبت أظافري في وجهه وكدت أقتلع إحدى عينيه، بل كنت عازمة على ذلك لولا تدخّل الضابط السوداني الذي نزع يديَّ عن وجهه بالقوّة.

- شرموطة بنت الشرموطة!

صرخ يشتمني بالعربية وهو يمسح الدم والتراب عن صدغه. لم أقصّر في الردّ عليه وشتمه. أخذوني إلى حبس انفرادي لثلاث ليالٍ أعادوني بعدها إلى الخيمة بعد توجيه إنذار مغلظ. لفتت الحادثة الانتباه إليّ، وإلى أوضاع الأسيرات في المعسكر على نحوٍ خاصٍّ.

ذاع بين الجند والأسرى أن الملازم أبراهام تحرش بي، فاستدعاني قائد المعسكر العقيد قرقيس وطلب مني، في حضور الضابط البجاوي

الذي استقبل شكواي، أن أشرح له سبب هجومي على الملازم أبراهام. خمّنت أن الضابط البجاوي قد يكون وراء هذا الاهتمام المفاجئ. كنت في حالة يأس، فأبعدت الخجل وأخبرته بقصّة الاغتصاب من الألف إلى الياء. استمع إليّ ولم يعلّق، ثم شكرني وطلب مني العودة إلى عملي.

تحسّنت المعاملة قليلًا بعد تلك المقابلة. قلّت ساعات العمل في مقالع الحجارة بالنسبة لنا نحن النساء، وصارت تنتهي عند وقت الغداء. وتحسّنت وجبات طعامنا، وكذلك الرعاية الطبية التي تقدّم إلينا. واستمر ذلك حتى دخلنا الإجازة الإجبارية خلال أشهر الهبباي.

ذات ليلةٍ رأيت أبي في المنام، على جلبابه أثر دم وعلى رأسه عصابة حمراء، بيد أن ملامح وجهه غائمة لا يبين منها شيء. كان صوته واهنًا يردّد عبارته الأثيرة: «إن ربي لطيف لما يشاء»، واستيقظت على وقعها مغمومة ثم غلبني النوم. خرجت لأجلس أمام الخيمة بعض الوقت. أتسرّى برؤية الجنود ينوسون في أرجاء المعسكر أو يقيمون حلقات رقص وغناء يزجون بها الوقت. ليالي الهبباي لطيفة، وغير مثقلة بالأتربة مثل نهاراتها. ما إن عبرت باب الخيمة حتى فاجأني وجود حارس جديد، لم نره من قبل. وجدته يجلس طاويًا قامته المديدة فوق كرسي من الخيزران. كان نائمًا، رأسه يميل على كتفه اليسرى ويداه تحيطان بسلاحه فوق حجره. خِفت وهممتُ بالرجوع، لكنه استيقظ على صوت حركتي واستوى في جلسته فزعًا. وسألني محاولًا استرداد رباطة جأشه:

- إلى أين؟
- أخرج لأشمَّ الهواء. هل مُنعنا من ذلك أيضًا؟
- ممنوع التجوّل، إبقَيْ في حدود الخيمة فقط.

مرت برهة من الصمت انشغل فيها بإصلاح لباسه ورباط حذائه وتفقد سلاحه، بينما رحت أتأمل نصف القمر الصاعد في السماء وغلالة الضوء المنشورة منه في أرجاء المعسكر الساكن، إلا من حركة خفيفة

للرياح تعبث بأطراف الخيام وتخفق بها الأعلام المنصوبة هنا وهناك. لم أكن في مزاج جيد للدخول معه أو مع غيره في مشادات، فقرّرت أن أعود. لكنني سمعته يقول:

- هل لديكم ما يؤكل؟ أشعر بالجوع!

عدت إلى الخيمة وجئته بعشائي البارد الذي كانت آمنة قد وضعته إلى جواري ونامت. كان طبقًا من الخبز المبلل بحساء العدس، ولم أجد رغبة في أكله. شعرتُ بنوع من العطف عليه. جلستُ على الأرض عاقدة ذراعيَّ حول ساقيّ، ورحت أتأمّله على مسحة الضوء الخافت التي تدهن جسمه وهو يأكل. كان لونه عسليًا صافيًا يميل إلى السمرة، أما تقاطيع وجهه الأمرد فإفريقية جميلة، جمالًا يقرب أن يكون أنثويًا. عيناه مشروحتان في وجه مستديرٍ رخوٍ لا يشبه وجوه العسكريين، وشفتاه ممتلئتان، وأنفه صغير كأنه لطفل. لعله شعر باستغراقي فيه فشملني بنظرة جانبية من تحت جفنه الناعس. بدا لي أنه يختلف عن بقية الحراس. سألته:

- ما اسمك؟

- ماثيو، تستطيعين أن تناديني (ماس) كما يفعل رفاقي.

وعندما سألته من أيّ البلاد، ازدرد لقمة، وقال من دون أن ينظر إليّ.

- من جبال النوبة.

- دعني أخمِّن أين تقع هذه الجبال بالتحديد، إنها في الغرب، صحيح؟

- إنها في الجنوب الغربي إن أردتِ الدقّة.

- وما الذي جاء بك من هناك؟

لم يُجب بشيء. مرّت برهة من الصمت كان يلملم فيها آخر ما بقي في الطبق البلاستيك من فتات الخبز. غسل الطبق من إبريق ماء كان إلى جواره ثم مده إليّ مع نظرة امتنان.

- كنت أقاتل من أجل شيء أعرفه جيدًا، أما الآن فإنني...
توقّف كأن أحدًا قاطع كلامه، ثمّ أضاف:
- نسيت أن أسألك عن اسمك، سامحيني!
- اسمي عرفة.
- اسمٌ جميل.
- من أي منطقة أنتِ؟
- أنا من عقيق.
- عقيق ليست بعيدة من هنا؟
أومأت موافقة. وقف على ساقيه، فتمدّد شاهقًا في فضاء المكان حتى بدا لي أنه يمكنه أن يلامس نصف القمر الصاعد في السماء. أصلح هيئته ووضع سلاحه على كتفه ثم خطا نحو الساحة. ظننته غادر، لكنه بلغ وسط الساحة واستدار عائدًا. رحت أتأمّل قامته الجميلة وهو يذرع المسافة بين الخيمة ووسط الساحة بخطوات واسعة ثابتة، كأنما يعرض نفسه أمام حشدٍ لا يُرى.

(17)

كانت الأخت مارتا قد وبّختها قليلًا، بسبب بعض الأعمال التي لم تفعلها كما قالت لها تمامًا. لكنها تعرف أن الأخت مارتا، مع ذلك، طيّبة القلب. وقد ذكّرتها بالأستاذة بثينة، تلك الإنسانة الطيبة، مع أن كلامها الحازم يجعلها تبدو غير ذلك. تذكّرت يوم أغلقت مكتبها أواخر الصيف الماضي وقرّرت أن تغادر إلى الخرطوم نهائيًّا.

كانت عرفة تساعدها في حزم بعض الملفّات والكتب وتجهِّز الأثاث وتنظّفه لأن مالكًا جديدًا سيحل فيه. وسألتها:

- سُمعتك المهنيّة ناصعة ولا يخدشها شيء يا أستاذة، فلماذا تريدين ترك المدينة التي تعرفينها وتعرفين أهلها إلى مدينة ستكونين فيها غريبة؟

- أرغب في خوض انتخابات نقابة المحامين هذا العام، وإن نجحت سأتفرغ تمامًا للعمل السياسي!

- نعم، أظنك ستنجحين في هذا!

ابتسمت بثينة وهي تنظر في وجهها.

- إذا أحببت أن تنتقلي معي سيسرّني ذلك. فإن وافقتِ أرسل إليك عندما تكون الأمور جاهزة. ما رأيك؟

- الآن لا نية لي. لعلّي أفكّر في الأمر لاحقًا.

كانت الأستاذة بثينة كريمة معها وهي تغادر. منحتها راتب ستة شهور حتى تتدبّر أمورها إلى أن تجد وظيفة جديدة. جاءها المال في وقته. اشترت هاتفًا محمولًا. انتقلت إلى المبيت مع صديقتها الإرترية سارا، واقتسمت مع صديقتها الأخرى طيبة عملها لبعض الوقت حتى دبّرت لها سارا هذه الوظيفة في كنيسة العذراء. جرت الأمور كما لو أن الأقدار كانت في صفّها هذه المرة.

والآن، تأقلمت مع حياة الكنيسة رغم غرابتها. ساعدها في ذلك لطف الأب فانوس وعطفه، وتفهّم الأخت مارتا رغم غلظتها أحيانًا. ذات مرة، كانت في مكتب الأب الكاهن، تجمع بعض الأردية الكهنوتية والتونيات المعلّقة لأخذها إلى الغسيل مثلما علّمتها الأخت مارتا، لكن بحذر شديد لكي لا تزعج الأب فانوس، الذي كان جالسًا خلف المكتب يقرأ شيئًا ما باهتمام واضعًا نظارته المذهّبة المستديرة فوق أنفه الكبير، وشفتاه تتمتمان بكلمات غير مسموعة وتحرّكان لحيته البيضاء الطويلة. كانت الأخت مارتا تطبع شيئًا على الآلة الكاتبة عندما سمعت الأب يقول:

- توجد إضبارة داخل ذلك الرف الزجاجي مكتوب عليها «Scholarship»، هاتيها!

وأشار بسبابته الممتلئة إلى رف زجاجي صغير بمصراعين، ومعلّق على الحائط المقابل لمكتبه. كان الرف مليئًا بالإضبارات، وأغلبها متعلّق بالمساعدات الكنسية والتبرّعات وحملات الدعم الاجتماعي كما هو مكتوب على أغلفتها. عثرت على الإضبارة بسهولة، ثم انتبهت وهي تغلق المصراع الزجاجي إلى ورقة صغيرة بيضاء ملصقة على الإطار السفلي للمصراع، مطبوع عليها عبارة «تبرّعات المؤمنين». جاءته بها ووضعتها أمامه برفق. نحّى النظّارة عن وجهه، ثم قال بلطفه المعهود.

- هل تقرأين الإنجليزية يا حياة؟

يحب أن يناديها دائمًا باسمها الحقيقي، ويراه جميلًا.

- قليلًا...

قالت. علت وجهه ابتسامة ودودة وهو يرفع رأسه.

- علمت من الأخت مارتا أنك تركت الدراسة منذ وقت طويل، لماذا فعلت ذلك يا ابنتي؟

- تركتني هي يا أبتِ!

وأرادت أن تكمل في شرح الأسباب. لكنها لم تكن تريد الحديث عن ظروفها.

اتسعت ابتسامته وتحولت إلى ما يشبه الضحك، لكنها ضحكة قصيرة هادئة، تحسبها ساخرة أول الأمر.

- ولماذا تركتكِ؟

- ربما رأت أنها لا تناسب واحدة مثلي، يتيمة وتبيع الشاي وتنظّف البيوت وتغسل الملابس!

أدارت الأخت مارتا وجهها بحدّة، وكانت نظرتها غاضبة. أشار إليها الأب فانوس بيده كأنما يقول لها: على رسلك.

- الرب يسوع كان يأمر تلاميذه بالتعلّم والعمل في آن معًا، وكذلك النبي محمد، من دون أن يحطًّا من قدر العمل، أي عمل. لقد كان المسيح نجارًا والنبي محمد راعيًا، أليس كذلك؟

أومأت برأسها، فاستطرد.

- «ليس للإنسان أفضل من أن يأكل ويشرب، ويُري نفسه الخير من كدّه»، كما يقول الإنجيل المقدس.

- جاهدت لكي أعود إلى مقاعد الدراسة يا أبت، لكن الظروف لم تساعدني.

- لم يفت الأوان بعد. هل تمانعين في الالتحاق بمدرسة تتبع للكنيسة مثلًا؟

- ولماذا أمانع؟ أليستْ مدرسة؟

- بلى يا بنيتي، هي كذلك.

أحدثت تلك المحادثة القصيرة أثرًا كبيرًا على حياتها اللاحقة. أعفيت، بتوجيه من الأب، من بعض الأعمال، ومنها تنظيف باحة الكنيسة، تلك الباحة الواسعة التي تحيط بالمصلّى من جهاته الأربع، وتستغرق نظافتها نصف نهار بأكمله. مُنحت جزءًا من تلك الساعات، بأمر من الأب فانوس أيضًا، لمواصلة دراستها، وساعدها في الالتحاق بمدرسة الأسقفية الثانوية التي تتبع للكنيسة الإنجيلية السودانية، وتقع على بعد شارعين من كنيسة العذراء. تذهب في الثالثة عصرًا وتعود بعد السادسة مساء.

أخبرها مستر موقا مدير المدرسة، من اليوم الأول، أنهم يدمجون مقررات السنوات الثلاث للمرحلة الثانوية في مقرّر واحد ذي مساقين، أدبي أو علمي، ويمكنها متى ما شعرت بأنها جاهزة للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية، إبلاغه بذلك قبل وقت كاف ليتمكّن من اتمام اجراءات تسجيلها للامتحان. راحت تقسم وقتها بين العمل في الصباح والدراسة في المساء، ومراجعة دروسها خلال الليل.

كان للأخت مارتا سهم أيضًا في تيسير الأمور. لقد جاءت ذات صباح بإيڤانا مثلما جاءت بها. إنها فتاة من جنوب السودان تبدو في الثامنة عشرة من عمرها أو أزيد قليلًا. سوداء، لامعة السواد، نحيلة جدًّا وطويلة الأطراف مثل تمثال من الأبنوس، لها عينان واسعتان، دعجاوان، ووجه صغير مستدير مثل كرة. تجيء مع شروق الشمس وتغادر عند الظهر. منطوية على نفسها ولا تتحدّث مع أحد في الغالب. تنجز عملها من دون تراخٍ أو كسل، وهي مخلصة فيه على نحو يثير الإعجاب.

اقتصر عمل عرفة على ترتيب الغرف الملحقة بمصلّى الكنيسة، حيث يوجد مكتب الأب فانوس والمخبز والمكتبة والمتحف الصغير، الذي يضم مقتنيات الكنيسة منذ تأسيسها، وآثار الآباء الراحلين ومتعلّقاتهم ورموزهم الكهنوتية وصورهم. لم يكن عملًا شاقًا بقدر ما كان مسلّيًا ومثيرًا للفضول.

ذات مرة، وجدت على أحد الأرفف مصحفًا مكتوبًا بخط اليد، ومغلفًا بغطاء من جلد الماعز، وكتابًا ذَا غلاف أزرق باهت وأوراق صفراء، ومسبحة من العقيق. كانت قصاصة صغيرة بارزة من داخل الكتاب الأصفر تتضمّن العبارات التالية: «هذه المقتنيات هدية من الشيخ حامد بن الشيخ عمر بن الفقيه محمود إلى الإنبا مرقس صرابامون الذي زاره في خلوته بمنطقة عقيتاي سنة 1934، وقد زاره الشيخ في كنيسته سنة، 1941 وأهداه نسخة من الكتاب المقدس وكتاب الكرازة الرسولية للقديس إرينيوس». لفتها ذلك وقرّرت أن تسأل الأب فانوس عن هذه الزيارة في يوم ما، ذلك أنّ الشيخ المذكور معروف في وادي العقيق كلّه، وتربطها به صلة قرابة.

أكثر الأوقات تسلية كانت تقضيها مع العم مينا في فرن القربان. كان قبطيًا خمسينيًا خفيف الظل. راح يشرح لها طريقة صنع القربان بصوته الهادئ، ذي القرار العميق الذي لا يتناسب مع نحوله الشديد.

- القربان عبارة عن قطعة خبز مستديرة الشكل، تمثّل جسد المسيح له المجد. نصنعها من القمح والماء والخميرة ثم نضعها في الفرن. هذا ما نسميه القربان المقدس، الذي يضع الأب قطعًا منه في أفواه المؤمنين عند المناولة.

راحت تتأمل كفيه المعروقتين وهما تعجنان قطعة الخبز على الطاولة، ثم مدَّدها لتصبح في حجم مقود سيارة. ختمها بعد ذلك بختم خشبي كبير عليه صلبان ونقوش بلغة غريبة، بينما راح يشرح لها بعض الطلاسم، وتفاحة آدم تصعد وتهبط في عنقه.

- هذه النقوش باللغة القبطية، وتعني «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحي الذي لا يموت»؛ وأما الصلبان، فالكبير يرمز إلى المسيح له المجد، والصغرى الكثيرة ترمز إلى تلاميذه الإثني عشر.

- ولماذا يأكلونه؟ كيف يأكلون جسد المسيح؟

- إنه تعبير رمزي عن آلام المسيح التي تحمّلها من أجل خطايانا!

***

يحرص الأب فانوس على المجيء إلى الكنيسة صباح كل سبت. يُعدّ لقداس الأحد والعظة التي سيلقيها أمام المؤمنين، ويتأكد من بعض الأمور الصغيرة التي يعتقد أنها مهمة. بيد أن هذا الاهتمام أخذ منحًى آخر خلال الأسابيع القليلة الفائتة مع انعقاد مباحثات سلام بين الحكومة والمتمرّدين الجنوبيين في كينيا. لم تكن الكنيسة وحدها تهتم، بل كانت المباحثات مثار اهتمام البلد كلّه.

مظاهر الاهتمام تبدت في كل مكان. الأعلام في الشوارع وفوق الأبنية الحكومية وحتى فوق برج الكنيسة. التلفزيون يضج بالأغنيات والأناشيد وصور أعضاء من الحكومة ومن كبار الضباط، وأيضًا زعماء التمرّد السابقين، يظهرون كأبطال سلام.

صار الأب فانوس يحضر، أو يرأس، اجتماعات كثيرة تنعقد في باحة الكنيسة أو مكاتبها أيام السبت، وأحيانًا في آيام الآحاد بعد القداس، ثم تعدّدت اللقاءات كل يوم خلال ساعات المساء من دون ترتيب مسبق. أغلب الحضور من طوائف مسيحية عدة من جنوب السودان وجبال النوبة والأقباط الأرثوذكس بالإضافة إلى بعض رجال الحكومة من المسلمين. وبحسب ما كان يتناهى إلى سمع عرفة من خلال المناقشات أنهم يعدّون لاحتفالات ضخمة ابتهاجًا بالسلام الذي سيتحقّق بعد عقود من الحرب.

أجواء الحرب والسلام أعادت إلى ذاكرتها كل المشاهد القاتمة التي عاشتها خلال تلك الرحلة المشؤومة في وادي العقيق. إنه الجانب غير المرئي من الحرب على كل حال، وكانت تفكر في أن معظم الذين رأتهم في تلك الاجتماعات لا يمكنهم تصوّر الحرب على ذلك النحو الذي رأته. ولو أنها أخبرتهم عنه، مثلما عاشته، لربما كذّبوها واتهموها بالمبالغة.

كلما جاءت سيرة الحرب، شقيت وحدها بوطأة تذكّر تلك الليالي الطويلة، وراحت مشاهد التعذيب والسخرة والاغتصاب التي عاشتها تطاردها مثل طيور خرافية جارحة. كانت أحلامها عبارة عن كوابيس لا تنقطع من المطاردات، لأولئك الذين اغتصبوها وعذّبوها، كما لأولئك الذين قتلتهم. تفيق منها مرهَقة ومكتئبة.

لكن المدرسة، والعمل الذي تقوم به، كانا يمنحانها شعورًا بالأمل والراحة. في ذلك اليوم كلّفتها الأخت مارتا بعمل لم يسبق أن كلّفتها به استعدادًا لقداس السلام الذي سيرأسه الأب فانوس في صباح الأحد التالي. فقد كلفتها بتنظيف خورس الشمامسة القريب من المذبح، والذي يشبه في ذهنها خشبة مسرح، ومقاعد المصلّين وأرضية المصلّى، وتلميع النجفات والشمعدانات واللوحات والمناور الزجاجية الملونة المليئة بالرسوم، بعد أن جاءت بعمال أعادوا طلاء السقف والحوائط ومقاعد المصلّين.

استيقظت مبكرًا ودخلت مصلّى الكنيسة للمرة الأولى مذ جاءتها. دائمًا ما كانت تشعر بالرهبة لدى رؤيته من خلال النافذة أو الباب، وتتجنّب

دخوله. لكن هذه المرّة لم تكن قادرة على تجنّب ذلك بعد أن طلبت منها الأخت مارتا تنظيفه.

لم تكن تعرف معنى تلك الأشياء والرسومات. لكنها وجدت متعة في تأمل التفاصيل العريقة للمصلّى من الداخل. لوحات المسيح والعذراء المزيَّفة، والمعلّقة بعناية على جنباته وحول المذبح المقدّس. يتوارى المذبح خلف حاجز من الخشب المنمنم بالزخارف، ستعرف لاحقًا من الأخت مارتا أنه يُسمى «حجاب الهيكل الشرقي»، ويفصل المذبح عن خورس الشمامسة، الذي تتناثر فوق أرضيته المجامر والمنجليات الصغيرة، وكرسي المطران الذي يحرسه تمثالان من الخشب لأسدين مقعيين. يتوسّط الحاجز باب مغطى بستارة حمراء ثقيلة عليها رسم العذراء والمسيح ويقود إلى المذبح. تحيط بالباب لوحات العشاء السري، ويوحنا المعمدان مع المسيح في النهر، ولوحات الرسل وتلاميذ المسيح، موزّعة بعناية داخل تجاويف حجاب الهيكل.

في نهاية المصلّى، عند الركن الأيمن، غرفة صغيرة تضم حوض ماء مستدير بغلاف من الرخام البُني، أشبه بالبئر. أخبرتها الأخت مارتا أنه يسمى جرن المعمودية، حيث يعمّد الأب المؤمنين الجدد بتغطيس رؤوسهم في الماء.

خرجت من المصلّى بعد أن أنهت عملها، عبر الباب الذي يقود إلى الممر الطويل الذي يتوسّط مكاتب الكنيسة وغرفة المكتبة، ثم ينتهي عند الباب الخارجي المطل على الفرن. وبينما كانت تجتاز الممر، تناهى إلى سمعها صوت أنثوي. توقّفت لبرهة ثم التفتت إلى الوراء. انتبهت إلى أن باب مكتب الأب فانوس موارب، والصوت الأنثوي ينساب مرتجفًا، عبر الممر. تملّكها الفضول فرجعت خطوات حذرة إلى الوراء، ثم توقفت على مقربة من الباب، وسمعت صوت المرأة بوضوح لا لبس فيه.

كانت المرة الأولى التي تتعرف فيها إلى ذلك الطقس المسيحي الذي يسمى الاعتراف. سمعت المرأة تقول أشياء لم تتصوّر أنها تُقال. أرعبتها

كلمات تلك المرأة أمام الأب فانوس، إلى الحدّ الذي شعرت فيه برعشة تنبت في أخمص قدميها، ثم تصعد ببطء عبر جسدها إلى فروة رأسها، مع كل كلمة كان يحملها الصوت المجروح، ساردًا تفاصيل خيانتها لزوجها خلال موجات متقطّعة من النحيب.

تملّكها شعور مبهم، أقرب إلى التبلّد منه إلى الوعي باللحظة وما يدور فيها. جمَّدها الذعر في مكانها، ملتصقة بالحائط. لا يزال صوت المرأة يسري عبر جسدها مثل قطع الزجاج المطحون. لعله كان خليطًا من الدهشة والذعر، وربما الخوف حين تخيلت نفسها مكانها. شعرت بأنها عارية، ومقرورة. تهالكت على الأرض ضامّةً ساقيها إلى صدرها واحتوتهما بذراعيها.

«قلت له مرارًا، إنني أشم الرائحة في جسدك وملابسك لكنه لم يكن يكترث يا أبتِ. يشيح بوجهه عني ثم يفتعل مشكلة ويغادر غاضبًا ولا يعود إلا في اليوم التالي. لم تكن رائحة واحدة ولا اثنتين ولا ثلاثًا، كانت روائح عدة لنساء كثيرات، لكن كان لها الأثر نفسه على جسده وعلى روحي. إنه أثر الخيانة. وذات يوم حزيراني قائظ، وبينما كنت أحاول تعليق ستارة، سقطت من فوق الطاولة، فالتوى كاحلي، وعجزت عن الوقوف. حملتني جارتي أم خليل إلى الصيدلي القريب من بيتنا، لن أقول لك اسمه، ولكن دعنا نسميه حنّا يا أبت. كان حنا وسيمًا، قوي البنية. أول ما أمسك بساقي، شعرت بكهرباء غامضة تسري في جسدي. مسَّد ساقي جيدًا بمرهم منعش ثم لفه برباط مطاط وتركني أذهب. رحت أتردّد على الصيدلية لمتابعة حالة قدمي، وراح يعاين ساقي في الغرفة الملحقة بالصيدلية التي لا يدخلها الزبائن، ثم يوصيني بما يجب عليَّ فعله. خفّت قدّماي لكني لم أنقطع عن زيارة حنا وصيدليته. غلبني الشيطان يا أبت. قال لي في ذلك اليوم المشؤوم: وجهك مثل قمر، لكنه قمرٌ حزين. دعيه يرى الدنيا كما لم يرها من قبل. ثم مسح بظهر كفه على خدي ورقبتي، فشعرت برعشة، وشهقت، ثم وقع ما وقع يا أبت. إسأل لي الرب يسوع ليشملني بمغفرته».

أكملت المرأة تروي ما حدث لها بكل تفاصيله، مثلما وقع تمامًا، حتى شعرت عرفة بالخجل من أجلها. كانت كلما حاول الأب فانوس مقاطعتها وتحويل مجرى حديثها إلى اتجاه آخر كي لا تسترسل في التفاصيل، تعود إلى روايتها. وأنها لم تكن تشعر قط بتأنيب الضمير وهي تخون زوجها بشارة، إلا بعد أن اكتشفت مصادفة أنها مصابة بسرطان عنق الرحم. صمتت قليلًا ثم قالت بين نوبات النشيج المتّصلة، إنها وجدت ما تستحقه أخيرًا بسبب خيانتها.

كانت عرفة تسمع نحيب المرأة وأزيز مكيف الهواء، قبل أن يحمحم الأب فانوس ويتلو شيئًا من الكتاب المقدس بصوت متحشرج، وأنفاس متلاحقة: «... إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذبًا، وكلمته ليست فينا».

- هل أنت نادمة فعلًا على اقتراف الخطيئة؟ الرب يحب أن يكون أبناؤه صادقين.

قال الأب فانوس بصوته المتحشرج ذاته، ولم تسمع عرفة رد المرأة المعترفة. لعلها أومأت برأسها، أو لعلها لم تجِب. قال الأب بعد برهة صمت قصيرة.

- فليسامحكما الرب يا ابنتي، فليسامحكما الرب.

فُتح الباب الخارجي في نهاية الممر بغتة، ودخلت منه الأخت مارتا، تتبعها إيڤانا، ورجل آخر يبدو من هيئته أنه تقني جيء به لإصلاح شيءٍ ما. استندت عرفة إلى الحائط وهمت بالوقوف. نظرتْ إليها الأخت مارتا بازدراء ثم نقلت بصرها إلى الباب الموارب. ارتفع نحيب المرأة فجأة. أدركت الأخت مارتا أنها جلسة اعتراف، فأشارت إليَّ عرفة إشارة صارمة لكي تغادر في الحال، وإلى إيڤانا والتقني اللذين يرافقانها ليتبعاها. اتجهت عرفة ناحية الباب المؤدّي إلى مصلّى الكنيسة. وهربت إلى غرفتها.

بقيت شهورًا مأخوذة بسرّ الاعتراف تفكّر فيه، وتتعجّب من شجاعة الناس في أن يتعرّوا جملة، ويضعوا أسرارهم الشخصية وحيواتهم الخاصّة بين يدي شخص آخر، من دون أن يعتريهم خوف أو خجل.

(18)

كانت النهارات تمضي ثقيلة، على الرغم من أننا في راحة مفتوحة من العمل المضني في مقالع الحجارة، بيد أن لياليها التي كنت أقضي أغلب ساعاتها في مؤانسة ماثيو كانت بهيجة، ذلك أن لماثيو حضورًا آسرًا، وسحرًا في الحديث. وجدتني مأخوذة به منذ الليلة الأولى.

أدهشتني معرفته بأشياء كثيرة كنت أجهلها، وكذلك سعة اطلاعه وقدرته على تلخيص المشكلات التي يعاني منها بلدنا. فهمت من خلاله أسباب هذه الحرب. حدّثني عنها بأسلوب بسيط وغاية في الوضوح، وقد كانت المرة الأولى التي أعرف فيها شيئًا عن شعوب بلدنا وأقاليمه المترامية وتعقيداته السياسية وحروبه العبثية، وما كنت أتخيّل أنه كبير وخرافي إلى هذا الحد.

الكثير مما كان يقوله ماثيو لم أكن أفهمه أو أضعه في سياقه المناسب ضمن السياقات العديدة التي كان يحاول شرحها بتبسيط شديد، بيد أني كنت قادرة على تخيّل بلدنا كساحة حرب كبيرة لم تهدأ منذ عقود، من دون أن تخلّف منتصرًا أو مهزومًا، على الأقل بحسب ما كان يرويه.

كان مرحًا وخفيف الدم أيضًا. يضحك من قلبه حين تطربه ذكريات حلوة، ويبكي مثل الأطفال حين يتذكّر أمه الرتينة وشقيقته زارا التي تركها مريضة. كان له صوت هادئ وعميق مثل أصوات مذيعي الراديو، وإن كانت تخالطه نبرة حزن. سألني مرة عن أصول أهلي وقبيلتي فأجبته. ثم سألني:

- إلى أي حدٍّ تحبّون بعضكم بعضًا؟

- نعم، نحبّ ولا نحبّ، مثل كلّ الناس. لكننا نحبّ أرضنا كثيرًا.

- هل تحنّين إليها وإليهم؟

- نعم أفعل. لا سيما في هذا المكان القاسي.

- هو ذاك. في أوقات الشدّة يتذكّر الإنسان أرضه وأهله، ويتمنّى أن يكونوا إلى جانبه. أما في أوقات رخائه فيغيبون عن خياله.

- ماتت أمّي وغُيّب أبي، ولا أجد طعمًا لشيء.

- ستعتادين مع الوقت وتنسين.

سألني عن رأيي في الحرب، وما إذا كانت طريقة جيّدة للتعبير عن المظالم. فقلت:

- لماذا يجب أن تقوم حرب من الأساس؟ لماذا لا تذهبون إلى الحكومة وتتفاهموا معها؟

لعله ضحك ساخرًا داخل نفسه، قبل أن يردّ:

- ليت الأمر بهذه البساطة الجميلة يا عرفة. نحن نتقاتل لأننا لا نستطيع الحديث إلى بعضنا!

- وأيهما أسهل بربك؟

- الحرب طبعًا!

- الحرب؟

- نعم الحرب، لذلك هي تقوم دائمًا. من السهل أن آخذ ما في يد إنسان آخر عنوة، لكن من الصعب إقناعه بالتنازل عنه. التفاهم يعني الاعتراف والندّية، والإنسان بطبعه يحبّ أن يكون ندًّا للقويّ، ولا يبقى سوى الحرب كمحاولة وحيدة لإثبات القوة والندية، لذلك يأتي التفاهم بعدها.

- ومن ذَا يضمن نتيجتها في النهاية؟

- لا أحد. ولكن مهما تكن نتيجتها، فإنها تخلّف وراءها قدرًا عظيمًا من الأحقاد.

نظر في عينيّ وقال:

- لا تحملي حقدًا ولا تفكري في الانتقام إذا خرجت من هنا!

- وهل تعتقد أنني أستطيع؟

- الأمر صعب، لكن الأحقاد أصعب. إنها مرهِقة. مرهقة ولا تُحتمل.

جاءني ذات ليلة يحمل طبقًا كبيرًا من لحم الغنم ومعه سطل حليب وقدمهما إليّ. قال بصوته العميق الذي له رنين مثل اهتزاز الأوتار.

- يقول يسوع: «لقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام»، هذا لك ولرفيقاتك. أشكرن الرب على هبة الحياة.

ونقر نقرتين على صدره وثالثة على جبهته. دخلت بالطعام على رفيقاتي، فراحت آمنة تلمزني وتغمز لأمها.

- لقد حلب الحبيب شاة ثم ذبحها من أجل العينين الخضراوين.

وضحكت. ضربتها على كتفها، ثم تعاركنا فوق الأبسطة، فراحت ترفع صوتها لإغاظتي، ولكي يسمع ماثيو في الخارج.

- سأحكي لكنّ اليوم حكاية الأميرة والسجّان. كان يا ما كان...

أحطت عنقها بذراعي ثم وضعت كفّي على فمها. دفعتني بقدمها فتعثرت بفستاني الطويل ونزعته عن خاصرتي حتى بان سروالي الداخلي. قفزت عليها وأحطت عنقها من جديد. رنّت ضحكة جديدة في المكان بغتة، مثل أغنية قديمة لم تطرق الآذان منذ زمان بعيد. تركنا عراكنا والتفتنا إلى مصدر الضحكة، مندهشتيْن! فقد كانت ضحكة لم نسمعها من قبل. كانت أمينة لا تزال تضحك مثل طفلة، وتنظر إلينا. تملأ وجهها سعادة بريئة. قفزت عليها الأم الحزينة وأخذتها في حضنها باكية.

- هل تضحكين يا قلبي؟ هل تضحكين يا أمينة؟ يا لبخت أمك بخيتة. تفديها روحي هذه الضحكة. يفديها عمري كلّه.

وأحطناهما في عناق وبكاء جماعي طويل.

ثلاث وخمسون ليلة بالتمام والكمال، بدأت في إحدى ليالي حزيران/ يونيو من ذلك العام البعيد. غمرني فيها حضور ماثيو حتى امتلأت به. كان قد وعدني في الليلة الأخيرة قبل اختفائه أن يأتيني ببعض الكتب. أخبرني أنه لا يزال محتفظًا بها رغم رحلته الطويلة مع الحروب من مسقط رأسه في جبال النوبة، مرورًا بجنوب السودان ثم أثيوبيا ثم شرق السودان ثم إرتريا ثم شرق السودان مرة أخرى. قطع كل هذه

المسافات خلال سبعة أعوام، راكبًا على ظهور العربات العسكرية أو الدواب أو راجلًا أو زاحفًا، لكنه مع ذلك ظلّ محتفظًا بهذه الكتب. لم يأتِ في الليلة الموعودة وحلّ مكانه حارس آخر.

خرجت في الليلة نفسها مستطلعة، وسط سخرية آمنة ولمزاتها. كان الحارس الجديد من قوات الفتح السودانية هذه المرة. لم أسأله عن اسمه وإنما سألته عن ماثيو، فأخبرني أنه لا يعلم عنه شيئًا، وبعد إلحاح استمر ثلاث ليالي متتالية، أخبرني بحذر أنه سمع عن ترحيل ستة من مقاتلي الحركة الشعبية إلى داخل إرتريا على وجه السرعة، مجرَّدين من أسلحتهم ومتاعهم في ما يشبه الاعتقال، ولعل الذي أسأل عنه يكون أحدهم. صدمني الخبر، وأصابني بغمة، كتلك التي مررت بها عند اختفاء أبي. إلى أين تأخذ هذه الحرب الرجال؟

قالت الأم الحزينة مشفقة:

- احمدي الله أنه راح. أنت من ملة وهو من ملة أخرى؟ هل جرى لعقلك شيء؟

ولم أرد عليها. وجدت عزاء لنفسي الكسيرة في أخذ شأن الحرب على علّاته. ستبقى الحرب أبدًا هي الحرب، حتى لو قاتل في صفوفها شخصٌ رقيقٌ ولا يعرف الحقد مثل ماثيو.

في السادسة من مساء اليوم التالي ستحدث المفاجأة. حضر إلينا رقيب من الجيش الإرتري وطلب لقاءنا أمام باب الخيمة. كان بصحبته أحد مقاتلي البجا. ظلّت الطائرات الحربية الحكومية تحلّق فوق سماء تقدرا النهار كلّه مع انحسار موجات الغبار التي كانت في آخر أيامها. ظننا أنهما يرغبان في إبلاغنا إرشادات جديدة، لا سيما مع انتشار أنباء عن معارك وشيكة مع الجيش السوداني بعد انتهاء موسم الهبباي. بيد أن الرقيب فاجأنا بأمر آخر. قال إن التحقيقات قد وصلت إلى نهايتها أخيرًا، ويمكننا اعتبار أنفسنا أحرارًا منذ الآن!

- صحيح؟

قالت آمنة فرحة. فتح الرقيب ملفًا كان بين يديه وتلى علينا أمر الإفراج. أصابنا الإحباط بعد سماع الأمر، فقد كان مشروطًا بمقابلة محافظ المناطق المحرّرة لأنه المخوَّل بتوقيع الأمر النهائي بالإفراج. ولما رأى الرقيب حيرة في وجوهنا أشار إلى شاحنة عسكرية كانت تئز على مقربة.

- الرفيق شيبة سيأخذكن إلى السيد المحافظ.

- وماذا سنفعل عند السيد المحافظ؟ سألت الأم الحزينة.

فنظر الرقيب إلى رفيقه البجاوي وكأنما يعطيه إذنًا بالكلام.

- سيطلق سراحكن على الأغلب بعد أن يؤخذ منكن تعهدًا بعدم التعرض لقوات التحالف وبإطاعة الأوامر!

قالت الأم الحزينة:

- أي تحقيق وأي تعهّد؟ هل تعتقدون فعلًا بأننا اقترفنا جرمًا؟

- المحافظ واحد من أهلكنّ، ومهتم بأحوالكن وبالشكوى التي تقدمتن بها ويود السماع منكنّ. هذا كل ما في الأمر.

- ومتى قدّمنا شكوى؟

قالت الأم الحزينة التي لم أخبرها بشأن الشكوى التي تقدّمت بها إلى إدارة المناطق المحرّرة، فأدار الضابط البجاوي نظره ناحيتي كأنما يذكّرني. نظرَت إليّ الأم الحزينة نظرة حائرة، لكنّي قلت غير آبهة:

- أريد أن أعرف مصير أبي وبقية الرجال، قبل أن نتحرّك من هنا.

- كل شيء بيد السيد المحافظ.

قال الرقيب الإرتري قاطعًا على المقاتل البجاوي طريق الجواب!

- ولكنهم اعتُقلوا هنا.

- هذا صحيح، لكنهم لم يعودوا هنا الآن. يمكنكنّ طلب توضيح من مكتب السيد المحافظ.

- وأين يوجد مكتب السيد المحافظ؟

- في عقيق. إنها مسيرة ساعات قليلة.

انقبض قلبي عند ذكر اسم عقيق، وقفزت إلى ذهني صورتها يوم خرجت منها. عبرت بخاطري بيوتها المحترقة والمهدّمة. جثث وأشلاء متناثرة. بيتنا الذي تركناه على عجل. حقيبة كاروات حمراء. فستان ليموني معلّق على الجدار. أحذية لامعة. ساعة سيكو ذهبية. عينان خضراوان مطفأتان. نعش في العتمة. بدت كأنها أشياء من عصر آخر.

- هذه لعبة جديدة، لن أبرح هذا المكان حتى...

ضغطت الأم الحزينة على معصمي فسكتُّ ولم أكمل فكرتي. أفلتت من بين شفتي الرقيب ابتسامة قصيرة خبيثة، سرعان ما حاصرها بملامحه الصارمة قائلًا:

- الشاحنة في الانتظار.

حرنت في الخيمة، واضعة ذراعيَّ حول ساقيَّ، ورافضة الذهاب إلى أيّ مكان. وضعت الأم الحزينة يدها على رأسي ثم جلست إلى جواري.

- صدقيني يا ابنتي، لا فائدة من كل ما تفعلين. إما أنك طفلة أو أنك لا تعرفين الحرب. سيطلقون سراحنا عندما يريدون هم وليس لأننا مظلومات مثلًا.

- لن أذهب قبل معرفة مصير أبي!

- هذا سيعقّد وضعنا نحن، وسيعيدنا عامين إلى الوراء. لا تكوني حمقاء. تقتضي الحكمة أن نأخذ ما يعطوننا.

- لا أثق في هؤلاء القتلة.

- ولا أنا، لكن ما حيلتنا؟ بيدهم أمرنا، وهو أمر لا يهمهم؟

صعدت معهنّ إلى الشاحنة وقلبي معلّق بمصير أبي وبقية الرجال. لم أصدق أنني أغادر حقًا إلا حين رأيت أغراضنا القليلة مكوَّمة في وسط الشاحنة وهي تتأرجح شاقّة الساحة في طريقها إلى خارج المعسكر.

ونحن نمرّ بمقالع الحجارة حدّقت أمينة طويلًا في المكان، وظلّ رأسها يدور مع دوران الشاحنة حول الجبل. أما من جهتي فلم أكن أثق في أننا سنحصل على حريتنا بمكرمة منهم، أو بيقظة ضمير.

طالت الطريق الوعرة، وكلّما امتدّ الوقت أدركت أننا لا نتّجه إلى عقيق. كان ذلك مجرّد حيلة لنركب الشاحنة من دون زعيق واعتراض، بينما يأخذوننا إلى مكان آخر. سألنا الجنود الذي يحرسوننا فادعوا أنهم لا يعلمون شيئًا، وانتبهنا إلى حقيقة الوضع مع بزوغ الفجر وميلاد أول خيوط للضوء.

- إننا نقتربُ من عيتربة، وتلك جبالها التي أعرف. لقد توغلنا كثيرًا باتجاه الجنوب.

قالت الأم الحزينة. فأدرنا رؤوسنا باتجاه سلسلة الجبال والكثبان الرملية التي كانت تسابق شاحنتنا في الأفق. لم نلحظ ما يؤكّد صدق حديثها أو يكذّبه، إذ بدا لنا المشهد الممل نفسه الذي يمكن أن نراه في أي بقعة من هذه الصحراء. بيد أن الأم الحزينة قالت واثقة:

- لا تبعد عقيق عن تقدرا ليلة بطولها.

استغرقنا الصمت. نتأمّل القفار الممتدة في كل اتجاه بلا نهاية ولا مغزى. كان الغبار يصطرع في ما يشبه الاحتجاج، ويصبغ الأفق بلون أصفر مثير للكآبة.

بعد مسير ساعتين، لاحت لنا بيوت طينية وخشبية مدفونة إلى نصفها في الرمال، واستقبلنا بعض الرعاة والصبية الكالحين وهم عائدين من رحلة الماء بحميرهم.

- أقسم لكنَّ أن هذه عيتربة.

قالت الأم الحزينة وهي تشير إلى مئذنة مسجد قديم، عبارة عن هيكل من الحديد الصدئ قائم فوق بناء من الخشب يشبه صندقات الصيادين ويعلوه قمع مكبّر الصوت. سارت بنا الشاحنة قليلًا داخل البلدة المقفرة ثم سلكت طريقًا رملية تتجه غربًا حتى بلغت بنا بوابة معسكر، لا يبعد كثيرًا عن المدينة.

نزلنا من الشاحنة بالقرب من مكتب حجري مسقوف بالزنك وقريب من بوابة المعسكر ريثما يفرغ المقاتل شيبة الذي خفّ إلى أحد المكاتب القريبة من أجل الإبلاغ بالوصول.

حدّثتُ نفسي في أثناء ذلك أننا ربما على وشك أن نجتاز الشوط الأخير في هذه المأساة. لم لا نكذّب الظنون مرة واحدة ونفكّر في الأمر على نحو مختلف؟ ما الذي يجبرهم على الاحتفاظ بنا مزيدًا من الوقت؟ سيوبّخنا المحافظ قليلًا ثم يوقِّع على أمر إفراجنا وينتهي كل شيء، وشغلت نفسي بتأمل أفنية المعسكر التي بدت خالية في هذه الساعة، إلا من حركة خفيفة لبعض الجنود الذين ينوسون هنا وهناك.

- إن لم نسافر اليوم أو غدًا، ربما تندلع المعارك فينسون أمرنا.

قلت أختبر ما ظل يدور بذهني بينما كنت أتابع حركة الشاحنة خلف البوابة. كان السائق يحاول تعديل وضعها لتصبح باتجاه الخروج بينما خُيل إليّ أنني سمعت صوتًا ما صدر من فم الأم الحزينة، ولما نظرت إلى وجهها بدا محتقنًا وقريبًا من البكاء. قالت عندئذ بنبرة يائسة:

- وهل تظنّين ذلك؟ أنا أعرف أساليب الجبهة الشعبية أكثر مما أعرف طباع بنتيّ هاتين!

- ولماذا أخرجونا من هناك إذًا؟ ولماذا أعادوا إلينا أغراضنا؟ ولماذا جاءوا بنا إلى هنا؟ ولماذا أقنعتني بالمجيء؟

- إنهم يحبّون هذا النوع من التسلية، ونحن حمقاوات!

تلفتت حولها ثم أضافت:

- أخشى أن يكون كل هذا العذاب بسببي!

- ولماذا بسببك؟ ماذا فعلت؟

لاذت بالصمت ولم أسألها المزيد. أجّلت الأمر إلى وقت آخر. في الأثناء بدأت الريح الصفراء تغمر الأرجاء، قادمة من جهة الجنوب، خفيفة في البداية ثم شديدة بالتدريج، حاملة معها رملًا يحصب الوجوه. راحت الريح ترفع أثوابنا نحو الأعلى بفعل مزاحها الثقيل. لجأنا إلى حائط المكتب الحجري وتكوّمنا جالساتٍ عند قعره ومسدلات أغطية رؤوسنا على وجوهنا حتى عاد إلينا الجنود. أخذونا ناحية غرفة حجرية أخرى تبعد خطوات قليلة عن الغرفة التي نجلس بالقرب من حائطها.

دفعونا إلى داخلها ثم رموا إلينا أمتعتنا وأغلقوا علينا الباب من الخارج من دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. كانت الغرفة مظلمة تمامًا أول دخولنا، ثم تصدّع ذلك الظلام بشقوق طويلة حول بابها ونافذتها الوحيدة التي ترتفع عن الأرض بقامة رجل ونصف، وثقوب صغيرة أخرى في السقف كان الضوء يدخل منها مثل نصال لامعة. عاد ثلاثة من الجنود الإرتريين بعد نحو ساعة يحملون لنا إفطارًا وفرشًا وأغطية. وضعوه كيفما اتفق واستداروا ليغادروا، لولا أنني ضربت أحدهم على كتفه بحذر ثم ابتسمت في وجهه حين استدار تمامًا. حسر عن وجهه عمامة كان يلفه بها اتقاء الغبار.

- متى سنرى المحافظ؟

رفع كتفيه ومط شفته السفلى إشارة إلى عدم المعرفة، ثم أتبع ذلك بالقول:

- يزورنا المحافظ مرة كل أسبوع، ومرتين في بعض الأحيان، يجتمع بقائد المعسكر لبعض الوقت ويغادر.

طاف على وجوهنا بنظرة فضول قبل أن يتابع.

- وهل جئتن للقائه؟

سارعت الأم الحزينة إلى القول:

- بل هو الذي طلب لقاءنا، حين تراه أرجو أن تخبره.

هزّ رأسه علامة الإيجاب رغم أن تعبيرات وجهه بدت حائرة، ثم تبع رفيقيه وخرجوا، تاركين الباب مفتوحًا على مصراعيه.

(19)

كانت عرفة قد قرّرت في تشرين الثاني/ نوفمبر الفائت، أن تقدّم طلبًا إلى مستر موقا، مدير المدرسة الأسقفية، لإلحاقها بكشف الطلاب الجالسين لامتحان الشهادة الثانوية الذي ينعقد عادة منتصف مارس من كل عام. كانت في منتصف سنتها الثانية في المدرسة الأسقفية الإنجيلية التي تضم عادة من فاتهم قطار التعليم النظامي لسبب أو لآخر، وهي واحدة من جهود الكنيسة الإنجيلية لخدمة مجتمع المدينة والمسيحيين النازحين الذين هجَّرتهم ظروف الحرب الطويلة كما أخبرها الأب فانوس.

قدّرت أن الأشهر المتبقية كافية لتحسين موقفها في مادتي الرياضيات واللغة الإنجليزية، وهما أساسيتان في التقدير النهائي لطلاب الشهادة الثانوية، ولا يمكن لأي طالب راسب في أي منهما دخول الجامعة.

التقدير الذي أحرزته في الاختبارات النصفية التي سبقت الإجازة الصيفية لم يكن جيدًا كفاية، واضطرت إلى بذل جهود مضاعفة لإدراك ما فاتها.

كان مستر موقا مشغولًا طوال الأسابيع التي أعقبت بداية الفصل الدراسي الشتوي، ولم تجد فرصة مناسبة للحديث إليه. قررت في هذا اليوم أن تبقى بعد انتهاء الساعات الدراسية وخروج الطلاب في حوالى السادسة مساء، حيث يبقى مستر موقا إلى حدود الثامنة أحيانًا، مثلما أخبرتها سكرتيرته الجميلة سونيا.

كان مشغولًا مع ضيف له داخل المكتب منذ حوالى ساعة، فجلست تنتظر ريثما يخرج الضيف. غادرت سونيا قبل السابعة بدقائق قليلة بعد أن أعلمته بوجودها، وبقيت عرفة جالسة، تقتل لحظات الانتظار بتأمّل

الصور واللوحات التي تزيّن حوائط المكتب. كلّها تقريبًا، تتضمّن مستر موقا، إما جالسًا أو واقفًا وسط حشد من طلابه في احتفالات تخريج أو رحلات مدرسية أو أنشطة كنسية، وبعضها في أماكن لا تعرفها.

قبل الثامنة بقليل، خرج مستر موقا قاصدًا الحمام، وبدا محرَجًا من نسيان وجودها. اعتذر لها بلطف وطلب منها أن تنتظره في الداخل ريثما يعود.

دخلت مكتبه بحذر، ومشت بحذر أكبر بين صفّي المقاعد المتقابلة التي يتوسّطها سجّاد حال لونه من كثرة الوطء. زحمت أنفها رائحة عطر خفيفة. في نهاية الصف الذي إلى يمينها، عند مكتب مستر موقا، كان يجلس الضيف، يقرأ بعض الأوراق ويقلّبها. لم ينتبه إلى دخولها إلا حين جلست في المقعد المقابل له. صارت رائحة العطر أكثر قوة. نظر إليها نظرة قصيرة من فوق نظارة القراءة، ثم تابع قراءته حتى عاد مستر موقا من رحلة الحمّام.

- الأستاذ موريس عبده، مدرس اللغة الإنجليزية الجديد الذي سيباشر معكم يوم الاثنين القادم.

هكذا قدمه لها مستر موقا. ابتسمت حانية رأسها، وابتسم هو أيضًا. أزاح النظارة عن عينيه وأحاطها بنظرة مطوَّلة فاحصة أربكتها. في الأثناء قام مستر موقا في اتجاه الخزانة. استل إضبارة سوداء كبيرة وعاد إلى مقعده.

نقّل نظره بين عرفة والأستاذ، وقال:

- هذه عرفة، أو حياة، تلميذة نجيبة في السنة الثانية لكنها في حاجة لكي تنتبه إلى مستواها في اللغة الإنجليزية والرياضيات.

ثم قدّم له شرحًا مختصرًا عن حياتها السابقة أثناء الحرب وبعدها، مثلما روتها هي للأب فانوس، ملفّقة وزائفة، فقالت مقاطعة لكي لا يسترسل مستر موقا، أو يمطرها بالأسئلة.

- أنفقت إجازتي كلّها من أجل تحسين مستواي في هاتين المادتين مستر، ويمكنك اختباري إن شئت.

نظر إليها كلاهما نظرة فيها مزيج من الشك والعطف الأبوي، فقال مستر موقا وهو ينظر إلى ساعته:

- سنرى، ولكن لم تخبريني بعد سبب طلبك لقائي؟

قالت بعد تردّد.

- من أجل وعدك، أرجو ألا تكون قد نسيته؟

وجّه نحوها نظرة متسائلة، فأكملت:

- أطلب تسجيلي للتقدّم إلى امتحان الشهادة الثانوية.

نظر مستر موقا إلى روزنامة التقويم على مكتبه ثم قال وهو يهمّ بالوقوف:

- يبدو الوقت مبكرًا، سنتحدّث في هذا لاحقًا بعد أن نتأكد من صدق ما قلته. تأخر الوقت الآن.

وقف أيضًا المدرّس الجديد، موريس عبده، في اللحظة التي وقفت فيها على قدميها، وأشعل سيجارة. كان أطول بكثير مما بدا عليه وهو جالس، له وجه ممتلئ مستدير حول عينين مستديرتين أيضًا، وأنف صغير وشفتان ممتلئتان، ويقرب لونه من لون العسل الجبلي المشرَّب بالسمرة. ذكّرها على الفور بماثيو، خاصّة حينما تحدّث، وضحك. كان صوته عميقًا ودافئًا، وذا نبرة واثقة.

- عيناك جميلتان!

أومأت شاكرة وخجلى. أما الأستاذ، فعلى العكس، لم يكن خجولًا.

- كأنَّ لكِ في القوزاقيين عرقًا؟

لاذت بالصمت والحيرة، إذ لم تسمع بالقوزاقيين من قبل، ولا تعرف إن كانوا قبيلة أو فصيلًا من الطير أو شيئًا آخر، لكن أمّها من عائلة تسمى جركس، ماذا يعني ذلك؟ لعله رأى دهشة على وجهها فانصرف بالحديث إلى شأن آخر:

- سأراكِ مجددًا، ويمكنك طلب المساعدة في أي وقت.

ثم مدّ لها يده مصافحًا. كانت كفّه ناعمة وبضّة مثل كف أنثى. خُيّل لها أن نظراته كانت تقول شيئًا أعمق من حرارة المصافحة، ربما لأن صورة ماثيو كانت تملأ ذهنها بينما كانت تنظر في وجهه، وحين أقصت صورة الأخير عن خيالها، خطر لها أنها ربما توهمت ذلك. خرج ثلاثتهم بعد ذلك في سيارة مستر موقا الرمادية الصغيرة، ذات الصوت المزعج، وأوصلاها إلى كنيسة العذراء في طريقهما. رأت مستر موقا يرسم صليبًا على صدره عندما لاحت لهم الكنيسة.

- هل تقيمين هنا؟

قال الأستاذ موريس، ناظرًا إلى برجَيّ الكنيسة في الأعلى بينما كانت عرفة تترجّل من السيارة، فأجابه مستر موقا:

- يكفلها الأب فانوس الذي حدّثتك عنه.

هز الأستاذ موريس رأسه، وإن بدا لها النصف المواجه للضوء من وجهه ساخرًا، وتأكّد لها ذلك حين قال:

- كلهم يبالغون في أن تبدو دور العبادة فخمة وذات أبهة، بينما لا يتطلّب الأمر مثل هذا البذخ.

قال متهكمًا، وصمت مستر موقا صمتًا غامضًا. لم يثر الأمر اهتمامها أكثر من ذلك. توقّفت لبرهة حتى غابت السيارة عن ناظريها في عتمة المدينة الهادئة في تلك الساعة. نقلت بصرها منها إلى السماء المعتمة، التي تلمع في أفقها البعيد، من جهة البحر، بروقٌ متقطّعة، وتصلها منها دمدمة رعود بعيدة تمتزج معها أصوات غناء وضحكات آتية من مكان ما. كان الهواء باردًا وصافيًا، ويحمل شيئًا من رائحة البحر. بيد أن عطر الأستاذ لا يزال عالقًا في أنفها. خطر لها أن تتمشّى قليلًا ريثما تمطر، فلا يزال الوقت مبكرًا على النوم.

عادت من الطريق التي أتت منها حتى بلغت الرصيف المطلّ على الميناء. جلست على أحد المقاعد المواجه لأضوائها. عدد قليل من

البواخر كان راسيًا على الرصيف الشمالي، وكانت الرافعات الضخمة تُصدر جلبة خفيفة وهي تنقل البضائع من ظهور البواخر وتضعها على الرصيف. باخرة سوداء عملاقة أطلقت صفيرًا وهي تخرج من الميناء، يتقدّمها مركب إرشاد صغير يقودها إلى الخارج عبر خليج ضيق، يضيق أكثر عند المدخل ويتّسع بعد ذلك. كانت الباخرة تتبع مسار المركب الصغير وكأن عنزة تقود فيلًا.

بهرتها هذه المشاهد عند رؤيتها أول مرة برفقة السيدة رحمة، وشعرت وقتها بأن هذه البواخر التي تشبه قلاعًا ضخمة عائمة، تنطوي على أسرار العالم البعيد، الذي يقبع خلف تلك البحار الواسعة، ولا تزال تعتقد ذلك. أما عالمها فهو عالم الأسرار الصغيرة، التي تجعل من الحياة سلسلة من الألغاز التي تتشابه ولا تنتهي. كانت أمها تقول:

- أسرار المرأة الكبرى توجد في قلبها، وأما أسرار الرجال، فكلّها على قارعة الطريق!

كان أبوها يضحك ويتهكّم من حديثها، رغم شكّها الذي يكاد يقرب من اليقين بأنه متزوج عليها من امرأة أخرى، بيد أنه، في كل الأوقات، كان بارعًا في إخفاء الحقيقة وطمرها تحت ركام هائل من التصرّفات المريبة التي تقترب من الحقيقة وتبعد منها في الوقت نفسه. لست مثل أبي، قالت في نفسها، ولا مثل أمي، ولست مثل أي أحد آخر. الحياة التي عشتها مليئة بأسرار كثيرة. بعضها صغير، قد يسامحني عليه كثير من الناس، وبعضها الآخر كبير لن يغفروه. أدرك هذا وأخاف منه في الوقت نفسه، لكن ما حيلتي؟ هل كان بالإمكان تجنّب ما حدث، واختيار طريق أخرى غير التي سلكتها؟

صدر دوي هائل من جهة الرصيف كان له صدى يشبه دمدمة الرعد، خافت في البداية ثم تبدّد الخوف، لعل شيئًا ما سقط من الرافعة العملاقة على أرضية الميناء. تبعته جلبة أصوات بعيدة لأشخاص يتحدّثون، كان

ماء الخليج الصغير يحملها إليها. رحمة كانت تحب ولدها وتخاف عليه، وصنعت من أجله إمبراطورية هائلة من بائعات الشاي بامتداد المدينة لكي توفّر له البيت والمال وتقرّب إليه المستقبل، لكن ذلك كلّه لم يشفع لها. كان يظن بأن أمه عاهرة! سارا الإرترية غادرت أخيرًا إلى أستراليا بمساعدة من الكنيسة، وعطف الأب فانوس وبقي مكانها في البيت شاغرًا. عرضت عليها الأخت مارتا العمل مكانها. لم توافق ولم ترفض، وتركت الأمر معلّقًا إلى حين. الأم الحزينة وابنتاها اختفين، ولم يظهر لهنّ أثر، مثل أبيها الذي لا تعرف إن كان حيًّا أو ميتًا. أين يختفي الناس؟ فكّرت. هل تبحث عن عمتها بركة وأولادها؟ ربما يعرفن شيئًا عنه، أو لعله عاد بعد الحرب أو أثناءها. لكن أين تجدها في هذه المدينة الكبيرة، ومن أين تبدأ البحث عنها؟

بدأت تمطر. نظرت إلى السماء ثم إلى حبات المطر التي كانت تلمع تحت أضواء الميناء. تذكّرت يوم عثرت عليها دورية الشرطة وانتهى بها المطاف إلى سارا الإرترية، وانتهت تلك المصادفة التي حسبتها ورطة وشرًا إلى ما هي عليه اليوم. نهضت وقفلت عائدة نحو كنيسة العذراء. خطر لها وجه ماثيو وهي في الطريق، بسمرته الصافية وعينيه الواسعتين الحزينتين. هو أيضًا كان من الأشخاص الذين أضاعتهم خلال رحلتها المأساوية الطويلة.

عادت إلى غرفتها واستلقت على ظهرها فوق السرير، بكامل ملابسها المبللة بالمطر، تتأمّل السقف الرمادي الخشن، تتدلّى منه مروحة زرقاء مثل مشنقة. كانت تدور عكس عقارب الساعة، مصدِرة صريرًا خافتًا، ملأ جو الغرفة بإيقاع رتيب. نبعت صورة الأستاذ موريس عبده في ذهنها من جديد، لا سيما ذلك الجانب الساخر من وجهه حين رفع رأسه يتأمّل برجَيْ كنيسة العذراء. ثمة غموض في نظراته، لكنه غموض مشوب بالسحر. شعرت به حين نقل بصره من برجي الكنيسة إليها. التقت

نظراتهما لبرهة قليلة خلف دخان سيجارته، وعطره الأخّاذ. لعلها كانت جزءًا من ثانية أو نحو ذلك، بيد أنها فهمتها بطريقة أخرى. هل تعرف هذا الرجل من قبل؟ هل التقته في مكان ما؟ في زمن ما؟ شيءٌ ما فيه جاذب. لا تعرف ما هو. هل هو شبيه بماثيو، أم لونه أم نظراته أم صوته أم عطره؟ أم ربما عطفه؟ وربما هذه الأشياء مجتمعة، أو ربما حاجتها إلى رجل.

توقّفت المروحة عن الدوران فجأة مع انقطاع الكهرباء. أظلمت الدنيا تمامًا، إلا من أضواء البروق الخاطفة التي كانت تلتمع في الخارج ثم تغمر الغرفة بضوء شديد السطوع عبر فتحات الباب، حتى أنها رأت من مكانها عنكبوتًا تزحف سريعًا عبر الجدار نحو شق صغير عند زاوية الغرفة.

أسكن في كنيسة العذراء، لكنني لست قديسة مثلها ولا أمًا لنبي. راحت تقول لنفسها. أنا أم للقيطة كان اسمها مريم. الخراب الذي أصاب روحي كبير ولا يمكن ترميمه. أنا وحيدة، بلا أهل. الوحيد يبدأ من أول الطريق ثم يصبح رهطًا.

لا تدري لماذا ينتابها الآن شعور بأن علاقتها بالأستاذ موريس استمرار لعلاقتها بماثيو؟ فهل أحبت الأستاذ موريس أم إنها ترغب في أن تلتقي بماثيو مجدّدًا؟ مشاعرها في هذه اللحظة مضطربة وغير واضحة، لذلك تخاف منها. كل الناس الذين أحبّتهم وشعرت بالأمان في قربهم لم يحالفها الحظ لرؤيتهم مرة أخرى.

(20)

قضينا ثلاث ليالٍ من دون أن يكلّمنا أحد. وضعوا حارسين أمام باب الغرفة. ظل الباب مفتوحًا بعد الليلة الأولى، لكن غير مسموح لنا بمغادرة الغرفة إلا في أوقات محدودة خلال اليوم. كان المعسكر هادئًا إلا من زعيق بعض الجنود وصافراتهم المتّصلة، أو حركة شاحناتهم بين وقت وآخر. في الليلة الرابعة بدأت الأمور تتحرّك على نحو مريب.

كنّا نتهيأ للنوم حين شقَّ صمت الليل هدير شاحنات عبرت من خلال البوابة القريبة من غرفتنا، وكان واضحًا من ضجيجها أن عددها كبير. تزاحمنا على الباب لنلقي نظرة. اصطفت الشاحنات في وسط المعسكر، فحوّلت المكان إلى ما يشبه ساحة احتفال.

جلسنا على عتبة الباب، خلف الحارسين، نتأمّل المشهد. استأذن أحدهما رفيقه وانطلق بخطوات سريعة ليستطلع الأخبار. كان زعيق الضباط مسموعًا وهم يحثّون الجنود الذين يحملون أمتعتهم وأسلحتهم ويصعدون إلى الشاحنات في جماعات صغيرة صامتة، لا تصدر عنها إلا أصوات ارتطام الأمتعة وصناديق الأسلحة والذخيرة التي كانت تُحمّل معهم على ظهور الشاحنات. كان مشهدًا يشي بالرعب.

عند منتصف الليل، كانت جميع الشاحنات قد غادرت بما حملته من المؤن والذخائر والجنود الصامتين الذين لم يلوحوا لأحد بالوداع، وابتلعتهم العتمة. فرغ المعسكر تقريبًا من الجنود والمقاتلين، ولم يبق فيه إلا ما يكفي لحراسته. هكذا قال الحارس الذي غادر ليستطلع الأحوال، حين عاد إلى رفيقه بالأخبار ووجهه يمور بالقلق. أخبر رفيقه بفجائع كثيرة توتّر على إثرها وجه الرفيق الآخر. وستخبرنا الأم الحزينة بمضمون المحادثة التي جرت باللغة التغرينية الإرترية.

- معسكر مقالع الحجارة في تقدرا سقط في قبضة القوات الحكومية السودانية على نحو مباغت، ووقعت مذبحة كبيرة الليلة الفائتة. لا تزال القوات السودانية تتقدّم باتجاه مدينة عقيق، وقد طلبت قيادة التحالف الإرتري السوداني مَددًا من المقاتلين والذخائر استعدادًا للمواجهة التي لا مفر منها.

كانت أخبارًا طيّبة، لكن أكثرها أهمية بالنسبة لي، حين قالت:

- قتل عدد كبير من الضباط في المعركة، ومنهم الملازم أبراهام!

زفت إليّ الخبر ثم أخذتني في حضنها. ظللتُ ساكنة لبعض الوقت تحت تأثير هذه الأخبار التي قد تنهي مرحلة عذابنا. عبرت بخاطري صور متفرّقة لوجه أبراهام، لصدره العاري داخل بزّة ممزقة، لضوء فتيل يتراقص، لمسدس، لفتاة تئن تحت ثقله، لمعسكر مقالع الحجارة، ووسط هذا النثار من الصور زحمت أنفي رائحة فم مخمور.

على الرغم من الألم، رفعت يدي نحو فمي وأطلقت زغرودة طويلة، حادة مثل النصل، وشاركتني الأم الحزينة بزغرودة أخرى، وكذلك فعلت آمنة، وقام داخل غرفة الأسر مهرجان للزغاريد مثل إعصار يائس، بيد أنه بلغ حدودًا ما ظننا أنه يبلغها. أحاط بنا ضباط وجنود موتورون، وأخذونا على الفور إلى مكان آخر.

سرنا لأول مرة عبر المعسكر. أمكننا أن نتبيّن بعض التفاصيل رغم الضوء الشحيح. يتألف المعسكر من صفين متقابلين من الأبنية، فإلى اليمين كانت تقوم عنابر الجنود الكبيرة التي صعدوا منها إلى الشاحنات، وتقوم إلى اليسار غرف ومكاتب يبدو أنها تخصّ الضباط. أخذنا الجنود عبر الممرّ الواسع، القائم بين الضفتين حتى وصلنا نهايته عند المطبخ الكبير، ثم انعطفوا بنا إلى اليسار ناحية الجنوب. كانت أفنية المعسكر في تلك الجهة معتمة، ولا تتوفّر إلا على خيام متفرّقة وشاحنات عسكرية مدمّرة ومدافع قديمة. أخذونا إلى قبو تحت الأرض خلف تلك الأفنية مباشرة.

كان قبوًا معتمًا، وحارًا، وله باب واحد.

ونحن ندخل، قالت الأم الحزينة:

- دخلنا القبر بأرجلنا!

- ومتى كنّا خارجه؟

قالت آمنة ونحن نجتاز باب القبو انحناءً. جرّبت أن أعدل قامتي فضرب رأسي بشيء قاسٍ. صرخت وتهالكت إلى الأرض من فوري.

- يبدو أننا في قبر حقًا.

- نفعل حماقات غريبة أحيانًا. هل من عاقلة تزغرد في مثل هذا المكان؟

قالت آمنة فأضحكتنا جميعًا. قلت لها بينما كنت أبحث في العتمة عن الجدار لأسند إليه ظهري.

- لعلهم شعروا بالشماتة.

وبينما نحن نحاول تلمّس المكان في العتمة، تناهى إلينا صوت شخير خافت كأنه يصدر من شبح.

- لعلّه سجين سبقنا إلى المكان.

قالت آمنة، لكن ذلك لم يبدّد ذعرنا من المكان المعتم وأشباحه. دعتنا الأم الحزينة -كعادتها كلما ضاقت علينا الأحوال- إلى صلاة تنجّينا من غمّنا.. طلبت منا أن نردّد سبحان الله، والحمد لله، واستغفر الله، سبعين مرة لكل منها. أخذت هذه الصلاة منا وقتًا غير قليل. راحت بعد ذلك تردّد بعض الدعاء ونحن نؤمّن خلفها «آمين». على عكس المرات الفائتة، لم أكن واثقة من شيء هذه المرة، وإنما صلّيت معهنّ بحكم العادة، وحتى لا أثير جدلًا غير ضروري مع الأم الحزينة.

عندما انتهينا من تلك الصلاة، تساءلت:

- أين المحافظ الذي أتينا للقائه؟ ألم يجلبونا من تقدرا من أجل هذه الغاية، أم أنها أكاذيب كما العادة؟

- ربما يأتي غدًا أو بعد غد، فلننتظر!

قالت آمنة بصوتٍ خفيضٍ:

- هل أنت متفائلة؟

- لست متفائلة، ولكنّي أحاول الاحتفاظ ببعض الأمل. ماذا ينفعهم وضعنا هنا في هذا القبو؟

- لا أعرف السبب، لكن اشتداد المعارك قد يؤدّي إلى تبديل في وضعنا. ولو كان نحو الموت، لا يهمّني المهم أن ننتهي من هذا العذاب...

قالت آمنة بعد برهة صمت.

- أظنهم يحاولون تأديبنا وحسب. أتوقّع أن يفرجوا عنا في الصباح أو خلال المساء التالي على أقصى تقدير!

ضحكت الأم الحزينة من أنفها ساخرة:

- أنتما صغيرتان، ولا تعرفان الجبهة الشعبية كما أعرفها. سجنها أبديّ، والذي تُدخِله تحت الأرض لا تُخرجه منها... أبدًا!

في كل مرة وددت فيها سؤال الأم الحزينة عن سر معرفتها بسلوك الجبهة الشعبية واللغة التغرينية وأشياء أخرى كثيرة ظلّت تحيّرني، كنت أتراجع خوف أن تظنّ أنني أتهمها بشيء. لكنني هذه المرة عزمت ألّا أفوّت الفرصة، وقررت أن أسألها فهذه مناسبة للسؤال.

جلستُ متحفّزة في العتمة وكأنها تراني، يدايَ حول ساقيّ ووجهي في الاتجاه الذي يأتي منه صوتها لأقول لها ما دار بخاطري. خبط شيء على وجهي خبطة كالصفعة. سمعت على إثرها صوتًا مثل صرير الفأر، فوضعت يديّ على وجهي ورفستُ وصرختُ من الفزع. استيقظتْ أمينة المسكينة على وقع صرختي، مرعوبة تبرطم بكلام غير مفهوم. ما إن هدأت حتى سألتني الأم الحزينة عمّا حدث لي، وقبل أن أجيبها صرخت آمنة هذه المرة وقالت إن شيئًا ما ضرب رأسها، وعادت أمينة إلى الصراخ مرة أخرى وتملّكنا الذعر.

وجاءنا صوت امرأة من مكان لم نكن نراه في القبو:

- هذا خفاش يسكن القبو. إنه على هذه الحال منذ أن وضعوا بابًا لمدخل القبو. يحاول الخروج ولا يجد سبيله.

- بسم الله الرحمن الرحيم، من أنت؟ صرخت الأم الحزينة.

- أنا مجندة، وسجينة.
- ومنذ متى أنت هنا؟
- منذ وقت طويل. المهم، لا تجلسن ولا تقفن في العتمة حتى لا يخبطكن الخفاش.

***

أشرقت الشمس وانفتح باب القبو. اتسع قليلًا، وتحدّدت أبعاده تحت الضوء الكثيف الذي تدفّق من الباب. إنه فعلًا كالقبر. واطئ وضيّق، ويرتفع سقفه عن أرضيته بنصف قامة، وطوله نحو ثلاثين خطوة ولا يزيد عرضه عن أربع أو خمس خطوات. حوائطه وأرضيته مرصوفة بالحجر الرمادي الخشن الذي كنّا نقوم بتكسير مثله في معسكر مقالع الحجارة مع قليل من الرمل والإسمنت. وربما تكون الحجارة من صنع أيدينا، من يدري؟

تبيّن لنا أن المجنّدة السجينة ترقد على فرشة عسكرية ووسادة بالية متسخة، وإلى جانبها في آخر القبو كومة أخرى من الفرش والوسائد المتّسخة ستكون لنا في ما بعد. لا شيء آخر في هذا القبو غير سطل ماء قريب من مكان جلوس الأم الحزينة حتى حسبتُ أنها اغتسلت منه حين رأيت ثيابها مبللة بالعرق.

ظهر وجه مجندة كهل من وراء الباب الخشب، تدعونا للخروج إلى دورة المياه. سرنا في أثرها ورفيقَيْها المستعدَّين بسلاحهما. اقتادونا إلى دورة مياه لا سقف لها، وتقع في طرف المعسكر ناحية الصحراء. أوقفونا في طابور، ثم أدخلونا واحدة بعد الأخرى، وكانت المجندة الفظة لا تتردّد في أن تفتح باب الحمام وتُخرِج من تتأخّر عن الوقت المسموح به لقضاء الحاجة، وهو لا يتجاوز الدقائق الثلاث على أكثر تقدير.

عدنا إلى قبونا المعتم ووجدنا عند مدخله إبريق شاي وأكواب بلاستيك قذرة وداخل كل منها قطعة خبز ناشف. إفطارنا الأبديّ.

- هذا هو الإفطار.

قالت المجندة الفظة، ثم تابعت:

- فلتعلمِ السجينات الجديدات أنه لن يسمح لكُنّ بزيارة أخرى لدورة المياه إلا قُبَيلَ مغيب الشمس!

ثم غادرت يتبعها رفيقاها ودفقة الضوء التي انقطعت مع إغلاق باب القبو. جلسنا نأكل في العتمة، ونتحدّث حول ذلك التفصيل التافه لبعض الوقت، قالت السجينة الإرترية وفي نبرة حديثها بعض الإشفاق:

- عليكنّ أن تعتدن على الحياة في هذا القبو، فهي رغم مشقّتها أفضل بكثير من الحرب.

فبادرت آمنة إلى سؤالها:

- منذ متى وأنتِ هنا؟ وما سبب حبسك؟

- كنّا نحو عشر سجينات في هذا القبو. خرجت رفيقاتي الأخريات قبل مجيئكنّ بساعات قليلة، جاء ضابط إلى هنا وأخذهن. لم أعرف السبب، لكن من النادر أن يأتي الضباط إلى هذا المكان إلا لأمر جلل. هممت بالخروج في إثرهنّ فمنعني الضابط قائلًا: «أنت لا»؛ فبقيتُ وحدي.

ثم حاولت أن تتغلّب على نبرة المرارة في صوتها بنبرة مرحة:

- لا أعرف بالضبط مقدار الوقت الذي قضيته هنا لكن مرّت عليّ نحو أربع دورات شهرية، كان آخرها منذ أسبوع؟

ضحكنا جميعًا ضحكات هشّة قصيرة.

- بالمناسبة، من تباغتها الدورة الشهرية فعليها أن تخبرني، لأقول لها ما ينبغي أن تفعله.

- أنا لا أحتاج لهذه النصيحة، أخبريني فقط بطريقة مناسبة للنوم في هذا القبو الذي يشبه الفرن.

قالت الأم الحزينة فتابعنا الضحك، على الرغم مما كنا فيه من إنهاك...

مكتبة
t.me/t_pdf

(21)

في صبيحة اليوم الرابع لم أعد مع رفيقاتي إلى القبو من رحلة دورة المياه. اقتادني أحد الجنود إلى مكتب ضابط إرتري، قريب من غرفتنا السابقة، وأجلسني على دكة من الخشب، ملحقة بالمكتب، ريثما يُؤذَن لي بمقابلة الضابط.

رحت أتأمّل المعسكر شبه الخالي من الجنود، وتسفّ على أفنيته الرحبة رياح رملية خفيفة. ثمة ضابط إرتري، يركض عبر الممشى مع كلب أبيض من حدود البوابة إلى نهاية المعسكر. نحيل في العقد الرابع أو الخامس. يغطي رأسه الحاسر شعر فضي قصير.

دارت بخاطري أشياء عدّة لم يكن ذلك مكانها أو زمانها ولا أدري لماذا اندفعت إلى تفكيري. لعل رحابة المكان وهدوءه في تلك الساعة من الصباح كان السبب، أو ربما شيء آخر. ماذا لو طلع علي ماثيو من أحد العنابر أو الحجرات؟ وحدّثني عن فلسفته في الحب والحرب. تخيلته مكان ذلك الضابط يذرع هذا الممشى العريض بقامته الفارعة، ويحمل كتابًا، لا بندقية.

- عيناك جميلتان. رائقتان، مثل صفحة البحر الضحلة!

كان يتأمّل عينيَّ، ثم أضاف:.

- بل مثل الزمرد الأخضر الشفاف، كأنهما...

ضحكت.

- عيناكِ تشبه عيون الخواجات.

- لعلها لجدة أمي التركية.

– عيون الأتراك عسلية، هذه عيون آسيوية، أفغانية أو باكستانية أو شيئًا من تلك البلاد البعيدة.

– ربما. أهل جدتي جاء بهم البحر إلى سواكن قبل ان يستقرّوا في طوكر القريبة منها، لكنني لا أعرف من أين؟ كانت أمي تقول إن أصول جدهم جركس من بلد بعيد لا أتذكره الآن.

نظرت في عينيه، فوجدته ينظر إليَّ نظرة حرت في تفسيرها، إن كانت إعجابًا أو حبًا أو شيئًا آخر. وأطال النظر حتى خجلت وخفضت بصري إلى الأرض.

– قطعت أكثر من ألفي ميل، عبر ثلاث دول. راجلًا وراكبًا وزاحفًا ولم أرَ مثل هاتين العينين الخضراوين، والبحر الساكن فيهما. تشبهان البحر وأنا ابن جبل، ولا أجيد السباحة، ما أتعس حظي!

ملأتُ صدري بالهواء ثم زفرْت. كان الهواء يحمل رائحة قهوة من مكان ما، وقرقعة سلاح بعيدة، وبوق سيارة متقطّع، وثغاء معزات. ثمة غبار عالق، يفور في الأفق الجنوبي البعيد كأنه ينتظر الإذن بالاجتياح. فتح الجندي الباب وناداني. أدّى تحيّة عسكرية ثم تنحى جانبًا. تقدمتُ خطوتين، وزحمتْ أنفي رائحة قهوة وسجائر ورائحة رجل. رأيت رجلًا بدينًا، جالسًا خلف طاولة صغيرة، تغيب إحدى حوافها داخل كرشه المترهّلة. لم أر وجهه أول ما دخلت. بقيت واقفة أستمع لصوت أنفاسه وصرير قلمه على الورق ريثما فرغ مما يشغله. رفع رأسه ذَا الشعر الأبيض المجعّد، ليخاطبني بصوت متخشّبٍ:

– ما اسمك الرباعي؟

– حياة عثمان إبراهيم صابراي.

– عملك؟

– طالبة.

– ووالدك؟

- والدي أسير لديكم منذ عامين.
- كيف جئت إلى هنا؟
- لقد تمّ نقلي من تقدرا مع البقية.
- ومن جاء بك؟
- لا أعرفهم.
- وما هي تهمتك؟
- لا أعرف.
- هل صحيح أن والدك أمير المجاهدين في عقيق؟
- لا أعرف شيئًا عن هذا.
- كنت تتعاونين مع المجاهدين ضدنا؟
- لا، لم يحدث.
- وكنت تساعدين بعض المطلوبين على الهرب؟
- أيضًا لم يحدث كذلك.
- وتساعدين المجاهدين في دفن الألغام لكي تقتلوا جنودنا؟
زفرتُ ثم قلت بعد برهة صمت.
- هذا أيضًا لم يحدث.
- ماذا تعرفين عن عمل والدك؟
- لا شيء.

راح يدوِّن بعض الكلمات على ورق فوق مكتبه بينما نقلت بصري ناحية خزانة قصيرة تقع في ركن الغرفة إلى اليسار منه، وإلى حاملة بنادق تتكئ على الحائط خلف ظهره تمامًا، كان عليها نحو أربع بنادق فوهاتها إلى الأعلى. ارتشف قليلًا من قهوته وأشعل سيجارة.

- حسنًا، من الجيد أنك تقرّين بكل شيء. ستوقّعين على اعترافاتك المدوَّنة هنا وعلى تعهد بعدم التعرض لقواتنا ثم ننظر في أمر إطلاق سراحك؟

- لم أعترف بشيء.

- اعترافاتك مدونة في هذه الأوراق على كل حال.

- لا أعرف ما الذي دوّنته. أنا قلت الحقيقة.

- أنت أسيرة حرب، يجب أن تعرفي هذا، ويجب أن تشعري بالفخر لهذا. الحرب شرف لا يليق إلا بالشجعان.

- لا أريد أي شرف، أريد حريتي فقط.

مسح بكفيه على وجهه المنتفخ وفرك عينيه المحمرتين اللتين توحيان بأنهما لم تذوقا طعم النوم لأيام. حمل فنجان قهوته في يده واتجه ناحية مقعد كبير بجوار الحائط. جلس عليه ممددًا جسده، ثم قال وهو يتثاءب.

- ماذا كان يعمل أبوك؟

- قلت لك، لا أعرف.

- كان جاسوسًا لحكومة المجاهدين، وتسبّب في مقتل بعض رفاقنا. هل كنت تعرفين هذا أم لا؟

- أبي لم يفعل شيئًا. لقد فررنا سويًا.

- سينال جزاءه على كل حال.

- أين هو الآن؟

أطفأ سيجارته على الأرض ثم أشعل أخرى، ونظر إليّ بعين واحدة بينما أغلق الأخرى منزعجًا من الدخان.

- أنا محارب عتيد، قضيت ثلاثة أرباع عمري في ساحات المعارك خلال حرب تحرير بلدي من الاستعمار الأثيوبي، وهأنذا كما ترين تجاوزت الستين من عمري وما زلت في كامل بزتي العسكرية، بيد أني محارب نبيل وأحترم عدوي طالما يقاتلني بشرف، لكنني أكره الجواسيس وأمقتهم لأنهم من أحقر المخلوقات، وأبوك من هذا النوع الحقير. لحسن حظه أنهم نقلوني من المكان الذي يوجد فيه.

- ألا يزال حيًا؟

قلت متلهّفة، ومتجاهلة كلماته المهينة في حقّ أبي. نظر إلي نظرة فارغة قبل أن يقول:

- كل الجواسيس يتمنّون الموت حين يقعون، ونحن لا نحب أن نمنحهم هذا الشرف بسهولة!

انحنى على قدميه محاولًا خلع حذائه العسكري وحل أربطته، فبدا متكوِّرًا على نفسه مثل حلزونة ضخمة. تمكّن في النهاية من خلع الحذاء، لكن بمشقّة. وضَع حذاءه جانبًا ورفع قدميه على مقعد صغير كان قريبًا منه، وأثارت قدماه الرطبتان رائحة كريهة في الغرفة المغلقة. أخبرني في النهاية أنني سأكون منذ فجر الغد في خدمة ضابط سوداني يدعى موسى تيتو، وأنه ينتظر تقريره حول سلوكي لكي ينظر في أمري مجدّدًا.

خرجت من عنده يائسة. وكنت جائعة. كان الغبار قد صبغ الجو بلون أصفر كريه. دارت عيناي في المكان ريثما يفرغ الجندي الذي سيأخذني إلى القبو من الاستماع إلى تعليمات الضابط ويلحق بي. لم أنتبه إلى الشخص الجالس على الدكّة، مسندًا ظهره إلى حائط المكتب ويدخن سيجارة، إلا بعد أن سمعت نباح كلبه. كان الضابط ذَو الشعر الفضي وكلبه الأبيض ذَو الفرو الغزير ينظران إليّ. لعله تهيّأ لقول شيء ما، لولا أن دويًّا يصم الآذان انفجر في المكان. صرخت واضعة رأسي بين يديَّ وارتميت إلى الأرض. سمعته يقهقه. دوى صوت ثانٍ وثالث، فرحت أنظر حولي. شاهدت غبارًا كثيفًا خلف عنابر الجنود، واتصلت قهقهته.

- هل تخافين الموت؟

- بل أكره الحرب!

- هه؟ إرفعي صوتك.

وضع كفّه خلف أذنه ومال في اتجاهي. رفعت صوتي:

- أقول لك إنني أمقت الحرب.

- هذه ليست أصوات حرب. نجرب بعض المدافع بعد صيانتها!

كان يتحدّث بعربية لا بأس بها، وإن كانت مشرّبة بلكنة إرترية.

- نحن في قلبها على كل حال.

- بماذا تغمغمين؟

- نحن في داخل الحرب نفسها.

- فليكن، نحن في المكان الصحيح إذًا!

كنت قد استويت جالسة على الأرض إلى جوار الكلب الذي بدأ يهشّ لي بذيله. نظرت إلى الأعلى فوجدت الضابط ينظر إليَّ بعينين مرتبكتين، تدوران في محجريهما مثل فأرتين مذعورتين.

- هل خطر لك أبدًا أن الرب خلق جدنا آدم في يوم مغبر كهذا؟

بقيت صامتةً. فأطلق ضحكة قبل أن يُكمل:

- وأنه نزل إلى الأرض لكي يقاتل؟

- يقاتل من؟ ولماذا؟

- من أجل أن يحكم الأرض طبعًا أيتها البلهاء. كان جيشه مؤلّفًا منه ومن جدتنا حواء، وقطيع من الكلاب!

لا بد أنه مجنون، قلت في نفسي. وثرثار أيضًا.

- وهل تعلمين كيف دانت له الأرض؟

- ...

- بالحرب وحدها. لولا الحروب التي افتتح بها عهده على الأرض لبقينا إلى اليوم مثل الحيوانات، نأكل ونشرب وننام ونتكاثر بلا هدف وبلا أحلام وبلا خطايا. الحرب هي التي تصنع أحلامنا على مدار التاريخ وتجعل تحقيقها ممكنًا، هي التي تشعل رغبتنا في التفوّق وهي التي تضمن لنا استمراره في ما بعد. من أجل الحرب اختُرع المال، ومن أجلها نُظمت الجيوش وظهرت نظم الحكم والإدارة وتطوّرت العلوم والتكنولوجيا وازدهر البغاء وظهرت الحاجة إلى الشِّعر والحكمة وأصبح لتدوين التاريخ تلك الأهمية. هل كنت تتخيلين تاريخًا من دون

أخبار الحروب؟ إنها بضاعة كل الأزمنة التي لم تشهد كسادًا قط. إن العالم يختلق الذرائع لكي تنشب الحروب، ثم يخترع ذرائع أخرى لكي يوقفها، ليس لأنها شر، الحرب ليست شرًّا أبدًا. لا أحد بوسعه إيقاف الموت، والحرب لا تجلب الموت، أبدًا. الحرب تخلق للحياة معنى جديدًا في كل مرة، ويتواطأ المتحاربون -في إطار هذا المعنى- على سيادة قانون خاصّ، له أخلاقه الخاصّة وهو ما أسميه «ميثاق النباح».

نظرت إليه نظرة اشمئزاز، فلم يكترث. وأكمل وهو يربت على ظهر كلبه ويفرك فروته الناعمة بأصابعه.

- ألم تلاحظي أن الكلب ينبح بصوت قوي واثق حين يكون في بيته، لكنه إذا خرج إلى الشارع فإنه يقتسم حدود السيطرة وقوة النباح مع كلاب الحي الأخرى، وقد يتّسع ذلك النفوذ كلما حدث فائض في القوة، وهكذا. أما إذا حدث العكس وتسلل إلى الحي كلاب من حي آخر فإنهم يتضامنون لمواجهتها، وإذا فشلوا لن يكون بوسع المهزومين حينئذ إلا أن يقبلوا قسمة جديدة للسلطة والحدود، فيقبل المهزوم أن يشاركه المنتصر طعامه ومعاشرة إناثه والبول على حائط بيته، وقد يحدث أن تتكافأ القوى فيلزم كل فريق حدوده. ذلك ما يسميه الحمقى من السياسيين توازن القوة، وأنا أكره حقًّا هذه التسمية.

ما هذا المجنون! لا بد أنهم أرسلوه إلى هذا المكان لكي يُقتل ويتخلّصوا منه، قلت في نفسي، بيد أنه ظل مركّزًا نظراته المذعورة في وجهي وكأنه يتوقّع أن أجادله أو أقول له شيئًا عن ميثاق النباح. أخرج من جنبه مسدسًا وصوّبه نحوي. صرخت، مُخفية وجهي بين كفيَّ. سمعته يضحك.

- هل خفتِ؟ أنت أسيرة حرب، وأسير الحرب لا يُقتل هكذا غدرًا، وفي مكان حقير كهذا.

- اخفض المسدس أرجوك.

قلت متوسّلة وأنا أزيح كفي عن وجهي. لم يسمع ما قلت. راح يقلب المسدس بين يديه بكثير من الإعجاب.

- هذه الآلة هي التي تتحكّم في كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم الزائف، فالآمن آمن بسببها والخائف خائف بسببها أيضًا. تقوم دول وتنهار أخرى ويصعد أشخاص ويسقط آخرون لكن الناس لا يحبّون تذكّر ذلك. طلقة واحدة من هذه الآلة في الزمان والمكان الصحيحين يمكنها أن تغير مصير أمة بأكملها.

أطلق رصاصة في الهواء، كان لها دوي وطنين حادّ. صرخت مرة أخرى لكي يعيده إلى مكانه. تجاهل رجائي، واستمرّ في هذره:

- الحرب لا تقوم بسببنا نحن العسكريين ولكن بسبب السياسيين الحمقى. إنهم ينبحون بهراء كثير، وهذه آلة نباحنا التي يصغي إليها العالم كلّه كما لا يصغي إلى شيء آخر.

خرج الجندي من المكتب فأعاد الضابط مسدسه إلى جنبه مرة أخرى. قال له الجندي، وهو يشير بيده ناحية المكتب، كلامًا باللغة التغرينية، فهمت منه عبارة الكولونيل يوهانس فقط، ولم أتبيّن إن كان الاسم له أم للضابط الآخر. حمل كلبه بين ذراعيه وخطا نحو باب المكتب. رأيت أنه على الرغم من كل كلامه، إلّا أن وجهه يوحي بذعر أبدي.

(22)

أمس الأحد، وقَّعت الحكومة اتفاق سلام مع المتمرّدين الجنوبيين في كينيا، ولم يتوقّف التلفزيون الرسمي من ساعتها عن بث الأغنيات الوطنية وأناشيد السلام التي لا يتذكّرها أحد إلا في مناسبات نادرة كهذه. في هذا الجو الموحي بالسلامِ والفرح، قرّرت عرفة أن تذهب إلى السوق.

كانت تسير نشطة ومتحفّزة، لترى وجوه الناس، ومن أجل شراء بعض الأغراض التي انتظرت طويلًا لاقتنائها. منحها الأب فانوس مكافأة جيدة نهاية كانون الأول/ ديسمبر الماضي. كانت راتب شهرين إضافيين، وتشكّل مع المبلغ الذي وفّرته من راتبها خلال السنة الماضية مبلغًا لا بأس به، يشجّع على زيارة السوق وشراء بعض الأغراض، خاصّةً الهدية التي قرّرت أن تشتريها لمدرِّسها الجديد موريس عبده.

صادف وجودها في السوق مع مرور موكبٍ، وصوت ذكوري خشن يشبه صرير المنشار، ينطلق من مكبر صوتٍ منصوب فوق شاحنة تويوتا موشحة باللافتات والأعلام، ومحاطة ببضع عشرات من الرجال والنساء. المشاركون في الموكب يحملون أعلام السودان جنبًا إلى جنب مع أعلام الحركة الشعبية التي كانت تقاتل الحكومة في الجنوب وجبال النوبة ووادي العقيق، بنجمته الصفراء الحزينة وألوانه الزرقاء والسوداء والخضراء، ويدقّون طبولًا ويحملون لافتات.

كان في مقدّمة الموكب جرحى الحروب وقدامى المحاربين، بأزياء عسكرية باهتة، أو ممزَّقة، لكن مع ذلك، كانت السعادة بادية على وجوه الكثيرين منهم، ولا سيما المقعَدون الذين يدفعونهم على عجلات متحرّكة. تتأرجح على صدورهم أوسمة ونياشين نحاسية وفضّيّة مطفأة. أما جمهرة

المحتفلين، فكانت خليطًا من السودانيين، الشماليين والجنوبيين، جلبتهم على الأغلب حافلات حكومية للمشاركة في الموكب.

الأغنيات والأناشيد نفسها كانت تنطلق من مكبّر الصوت، وكأنه امتداد لتلك الحفلة الوطنية المقامة على الشاشات منذ يوم أمس. تذكّرت كلمات ذلك الكولونيل، صاحب الكلب وهو يقول لها: «إن العالم الكبير يختلق الذرائع لكي تنشب الحروب، ثم يخترع ذرائع أخرى لكي يوقفها، ليس لأنها شر، الحرب ليست شرًّا أبدًا».

تبعت عرفة الموكب المتّجه نحو مقرّ الحكومة الولائية، حيث تنتهي دائمًا جميع المواكب السياسية في المدينة. كانت أصوات الأناشيد والطبول وجلجلة الحجول والكشاكيش تحفّز أقدام الراقصين، وتملأ أرواح الجميع بحماسة غامضة لتغذّ السير.

وجدت حشدًا عظيمًا أمام مقر الحكومة، غصّت به الساحة الكبيرة الممتدّة حتى حدود حديقة البلدية. توزّع بعضهم فوق أسوار الأبنية المحيطة بالساحة وأسطحها وأشجارها مثل طيور مبتهجة، يلوّحون بالأعلام ويطلقون صافرات بين وقت وآخر. تسلّلت بصعوبة خلال أمواج البشر حتى وصلت إلى أقرب نقطة تشرف على المنصة الرئيسية من جهة الجمهور. ولم يبق بينها وبين المنصة سوى ساحة صغيرة مفروشة بالسجاد ومحاطة برجال الشرطة.

رأت خلف المنصّة خيمة كبيرة يجلس تحتها ضباط من الجيش والشرطة ببزاتهم العسكرية ورجال الحكومة ببدلات السفاري الداكنة، وفي جانبٍ آخر يجلس رجال الدين من المسلمين والمسيحيين، ومن بينهم الأب فانوس، في ردائه الكنسي الوقور، ويحيط بهم رجال القبائل وكبار الموظفين. رأت مدير مدرستها مستر موقا، وإلى جواره مدرِّسها الأثير موريس عبده، وظل اهتمامها موزعًا بين مكان جلوسهما وبقية تفاصيل الحفل.

كانت الموسيقى لا تزال تتدفّق عبر مكبرات الصوت رغم الكلمات

الحماسية التي كانت تقطع انسيابها بين وقت وآخر. وقد اندفعت عجوز جنوبية متحمّسة إلى قلب الساحة الصغيرة في غفلة من رجال الشرطة الذين حاولوا إعادتها إلى مكانها، ولمّا لم يفلحوا تركوها ترقص على وقع موسيقى جنوبية شعبية ساحرة. كانت نحيلة مجعَّدة الجلد، وميتة منذ سنوات طويلة. تحمل عصًا في يد ومنديلًا في اليد الأخرى وترقص على ساقين معوجَّتين. بيد أن رقصها أعجب الكثيرين الذين تصاعد تصفيقهم وصفيرهم، إذ كانت تؤدّيه بإخلاص بائن استنادًا إلى خبرة أكثر غورًا من تجاعيدها.

كانت نظراتها مركّزة على مواقع أسفل قدميها، ويداها المعروقتان ترتعشان وفكّها السفلي متدلٍ وينساب منه خيط طويل من اللعاب. حميت الموسيقى، وتجاوب معها أحد المسؤولين الجنوبيين، فنزل من المنصّة ومعه رهط من رفاقه. أحاطوا العجوز التي أعادتها الموسيقى إلى الحياة. شملتهم بنظرات بدت تائهة وهي تدور على وجوههم واحدًا بعد الآخر، ومع كل استدارة من رأسها كانت قدماها المزينتان بحجول رفيعة من الخرز الملون والصفيح تفقدان انسجامهما مع إيقاع الموسيقى. ظلت تدور حول نفسها حتى فقد جسدها كلّه انسجامه مع كل ما حوله، فتوقّفت عن الرقص تمامًا، وراحت تتأمّلهم وحسب.

قالت شيئًا بلغتها، لم يكن موجّهًا لأحد لكنه بدا موجّهًا للجميع، ثم استدارت وقالت شيئًا آخر وهي تضرب بيديها على صدرها وتصرخ. عندئذ انتبه المسؤول الجنوبي، ذو الهيئة العملاقة فأشار بيده لكي يوقفوا الموسيقى فتوقّفت. دنا منها، يحيطها بإحدى ذراعيه. قبّل الرجل يديها ورأسها وضمها إلى صدره. كانت تبكي وتحرك يديها في كل اتجاه وتقول كلامًا كثيرًا، ورأت عرفة خطين من الدمع على خديها المشقّقين وحزنًا مريرًا على وجهها، بينما كانت تعبر من أمامها في معية بعض مرافقي المسؤول الجنوبي. أجلسوها على كرسي قريب من المنصة وجاؤوها بالماء.

صعد المسؤول الجنوبي إلى المنصّة مباشرة، وراح يتأمّل المشهد من منصّته الشاهقة لبرهة، ثم أمسك المايكرفون قائلًا:

- لقد شاركت للتو في رقصة «يوك» لأهلي في قبيلة «الشلك» التي تعرفونها، مع تلك الأم المباركة، لكن ما لا تعرفونه أنها رقصة نمجِّد فيها أرواح موتانا. لهذه الأم الطيبة قصّة أعرفها، وهي من قريتنا في أعالي النيل، وحكايتها معروفة لكثيرين من أهلنا هناك، وسأحكيها لكم لما تحمله من عبرة نحتاج إليها في هذه المرحلة التي تحتاج منا جميعًا لهذا التسامح والعفو.

- «هذه الأم أرملة منذ واحد وأربعين عامًا. فقد فقدت زوجها وأولادها الثلاثة في ليلة واحدة. ذلك أن ملازمًا في الجيش اسمه عبدالقيوم أرداهم قتلى أمام ناظريها ثم أحرقهم داخل خيمتهم. غادرت هذه الأم الطيبة قريتها بعد ذلك إلى الأبد ونزحت إلى الخرطوم برضيعتها «أشول»، وهي الوحيدة التي بقيت لها من تلك العائلة المغدورة».

صمت قليلًا وهو ينظر إلى آلاف الوجوه التي تتابعه بنظراتها كما أسماعها. فأكمل:

- «كان نزوحها من أجل الانتقام. من أجل الثأر الذي يريح الميت قبل الحي. ظلّت طيلة سبعة أعوام تبحث عن ذلك الملازم عبدالقيوم ذي الشوارب الكثّة والقاطع الذهبي حتى عثرت عليه، وانتظرت ثلاثة أعوام أخرى تتردّد على الحي الذي يسكن فيه، وعاشت تلك السنوات تعمل في نظافة البيوت وغسل الملابس حتى دخلت بيته أخيرًا. حازت ثقة أمه «نفيسة» وإعجابها، ثم انتقلت لتعمل في خدمتها الدائمة. صبرت سنوات أخرى في هذا البيت حتى تجد طريقة مناسبة لقتل ذلك الضابط، طريقة تليق بثأرها، لكنها خلال هذه السنوات الممتدّة اقتربت من الأم نفيسة أكثر مما يجب، بالنسبة لمن يخطط لعملية ثأر. رأت محبتها ولهفتها على ابنها. لم تكن تأكل أو تنام حتى يعود. كانت تعرف جيدًا ماذا يصيب قلب الأم حينما تفقد ولدها، لكنها مع ذلك كانت مصمّمة

على ثأرها. فكّرت في قتله بمسدسه الشخصي الذي قتل به زوجها وأولادها، لكنها لم تكن تعرف كيف تستخدمه، وفكرت في حرقه أيضًا أو تسميمه أو ذبحه... فكرت بكل طريقة تجعله يموت ميتة قد تشفي غليلها، بيد أنها كانت تتردّد».

علت من جهة الجمهور صرخة وحيدة، حادّة مثل نصل ثم انقطعت فجأة، واستدارت الرؤوس لكي تعرف مصدر الصرخة وصاحبها لكنهما ذابا في الزحام والصمت مثل حجر تلقيه في بئر. المسؤول الذي كان يتحدّث نظر هو أيضًا باحثًا عن مصدر الصوت، ثم تجاهل الأمر وواصل حديثه.

- «وفي الليلة التي قرّرت فيها قتله، جاءت إلى البيت مفرزة من الضباط والجنود واقتادوا الضابط عبدالقيوم إلى حيث لا يعلم أحد، ثم تبين بعد أيام أنه متهم بالمشاركة في محاولة انقلاب على الرئيس النميري، وأن الأخير قرر إعدام جميع الضباط الخائنين. أصيبت الأم نفيسة بصدمة أفقدتها القدرة على النطق والحركة، ونُقلت إلى المشفى. بقيت هذه الأم المباركة في خدمتها حتى خرجت من المشفى بعد نحو شهر بشلل نصفي ونفس كسيرة منهارة، وقدرة ضئيلة على الكلام، ولم تعد تردّد غير جملة واحدة «ولدي ح يقتلوه... ولدي ح يقتلوه»، وتبكي أغلب الأوقات. تقول هذه الأم الطيبة إنها قررت في تلك اللحظة أن تتنازل عن ثأرها ورغبتها في الانتقام. غادرت في فجر أحد الأيام، بيت الضابط الذي قتل زوجها وأولادها وأحرقهم، وأخذت قطار الثلاثاء هي وابنتها أشول إلى بورتسودان، وهي اليوم، تريد أن نحكي هذه الحكاية لمن لم يسمع بها ليتعلّم منها.

أيها السادة، قد يحتمل الإنسان ألم أسنانه لبعض الوقت، لكن لا بد له في النهاية من أن يفتح فمه أمام الطبيب. قالت لي هذه الأم قبل قليل: «قرّرت في تلك اللحظة أن أتركه لمصيره، فإن أعدمه النميري فقد نال جزاءه، وان تركه فإنني تركته من أجل أمه، لأنني أمّ كذلك، بيد أن ولدها

حرمني من هذه النعمة التي تمتّعت هي بها طويلًا». وقالت في النهاية إنها سامحت، وتطلب من الجميع أن يسامحوا بعضهم بعضًا، لأنهم جميعًا أبناء الرب، والرب يطلب من أبنائه أن يكونوا متسامحين مع بعضهم، كما سامحهم هو في جسد المسيح».

علت الصرخة من جديد، لكنها كانت متّصلة هذه المرة، ومرق من بين الجموع فتى جنوبي طويل ونحيل مثل قصبة، وتبعه آخر يزعق مثله. كان كل منهما يحمل درعًا ورمحًا أطول من قامته، ويلف على صدره من جهة اليسار قطعة ثوب واحدة زهرية اللون، وكان كتف الذراع الأخرى التي تحمل الرمح عاريًا ويلمع بالعرق. قفزا إلى وسط الساحة وهما يتصارخان صرخات متقطعة، ويدوران حول نفسيهما، ويتظاهران بالقتال، حتى علت الموسيقى من جديد، وانضم إلى الرقص رجال ونساء آخرون، زحموا المسافة الفاصلة بين عرفة وتلك العجوز، وبينها وبين المنصة أيضًا. كان مقعدا مستر موقا والأستاذ موريس عبده خاليين. لم تنتبه عرفة لمغادرتهما وسط تلك الفوضى.

غادرت هي أيضًا وقرّرت أن تؤجل شراء الأغراض وتوجّهت نحو الكنيسة. وبينما هي في الطريق تناهت إلى أنفها رائحة الصندل، وسمعت وقع خطوات ثقيلة قادمة من الخلف. أدركت أنه معاوية الأبرص. سرى في جسدها الخدر نفسه ولم تعد قادرة على التركيز أو الالتفات إلى الوراء حتى صار إلى جانبها تمامًا. وقال بصوتٍ كالخوار:

- هل يمكننا أن نتحدّث قليلًا؟

لم تلتفت لكنها قالت بحزم:

- ماذا تريد مني؟ ليس بيننا ما نتحدّث فيه.

سد عليها الطريق فتوقفت. لم تستطع النظر في وجهه. بدا لها بشعًا أكثر من أي وقت مضى، ورائحة الصندل الذي تفوح منه خانقة.

- بل لديَّ ما أحدّثك به!

- قل ما تريد.

- هيا بنا نذهب إلى مكان نتحدّث فيه، لكن ليس في الطريق هكذا.
- لا وقت لديّ. دعني وشأني.
وتحرّكت محاولة تفاديه والهرب. أمسك بمعصمها. وكانت كفه ترتعش.
- لقد أخبرتكِ طيبة من قبل. أريدك زوجة. هذا كل ما في الأمر.
- وأنا قلت لطيبة، وها أنا أقول لك: لا أريد أن أكون زوجة لك. بل لا أريدك في حياتي. ابتعد عن طريقي.
رفعت رأسها هذه المرة. كان وجه الأبرص محتقنًا بالدم، وفمه الأسود يرتعش.
- لا تضطريني إلى ارتكاب حماقة!
- مثل ماذا؟
زاد من ضغطه على معصمها. كانت عيناه الحمراوان تدوران في محجرَيْهما قلقتين. بدأت تشعر بنوبة دوار. أغمضت عينيها لبرهة وتناهت إليها أصوات الاحتفال وسط أصوات أنفاسه المسموعة.
- سأصرخ وأجمع عليك خلق الله. أطلق يدي!
- ستجدينني أينما ذهبتِ. من الخير لك أن تعقلي.
راحت تصرخ، وتحاول نزع معصمها من يده. دفعته بكل قوتها. لكن جسدها فقد توازنه وسقطت على الأرض المبللة بالمطر. عادت نوبة الدوار. أغمضت عينيها من جديد. سمعت صوتًا ينادي باسمها. كان بعيدًا. غابت عن الوعي.

(23)

أفاقت على ضجيج أطفال بعيد، يبتعد ويقترب مثل صوت الموج، ثم صوت أذان يرتفع. الغرفة مضاءة بمصابيح الكهرباء ولكنها مقفلة من كل جوانبها. الرائحة نفسها، الصندل النفاذ الممزوج بالقرنفل أو الكافور، لكنها ميزت روائح أخرى. زيت جوز الهند. بخور عدني. كولونيا. حاسة الشم عندها قويّة جدًا،إلى درجة أنها كانت قادرة على تحديد الاتجاه التي تأتي منه كل رائحة بدقّة.

كانت غرفة واسعة، مسقوفة بقضبان حديد متصالبة، تحت سقفٍ غير متناسق من الإسمنت الرمادي تتدلّى منه مروحة كبيرة كانت تدور بقوّة. حوائط الغرفة رمادية كذلك، لها باب ونافذة واحدة كبيرة من الحديد. يوجد في الغرفة سريران كبيران، متقابلان وبينهما طاولة متوسّطة وسجّادة حائلة اللون. في ركن الغرفة، المقابل للباب، إلى جوار الحمام، مبخر طيني يتصاعد منه خيط دخان رفيع، وإلى جواره سجّادة صلاة كبيرة ومصحف وحاملة ملابس، وفي الأركان الثلاثة الأخرى طاولات قصيرة على إحداها مروحة صغيرة.

انقضت الصلاة التي أقيمت عبر مكبر الصوت، وعرفت أنها صلاة العشاء من ركعاتها الأربع، نصف الجهرية. الوقت أول الليل إذن، لكن أي يوم هو؟ لعلّها أفاقت في اليوم نفسه أو في اليوم التالي، لم تكن واثقة. دخلت الحمام. تفحَّصت جسدها جيدًا، لا شيء مما خشيت حدوثه قد حدث. تفقدت الباب. وجدته موصدًا. عادت ونظرت من شق صغير في النافذة فلم تر شيئًا، كانت الدنيا معتمة في الخارج، لكن تناهت إلى أنفها رائحة شواء.

فُتح الباب. دخلت امرأة تحمل طبق طعام مغطًى وشيئًا آخر داخل صندوق صغير من الخشب، ثم أغلقت الباب من الداخل. وضعت المرأة حملها على الطاولة ثم ألقت السلام، فلم ترد عرفة. استقرّت المرأة في السرير المقابلِ نصف جالسة، كأنما هي ليست على عجلة من أمرها.

تأمّلتها عرفة. في نحو الخمسين أو أزيد قليلًا، سوداء، ممتلئة، صغيرة الوجه والكفين على نحو لافت، لكن تزحم وجهها عينان واسعتان، محدّدتان بخطوط عريضة من الكحل، وتضع زمامًا مستديرًا على أنفها، يكاد يخفي نصف وجهها. تفوح منها رائحة الصندل المركَّزة ذاتها. كانت تدير رأسها الصغير في كل اتجاه بطريقة قلقة.

- أنا بخيتة، الزوجة الكبرى للشيخ!

حاولت عرفة أن تقول شيئًا لكن لسانها انعقد. أدارت المرأة عينيها المخيفتين في المكان ثم قامت وجلست إلى جوارها. قفزت عرفة مذعورة إلى آخر السرير. ابتسمت بخيتة بمكر. كانت أسنانها صغيرة متفرّقة، شديدة البياض. اقتربت من عرفة بهدوء ثم وضعت كفها الصغيرة فوق رأسها.

- كان يراكِ في منامه شهورًا طويلة، ورؤيا الشيخ حقّ.

فتحت عرفة فمها لتقول شيئًا، لكن الكلمات خذلتها. وضعت المرأة كفّها الصغيرة تحت ذقنها وركّزت عينيها المستديرتين في وجهها.

- رؤيا الشيخ حقّ! رؤيا الشيخ حقّ!

بدأ التيار الغامض يسري في جسد عرفة. قامت المرأة واتجهت ناحية الباب، وعندما بلغته، أدارت رأسها الصغير فوق كتفها ونظرت إلى عرفة وقالت:

- غدًا في الليل، أرجو أن تكوني عاقلة!

رأت عرفة أباها في منامها، في مكان يغصّ بالخلق. يرتدي جلبابًا ناصعًا وعمامة في لون الثلج، لكنه بدا مغمومًا. أمسك بيدها وهو يجتاز

بين الجموع. كل الوجوه التي حولها بدت مغمومة أيضًا، وكأنها تشهد إحدى عرصات القيامة. خافت. تشبّثت بيد أبيها، لكنها أفلتتها في لحظة بدفع من الجموع. قضت وقتًا طويلًا تبحث عنه. صاح منادٍ بغتة، كأنما ينادي لصلاة العيد «الصلاة قائمة... الصلاة قائمة». اصطف الناس. كبّر صوت وقرأ وركع. سجدوا جميعًا. وحدها لم تركع. بدا الأفق بحرًا من الظهور البيضاء مثل قطيع عظيم من الخراف. رأت مشنقة مزدوجة في هيئة صليب، ونارًا عند الأفق، وطيف إله عظيم يحمل سوطًا، وتتمدّد صورته الهلامية في صفحة السماء. يرفع الإله سوطه ويخفضه، فيسجد الناس ويقومون. لا أحد يتكلّم، ولا أحد يخالف غيرها. انتهت الصلاة. جلس الناس رافعين أكفّهم. سمعت صوت الإله «العنوها... خذوها إلى المشنقة». استدارت نحوها الرؤوس. نظرت إلى نفسها. رأت على صدرها قلادة كبيرة تلمع تحت ضوء الشمس.

«الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم».

يردّد المؤذّن. تستيقظ عرفة وتدرك أنها صلاة الفجر.

***

دخل عليها كما يدخل الرجل على زوجته، لكن هل هي زوجته؟ كانت تفوح منه رائحة الصندل نفسها. يحمل مسبحة وكرباجًا، ويهمهم بما يشبه التسبيح والتهليل خافضًا رأسه إلى الأرض بمكر مفضوح حتى وصل إلى مفتاح الضوء وأطفأه، وبقيت الغرفة تحت ضوء خافت يتدفّق من جهة الحمام. لعله رغب في ألّا ترى وجهه، لكنها عرفته.

وقف إلى جوار المشجب، خلع ما كان على جسده، عمامته وصديريته الكبيرة وجلبابه، علقها جميعها على المشجب. بقي بسرواله العريض، المسدل من تحت بطنه إلى ركبتيه. استدار نحوها كما تستدير دبابة في الرمل، وما كان أبشع ما رأت على دفقة الضوء الشحيح. بطن ضخم، وصدر كبير مترجرج يقسّمه البرص إلى جزر سوداء ووردية،

معزولة عن بعضها في مواضع وموصولة في مواضع أخرى، وكأنّها ثقوب في ثوب أسود. بدا أضخم بكثير مما تعرفه. مشى بخطوات ثقيلة نحو السرير الآخر وجلس.

- كيف حالك؟

- أنا في أسوأ حال. لماذا جئت بي إلى هنا؟

مط شفتيه بابتسامة عريضة. قال بعد برهة صمت قصيرة:

- لأنك الآن زوجتي!

- ماذا؟

- نعم، وعلى سنة الله ورسوله!

صعد الدم إلى رأسها، ولم تجد من الكلمات ما يعبر عن عجزها وكرهها له في تلك اللحظة.

- أيها المشعوذ الحقير. عن أيّ إله، وعن أيّ رسول تتكلّم؟

وقفت غاضبة تبحث عن شيء تضربه به. حاولت حمل الطاولة لكنه وضع قدمه الضخمة على أحد عوارضها السفلية، فلم تقدر على زحزحتها من مكانها، سنتيمترًا واحدًا.

- إهدئي... إهدئي فقط، ويمكننا أن نتحدّث!

بصقت في وجهه. ارتعش من الغضب. أمسك بمعصمها، ثم قادها إلى السرير وأجلسها بالقوة.

- من الخير أن تعقلي...

قال محاولًا أن يبدو هادئًا. بصقت في وجهه مرة أخرى. أشاح إلى الناحية الأخرى وكظم غيظه. هددته بالصراخ فلم يكترث، صارعته طويلًا وهو يحاول أن يثبتها فوق السرير، لكنه صرعها في النهاية بحكم الطبيعة، ولم تسعفها حيلتها بغير الشتائم.

- يا ابن الحرام!

جلس فوق بطنها بجسده الضخم، حتى كادت أنفاسها الشحيحة المتلاحقة تنقطع. نفث من فمه في وجهها، نفثة واحدة طويلة فغمرتها رائحة الصندل التي تعرفها. صعدت إلى رأسها مباشرة فأصابها الخدر. شعرت بطنين في أذنيها وبثقل في رأسها وأطرافها. اعتلاها.

قال لها في الليلة التالية.

- تقبّلي هذا، وسأخرجك من هنا وأقدّمك للناس!

- لست جارية ولا أمة. أنا امرأة حرّة، هل تفهم؟

خرج غاضبًا، ولم يعد إلا بعد ثلاث ليالٍ. جاء يحمل كرباجه المفتول. ربط كلتا يديها إلى إحدى قوائم السرير. انكمشت على نفسها في وضع جنيني. وعندما رفضته جلدها بالكرباج، ثم اعتلاها.

صار يغيب ليلتين ويأتي في الثالثة، وأحيانًا في الرابعة أو الخامسة. يفعل فعلته السادية ويمضي، وما من سبيل إلى تجنّب ذلك. تأتيها زوجته بالماء والطعام وتغادر من دون أن تبادلها أي نوع من الكلام. أعجزتها الحيلة في سجنها. كانت تفكّر في الهرب، من دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن العالم الموجود خارج هذه الغرفة، أو كيف تدبّر أمر الهرب.

أمضت عرفة أيامًا لا تعرف حسابها تحت رحمة معاوية الأبرص وفي سجنه. فقدت إحساسها بالوقت، وبحساب الأيام التي كانت تمر، من دون أن تعرف موقعها من الأسبوع أو الشهر. قرّرت أن تجرب التمرد، وأن تُضرب عن الطعام. لكن معاوية الأبرص هدّدها بالقتل.

- سأموت على كل حال، ومن الأفضل أن تعجّل بقتلي.

- لا، لن أريحك.

وأشار بأصابعه إشارة بذيئة وهو يتابع.

- أردت أن أغسل عارك وأقبلك زوجة على سنة الله ورسوله، لكنك عاهرة، والعهر لا يغسله إلا الدم. أمامك أربع وعشرون ساعة فقط وإلا...!

لكنه لم يستطع تنفيذ تهديده. ففي صباح اليوم التالي أفاقت على أصوات تكسير الباب، وصرخات رجال الشرطة. خرجت برفقتهم.

كان المكان أشبه بمحمية كبيرة تحفّها صفوف من الغرف الصغيرة المتلاصقة من اتجاهات ثلاثة، وخلفها صفوف أخرى من أشجار المِسْكيت المتشابكة التي تشكّل ما يشبه السور. ثمة سقيفة واسعة في الوسط، تقوم على أحد أركانها مئذنة مسجد، تضج بأطفال مذعورين، على أجسادهم السوداء النحيلة جلابيات بلون الأرض، يحملون ألواحًا لتحفيظ القرآن. الضلع الأمامي للمحمية، ناحية الشرق، تتوسّطه فتحة كبيرة بين أشجار المِسْكيت تشبه المدخل. كانت تقف إلى جانبيها سيارات الشرطة وجمهرة من الناس. رأت جبالًا قريبة. تحجب الأفق الغربي كلّه، أين يقع هذا المكان؟ سمعت رجال الشرطة يتحدّثون في الشاحنة التي أقلتها وسبع من زوجات معاوية الأبرص، أغلبهن قاصرات. عن هذه المحمية التي أنشأها الأبرص قبل سنوات طويلة لا يعرفون حسابها، وكيف أنها بدأت خلوة صغيرة لتحفيظ الأطفال القرآن تحت شجرة سدر، ثم كبرت، وسماها الفردوس. تجمّع حولها بعض الأهالي وبنوا بيوتهم بالقرب منها. استطاع خلال سنوات قليلة أن يمدّها بالماء والكهرباء وكل ما يحتاجه هو وزوجاته وأولاده والمئات من أطفال الخلوة وجيرانهم في هذا المكان القصيّ، الأقرب إلى سلسلة الجبال التي تطوِّق الأفق الغربي لبورتسودان.

راحت تتأمّل سحابة الغبار الهائلة التي خلّفها الموكب المؤلف من نحو عشر عربات وشاحنات للشرطة. ورأت محمية معاوية الأبرص تختفي شيئًا فشيئًا، خلف فورة الغبار. صارت محض كتلة سوداء، تحت سفح الجبل، ثم ذابت في صهد الصحراء وتلاشت. زحمت أنفها من جديد، رائحة الصندل. مسحته بظهر كفها ثم أخذت نفسًا عميقًا. غمرتها روائح أجساد رجال الشرطة. قال أحدهم:

- لن يمكث طويلًا في السجن!

أداروا وجوههم إلى الخارج، حيث الشمس والصحراء، ولاذوا بالصمت...

***

كان معاوية الأبرص رابضًا داخل قفص الاتهام، مثل ثور متخم. سأله القاضي عن زيجاته المزعومة. فأجاب:

- في عصمتي واحدة فقط!

- وماذا عن الأخريات؟

- إنهنّ ملك يمين!

- ماذا تعني بملك يمين؟

- يقول الله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) إنهن ملك يميني يا سيادة القاضي، أطعمهنّ وأكسيهنّ وأنفق عليهنّ، ولي عليهنّ حق المتعة والطاعة!

ضجت القاعة بالهمهمة، وشيء من الضحك. كانت تغصّ بالخلق، وبرائحة صندل لا يمكن تفاديها بأي حال. كنّ نحو ثلاث عشرة امرأة من ضحاياه القديمات والجديدات، إلى جانب جمهور من أهاليهنّ ومن رجال الصحافة والقانون والناشطات النسويات. كان موريس جالسًا إلى جوار عرفة، مثل عاشق، مزهوًا بما قام به، وتبدو على وجهه سعادة غامرة لا تخطئها عين. كيف لا؟ فلولا أنه سجَّل رقم لوحة السيارة التي اختطفت عرفة في ذلك اليوم ثم ذهب ودوَّن بلاغًا بالحادثة وتابع عمليات التفتيش لما أقيمت هذه الحفلة لمعاوية الأبرص.

قال القاضي بعد برهة صمت:

- وما الذي يثبت ادعاءك؟

- لقد وهبنني أنفسهنّ، مقابل النفقة والحماية.

- إنهنّ ينكرن ذلك.

- الله خير الشاهدين!

بعد محاكمة استغرقت نحو شهر، انتزعت المحامية الشابة نجلاء حكمًا بالسجن سبع سنوات ضد معاوية الأبرص، وبتعويضات للضحايا وغرامات مالية وإغلاق للخلوة.

علمت عرفة من الأستاذ موريس أن المحامية تنتمي إلى الحزب الشيوعي، وقد تطوّعت لمهمة الدفاع عنهنّ عندما علمت بالحادثة مصادفة من موريس خلال اجتماع سياسي. قرّرت على الفور أن تأخذ على عاتقها قضية هذا الدجال، كما وصفته لموريس. كانت سمراء ممتلئة، ذات مزاج مرح، لكنها تخفي تحت ذلك القناع اللطيف شراسة نسوية بالغة الحدّة، ومهارة قانونية كانت مثار إعجاب عرفة وضحايا معاوية الأخريات.

اكتشفت عرفة خلال جلسات المحاكمة أن الأبرص تزوج أكثر من ثلاث وعشرين مرة بطرق ملتوية، ليس من بينها زيجة واحدة صحيحة قانونًا، سوى زواجه الأول من السيدة بخيتة، ذات الرأس الصغير، ولم ينجب من أيٍّ منهن.

اعتبرت المحكمة زوجته بخيتة شريكة له في جرائمه التي أدين بها، ومنها اختطاف وتعذيب أطفال، وحرمانهم من ذويهم، وممارسة الدجل والشعوذة، والاختطاف والاغتصاب. اعتُبرت عرفة ورفيقاتها مغتَصَبات.

(24)

أثار انتباهي مشهد مواطنين يدخلون من جهة البوابة التي تقود إلى الدنيا الواسعة في الخارج. كانوا فرحين، لا شك في ذلك، ويتبعون مقاتلًا سودانيًا يتقدّمهم بخطوات عسكرية متحفّزة. يحملون أوراقًا بين أيديهم، ويتقدّم موكبهم الصامت ناحية المكتب الذي أجلس في ظلّه الصباحي. أجلسهم المقاتل على الأرض أول ما وصلوا، وابتسم في وجهي بودٍ مصطنع.

تأمّلت وجوههم مليًا، فشعرت بحنين جارف. أحدهم يشبه أبي، بأنفه الكبير وجبهته الواسعة ولحيته البيضاء المستديرة وحنكه القوي، خاصّة حين يسكن ويركّز نظراته في اتجاه واحد. لا أتذكّر عددهم، كانوا رجالًا ونساء وصبيانًا وصبايا. أحدثوا ضجيجًا مكبوتًا حين جلسوا، بينما ظلت أعينهم معلّقة بالأمل الذي ينتظرونه خلف باب المكتب. لا أعرف ماذا جاء بهم في هذا الصباح الأغبر، لكن تبدو ملامحهم منهكة، ويسكن على أجسادهم غبارٌ وتعب، وكأنهم على سفر منذ ألف عام.

كانت بينهم طفلة خلاسية، لها عينان واسعتان وشعر قصير ناعم، تركّز اهتمامي عليها طوال الوقت وهي تلعب في التراب، وتصعد فوق ظهر أمها تارة وظهر أبيها تارة أخرى، ولما شعرتْ باهتمامي توارت خلف أمها وسكنت. راحت تنظر إليّ بنصف وجه، يظهر ثم يختفي خلف جسد أمها النحيل، وشاركتُها اللعبة. رحت أميل برأسي يمينًا ويسارًا خلف كفيَّ المفتوحتين أمام وجهي. ذكّرتني بطفولتي، وعرض لي طيف بيتنا في عقيق. وجه أمي بعينيه الخضراوين. شعرها المضمّخ

برائحة جوز الهند. حقيبة الكاروات الحمراء. الأحذية اللامعة والفستان الليموني المعلّق على الجدار. شعرت بالأسى.

دخلوا إلى المكتب واحدًا بعد الآخر، وخرجوا كذلك، بعضهم مسرور وبعضهم غاضب وبعضهم لا يظهر عليه شيء. لم يأبهوا لوجودي قط. وحدها الطفلة كانت تلتفت إلى الوراء في كل مرة وتنظر إليّ ثم تتشبّث بثوب أمها وتلحق بها. لوّحتُ لها، وأرسلت قبلة في الهواء وانتظرْت، آملةً ألا تضيع هباء. تردّدتْ قليلًا. لوّحت في النهاية تلويحة خجولة وابتسمَت.

ذهبت رفيقاتي إلى مطبخ المعسكر منذ الفجر، وهأنذا أنتظر مقابلة الضابط موسى تيتو الذي سأعمل في خدمته مثل جارية، لكي يخبرني بما يتوجب علي فعله. لعله يكون مجنونًا آخر كالذي قابلته منذ أيام، أو يكون عاقلًا أو عطوفًا، أو قاسيًا، الله أعلم، لكن ماذا سيفيدني ذلك الآن؟ لا بد لي في النهاية من شهادته على سلوكي لكي يفرَج عني، والحرّية تستحقّ ما هو أكثر من الصبر.

قال ذلك المجنون: «إن ميثاق النباح يمكن فهمه واحترامه ببساطة من دون الحاجة إلى طلب ذلك مرارًا مثلما يحدث مع الأديان والدساتير التي تملأ العالم بلا جدوى»... ولما ضحكت، لم يكترث. «نحن العسكريين مثلًا نتعلّم بطريقة أفضل من السياسيين ومن النَّاس العاديين، لأننا نعرف طبيعة الأثمان التي ندفعها ونتلقّاها في كلّ حالة، لذلك تنبح بنادقنا بحساب»... «الكلاب مخلوقات عظيمة يا ابنتي، تحتمي بساقيْ سيدها إذا شعرت بخوف أو ضعف، وربما تسند جذعها إلى حائط أو شجرة لكي تنبح بإخلاص أو تتخلّص من فضلاتها. نحن أيضًا نبحث عن حائط إذا ما شعرنا بالضعف أو رغبنا في التخلص من أخطائنا».

أخبرني الجندي الذي رافقني إلى القبو أن اسمه الكولونيل سعيد، مقاتل قديم منذ حرب تحرير إرتريا، لا شأن له بيوميات الحرب، بيد

أنه مهندس وخبير في صيانة المدافع السوفييتية ولا غنى عنه أبدًا. إنه مسكين وضعيف السمع.

كاد أيلول/ سبتمبر أن ينتهي ولم تهدأ موجات الغبار بعد. بدت الشمس بعيدة وباردة وراء طبقاته الكثيفة، مثل قمر فضّيّ. توقّفت حركة الجنود والسيارات. إطارات الشاحنات المغروسة حتى نصفها على جانبَيّ الممشى، كان الرمل يتجمّع حولها، ثم يغمرها فتتحوّل إلى مجرّد كومة من الرمل، تراها فتحسب ألّا شيء تحتها. أخيرًا ناداني الجندي، نظرت إلى نفسي فإذا أنا مثل كل الأشياء التي كنت أتأمّلها مغطاة بالغبار.

(25)

كان الأستاذ موريس ودودًا مع عرفة، وحذرًا في الوقت نفسه. لم يقترب منها إلا مسافة محسوبة، رغم الأوقات الطويلة التي قضياها معًا في المدرسة أو خارجها. أصابها ذلك بحيرة بالغة، فلم تستطع الجزم بحقيقة مشاعره، ما إذا كانت عطفًا أو استلطافًا أو محبّة، لكن بدت خليطًا من كل ذلك. بيد أنه كان مدرّسًا في كل الأوقات، لكنه أيضًا مدرس مختلف، يفعل كل شيء بمشاعر دافئة. هل كان كذلك حقًّا أم إنها أرادته كذلك؟ لا تستطيع عرفة أن تنكر أنه ساعدها كثيرًا في اللغة الإنجليزية، وفي مواد أخرى بطريقته، وجلست لامتحان الشهادة الثانوية في منتصف مارس التالي بنفس واثقة، بفضل دعمه ونصائحه ومساعدته.

انقضت الامتحانات منذ آذار/ مارس الماضي. الوقت الآن منتصف يوليو. خلال هذه المدة وجدت عرفة نفسها عالقة في فراغ كبير ريثما تعلن نتائج الامتحان أواخر هذا الشهر أو بداية الشهر المقبل. لم يعد بوسعها الخروج كل يوم والذهاب إلى المدرسة وتحيّن لقائه كما كانت تفعل في السابق، كما لم يعد بوسعها الجلوس وحيدة أغلب الوقت في الكنيسة تفكّر فيه وفي نفسها. على الرغم من ذلك التقيا، لكنها كانت لقاءات محدودة ومتباعدة، وفي أوقات ومناسبات قليلة، بسبب مشاغله الكثيرة، ولا سيما السياسية منها.

دعاها مرّة إلى حي فيليب، حيث يقيم، لحضور احتفال الحركة الشعبية لتحرير السودان التي ينتمي إليها، بذكرى تأسيسها. كان ذلك في منتصف أيار/ مايو الماضي. عرفة تنفر من كل ما هو سياسي منذ أيام

وادي العقيق، لكن من أجل موريس الذي فاجأها ببطاقة دعوة خاصة عليها اسمها، لبّت الدعوة.

كان احتفالًا بسيطًا وبهيجًا، بدأ قبيل العصر وانتهى قرب مغيب الشمس، تحدّث فيه الأستاذ موريس عبده ضمن آخرين. تحدّث عن النضالات التي خاضتها الحركة بقيادة الدكتور جون قرنق، المؤسّس والزعيم الروحي للحركة، بلغة شعبية أقرب إلى الونس منها إلى الخطابة.

تذكر عرفة أنه تحدّث معلقًا على هيئة طفل واقف بين الحضور، يبدو في حدود السنة العاشرة من عمره، ويحمل على كتفه حقيبة مدرسية من القماش، ويرتدي قميصًا مدرسيًا أبيض وبنطالًا قصيرًا من الجينز الممزّق. كان حافيًا، وتظهر على رأسه الحليق دوائر بيضاء من القوباء.

- عندما أرادت أمي تسجيلي في مدرسة قريتنا في جبال النوبة، سألها مدير المدرسة الذي جاء إلى قريتنا من الخرطوم عن اسمي، فقالت له: موريس عبده سانتو، فضحك المدرس وقال لها: من أين جئتم باسم عبده؟ فقالت أمي: كان لجده سانتو صديق اسمه عبده، ومات ذلك الصديق في حادث سير، ولما أنجبت له زوجته ولدًا سمّاه على اسمه، من دون أن يعني ذلك أي شيء غير الوفاء لذكرى ذلك الصديق المتوفَّى. ضحك المدير مرة أخرى متهكمًا على تلك الحكاية، وقال لها: سيكون اسمه من اليوم عمر، عمر عبده سانتو، ودوَّن اسمي الجديد في سجلات المدرسة، ورافقني هذا الاسم حتى تخرّجت من الجامعة. لا أحد من رفاق دراستي يعرف لي اسمًا غير عمر، وكان أساتذتي ورفاقي يعتقدون بأنني مسلم، وكانت تصيبهم الدهشة عندما يشاهدونني أترك صفي في حصة التربية الإسلامية لأنضم إلى الصف المخصّص للتربية المسيحية. اتسع وعيي بتعقيدات بلدنا مع الوقت، وفهمت أنها كانت سياسة ممنهجة لأسلمة وتعريب قبائلنا.

كان الجميع ينصت باهتمام لحكاية الأستاذ موريس، ولم يقاطعه أحد سوى فوج قادم من أحد الأحياء البعيدة على ظهر شاحنة لوري،

توقّفت على مقربة من مكان الاحتفال ونزل من كان عليها، يسبقهم ضجيجهم وزغاريدهم.

- يوسف هذا ابن اختي.

قال الأستاذ موريس عبر المايكروفون مجدّدًا، محاولًا لفت الانتباه إلى المنصّة من جديد، ثم تابع بعد أن هدأ الجميع:

- إنه طفل ذكيّ وحسّاس، ويذكّرني كثيرًا بطفولتي، لكنه مسلم حقًا، لأن أبويه مسلمان، وذلك أمر غير مستغرب عند نوبة الجبال، حيث تجد في البيت الواحد المسلم والمسيحي واللاديني. ليست هذه إشكالية كبرى، بيد أن حكاية يوسف ومن هم في سنه الآن، أهم من تلك الحكاية التي حدثت معي. يوسف لا يذهب إلى مدرسة نظيفة يلتقي فيها بطلاب من كل قبائل السودان، فهو يسكن هنا في أطراف المدينة، في هذا الحي البائس، ويدرس في فصل من الخشب بناه الأهالي بجهودهم الذاتية، ويرتاده أقران له من اللون والشكل نفسه، وتعمل أمه في تنظيف البيوت لكي تعيله وإخوانه.

أشار إلى يوسف لكي يصعد إلى جانبه على المنصّة، وأرسل الفضوليون نظراتهم من فوق أكتاف الواقفين أمامهم لكي يروا يوسف وهو يخطو بخجل نحو المنصّة. صمت موريس ريثما صعد يوسف إلى جواره، ثم وضع يده على كتفه.

- لقد دعاني يوسف قبل عشرة أيام للاحتفال معه ومع أصدقائه بعيد ميلاده العاشر، وكانت أمه قد حضرت لنا عصيدة كبيرة من الذرة الحمراء، وضعتها في قدح كبير من الخشب، وأحاطتها بقدر كبير من الإيدام الأحمر، ثم غرزت فيها عشرة أعواد صغيرة من القصب وأشعلتها. غنينا ليوسف معًا، ثم نفخنا على تلك الأعواد واطفأناها وابتهجنا لبعض الوقت. في آخر الليل، أزحنا تلك الأعواد المحترقة من العصيدة ثم التهمناها في العتمة.

تعالت الضحكات، وضحك موريس قبل أن يقول.

- إذا أصبحت الحياة في بلادنا عادلة فسيتحوّل هذا الحي الذي يشبه

المخيم إلى شيء آخر، سيُضاء بالكهرباء، وسيشرب سكانه ماء نظيفًا، ويتلقّون رعاية صحّية تليق بآدميتهم، ويبنون بيوتهم مثل بيوت المدينة الأخرى التي لا تبعد عنهم سوى أميال قليلة. سيذهب يوسف إلى مدرسة جيّدة، بحذاء وحقيبة ومظهر أفضل، ثم يرتاد جامعة تقدّر ذكاءه، ويحصل من بعد ذلك على الوظيفة التي تناسب قدراته وليس لونه أو قبيلته أو ديانته. هكذا ينتقل حي فيليب من الهامش إلى المتن، ويصبح جزءًا من نسيج المدينة، لا طارئًا عليها، ويمكن عندئذ لصابرة أختي أن تحتفل بعيد ميلاد يوسف في قاعة احتفالات وتضيء له شموعًا ملوَّنة، وتشتري له دراجة أو هاتفًا هديّة عيد ميلاده. هذا يشبه السودان الجديد الذي نحلم به، ودعا إلى تحقيقه قائدنا الدكتور جون قرنق.

ثم هتف، وهتفت الجماهير خلفه.

- إس. بي. إل. إم. وييييييي... نيو سودان، وييييي...

رافقته عرفة بعد نهاية الحفل إلى الكنيسة التي تتوسّط الحي، وهي بناء صغير من الخشب مستطيل الشكل، سقفه جملوني مائل من الجهتين ويعلو زاوية رأسه صليب كبير من الخشب. تتّسع الكنيسة لعدد محدود من المصلين، خُصّصت لهم مقاعد ثابتة من الخشب ترتفع عن الأرض بمقدار شبر أو شبرين على الأكثر، لذلك ضاقت بالناس. وقف أكثرهم على النوافذ الصغيرة والباب الوحيد حتى حجبوا الضوء عمن بداخلها.

خلف طاولة مستطيلة صغيرة، وقف قس في منتصف العمر، برداء الكنيسة الأسود يتلو عظة قصيرة لم تسمع عرفة إلا مقاطع قليلة منها بسبب الضجيج القادم من الخارج، وانتهت بـ«آمين» التي ردّدها الحضور خلفه ثم رسموا الصليب على صدورهم.

إلى جوار القسّ، كانت فرقة مكوَّنة من الصبية والصبايا تستعد لأداء ترنيمة كنسية على نغمات جهاز أُرغن صغير، كان العازف الذي يتصبَّب عرقًا يحاول الإمساك بنغمات الترنيمة من دون جدوى، حتى صدحت صبايا الفرقة في لحظة واحدة بصوت حاد.

«فرّحتَ قلبي، يوم ما قابلتك
يوم ما قابلتك، كان يوم عيد
خلصتني، ريحت ضميري
غيرت قلبي، بقلب جديد»

وصدح الصبية بصوت غليظ:

«إنت حبيبي، إنت حياتي
وانت نصيبي، أعظم نصيب
أحببتني يا يسوع، وأنا خاطي
وحبك ظهر لي، في الصليب».

كانت ترنيمة بديعة، ملأت جو الكنيسة المختنق بالأنفاس والعرق بشيء من الطرب والخشوع، وأدّتها الفرقة بكثير من التناغم والانسجام، فيما عدا العازف الذي كان منكبًا على الأرغن كما لو كان يخشى أن يفلت من بين يديه، هذا مشهد تذكره عرفة جيدًا.

انتهت الترانيم، ثم دخل الكنيسة عروسان، يزفّهما خلق عظيم. كان العريس فتى أسود فاحم السواد، وطويل القامة إلى حد أنه انحنى عند اجتيازه باب الكنيسة. خمّنت عرفة من ملامحه أنه من جنوب السودان. أما العروس فقد كانت أقصر منه بكثير، وكان واضحًا من قصرها وامتلاء جسدها، ولونها الأسود الذي يميل إلى العسلي، أنها من جبال النوبة. بيد أن كَمّ الأصباغ التي كانت تضعها على وجهها ضيّعت ملامحه.

اقترب العروسان من المنجلية التي يقف عليها القس. سرعان ما راح يتلو الأسرار الإلهية للزوجين بقوله «مبارك الآتي باسم الرب» ثم وضع خاتمين في بُنصرَيّ العروسين بعد أن لقّنهما سرّ الرباط الزوجي.

كان يومًا بهيجًا بالنسبة لعرفة، حتى نهايته، واضطرّت للمبيت خارج كنيسة العذراء، في بيت صابرة، شقيقة الأستاذ موريس، لأن حفلة العرس امتدت إلى منتصف الليل. هذه الليلة قرّبتها من أناس لطالما كانت تراهم وتعيش بينهم لكنها لا تعرفهم. كشفت لها أبعادًا غير مرئية

في شخصية مدرّسها موريس عبده. وللدقّة، ليست في شخصيته ذاتها، بل في ذلك الذي يسمونه ما وراء الأشياء. الجذور التي تذهب بعيدًا في التربة، فلا تثير اهتمام من يكتفي دائمًا بتأمل النبتة التي تخرج إلى الشمس. تثير عجبه ودهشته، وربما حيرته من دون أن يخطر بباله من أين جاءت وكيف أصبحت بذلك الجمال.

***

قالت له مرّة، على سبيل المزاح.

- أنت رجل بارد، رغم الدماء الحارّة التي تجري في عروقك منذ ألف عام!

ضحك من أنفه، ضحكة قصيرة هازئة بينما كان يتأمّل صيادًا عجوزًا عاري الصدر، يتأرجح فوق قارب صغير. كان الصياد يحاول إصلاح عقدة في شبكة صيده، ويتفادى مواجهة أشعة الشمس المنعكسة على صفحة الماء بالدوران حول نفسه كلّما استدار القارب مع حركة الموج.

- كانت أمي تحبّني لهذا السبب، وتخاف عليّ أيضًا، ودائمًا كانت تقول لي مازحة: «بطنك غريقة» وستصبح حاقدًا عندما تكبر!

والتقط حصاة بحجم ليمونة كبيرة، ثم ألقاها في الماء. راح يتابعها بنظراته حتى بلغت القاع واستقرت هناك. أشعل سيجارة ثم قال لها.

- لعلّها كانت صادقة في زعمها. إنني اختزن قدرًا من الحقد في داخلي مذ كنت طفلًا، منذ أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة.

واستدرك بعد برهة صمت قصيرة.

- لكنّه حقد جميل.

ألقى نظرة أخرى على الحصاة المستقرّة في القاع.

- قال لنا المدرّس في ذلك اليوم: اللغة المطلسمة التي تكلمكم بها أمهاتكم في المنازل، يجب أن تتركوها عند باب المدرسة، لأنكم ستتعلّمون هنا لغة جديدة تجعلكم جزءًا من البلد! وعشت طفولتي كلّها أفكّر في معنى هذا الكلام، حتى رسخ في ذهني أن المدرسة هي البلد،

وبيتنا مجرّد مكان ينتمي إلى عالم آخر. كنت أردّد في عقلي، وأنا في الطريق إلى المدرسة أو البيت، أنني ذاهب إلى البلد أو عائد منه. ولأن المدرّس كان يضربنا ويرعبنا، بقيت الأسئلة حبيسة في دخيلتي بلا أجوبة. أحزنني ألا يكون بيتنا جزءًا من البلد، ولا بيوت أصدقائي وأقاربي. كبر معي ذلك الحزن، واضطرني لأن أحمل السلاح وأقاتل. المفارقة أنني لم أحقد على ذلك المدرّس، أبدًا. بل لطالما شعرت إزاءه بالامتنان، كونه وضع قدميَّ على أول الطريق الذي مشيت فيها بقية حياتي!

- وأي جواب وجدت في آخر الطريق؟ سألت عرفة.

أدار الصياد محرّك القارب، وراح يمخر الماء على مهل، مبتعدًا ومثيرًا موجات صغيرة متلاحقة، كانت نهاياتها تلثم أقدامهما المغموسة في الماء.

- حمل السلاح تعبير رمزي أحب استخدامه، إذ لم أكن جنديًا بالمعنى المعروف لكلمة الجندية، وإن كنت أعلق بندقية على كتفي طوال الوقت في المناطق المحرّرة، لكنني لم أطلق منها رصاصة واحدة. لقد نذرت نفسي للقتال في جبهة أخرى لا تقلّ أهمية، وهي جبهة المعرفة. الذي قاتلت من أجله يا صغيرتي، لا يحقّقه فرد أو جيل واحد مهما بلغ من العزم والحكمة، بل تحقّقه أجيال كثيرة. لقد وضع جيلنا القطار على السكة الصحيحة، وذلك ما يحسب لنا على الأقل.

شعرت بالحنق لقوله يا صغيرتي.

- ظننتك مقاتلًا حقيقيًّا؟

- أعتبر نفسي مقاتلًا حقيقيًّا، رغم أنني لم أدخل معركة قط. أنا أعمل في التدريس كما تعرفين. عشت عشرين سنة من عمري أعلّم تلاميذي أن كل بيت من بيوتهم هو وطنٌ حقيقيٌّ، وما يتعلّمونه فيه هو الدرس الأهم الذي لا يجدونه في أي مكان آخر. ذلك ميداني وتلك معركتي!

كان موريس يحبّ الحديث في السياسة، ويستغرقه ذلك، رغم أن سؤالها الذي ابتدرت به المحادثة كان مختلفًا ويقود إلى طريق آخر.

لطالما أثارت حيرتها قدرته على تحويل مجرى الحديث إلى ما يريد. بدت لها قدرة استثنائية ومثيرة للإعجاب.

كانت قد أُعلنت نتائج امتحانات الشهادة السودانية، وأحرزت تقديرًا لا بأس به، يؤهّلها لدخول إحدى الكليات الأدبية. نجحت في كل المواد، وهنّأها موريس وكذلك مدير المدرسة مستر موقا.

- لقد تفوّقت على نفسك يا حياة ونجحت، هذا يشعرنا بالفخر لأجلك.

قال وهو يشدّ على يدها ويشمل الأستاذ موريس بنظرة امتنان أبوية ملأتها بالبهجة.

- مبارك لك يا عرفة، أقصد حياة. مبارك لنا جميعًا.

قال موريس أيضًا، وهو يرسم علامة الصليب على صدره. أبهجها ترديده لاسمها الحقيقي، وأنه يتذكّره دائمًا. كان ذلك محفّزًا لها لكي تحتفل معه، ومعه فقط بمناسبة نجاحها. دعته إلى الغداء في سِقالة السمك بحي أبو حشيش، في الجزء الشمالي من المدينة، حيث تنتهي البيوت الخشبية القديمة التي قامت بعد نشأة المدينة بقليل، ويبدأ البحر متدرّجًا من الأزرق الشفاف إلى الوردي ثم الأخضر ثم الأزرق الداكن.

اكتشفت هذا المكان في الشتاء الماضي، وأحبّته، وصارت تلجأ إليه كلما خنقتها وحدتها، واستفردت بها ذكريات وادي العقيق ومآسيه المريرة، أو طاردها طيف ابنتها التي رمتها تحت أقدام الرجال في ذلك الفجر، مثل دمية تالفة، أو تذكّرت أهلها. إلى أين يهرب المرء من ذاكرته، ومن ماضيه، إلا أن يولد من جديد، ويبدأ من الصفر كما تبدأ كل الأشياء؟ كانت ترغب في أن يضعا معًا الخطوة الأولى على الطريق الجديد. فإن لم يكن بوسع المرء أن يولد مرة أخرى، فيمكنه أن يبدأ من نقطة ما، ويتقدّم. هكذا قالت لنفسها.

بعد الغداء، جلسا على حافة سقالة طويلة من الأسمنت المسلّح، تمتدّ إلى داخل البحر لنحو مائة متر وعرض مترين تقريبًا. كانت ترسو

عليها قوارب في السابق كما يبدو، لكنها الآن مجرّد قطعة من الإسمنت المهشّم.

نظرت الآن إلى جانب وجهه بينما كان يتابع مركب الصياد العجوز الذي بلغ المنطقة الزرقاء الداكنة، البعيدة، وبدا لها أن لون وجهه تماهى مع لون البحر وازرقّ قليلًا.

- أخبرتني صابرة أنك قد تذهب إلى الخرطوم، وتستقرّ هناك!

قالت، ثم أدارت وجهها ناحية الأفق، حيث تلاشى قارب الصياد العجوز.

رمى عقب السيجارة في الماء، ثم قال من دون أن ينظر إليها:

- وربما أستقرّ هنا إلى الأبد، أو أعود إلى قريتي في جبال النوبة، أو أهاجر، لا أعرف.

صمت قليلًا، وأضاف:

- حقًّا لا أعرف.

لاذت بالصمت أيضًا، لم تكن تريد أن تقول شيئًا لتغيّر رأيه. كانت تريد أن يكون قراره نابعًا من إرادته... قال وهو يحرك ساقيه في الماء.

- لم أقرر شيئًا بعد، الأمر يتعلّق بأشياء كثيرة لا أملك تصورًا محددًا بشأنها في الوقت الحاضر، أو بمعنى أدق ليست في نطاق سلطتي الشخصية لأقرّر بشأنها. ما يهم الآن أنني موجود في هذه المدينة حتى تتّضح الأمور. مستعد لدفع أي ثمن في سبيل الغاية التي أخطّط لها.

- هل هي غاية سياسية؟

كانت تريد دفعه إلى الحديث عن الاحتمال الذي تفكّر فيه، فيؤكّده أو ينفيه. بيد أن إحساسًا غامضًا غمرها فجأة، وشعرت بقلبها يخفق حين طالعها وجهه بمشاعر طازجة، لم تحسّها من قبل. كانت مزيجًا من انكسار غامض وحنين. بدأت أطرافها تبرّد، وأنفاسها تضطرب وكأنها تتهيأ للقفز من شاهق.

قال: أهونها هو الشقّ المتعلّق بالسياسة، لأنني أخطط له على النحو

الملائم. هناك أمر آخر أهم. ثمة فوارق واضحة في العمر والعرق والدين والتجربة والمسؤولية، هذا ما يشغلني حقًّا!

كأنّ ماءً باردًا اندلق عبر جسدها من الداخل دفعة واحدة، وغمرها من رأسها حتى أصابع قدميها. شعرت برعشة خفيفة تهزّ جسدها. عاودها ذلك الإحساس الغامض نفسه، كأنهما يكملان شيئًا بدآه معًا في ما مضى، في حياة سابقة، أو ربما في حلم، أو أن ما يجري هو امتداد لعلاقة كانت موجودة أصلًا وليست جديدة أو طارئة.

- أحسّ بأنني أعرفك منذ وقت طويل، ولا أشعر بهذه الفوارق.

لاذ بالصمت. واستطردت:

- كل ما يمكن أن أقوله لكِ الآن، إنني في حاجة إلى الحديث مع شخص ما، شخص مثلك ربما، أضع بين يديه أمورًا كثيرة تثقل كاهلي، فيقتسم حملها معي!

طال صمته هذه المرة، وراح يرمي الحصى في الماء، حصاة بعد أخرى، ويميل بجسده إلى الأمام ليتابعها حتى تستقر في القاع.

- ستبقى هذه الحصوات في مكانها إلى الأبد، ما لم تمتد إليها يد أو ينحسر البحر عنها. بعد سنة أو عشر أو خمسين سنة أو أكثر، ربما يطمرها الرمل أو الطحالب، لكنها تبقى موجودة.

ألقى ثلاث حصوات أخرى في الماء ثم قال:

- كل ما يحدث معنا في هذه الحياة، ربما يلقى المصير نفسه. ننساه أو نتغافل عنه أو نتجاهله، لكنه يظل موجودًا. أما حديثنا عنه فلا يخلصنا منه تمامًا وإنما ينقله من مكان إلى آخر في ذاكرتنا، من موضع الألم أو الفرح إلى موضع الذكرى أو المعرفة مثلًا. تمامًا كما يفعل الموج مع هذه الحصى الصغيرة. يحرّكها مع الوقت حركة لا تكاد ترى، لكنها تحدّث. انشغالي الدائم بمثل هذه الأشياء الصغيرة، كان مشكلتي أبدًا. أحرّكها من مكانٍ لأضعها في آخر، ثم أرتّب تفاصيل حياتي الأخرى بناء عليها من دون أن أتحدّث عنها لمخلوق إلا نادرًا. حتى انضمامي إلى

النضال في صفوف الحركة الشعبية وعملي بالتدريس في مناطق خطرة لعقدين من الزمان وشغفي الحالي بالسياسة، كان نابعًا في الأصل من تلك الكلمات القليلة التي استقبلنا بها مدرّسنا كما أخبرتك، لذلك ربما كنت حاقدًا بالفعل، كما تنبّأت أمي!

ثم ضحك، ضحكة قصيرة رائقة، والشمس تميل إلى المغيب. لم يغب عنها أنه تجنّب التعليق على حديثها بصورة مباشرة. قالت مغتاظة:

- يتصوّر كثير من المناضلين أن الحرب مهنتهم، وأنها مهنة شريفة لا يستطيعها غيرهم، وهي في حقيقتها حماقة كبرى!

- صدقتِ!

قال ببرود، زاد من غيظها. همّهم قليلًا، ثمأضاف وهو يهز رأسه:

- بعض المناضلين ضحايا أيضًا، وإن كانوا لا يعرفون.

غابت الشمس، وخلا الشاطئ تمامًا من الناس. رجعوا ناحية بيوت أبو حشيش القريبة التي اشتعلت أضواؤها القليلة على مهلٍ. ثمة صيّاد آخر، دفع قاربه إلى الماء وانطلق. زادت كثافة الهواء مع نزول الرطوبة، وامتلأ برائحة البحر والملح، ومع ذلك أشعل موريس ثلاث سيجارات واحدة تلو الأخرى.

طال صمتهما هذه المرة إلى أن ظنّت عرفة أن الحديث سيكون عسيرًا. ثم عاودها ذلك الشعور الغامض، بأن شيئًا ما، له علاقة بماضٍ يعرفه كلاهما سيحدث. سحب موريس نفَسًا عميقًا من الدخان المختلط بالهواء الثقيل ثم قال:

- كان رفاقنا يأخذون تلاميذ الصفوف العليا غصبًا إلى ساحات الحرب، خاصّة عندما يتعرّض جنودنا لخسائر في المعارك، وكنت دائمًا ضد هذا التصرّف، واعتبره جريمة كبرى في حق التلاميذ ومستقبلهم، لكن الرفاق لم يكونوا يأبهون للاحتجاج، أو للشكاوى التي كنت أتقدّم بها للقيادة. ذات مرة، وبينما كنت في مهمّة على مشارف نهر العرب لتسلّم كتب مدرسية مهرَّبة عن طريق إحدى مجموعات المسيرية

الحليفة لنا، جاء الرفاق في غيابي وأخذوا معهم أربعة وعشرين تلميذًا من الصفوف الكبرى في مدرستي. لعلّهم قصدوا أن يفعلوا ذلك أثناء غيابي لأنهم يعرفون أني لن أوافق، أو ربما هم من دبَّر غيابي، لا أعرف. عندما عدت، أخبرتني الرفيقة ملكة، مساعدتي في إدارة المدرسة، بما جرى. حزنت، وغضبت أيضًا، واعتزلت العمل معتصمًا في خيمتي حتى يعيدوا الأطفال الذين أخذوهم. كنت أدرك في قرارة نفسي أن الذين يذهبون لا يعودون، لكنّني رغبت في الاعتراض حتى لا يتكرّر ما حدث في المستقبل أو للتقليل منه، على الأقل في مدرستي. كنت حزينًا من أجلهم، ولا سيما ذلك الولد العبقري، الذي كنت أرى فيه امتدادًا لشخصيتي، وأرى في شغفه بالمعرفة جزءًا من أحلامي. لا أعرف إلى أين أصبح الآن. لقد كنت حزينًا جدًّا وما زلت من أجل ماثيو!

أفلتت من عرفة صرخة، سرعان ما قطعتها بوضع يدها على فمها حين استدار نحوها وتطلّع إليها بمزيج من الذعر والدهشة. سمعته يصرخ وهو يضع يده أمام عينيه.

– ما هذا؟

كان ضوءًا باهرًا، سُلّط عليهما فجأة من مسافة قريبة. أغمضت عينيها من الذعر وأحاطت وسطه بذراعيها، ثم دفنت رأسها في صدره. كانت أنفاسه تتلاحق، وضربات قلبه تدق في أذنها اليسرى مثل طبل بعيد. سمعت أصوات أقدام ثقيلة تقترب، وصوت موريس يختلج في صدره.

– يا يسوع... يا يسوع.

(26)

أغلب المقاتلين الذين أُخذوا إلى الجبهة في تلك الليلة عادوا قتلى وجرحى ومهزومين بعد أيام قليلة. جيء بهم على ظهور الشاحنات ذاتها، التي حملتهم في العتمة من دون أن يلوّحوا لأحد بالوداع. تحوّلت عنابر المقاتلين إلى مشافٍ ميدانية لاستقبال الجرحى العائدين من المعارك. بطون مبقورة وأطراف مبتورة، ووجوه مهشمة وأوصال ممزقة. دماء وصراخ وألم. شيء لا يمكن وصفه بالكلمات. لم يكن المعسكر مهيّأً لاستقبال ذلك العدد الكبير من الجرحى وإصابات معظمهم خطيرة، لكنها ظروف الحرب، والحرب تعيد تعريف الأشياء على طريقتها.

أما القتلى فكان أمرهم أيسر. جُمعوا في شاحنة واحدة ليُدفنوا خلف الجبل. خرجت يتقدّمها حفّار صغير، أصفر اللون له ذراع طويلة مثل ذيل العقرب. وكانت جثثهم تتأرجح فوق الشاحنة الكبيرة، وهي تعبر البوابة، مثل خراف ذبيحة.

هبط على المعسكر وجومٌ مقلقٌ له رائحة الموت وطعم المأساة. لا أحد يكلّم أحدًا، ولا شيء يبدو أنه سيبقى في موضعه أو حدوده. تغلغل الخوف في النفوس إلى حد أنه حبس الكلمات داخلها، حتى عند الحاجة إليها كانت تخرج من غور بعيد، واهنة وفاقدة لمعناها ولا تؤدي الغرض. الحركة والسكون أصبحا شيئًا بلا معنى في مكان يحسب حسابًا لكل خطوة ولكل كلمة.

أوكلت إليّ وإلى جميع المقاتلات الإرتريات مساعدة الطاقم الطبي الذي لم يكن يتكون إلا من طبيبين وثلاث ممرضات. بعض الجرحى مات في أثناء العلاج، وبعضهم الآخر في انتظار مرور الطبيب أو نقص الأدوية والمعدات، وأغلبهم مات بعد أيام قصيرة لسوء الحالات التي جاءوا بها من أرض المعركة. كانت المهمة شاقة على الجميع، ومؤلمة أيضًا.

حدثتني مقاتلة إرترية جريحة أن مواجهات شرسة جرت على مشارف عقيق. مات فيها الكثير من رفاقها الإرتريين والسودانيين، تاركين لها ولغيرها عذاب الذاكرة إلى الأبد.

- لن تصدقي أن المعركة استمرت خمسة أيام بلياليها. كان الطيران الحكومي السوداني يكثف طلعاته في الليل. يطلق قنابل مضيئة ثم يقصف كل ما يقع تحت نظره، حتى منازل المواطنين لم تسلم من القصف. أما خلال ساعات النهار فتستمر المعركة على أشدها بين المدفعية والمشاة على الجانبين، رغم الرياح والأتربة وانعدام الرؤية، وكأننا شياطين تتقاتل فتثير الأعاصير. صمدنا في جبهة عقيق خمسة أيام قبل أن نتركها، لكن ما أظنها تصمد بعد ذلك.

أحدهم، كان في غيبوبة طويلة بسبب إصابة في رأسه، ولما أفاق نظر إليّ وابتسم، وفهمْت من حركة عينيه أنه يريدني أن اقترب، ففعلت. كان مقاتلًا بجاويًا من أهلنا. عرفته من الشلوخ الكبيرة التي تفصّد خديه بقسوة، ونظرة الحياء التي تبلل وجهه. همس لي بصوت واهن حين دنوت من رأسه.

- هل قتلتِ أحدًا من قبل؟

أفزعني سؤاله، ودفع في جسدي رعشة مثل صعقة الكهرباء، فقلت مرعوبة:

- ولـمَ تسألني دون غيري مثل هذا السؤال؟

لم يقل شيئًا، ولم يبدُ عليه الانزعاج فقلت بنبرة أكثر حدة.

- هل يبدو لك وجهي وجه قاتلة مثلًا؟

سيرة القتل أدارت نحونا رؤوس الجرحى الممدَّدين فوق الأبسطة. راحوا ينظرون إلينا كما ينظرون إلى معتوهَيْن. ابتسم. أشرق وجهه ببريق غامض، وكأنما قرر أن يشركني معه في لعبة خطرة. أمال رأسه ناحية كتفه الأيمن ثم زلق بصره بهدوء فوق يده الممددة إلى جانبه، في لفافة من الأربطة الطبية حتى منابت أصابعه. حرك الأصابع بهدوء، وكأنما يتأكد من أنه قادر على فعل شيءٍ ما. تبعت عينيه، فنظرتُ إلى أصابعه، وإلى يده

كلها، وكذلك إلى اليد الأخرى المتصلة بالمحلول الوريدي، ثم إلى وجهه -لكن دون عطف هذه المرة- فبدا لي وجه قاتل. نظر إليّ نظرة متوسلة، فتحول ذلك الشر الطافح على وجهه إلى حزن مرير. أدار بصره نحو نقطة مجهولة في السقف، ثم راح يكلمني بأنفاس مضطربة.

- قالت لي أمي «سأزوجك من تيماني في الشتاء» وقلت لها «إنني سأغيب قليلًا وأعود قبل الشتاء» بدا لي أنها لم تصدقني، لكنني لم أهتم. ذهبْت إلى تيماني وأخبرتُها بالحقيقة. أخبرتها بأنني ذاهب إلى الحرب، فقالت لي: «سأنتظرك يا طاهر إلى آخر عمري إن وعدتني بأمر» قلتُ ماهو؟ قالت «أن تبقى رجلًا حتى النهاية».

سكت قليلًا يستجمع أنفاسه المتلاحقة. كان صدره يصعد ويهبط مثل الموج وكأنه يسابق أمرًا ما. ثم عاد يتكلم:

- أنا الآن مهزوم، هذا أمر لاشك فيه، لكنني نصف ميت ونصف حي، وهذه هي المأساة. المهزوم يجب أن يموت لينسى كل شيء، والمنتصر يجب أن يبقى ليأخذ كل شيء. أليستْ هذه عدالة الحرب؟

- الحرب ليست معركة واحدة يا طاهر، أنت أدرى.

قلت بعد تردد، وبصوت مهزوز. صدرت منه تنهيدةً لم أفهم مغزاها إلا حين رأيت ما يشبه ابتسامة ساخرة على طرف فمه.

- أرجوكِ، خذي الوسادة من تحت رأسي ثم ضعيها على وجهي وينتهي كل شيء. أنت ابنة عمي، بجاوية مثلي. تستطيعين فعل ذلك من أجلي ومن أجل تيماني، أليس كذلك؟!

صرخت ووليت هاربة. أخذتني خطواتي المضطربة إلى مطبخ المعسكر، لأضع رأسي على صدر الأم الحزينة. أخذتني في حضنها، ولما هدأ روعي أخبرتُها بما جرى.

- يبدو أنه حزين ويائس، لا تغضبي منه يا ابنتي.

قالت بنبرة مليئة بالعطف ثم خرجت لتساعد طباخات المعسكر اللائي يشرفن على قدور العشاء الضخمة المنصوبة في الخارج. تركتني مع التوأم

آمنة وأمينة اللتين كانتا تقومان بتقطيع الخبز وتقسيمه على أطباق كثيرة مفروشة على أرضية المطبخ. انتبهت لأول مرة إلى أن نظرات أمينة تغيرت، وصار لها مغزى. تتبع مصدر الصوت، وتبتسم أحيانًا لكنها لا تنبس بكلمة. كنت كلما غفلت مشرفة المطبخ ومساعدتاها عن مراقبتنا أعود لأحكي لهما من حيث توقفت، بينما تظل يداي تقطعان معهما الخبز اليابس. في إحدى لحظات انشغال المشرفات مالت آمنة نحوي ثم قالت هامسة.

- أقنعتُ أمي أخيرًا بالهرب من هذا المكان، هل تنضمين إلينا؟

- هل جرى لعقلك شيء؟

راحت تشرح خطتها للهرب بنظرات حذرة، معلّقة بباب المطبخ.

- لا يوجد أنسب من هذا الوقت. الجميع مشغولون بالحرب يا عرفة ولا يوجد ما يكفي منهم لحراسة مشددة على كل جزء في المعسكر، وحين ينتبهون إلى غيابنا نكون قد وصلنا مكانًا آمنًا. ما رأيك؟

- الخطة أهم من الغاية.

- سنتسلّل في الليل من جهة ورشة الماكينات، إنها أقل أماكن المعسكر رقابة. سندور حول الجبل دورة كاملة ونكون في أول الطريق المتجه نحو الشمال.

وراحت تثرثر طوال ذلك المساء حتى نسيتُ تمامًا ما جاء بي، واندمجت معهن في تجهيز وجبة العشاء وتوزيعها وغسل الأواني وتنظيف المطبخ وترتيبه، ثم التجهيز لوجبات الغد مثلما أمرتنا مسؤولة المطبخ الإرترية قبل أن تغادر وتركت مساعدتَيْها لمراقبتنا. استغرقنا العمل في تنظيف أكوام الفاصوليا والأرز والعدس الرديء ونقعها في الماء، ثم رحنا نقطع أطنانًا من البصل ونوزّعها على قدور الطبخ الضخمة. فرغنا من العمل قرابة منتصف الليل منهكات وجائعات. حملنا عشاءنا في أيدينا وقصدنا مكانًا نصف معتم في طرف الساحة المنبسطة وسط المعسكر، وجلسنا لنأكل ونتحدّث من دون خوف.

- إطعام المئات من البشر كل يوم عمل شاق يا خالتي، لا أعرف كيف تدبّرن وقتًا للراحة وسط هذا العمل الذي يبدأ مع الفجر وينتهي في مثل هذا الوقت كل يوم.

- إطعام الناس فيه أجر عظيم يا ابنتي. لعل الله يكتب لنا به النجاة من الضيق الذي نحن فيه.

- ألا يرى مأساتنا أصلًا؟

قلت حانقة، فمدت يدها أمام وجهي:

- استغفري الله يا ابنتي. أنت مؤمنة وابنة مؤمنين.

- منذ عامين ونحن نعاني يا خالة، ولم نقصِّر في الدعاء والصلاة. هل سينجينا الآن من أجل إطعام هؤلاء المجرمين؟

لم أقل لها بقية ما فكّرت فيه. خشيت أن تتّهمني بالكفر. سألتني آمنة عن عملي لتغيّر الموضوع. قلت محبطة:

- قبل أن يضمّوني إلى فريق الطبابة بشكل مؤقّت، كان عملي في المكتب يسير على وتيرة ثابتة. أنظّف المكتب في الصباح ثم أنتقل إلى تنظيف غرفة الضابط الملحقة بالمكتب بعد خروجه، أو غسل ملابسه، وبعد الفراغ من التنظيف أبقى جالسة جوار باب المكتب لألبّي له طلباته. عرفة هاتِ قهوةً... هاتِ ماءً... هات الغداء... خذي هذه الأوراق إلى المكتب الفلاني... وهكذا حتى يحين موعد نومه فأعود إلى غرفتنا، ولا أستيقظ إلا عند مجيئكنّ في مثل هذا الوقت. ستكون الخيبة كبيرة إذا لم يفرجوا عنا بعد كل هذه العناء!

- أحاول إقناع عرفة بالهرب معنا يا أمي.

تمتمت آمنة آخذة الحديث إلى منحًى آخر:

- هششششش.

قالت الأم الحزينة وهي تتلفّت:

- سنتحدّث في كلّ شيء لاحقًا، لكن لدي خبر سارّ لعرفة.

تلفّتت حولها من جديد ثم مالت نحوي:

- عرفت أن أباك كان سجينًا في قرورة!

وجب قلبي، ثم دقّ بعنف حتى كاد أن يغادر صدري. وغمرتني فرحة عقدت لساني عن الكلام.

جاء مقاتل من أولادنا البِجا في مهمّة خاصة منذ يومين، وقد يعود مساء الغد، وهو الذي أخبرني.

– ماذا قال لك؟ وكيف رأى أبي؟ و...

– على رسلك. سأقول لك كل شيء!

– بل أريد أن أرى هذا المقاتل يا خالة وأتحدّث إليه، هل هذا ممكن؟

أمسكتُ برأسها وقبلته، ورجوتها أن تجمعني به حتى دون أن أسمع بقية الرواية، بيد أنها صدتني بحزم.

– صعب يا ابنتي. لقد وعدته ألا أخبر أحدًا.

ثم راحت تعيد عليّ ما قاله. رَآه وسجينًا آخر قبل أن يأخذوهما إلى داخل إرتريا. كُلف بحراستهما لثلاث ليال، ورأى منهما صبرًا وجلدًا، ومداومة على الصلاة والدعاء وقراءة القرآن.

ساورني شك في رواية الأم الحزينة، وبدا لي الأمر كلّه مصطنعًا وزائفًا لكي تخفّف عني أو تمنحني أملًا. أحسست وكأنما عرضت علي صورة فوتوغرافية لأبي. جامدة لا حياة فيها، لا تسكن شوقًا ولا تبدد قلقًا.

– أما يزال حيًا أم قتلوه؟

– حي بإذن الله!

وضعت وجهي بين كفيَّ ورحت انتحب.

امتدّت يدٌ وطوقتني، ثم ضمتني إليها ضمة قوية لم أعتدها، وحين رفعت رأسي وجدتها أمينة الصامتة. رحت أتأمّل وجهها بين الضياء والظلال وهو ينضح بعاطفة صامتة. ضممتها إلى صدري، وزاحمتني أمها وأختها وتكوَّمنا على بعضنا مثل أطفال مرحين.

انتبهنا إلى الضابط تيتو الذي أعمل في خدمته، برفقة أحد الجرحى وثلاثة مسلحين آخرين يقفون على رؤوسنا ويوجّهون إلينا فوهات بنادقهم. فوجئت بأحد الجرحى، يقف على عكّازتين طبيتين ويشير إليّ.

– هذه هي سيدي. رأيتها وهي تضع الوسادة على وجه طاهر حتى لفظ أنفاسه ثم هربت.

(27)

أخذوهما في الصباح إلى محاكمة متعجّلة، لم تستغرق سوى دقائق قليلة. عقدت في غرفة صغيرة، في أحد الأركان القصيّة من مركز الشرطة الذي قضيا فيه ليلتين بسبب عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن تشبه قاعات المحاكم التي رآها أيٌّ منهما من قبل. كان القاضي البدين ذو الشوارب الكثّة واللحية الفضّيّة الخفيفة جالسًا خلف المكتب، وتتّصل بمكتبه طاولة أخرى قليلة العرض على هيئة الحرف T، وممتدة إلى قرب الحائط المقابل. وقف الشرطيان اللذان أوقفاهما، على الجهة الأخرى من الطاولة في منتهى الأدب والانضباط، ووقفا حيث طُلب منهما.

لم يسألهما القاضي المكفهرّ سوى سؤال واحد، ما إذا كانت تربطهما علاقة زواج أو قرابة من أي نوع. بدت ملامح الامتعاض على وجهه حين استدلّ من اسم عرفة على أنها مسلمة وموريس مسيحي، ثم دوَّن كلامًا كثيرًا على الورق. ما إن أنهى تسويد الصفحات الكثيرة التي بين يديه، تلا عليهما مادة في القانون قال إنها تسمى «الأفعال الفاضحة والمخلّة بالآداب العامة». أدانهما بنصِّها المقتضب وحكم عليهما بالجلد أربعين جلدة تعزيرًا، والغرامة المالية لكليهما، وألزمهما بتعهد مكتوب بعدم التكرار. جُلدا بطريقة بدت لهما مهينة ووحشية على مرأى من الناس في مركز الشرطة. شعرت عرفة بالتفاهة وهي ترى نظرات الاحتقار التي أحاطت بهما. وبكت.

دفع الأستاذ موريس الغرامة لكليهما وخرجا، وخرج في إثرهما رهط من الأطفال والصبية، يرمونهما بالحجارة ويرشقونهما بألفاظ نابية.

استقلّا أول سيارة أجرة لاحت لهما على الطريق وابتعدا. لم يتبادلا أي نوع من الكلام حتى وصلا إلى كنيسة العذراء.

- أراكِ في قداس الأحد. أحب أن أرى الأب فانوس وأتحدّث إليه.

قال بصوت مشروخ، ثم غادر من دون وداع.

تابعت عرفة السيارة حتى غابت في زحام السيارات ثم دفعت بوابة الكنيسة بحذر ودخلت. اتجهت مباشرة إلى غرفتها، لكي تتجنّب رؤية الأخت مارتا، ولتستطيع تبديل ملابسها بأسرع ما يمكن وإنجاز ما يمكن إنجازه من عملها. لقد كانت الحادية عشرة صباحًا، ولا بد أنها في مثل هذا الوقت تقوم بتنظيف المكاتب والممرّات وترتيب المكتبة. انتبهت الأخت مارتا إلى غيابها ثلاثة أيام عن العمل، لكنها لم تشأ توبيخها. التقتها في الممر الذي يقود إلى مكتب الأب فانوس وهي تحمل صندوقًا مليئًا بأثريات وتماثيل كانت تزيّن المكتب، وطلبت منها أن تضعها في المكتبة بعد تنظيفها.

أكملت عرفة عملها في ذلك اليوم وذهبت إلى غرفتها.

ظلّت في الأيام التالية أيضًا، تلوذ بغرفتها بعد انتهاء العمل، ولا تخرج منها مطلقًا. تركت السياط على روحها وجسدها أثرًا فظيعًا لم تستطع تجاهله. قال القاضي إن الشرع يحرم خلوتهما الفاضحة. ضحكت ساخرة في أعماقها. طافت بخاطرها، في عتمة الغرفة، كل العيون التي أحاطت بهما في ساحة مركز الشرطة. كان بعضها شامتًا وبعضها الآخر ساخرًا، وقليل منها متعاطفًا. انصبّ تركيزها على هذا الأمر من دون غيره. كان شعورًا بالخزي أكثر منه شعورًا بالألم.

***

جاء موريس صباح الأحد إلى القداس، أنيقًا حليقًا، ويسبح في غمامة من العطر والمرح. كما لو أنه نسي ما حدث. إنه في الواقع تجاوزه أو تناساه من أجل الغاية التي جاءت به. كان يرتدي طقمًا أسود، مع ربطة

فراشة سوداء على عنقه، وحذاء أسود لامعًا. جاءت شقيقته صابرة وابنها يوسف برفقته، وأصاب ذلك عرفة بحيرة لم تبدّدها كلمات موريس القليلة التي تبادلها معها وهو يدخل إلى القداس، ولا مزاحه المرح الذي تعمّد أن يقابلها به. لم يكن صوته مشروخًا هذه المرة، بل كان صافيًا وكأنه ينبع من زمن آخر. ألحّت صابرة عليها لكي تحضر معهم القداس لكنها اعتذرت. تعلّلت بالعمل.

***

مساء الأحد التالي لبّت عرفة دعوة على العشاء من صابرة في منزلها. فهمت بما لا يقبل الشكّ أنها دعوة من موريس، أو من أجله، وكان ذلك سببًا إضافيًا لبهجتها. ارتدت بنطال جينز زهري اللون مثل حلوى غزل البنات، مع تونيكا بيضاء عليها تشكيلات صغيرة باللون الحلاوي نفسه، ووضعت قليلًا من العطر والمساحيق. حرارة الطقس في تموز/ يوليو ورطوبته الخانقة تفسدان مثل هذه المباهج الصغيرة وتكدّران المزاج، لكن ما حيلة المبتهج إذا حانت لحظة بهجته في قلب الجحيم نفسه؟

خرجت من كنيسة العذراء قبيل المغيب. كانت الشمس تسحب ذيول ضيائها البرتقالي فوق الطرقات ونهايات الأبنية مثل رداء حريري ناعم، وتحملها خلفها نحو الأفق البعيد.

استقلّت عرفة سيارة أجرة وانطلقت لا تلوي على شيء. الليل في حي فيليب وما حوله يمحو كل أثر للجغرافيا. بيد أن الهاتف النقال له سحره. لم تكن الهواتف في ذلك الوقت بهذا الذكاء الذي عليه الآن، لكنها لم تكن غبية أيضًا.

كانت ليلة من تلك الليالي التي تخلد في الذاكرة. أكلوا فيها وشربوا وتقاسموا ونس الليل في حوش صابرة بعد أن خلد أولادها إلى النوم. كان التلفزيون الحكومي يعرض فيلمًا أجنبيًا للسهرة، ضمن برمجة ثابتة ليل كل أحد منذ أمد طويل. فيلم هذا الأسبوع كان أمريكيًا، كلاسيكيًا.

تدور أحداثه في قرية لرعاة البقر في الجنوب الأمريكي في القرن الثامن عشر، بين عبيد يتوقون للتحرّر من ربقة سادة بيض، قساة.

- مأساة الإنسان الأسود هي عورة التاريخ الإنساني كلّه.

قال موريس وهو يفتح قنينة تحوي سائلًا شفافًا. صب منها على كأس صغير مقدار ما يملأ فنجان قهوة. فاحت رائحة نفاذة تعرفها عرفة.

- عرق جيّد!

قال وهو يتمطق. أرخى ظهره على المقعد وعاد إلى مشاهدة الفيلم.

- أي نوع من الاعتذار يستحق هذا الإنسان الأسود؟ وكم سنة سيكون على الرجل الأبيض أن يظلّ يعتذر ويعتذر، لكي يمحو وصمة الاستعباد؟

بعد كأسين من العرق، تخفّف موريس من صرامته. أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء الرطب الثقيل، فشكلت سحابة فوق مجلسهم.

- إذا سكر المدرِّس فلا بد للتلميذ أن يذوق الشراب، لماذا هو قدوة إذن؟

ضحكتا. قالت عرفة مازحة:

- أنا لا أشرب إلّا الخمرة المستوردة. هذا العرق لا يناسبني!

ضحك ضحكة قصيرة. رفع الكأس إلى فمه وشربها دفعة واحدة، مغمضًا عينيه ومقطّبًا وجهه. وكأس إثر كأس، صعدت السكرة إلى رأسه الصغير واستقرت هناك، فلاذ بصمت عميق. ارتخى جفناه وتدلّى فكّه وتراخى جسده على المقعد، مركّزًا نظراته على التلفاز. كان السيد الأبيض على ظهر حصانه، يتأمّل من مركزه عبيدًا تنهش أجسادهم سياط جلاديه.

- أنا شيوعي، مثل الكثيرين من رفاقي الذين يؤمنون بالاشتراكية وينحازون للطبقات المسحوقة، لكننا جميعًا نحتفظ في صميم أرواحنا بنزعة غامضة إلى الرفاه والسلطة.

- خسارة!

قالت عرفة مبتسمة. فنظر إليها موريس بحدة.

أضافت:

- كنت أفكّر في اعتناق الفكر الشيوعي، لكنني غيرت رأيي الآن!

ضحكت هي وصابرة. لكن موريس لم يضحك، وراح يتكلّم مرة عن السياسة، وأخرى عن المبادئ، وثالثة عن الحياة كأنما يكلّم نفسه. لقد ثمل. انشغلت المرأتان عنه بلغط جانبي بينما استمر هو يتحدّث عن التغيير الذي ستُحدثه عودة زعيم الحركة الشعبية جون قرنق إلى الخرطوم بعد ربع قرن من الحرب والغياب. كانت العاصمة مبتهجة في تلك الأيام، وتضج بكرنفالات رسمية وشعبية احتفالًا بهذه العودة المظفرة، وكان موريس يخطّط لحضور ذلك الاستقبال المهيب ووعدهما بحضوره كذلك، كما وعد يوسف ابن أخته وإخوانه كلّهم، لكنه حنث بوعوده في النهاية ولم يخبر أحدًا عن السبب. وعوض ذلك، راح يحدّثهما بزهو عن الدكتور جون قرنق وعلاقته به، ويعدهما بلقائه عن قرب ومصافحته وتعريفهما إليه عندما تحين الفرصة.

بدا حديثه عن هذه العودة، لعرفة على وجه الخصوص، مثل حديث عن حلم أو معجزة، كتلك المعجزات التي لا تحدث في التاريخ إلا مرات قليلة متباعدة، فأحاديثه عن الدكتور قرنق نفسه، كمحارب وقائد وإنسان ومفكّر وسياسي، كما لو كانت هي الأخرى أحاديث عن أسطورة خرافية نادرة التحقّق في عالم الواقع.

قبل أن ينتهي فيلم السهرة، وقبل أن يكمل موريس آخر كأس في قارورته، انقطع البث. نقلت صابرة مؤشّر التلفاز إلى محطة أخرى، كانت محطة إخبارية فظهر على الشاشة خبر بخط عريض: «فقدان طائرة تقل الدكتور جون قرنق نائب الرئيس السوداني بعد إقلاعها من مطار في أوغندا متّجهة إلى جنوب السودان».

ذُهلت المرأتان، وهتفت صابرة:

- هل رأيت الخبر يا موريس؟

اتسعت عينا موريس ومال بجسده إلى الأمام، وراح يحدّق في التلفاز بذعر كأنما يحدّق في هوّة لا قرار لها. المحطّات راحت تلاحق تطوّرات الخبر، وتجري اتصالات كثيرة بسياسيين وصحافيين فتناقش وتحلّل، وتسعى إلى سبق صحافي في كل استعراض جديد للخبر. قام موريس إلى الحمام، مترنّحًا ثملًا، وعاد منه مبللًا صاحيًا. لا يضع على جسده سوى سروال قصير يصل إلى ركبتيه، وفانيلة عارية الكتفين.

- يا يسوع... ما الذي يجري بحق السماء؟

قال بلسان لا يزال ثقيلًا ثم تهالك على المقعد أمام التلفاز وأشعل سيجارة. أخذ جهاز التحكم من صابرة وراح يقلّب القنوات ملاحقًا أخبارها وتغطياتها المفتوحة بعينين محمرتين ووجه مذعور. تعبتا واستبد بهما النعاس. تركتاه على تلك الحال، وخلدتا إلى النوم.

***

استيقظتا قبيل الثامنة صباحًا بقليل. وجدتا موريس كالميت على كرسيه، رأسه مائل على صدره. كان التلفاز لا يزال ينقل تغطية عن الحدث. أيقظته صابرة عندما شاهدت خبرًا يؤكّد تحطم طائرة جون قرنق داخل الأراضي الأوغندية، واندلاع أعمال شغب وحرائق في العاصمة ومدن أخرى. استوى موريس في جلسته على الفور، واكتسى وجهه المحتقن بالذعر. واستمرّ يردّد:

- يا يسوع... يا يسوع.

ذهبتا إلى المطبخ وأعدّتا شايًا وإفطارًا، وعندما عادتا وجدتاه ينتحب.

- هل مات القائد حقًّا؟ هل مات الحلم؟

حارتا في الجواب، لكن عرفة قالت مواسية.

- إن القائد جسد وفكرة، ذهب الجسد لكن الفكرة لا تموت يا موريس، وستبقى في رفاقه من بعده.

بدا كأن لم يسمعها. وظلّ يكرّر الجملة مرة بعد مرة بصيغ مختلفة. كانت شاشات التلفزة تتوهّج بالحرائق التي اندلعت في كل مكان في البلد، وبأخبار الموت والاشتباكات التي يتم تحديثها على مدار الساعة، والإجراءات الحكومية التي لم تتعد حظرًا للتجوال وتشكيل لجان للتحقيق في ذلك الموت المجاني.

قال التلفزيون الرسمي إن فريقًا تمكّن من العثور على جثة الدكتور جون قرنق وبعض رفاقه الآخرين على سفوح جبال قريبة من الحدود السودانية مع أوغندا، حيث تحطّمت طائرته، وأصدر الرئيس أمرًا بتشكيل لجنة تحقيق في ملابسات مقتله. كان موريس يتابع تفاصيل الخبر وبعض المقابلات التي أجراها التلفزيون مع قادة جنوبيين وآخرين من الشمال، ثم نهض من مقعده وقذف شاشة التلفاز بجهاز التحكم الذي لم يفارق يده منذ ليلة البارحة.

- قتله الأوغاد... قتله الحاقدون...

بكل الطرق حاولتا مساعدته لكي يستعيد هدوءه ويسيطر على انفعالاته. راحتا تكلّمانه عن الموت والحياة، والنموذج والمثال، والقدوة والأثر، ذلك الكلام الذي يقال في أحوال كهذه وفي الغالب لا يفيد. راح يغمغم بكلام غير مفهوم. أمسكته صابرة من يده وأخذته إلى الحمام، وفتحت عليه الماء.

(28)

أقسمت بكلّ ما أؤمن، ولا أؤمن به أنها مكيدة، لكنهم لم يصدقوني.

قيَّدوني على طاولة إسمنتية في غرفة تحت الأرض ثم تناوبوا على اغتصابي واحدًا بعد الآخر. كانوا أربعة مقاتلين تابعين للفصيل الذي ينتمي إليه الضابط موسى تيتو الذي أعمل في خدمته. عرفتهم من الشارات الحرير على صدورهم، والأخرى المعدنية المثبتة فوق البيريهات العسكرية على رؤوسهم، فضلًا عن لهجتهم في الحديث. قضوا وطرهم مني مثنى وثلاث حتى أغمي عليّ، وأفقت بعد ذلك مذعورة على دلقة ماء بارد على رأسي. انتبهت حينئذ إلى أنهم نقلوني إلى عمود قائم في وسط الغرفة، وربطوني إليه.

فتحت عينيَّ على مشهد مرعب. رأيتهم يدورون حولي كما تدور السباع حول فريسة مجندلة، تمهيدًا لبدء حفلة تعذيب طويلة. طوال الأيام التي قضيتها في هذه الغرفة، كان التحقيق يجري متقطعًا، في الأوقات القصيرة الفاصلة بين إغماءة وأخرى وعلى وقع السياط التي تنهش الجسد والشتائم التي تؤلم النفس. لم يكونوا في عجلة من أمرهم.

رحت أصرخ مستعطفة، وأقسم بكل مقدّس أنني لم أقتل طاهر ولم أقترب منه البتة، وأنني كنت مع رفيقاتي في المطبخ حتى الساعة التي قُبض عليّ فيها، ويمكنهم أن يتحرّوا عن ذلك إن أرادوا.

- وحق المسيح، سيأتي الدور على رفيقاتك، أولئك العاهرات. هذه أول جريمة قتل تحدث في هذه الحملة!

صرخ بي أحدهم ثم انهال عليّ ضربًا بخرطوم أسود، حتى غبت عن الوعي من جديد.

في واحدة من لحظات صحوي القصيرة والمتباعدة رأيتهم -خلف ستارة من الضباب- متحلّقين، يثرثرون ويضحكون. خيّل إلي أنني أحلم، لكنني فطنت بعد ذلك إلى أن الضباب كان في عينيَّ المتعبتين. استجمعت قواي، ورجوتهم أن يسقوني بعض الماء لكنهم تجاهلوا طلبي. ألححت في ذلك مرات رغم المشقّة التي كنت أجدها في الكلام والبكاء. في المرة الأخيرة طالعوني بنظرات عدوانية فيها خليط من الضيق والاحتقار ثم عادوا إلى القهقهة والأكل.

فرغوا من مَلء بطونهم ثم تمدّدوا على الأرض وأشعلوا سجائرهم، إلا ذلك الذي ضربني آخر مرة. اقترب مني حاملًا سطل ماء. أمسك فمي بطريقة وقحة وشدّ عليه، ثم قرّب إليه سطل الماء، ولما هممت بالشراب سحبه بعيدًا. ارتشف منه ثم قربه من فمي مرة أخرى، وفعل الشيء نفسه، وفي المرة الثالثة انتصرت لكرامتي ولم أحرك ساكنًا. وضع السطل بعيدًا ثم اقترب من وجهي.

- إذا أخبرتِنا عن الذي أمرك بقتل طاهر ستأكلين وتشربين ولن نتعرّض لك مرة أخرى.

كان كريهًا، يحمل وجهًا بشعًا كوجه فرس النهر وتفوح منه رائحةٌ كريهة. ميَّزت منها رائحة البصل والعرق والخمر. عيناه محمرّتان جاحظتان تحت حاجبيه. تروحان وتجيئان بين شفتيَّ وصدري حتى استقرتا أخيرًا على شقّ ثوبي من أعلى. لمظ شفاهه وسحب الثوب ثم راح ينظر إلى نهدي العاريين نظرة شبقة.

- صدرك صلب، وشيئك ضيّق مثل الخاتم. يا يسوووع، لم أذق في حياتي شيئًا كهذا!

وضمّ كفه اليسرى أمام وجهي ثم أولج سبابته اليمنى فيها. بصقت على وجهه. أشاح إلى الناحية الأخرى. مسح وجهه بظهر كفّه بصبر نافد ثم صفعني على وجهي صفعة أنستني جوعي وعطشي. عاد إلى ضربي مرةً أخرى حتى تخدّر جسدي ولم أعد أشعر بالألم.

ضرب من بعد ضرب. اغتصاب يعقبه آخر. إغماء. صحو. تحقيق. تجويع. إهانات. على هذا المنوال، انقضت بقية الأيام التي لم أتمكّن من حسابها.

زارني أخيرًا ضابط من تنظيم مؤتمر البِجا الذي ينتمي إليه القتيل طاهر، برفقة آخر من الجيش الإرتري ثم انضم إليهما الضابط موسى تيتو متأخرًا.

أمروا بفك القيود عني وإنزالي عن العمود وتقديم الطعام والماء إليّ. سألوني أسئلة كثيرة من دون أن يتعرّضوا لي بضرب أو إهانة. شكوت إليهم ما تعرضت له من تعذيب واغتصاب وسوء معاملة بجمل قصيرة واضحة.

كان الضابط البجاوي يستمع إليَّ باهتمام ورفيقه الإرتري يدوِّن ما أقول. رأيت غضبًا حقيقيًا على وجهه، بيد أن المقاتلين أنكروا معظم التهم، متدافعين في الكلام ومشكّكين في روايتي، فتحوّل التحقيق بالتدريج إلى الجهة الأخرى.

قررت أن أستفيد من هذه الفرصة إلى أقصى حدٍّ. طلبت نقلي إلى مكان آخر وليكن حبسي تحت حراسة مجنّدات. طلبت كذلك حقّي في الأكل والشرب والنوم وعرضي على طبيب. بدا الضابط البجاوي متعاطفًا ومنحازًا إليَّ.

- سنحقّق لكِ ما طلبتِ يا عرفة. خرجنا إلى هذه الصحراء وحملنا السلاح من أجل أن تعيشي أنت وكل أهلنا حياة كريمة، ولن نقبل أن نكون أول من يهينك.

شكرته بابتسامة وبإيماءة صامتة، فاستطرد وكأنما يوجه الحديث إلى رفاقه الآخرين:

- إذا كنتِ قد اقترفت جريمة فستحاكَمين محاكمة عادلة، ولن نغفر لك أو لغيرك مقتل طاهر، فقد كان رفيقًا لنا وقائدًا ومثالًا للمقاتل الشجاع والحرّ، وتؤلمنا خسارته بهذه الطريقة. أما إذا كنت بريئة فلا حاجة لنا بسجنك أو تعذيبك.

- كان يائسًا يا سيدي، وطلب مني على مسمع من الجرحى الآخرين أن أضع الوسادة على وجهه، لكنني رفضت طلبه. لا بد أن أحدًا يضمر له شرًا فعل به ما فعل، وربما سمعه يطلب هذا مني، فاستغل الفرصة مطمئنًا أن التهمة ستوجَّه لي. أما أنا فلم أعد إلى العنبر مرة أخرى ولم أقتله. أقسم لكم.

لا أتذكّر حقًا عدد الأيام التي قضيتها في تلك الغرفة السرّية تحت الأرض، ولا مقدار الوقت الذي كنت أقضيه صاحية أو غائبة عن الوعي، ولا عدد المرات التي اغتُصبت فيها من قبل أولئك الأوغاد.

أفقت ذات يوم على عتمة شاملة، وعلى آلام مبرحة في جسدي كلّه، وعطشٍ شديدٍ يجرّح حلقي. غلبتني رغبة شديدة في البكاء لكنني لم أستطع. كانت قواي منهكة إلى الحدِّ الذي كنت أتنفس فيه بصعوبة. حرّكت أطرافي قليلًا بما بقي فيَّ من قوة. أدركت أنها بلا قيود، وأنني ملقاة على أرضية باردة وجسدي حر. تحاملت على آلامي وجلست. أنادي على الأم الحزينة وعلى آمنة. حتى أمينة ناديت عليها. صوتي لم يكن يخرج من حلقي. أرخيت سمعي، لعلّي ألتقط شيئًا أو أعرف موقعي في الزمان والمكان.

عرفت في الصباح أنني عدت إلى القبو وإلى السجينة التي تركناها فيه. ضحكت أول الأمر حين تعرفَت إليّ، ثم ذعرت حين رأت القروح والندوب على جسدي. رويت لها كل ما فعله بي أولئك الأوغاد.

- أولاد الشرموطة!

راحت تردِّد، بلكنة إرترية لطيفة، كلما وضعت يدها على ندبة أو جرح، أو سمعت مني جزءًا من عذابات الغرفة السرّية. بكت من أجلي. جاءت المجنَّدة المسؤولة عن حراسة القبو بالغداء، فتحدثَتْ إليها طويلًا بالتيغرينية، وكان واضحًا من تعبيرات جسدها أنها تتوسّل شيئًا ما. في صباح اليوم التالي جاءتنا حارسة القبو بمطهِّر جروح وبعض القطن كانت تخبئه في صدرها، وتركت لنا الباب مواربًا لنحو ساعة حتى يدخل

إلينا ضوءٌ كافٍ. اقتربنا من الباب وتعرّيت تمامًا بينما كانت فرتونا تصبغ جسدي كله بلون الكوبيا.

***

بعد نحو عشرة أيام أخرى داخل القبو، جاءت مجنّدة إرترية لتقتادني مجددًا إلى مكتب الضابط تيتو. رفضت أول الأمر لكن فرتونا توسلت إليَّ حتى أذهب.

- طاعة الأوامر مفيدة للسجين، كوني مطيعة هذه الأيام فقط... هذه الأيام فقط يا عرفة.

ثم احتضنتني وقبّلتني وأخذت بيدي حتى أوصلتني إلى باب القبو. تبعت المجندة كما يتبع الظل صاحبه، وفي الطريق مررنا بعنبر الجرحى الكبير. رأيت الأم الحزينة وابنتيها منحنيات على أدوات التنظيف يغسلن أرضية العنبر بالماء والصابون.

بدا العنبر خاليًا من أولئك الجرحى الذين كانوا يملأون أرجاءه بالأنين والصراخ وروائح البول والنفتالين. رغبت في البكاء على صدر الأم الحزينة. رأتني أمينة وأنا أعبر من خلال النوافذ برفقة المجنّدة الإرترية. ظلّ رأسها يتبعني من نافذة إلى أخرى حتى كاد أن يختفي من آخر نافذة. لوَّحتُ لها فابتسمَتْ، وشعرتُ ببهجة صغيرة لذلك.

في المكتب، طلب مني الضابط تيتو أن أوقّع على بعض الأوراق. قال إنها تتضمّن تعهّدًا بعدم التعرّض إلى أي من أفراد قوات التحالف في أي وقت وفي أي مكان، وأنه سيرفعها مع توصية خاصّة منه ومن الضابط البجاوي إلى قائد المعسكر، الذي سيرفعها بدوره إلى المحافظ وربما يُطلق سراحي إذا حسّنتُ من سلوكي ولم أخالف التعليمات.

- مللت من هذه الوعود حضرة الضابط، ولا أصدّقها!

نظر إليَّ نظرة استفهام. فقلت:

- أنتظر المهمات الجديدة وحسب!

ورغم ذلك مدَّ إليَّ الأوراق. وقَّعت من دون أن أقرأ حرفًا واحدًا ثم

أعدتها إليه. دخل علينا الضابط الإرتري يوهانس الذي حقّق معي أول مرة. يتقدّمه كرشه الضخم. طغى على وجهه تعبيرٌ مرح حين انتبه إلى وجودي.

- الأسيرة العظيمة مجدّدًا؟ يا مرحى.

سحب كرسيًّا وجلس من دون أن يلقي التحيّة على الضابط تيتو، أشعل سيجارة ثم أضاف:

- لو أننا محظوظون لكانت هذه الفتاة في صفوفنا. أنظر، يشعّ في عينيها بريق لا تخطئه خبرتي!

نقل نظره إليّ.

- التقيتها مرة واحدة فقط، ولم تتحدّث كثيرًا في ذلك اللقاء، لكنني فطنت إلى ذكائها وعنادها.

نسيا وجودي بعد ذلك، وراحا يتبادلان أخبار المعارك على الجبهة. فهمت من أحاديثهما الملغزة أن القوات الحكومية السودانية استعادت الكثير من المناطق في الشمال، وأنها سوف تستغلّ توقّف رياح الهبباي ودخول فصل الشتاء للتوغل أكثر باتجاه الجنوب. اندلعت حرب حدودية بين إرتريا وأثيوبيا. جاءت التعليمات من أسمرا تطلب استعداد كافة القوات المنتشرة داخل الأراضي السودانية للانسحاب، وحرمان الخرطوم من الزهو بأي انتصار مهما كان ضئيلًا. سُحب الجرحى والآليات الثقيلة في المرحلة الأولى، وسيتم الانسحاب الكامل إلى ما وراء الحدود في غضون أسبوعين على الأكثر، وربما يسبق الإعلانَ الرسمي لسحب القوات انسحابُها الفعلي على الأرض.

لم يذكرا شيئًا عن الأسرى، ومع ذلك، لم أشعر إزاء ما سمعت بأي غبطة، أو خوف أيضًا. كان شعورًا أقرب إلى اللامبالاة منه إلى أي شيء آخر. لعلّ قيمة الأشياء تساوت عندي في تلك اللحظة. الأسر والحرّية. الحرب والسلام. الموت والحياة. تذكّرت أبي وسط هذا كله، وتشكّلت في خيالي صورة وجهه صافية وبعيدة عن العمر الذي افترقنا فيه. لعلها من أيام طفولتي.

قام الضابط يوهانس من كرسيّه مودعًا رفيقه. أحدث الكرسي صريرًا من وطأة وزنه. قرصني على خدي قرصة ودودة وهو يغادر. بقيت وجهًا لوجه مع الضابط تيتو مرة أخرى.

- لديّ خبران لك، أحدهما جيد والآخر سيّئ، بأيهما أبدأ؟

قال الضابط، فرفعت كتفيَّ دلالة على أنني لست مهتمة، هز رأسه ثم قال:

- لأبدأ بالخبر السيئ، تقول التعليمات ببقائك في القبو لحين وصول أوراقك إلى السيد المحافظ الذي سيقرّر بشأنها.

قال وهو ينظر في وجهي، مترقّبًا أثر الخبر الذي تلاه، لكنني لم أظهر انفعالًا.

- طاهر تمت تصفيته على الأرجح، لن أقول لك أي جهة تورّطت في ذلك لكن المهم هو أنك بريئة!

رجع بظهره إلى الوراء، واضعًا يديه فوق المكتب، وراسمًا على وجهه ابتسامة بلهاء.

- وماذا عن اتهامي وتعذيبي واغتصابي وتجويعي وإهانتي؟

لاذ بالصمت، وتعكّرت صفحة وجهه بألف لون. شعرت بأنفاسي تتصاعد وقلبي تزداد خفقاته.

- ماذا عن كل ما ارتكبه أولئك الأوغاد في حقّي؟ هل ترغب في أن أسامح بشأنه ردًا على جميلكم بإعلان براءتي؟

- هل كنت ترغبين في أن نخفي عنك براءتك؟

- لا أتكلّم عن الاتهام فأنا متهمة منذ أن وقعت في الأسر، ولم يقل لي أحد ما مصير التهم الأخرى. أتكلّم عن الوحشية وسوء المعاملة. ماذا كان مبررها؟ وما الذي يمحو أثرها من روحي؟

- يا يسوع!

صمت لبرهة قبل أن يستطرد:

- نحن في منطقة حرب، والحرب تقع فيها أشياء كثيرة!

- كلّكم تنسون وتتسامحون في النهاية. أما نحن الضحايا...

وصعدت غصّة إلى حلقي، فرحت أبكي.

- إننا نحقّق في ما جرى، ولن يفلت أحد من العقاب!

- كيف تريدني أن أصدّق هذا ولم تسمحوا حتى بعرضي على طبيب للتحقّق من التهم! هل تقاتلون من أجلنا أم لشيء آخر؟ لن تنتصروا على أعدائكم قبل أن تنتصروا على أنفسكم.

صار بكائي مسموعًا، وجسدي يرتعش. ولما رأى أنني قد اجتزت الحد، ارتبك. راح يتشاغل بلملمة أوراق كانت أمامه ويضعها داخل إضبارة كبيرة على الطاولة.

- لقد اغتصبوني بوحشية أيها النقيب، هل تعرف معنى هذا؟ لقد استباحوا جسدي وهتكوا كل جزء فيه كأنني لست إنسانًا، كأنني بلا كرامة ولا مشاعر!

- لا أقصد هذا، أنا أقصد... أرجو أن تفهمي... أن التحقيقات لا تزال...

راح يتلعثم، وترتبك نظراته بيني وبين الأوراق التي على الطاولة. فتحها وأغلقها وفتحها مرة أخرى.

- هل تعرف أنني أعيش أكثر الأيام رعبًا في حياتي حتى تحين موعد دورتي الشهرية؟ هل تعرف كيف ستكون حياتي إذا حدث ما أخشاه؟

دخلت المجنَّدة التي كانت تنتظرني عند الباب على وقع صراخي. أدركتُ أنها ستحول بيني وبين شيء أخير كنت أفكر في عمله. القفز على حنجرته وتقطيع لحمه بأسناني. لن يحدث لي أكثر مما حدث. قفزت على الطاولة وحاولت الإمساك برقبته لكنه دفعني وأفلت. بعثرت كل ما كان موجودًا فوق الطاولة بحثًا عن شيء أدخل به المعركة. وجدت سكينًا لتقطيع الأوراق بين كومة من الإضبارات. حملتها وشهَرَتها في وجهه وفي وجه المجنَّدة التي وقفت حائرة في وسط الغرفة. شهر مسدسه. درنا حول الطاولة مرات، من دون أن تتقلّص المسافة بيننا

وكأننا مشدودان إلى مركز غير مرئي. بصقت على وجهه وشتمته بأقذع ما حفظت من ألفاظ. طعنت في كمال رجولته وتحدّيته أن يطلق رصاصة واحدة إن كان يستطيع.

- إفعلها إن كنت رجلًا، كل ملابسات موتي ستكون في صالحك.

كان يتصبّب عرقًا، وعيناه لا تفارقان وجهي أينما دار.

- مثلك لا يقدر على القتل، أقسم لك، هل تخيّب ظني وتفعلها؟

- أستطيع أن أقتلك الآن لكنني لا أريد. الأفضل لي ولك أن تتعقّلي وتلقي بهذه السكين.

- أنت مسكين يا عزيزي ومثير للشفقة، لكنني إن تمكنت منك فلن أتردّد في غرس هذه السكين في أحشائك لتعرف أنني أشجع منك.

كنا قد وصلنا أثناء الدوران حول الطاولة إلى وضعنا الأول. هو خلف المكتب، وأنا أمامه. انتبهت بغتة إلى أن نظراته زاغت لبرهة خاطفة عن وجهي لأول مرة، إلى شيء ما خلفي. تذكّرت المجنّدة، لكن كان الأوان قد فات.

أمسكتني من الخلف ودفعتني. ارتميت بصدري على الطاولة. وضعت ثقلها كله على ساعدها القوي، المغروز في رقبتي مثل النير. استقرّ وجهي فوق أوراق مبعثرة. وقعت عيناي على ذيل فقرة في ورقة «... سودان على أسس جديدة». كان ذلك آخر ما أتذكّره. وقع شيء صلب على مؤخرة رأسي، وغبت عن الوعي.

مكتبة
t.me/t_pdf

(29)

في الليلة الفائتة رأت عرفة في نومها ذلك الأصم الذي قتلته في صحراء وادي العقيق مرة أخرى. كان وجهه بشعًا، أبشع من أي وقت آخر رأته فيه. يداه كبيرتان، مثل جناحي طائر خرافي منتوف الريش. تحاولان الإمساك برقبتها. راحت تقاوم وتصرخ، وتستنجد. مرة بأبيها، ومرة بالأب فانوس، وأخرى بموريس، وكان صوتها لا يغادر حلقها.

دفعته بأقصى قوتها. أمسك بقدميها وسحبها عبر طريق وعر، ثم جرّها إلى غابة مليئة بالشوك والثعابين والعقارب حتى أوصلها إلى سفح تلة، تشبه مقلع الحجارة في تقدرا. رأت من بعيد رجالًا في ثياب بيضاء، جالسين كما تجلس الصقور المتحفّزة على حواف الصخور. سحبها الأصم حتى أشرفت على بئر سحيقة تضطرم في جوفها نار هائلة، ولها فحيح كفحيح جهنم. رأت حول النار الضابط تيتو، يحمل إبريق ماء وسيفًا في يده. سألته أن يسقيها فهز رأسه رافضًا. توسّلت إلى جنود يقفون إلى جواره فتجاهلوها. راحت تصرخ ولا يُسمع لها صوت. جاءت طفلة، تلبس أحد فساتينها. كان كبيرًا جدًا على قياسها. ينسحب خلفها على الأرض مثل ذيل طاووس. وقفت على رأسها وابتسمت. ضمّت كفيها الصغيرتين إلى بعضهما فتدفّق الماء منهما على وجهها. راحت تلاحق خيوط الماء بفمها. كانت الطفلة تضحك. لم ترتوِ. رأت الضابط تيتو واقفًا فوق رأسها. رفع سيفه بكلتا يديه ثم هوى به على رأسها ورأس الطفلة التي لا تزال تضحك. صرخت. خرجت الصرخة من حلقها هذه المرة. استيقظت مذعورة، يكاد الظمأ يشق حلقها. شربت بعض الماء ثم

استوت جالسة على سريرها. قررت في تلك الليلة أن تتخلّص من هذا العذاب، مرة وإلى الأبد. قررت أن تتكلّم. أن تداوي ألمها بالحكي. لقد أضاعت فرصًا كثيرة من قبل، ولا ترغب في إضاعة المزيد.

في الصباح، تحيّنت ذهاب الأخت مارتا في شأن لها، ودخلت على الأب فانوس. قصّت عليه حلمها، كابوسها. استمع إليها بانتباه حتى أكملت، ثم قال:

- هل يتكرّر هذا الحلم أم أنها المرة الأولى؟

- يتكرّر يا أبت، لكن في صور مختلفة.

أطرق قليلًا وهو يقلّب خاتمًا كبيرًا بفص قرمزي على بنصره الأيسر.

- ثمة ما تهربين منه يا بنيتي، فالخطيئة تتبعكِ إن لم توقفها توبة، والشيطان عنيد لا يكلّ من الملاحقة حتى يورد الغافلين إلى جهنم.

كانت نظراته مركّزة على وجهها، وتقولان أكثر مما نطق به لسانه. استحت. خفضت بصرها إلى الأسفل. قالت:

- حدّثني عن الاعتراف أيها الأب الطيب!

أدهشه السؤال. رفع حاجبه الأيمن قبل أن يقول:

- وما شأنك به؟

- الفضول يا أبتِ، هل أزعجك سؤالي؟

- لا يا بنيتي المباركة، لكنني لم أتوقّعه.

قال مندفعًا، وكانت نبرته طيبة.

- قل لي إذًا، ما هو؟ ومتى يصح؟ وكيف؟

ضحك ضحكة قصيرة رائقة، ثم رفع الصليب الخشب الذي يتدلّى على صدره وقبّله قبل أن يستطرد:

- لن أقول لك كل شيء، لكن يقول الرب: «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهِّرنا من كل إثم». الاعتراف يا بنيتي هو السرّ الذي يُمارسه الإنسان لكي يعلن توبته عن كل ما فعله

من خطايا وشرور. يعترف بخطاياه للرب في سمع الأب الكاهن، فتنتقل الخطيئة من حسابه إلى حساب السيد المسيح، فيغفرها له. وشرط الاعتراف أن يجيء المذنب إلى الكاهن نادمًا على الخطيئة وتائبًا عنها، فيصلي الكاهن من أجله صلاة التحليل «مَن غَفَرتُم لَهم خَطاياهم تُغفَرُ لَهم، ومَن أَمسَكتُم عليهِم الغُفْران يُمسَكُ علَيهم».

- وهل يصحّ الاعتراف لمثلي؟

- وهل تؤمنين بالمسيح الرب؟

- نعم.

قالت كاذبة، ثم فهمت ما يرمي إليه، فاستدركت:

- إنه نبي من الأنبياء، وحقّ على الجميع الإيمان به.

ضحك ضحكة قصيرة، قبل أن يقول:

- أعلم ذلك، بيد أني أقصد ما غرضك من هذا الاعتراف. هل تطلبين الصفح والمغفرة من الرب؟

- فليكن يا أبت!

أشرق وجهه. مسح على لحيته البيضاء المنسدلة إلى منتصف صدره، ثم قال.

- حسنًا، سأتقبّل اعترافك لأن مسيحيًا مخلصًا طلب يدك مني!

شعرت بالخجل.

- لست واثقة من أي شيء أيها الأب المبجَّل، مقدار ثقتي بحكمتك وحسن إصغائك. أرجو أن يتّسع وقتك وصدرك لما سأقوله، لأنها حكاية طويلة، ولك بعد أن تسمعها، أن تقرّر بشأن طالب يدي، وأن تكشف له منها ما تشاء وتحجب ما تشاء، أو تمنع الارتباط من أساسه، فذلك حق أتنازل لك عنه بطيب خاطر.

هز رأسه. اختلط إشراق وجهه بحماسة أبوية شجّعتها على الكلام. راحت تقصّ عليه حكايتها منذ أن فارقت بلدتها عقيق برفقة أبيها في

صباح الحرب ذاك، ووقوعها في أسر الجنود الإرتريين. حياة المعسكر القائم على سفح جبل تقدرا، والمعسكرات الأخرى، وطريق النزوح وحتى وقوفها بين يديه. كان الأب المبجل يستمع إلى حكايتها بإخلاص، وتتجاوب تعبيرات وجهه مع مَواطن الألم والندم والفرح التي كانت تعبرها، فيزرقّ ويصفرّ، وينكمش وينبسط. ضحك معها حينًا، وتحسّر وتأسّف أحيانًا أخرى، وبكى لألمها كما يليق بالآباء العطوفين. قالت له في ما قالت، إنها قتلت رجلين عامدة ومترصّدة، ولا تزال تعتقد أنها قتلت الثالث. حبلت من مغتصبيها مرتين. أجهضت حملها الأول ورمت بابنتها من الحمل الثاني في الشارع. كان الأب يوقفها بإشارة من يده كلما جاءت على سيرة القتل، فينقبض وجهه ويطرق إلى الأرض مغمضًا عينيه. تتحرّك شفتاه بكلمات غير مسموعة، ثم تستأنف حديثها حين يأذن لها. كان يطيل صمته أحيانًا، حتى ليخيّل إليها أنه سيقطع سيل اعترافاتها ويطردها في الحال، ثم يرسل لعناته خلفها فتلاحقها إلى الأبد.

بكت في ذلك اليوم كما لم تبكِ في حياتها، حار الأب المبجل في أمرها. قال لها في نهاية الاعتراف:

- ما أشقاكِ يا بنيتي، وما أسوأ حظك!

ظل ساكنًا في مكانه لبعض الوقت، لا يتكلم ولا يتحرك، ولاذت هي بالصمت أيضًا. رأسها إلى الأرض، حتى سمعت حفيف ردائه الكهنوتي وصرير المقعد. دار حول مكتبه حتى جلس قبالتها على المقعد الآخر.

- اقتربي، سأصلي من أجلك صلاة التحليل وليغفر لك الرب.

سحبت مقعدها واقتربت. كادت ركبتاها تلامسان ركبتيه. كان جسدها ينتفض مثل طير ذبيح، وأنفاسها مضطربة.

- ألم تفكّري أبدًا في الذهاب إلى الشرطة والاعتراف لها؟

لم تتبين إن كان السؤال من باب الفضول أم الاختبار، لكنها قالت من دون تردد:

- إنني أقول الصدق، لكن من يضمن لي العدالة يا أبت.
صمت لبرهة، قبل أن يقول:
- تستحقين حياة أفضل يا بنيَّتي.
وضع يده فوق رأسها:
- رُدَنا يا الله إلى خوفك وشوقك. مُرْ أن نتمتّع بخيراتك. والذين أحنوا رؤوسهم تحت يدك إرفعهم في السيرة، زيّنهم بالفضائل، ولنستحق كلنا ملكوتك الذي في السموات بمسرة أبيك الصالح، هذا الذي أنت مبارك منه. أيها السيد الرب يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، وكلمة الآب الذي قطَّع كل رباطات خطايانا بآلامه المخلّصة المُحيية، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار، وقال لهم: إقبلوا الروح القدس، من غفرتم لهم خطاياهم غُفرت، ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت. أنت الآن أيضًا يا سيدنا من قبل رسلك الأطهار أنعمت على الذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيستك المقدسة، أن يغفروا الخطايا على الأرض ويربطوا ويحلوا كل رباطات الظلم. الآن أيضًا نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر أن تغفر لها وتطهّرها وتشملها بالعطف. آمين.
هدأت روحها قليلًا بعد الصلاة.
- إن الربَّ رحيم... إن الربَّ طيب.
قال بنبرة خاشعة ثم علّمها صلوات بسيطة تتلوها قبل النوم وعند طلوع الصباح. طلب منها بعد ذلك أن تعود إلى غرفتها، وتنظر في نفسها إن كان قد بقي في قرارتها ما يعكّر صفوها، وتنظر كذلك في نومها إن كان هانئًا أم إن الشيطان لا يزال يكدره بأحلامه المزعجة، وأن تعود إليه في السبت التالي لتخبره. قبّلت يده وشكرته، ثم خرجت خفيفة من عنده، كأنما شفيت من داء عضال.
تجاهلت عرفة أداء الصلوات التي أمرها بها. لم تشعر مطلقًا أنها في

حاجة إليها بقدر حاجتها إلى التخلّص مما ناءت به طويلًا. رغم ذلك نامت نومًا عميقًا هادئًا لم يعكّره شيء.

استيقظت في الصباح التالي، نشِطة متحفّزة، وتملأها الرغبة في إنجاز أمور كثيرة لطالما أقصتها عن قائمة اهتماماتها وقتًا طويلًا. قرّرت منذ عصر اليوم التالي استغلال ساعات المساء لتجرب السير في الطريق التي أتت منها إلى كنيسة العذراء.

***

انتبهت إلى أن ثلاثة أعوام كاملة تسرّبت من عمرها وهي منقطعة في هذه الكنيسة مثل راهبات الأديرة، لا تخرج إلا إلى المدرسة أو لقضاء شأن مُلحّ، أو زيارة بيت الأب فانوس وهي نادرة، ومؤخّرًا مع أستاذها موريس عبده. ذلك الذي أعاد إليها ثقتها بنفسها، وأنقذها من معاوية الأبرص.

لطالما شعرت عرفة أن موريس وضع قدميها على طريق جديدة، لا تعرف إن كان سيُكتب لها أن تمشي فيه إلى النهاية أم إن ماضيها الكالح سيفرض سطوته على حظوظها المقبلة. لقد تركت الأمر كلّه بيد الأب المبجَّل، يقدّره كيفما يشاء، فهو على كل حال أبوها البديل، أبوها الذي اختارته الأقدار، والفتاة طوع أبيها أحسن إليها أو أساء.

بعد تفكير طويل، راحت تسأل نفسها، هل أبدأ من أول الطريق أم آخره؟ قرّرت أن تبدأ من عمارة الخياطين، حيث التقت طيبة الطيّبة وتركتها، حيث يمكنها أن ترى على صفحة وجهها الرملي، كيف هي الدنيا الآن، وتقرّر بعد ذلك هل تكمل السير حتى بيت رحمة، في آخر الطريق أم لا.

كانت تزدحم في رأسها هواجس كثيرة حول طيبة وتوأمها اللطيف وزوجها الذي ينتظر الإعدام، هل ستجدها في مكانها أم سيرهقها البحث طويلًا؟ هل أعدموا زوجها أم لا يزال ينتظر حكم الرب فيه، أم عفا عنه غرماؤه وأفرج عنه؟ وإذا وجدتها كيف ستنظر في عينيها، وكيف ستطلب منها أن تسامحها؟

حملتها هذه الأفكار حتى أوصلتها قريبًا من المكان، وشغلتها في الوقت نفسه عن تأمل تفاصيل الطريق التي لم تسلكها طوال ثلاثة أعوام.

وجدت نفسها فجأة في عين المكان وكأنها لم تنقطع عنها سوى يومين أو ثلاثة. وصلت إلى التقاطع الذي تقوم على أحد أركانه عمارة الخياطين، ووقفت في الجهة المقابلة لها، وراحت تستكشف من بعيد إن كانت طيبة لا تزال موجودة.

رأت بائعة شاي من بعيد، من ظهرها، في ثوب أصفر يميل إلى البرتقالي، وكانت تصنع شيئًا على النار. تريثت قليلًا ريثما تقف لتلبي حاجة أحد الزبائن فترى وجهها. لم يطُل انتظارها. قامت وفي يدها صينية عليها بعض الأكواب ثم استدارت لتواجهها. في اللحظة عينها تدفق تيار من سابلة السوق وضاع وجهها في زحامهم، لكنها رأت جانب وجهها حين عادت إلى مكانها وكانت تهمّ بالجلوس.

عبرَت الشارع المزدحم بعربات الكارو والشحاذين وسابلة السوق وباعة الساعات والخردوات الذين يفرشون بضاعتهم في ممرات السوق، ولما وصلت كانت بائعة الشاي قد غادرت إلى حيث لا تدري. وجدت مقعدًا خاليًا إلى جوار طاولتها فجلست تنتظر. ملأت الوقت بتأمّل الخياطين وحركة أرجلهم على الماكينات التي تصدر أزيزًا منغّمًا.

انتبهت إلى صوت يسألها إن كانت ترغب في شاي أو قهوة. التفتت. كانت فتاة سمراء نحيلة، ذات وجه ورديّ، ظنّته أبرص لوهلة ثم انتبهت إلى أثر مراهم تبييض البشرة. جعلت من وجهها مسخًا أشبه برئة عجل، ولولا الثوب الأصفر والصينية الفارغة التي تحملها في يدها لما عرفت أنها الفتاة نفسها التي رأتها من بعيد.

– قهوة بالزنجبيل إذا تكرَّمت.

قالت عرفة ذاهلة، وأمهلتها حتى جلست لكي تسألها عن صاحبة المكان. خطر لها أن طيبة قد تكون مشغولة واستعملتها لبضعة أيام، أو أنها أصبحت مثل رحمة تدير هي الأخرى إمبراطورية من بائعات الشاي.

- أين طيبة؟

لم تردّ على الفور، ورأت على طرف فمها ابتسامة حارت عرفة في تفسيرها. هل كانت ابتسامة ازدراء أم مودة، حتى قالت:

- الكل يسألني عنها.

قالت بضيق.

- وهل يضايقك هذا؟

- أبدًا، لكنني لم أرها في حياتي. من اليوم الأول لمجيئي إلى هذا المكان والناس يسألونني عنها كأنني من هجّرها من البلد؟

قالت وهي تضع كوب القهوة على طاولة صغيرة أمام عرفة.

- وما الذي دفعها للهجرة من البلد؟

قالت بعد برهة صمت، وكأنها تنازع نفسها هل تسترسل في الحديث أم تصمت.

- كما قلت لك، لا أعرفها ولم أرها في حياتي، لكنّي سمعت من بعض زبائني هنا بأنها، بعد وفاة زوجها، أخذت أولادها إلى تركيا، ومن تركيا سلكت «درب النمل»!

- وما هو درب النمل؟

ضحكت بصوتٍ عالٍ، ضحكة أفزعت عرفة، وكان فيها من الازدراء أكثر مما فيها من الاستغراب.

- ألا تعرفين درب النمل؟ أين تعيشين؟

ووضعت يدها على فمها لتكتم ضحكتها، ورأت عرفة عندئذ الفارق الرهيب بين لون يدها شديد السمرة ولون وجهها الورديّ الأقرب إلى لون الجلد المحترق. خجلت عرفة من جهلها، ومن القول إنها تعيش في كنيسة، ومعزولة عن العالم. قالت الفتاة.

- إنه الطريق الذي يسلكه الهاربون من الجحيم إلى الجنة الموعودة في أوروبا، وصاحبتك طيبة موجودة في فرنسا الآن!

تعجّبت عرفة من المصير الذي اختارته طيبة لنفسها ولتوأمها الجميل، لكنها شعرت في دخيلتها بالسعادة من أجلهم. سمعت قبل هذا من فرتونا أن الأوروبيين عطوفون، ويستقبلون الفارين من جحيم بلدانهم باللطف والعطف. وفي غمرة تفكيرها في شأن طيبة في فرنسا تذكّرت ما قالته الفتاة عن وفاة زوجها.

- هل تعرفين كيف مات زوجها؟

تغيرت تعبيرات وجه الفتاة، ورأت عرفة الدماء تصعد إلى أديمه المتفسّخ حتى صار أشبه بلون اللحم النيء، ولبست قناعًا عدوانيًا فجأة وهي تقول:

- بدأت أشكّ في أمرك، من أنت وماذا تريدين مني؟

وقفت على طولها جملة وتبدل ودّها نحوها إلى شيء آخر، وكأن عفريتًا من الجن ركبها فجأة. أنقذها من الورطة خياط عجوز كان يتابع حوارهما من دون أن تنتبها، وتذكّرت عرفة وجهه لاحقًا.

- مهلًا يا حواء، لا تتهوَّري. هذه فتاة طيبة أعرفها، كانت تعمل مع الأستاذة بثينة المحامية في مكتب كان في أعلى العمارة، وكانت صديقة لطيبة، وتأكل وتجلس معها هنا، أشهد على ذلك.

تغيّر الجو كلّه بعد شهادة العم يحيى في حق عرفة، وهدأت ثورة حواء واعتذرت بلطف. مازحها العم يحيى قليلًا ومازحته، واستعادا بعض ذكريات تلك الأيام. أخبرها أن الأستاذة بثينة انضمت إلى «جماعة جون قرنق» وذهبت إلى كينيا، ثم إنه قرأ في الصحف عن عودتها مع بعض من جماعة قرنق بعد اتفاق السلام إلى الخرطوم.

- أما عن زوج صديقتك رحمه الله، فقد نُفّذ فيه حكم الإعدام منذ عام تقريبًا و...

قاطعته حواء من دون أن تنظر إليه، إذ كانت يداها منشغلتين بطحن البن على جرن خشبي.

- منذ عامين يا عم يحيى. يبدو أنك بدأت تفقد ذاكرتك!

ثم عادت إلى عملها. كانت ترفع يد الجرن الحديد ثم تضرب بها قاعه وأطرافه على إيقاع أغنية تدندن بها. ضحك العم يحيى ضحكة رائقة ثم عاد إلى عمله أيضًا. وضع قدميه على دواسة ماكينة الخياطة بينما كان رأسه يهتزّ في تناغم بديع مع إيقاع قدميه وهو منكفئ على ما يبدو أنه ثوب مدرسي.

راحت عرفة تنصت إلى الأصوات التي حوّلها. بدا لها أن إيقاع الجرن وصوت الماكينة ونداء الباعة على بضائعهم وصخب السوق وتيار السابلة الذي لا يتوقف عن الجريان، كأنما هو نبض الحياة الذي لم تشعر به من قبل.

(30)

فتحت عينيَّ على عتمة. بيد أنها لم تكن عتمة شاملة. ظلال تتراقص على الحوائط، تكبر وتصغر وتتمايل صانعةً أشكالًا تبعًا لحركة ضوء مصباح صغير يرقد في ركن بعيد وتتأرجح فتيلته الواهنة في كل اتجاه. سمعت غمغمة غير مفهومة، وصوت نباح كلب متقطّع. ألم حاد في مؤخرة رأسي يروح مع شعور بالبرد يطحن العظام. شممت رائحة رجل، تختلط معها رائحة خمر.

تحاملت على أوجاعي وجلست. زاد الألم في مؤخّرة رأسي حدّةً، تحسّسته بيدي فوجدته ملفوفًا بضمادة كبيرة مثل العمامة. انتبهت إلى أنني فوق سرير وأن فرشه وثير بالمقارنة مع الأرض الصلبة التي كنت أنام عليها شهورًا طويلة. ألم في ظهري وبين فخذيّ، وسائل لزج يغطيهما.

سمعت غمغمة تتردّد في أذنيّ اللتين تطنّان بشكل فظيع. تذكّرت فرتونا ولفافاتها من قطن الوسائد القديمة التي كانت تصنعها لنا في القبو في الأيام الصعبة.

تحوّلت الغمغمة إلى حديث يعلو ويخفت لكنه غير مفهوم أيضًا، ثم تحوّلت إلى شخير منتظم. نظرت حولي. رأيت على ضوء المصباح ما يشبه خزانة صغيرة خلف رأسي، وبندقية متكئة على الحائط فوق الخزانة، تتّجه فوهتها النحيلة نحو السقف. نقلت بصري منها ناحية الجدار المقابل فرأيت لوحة، لم تكن واضحة تمامًا في الضوء الشحيح لكن تبدو من بعيد وكأنها صورة لشخصين، هجس في نفسي أنه مكان أعرفه. قبل أن يزول الغبش وتكتمل صورة المكان في ذهني أرعبني شبح أسود ممدّد على أرضية الغرفة مثل بقعة كبيرة من القطران.

راح نظري يصفو ويعتاد على الضوء الشحيح. أمسكت بطرف السرير ونظرت تحتي بحذر. كادت تنفلت مني صرخة لولا أنني تداركتها. دققت في الشبح أكثر. كان رجلًا عاريًا كما ولدته أمه، ممدّدًا على ظهره ومتباعد الأطراف، وكأنه غريق ألقى به الموج على الشط. كان لا يزال يغمغم في رقدته، ويدير رأسه يمنة ويسرة.

لاح ضوء من كوة صغيرة في أعلى الغرفة، يومض، يشع لبرهة ويختفي مثل أضواء البروق، ثم يتحوّل إلى ألوان أخرى حمراء وصفراء. كان جهاز اللاسلكي يلعلع في مكان ما من الغرفة برطانة غير مفهومة. سمعت صوت هدير خافت، يتّصل وينقطع، وأصوات أخرى لانفجارات مكتومة، بعيدة. خمّنت أن السماء ستمطر، فقد دخل الشتاء. امتدّت يدي إلى حيث البلل بين ساقيّ، كان شيئًا كثيفًا ولزجًا. يغمر مكمني وكذلك الفراش أسفل منه. راعني الأمر حين لمسته ورفعت يدي ونظرت إليها على ضوء المصباح. لم يكن دمًا، كان سائلًا أبيض لزجًا، له الرائحة نفسها التي كانت تقرفني بعد حفلات الاغتصاب. استفرغت ما في جوفي على الجثة التي تحتي. لم يستيقظ. لقد اغتصبني الوغد.

بدت أصوات الهدير والانفجارات المكتومة تقترب، ويعلو معها صوت نباح الكلب الوحيد في المعسكر. الأضواء في السماء، كما رأيتها عبر الكوة الصغيرة في الحائط، تسطع وتتداخل ألوانها. لم تمطر بعد. قفزت من مكاني إلى حيث يرقد المصباح، حملته في يدي واقتربت من وجه الشبح الممدد على الأرض والملطخ بالقيء. لم يفاجئني أنه الضابط تيتو، كان غائبًا عن الوعي ومخمورًا. يعلك لسانه ويخرج الزبد من شدقه.

خطرت لي الفكرة الشريرة. عزمت على تنفيذها في الحال من دون تردّد حتى لا أعطي عقلي مجالًا للتفكير. الخوف يبدأ عندما نفكر. أفرغت زيت المصباح على فراش السرير الذي شهد المأساة، وعلى أرض الغرفة

وأثاثها. شق السماء صوت هادر مثل هزيم الرعد، وتبعه صوت فرقعات قريبة. جهاز اللاسلكي يلعلع. تململ الشبح في مكانه. دوت صافرات مذعورة في أرجاء المعسكر ثم انهمر صوت الذخيرة والمدافع، ولم يستيقظ الشبح. ليس مطرًا بل معركة. وأنا بدأت، وسأكمل معركتي الحاسمة. وقفت عند الباب وقذفت بالمصباح نحو السرير فاشتعل. تمددت ألسنة اللهب في خطوط جانبية حتى بلغت أركان الغرفة الأربعة ثم انطلقت باتجاه وسطها حيث يرقد ذلك الخرتيت. اشتعلت الغرفة. أغلقت بابها بإحكام من الخارج.

- إلى الجحيم!

كان المقاتلون يتصايحون في الخارج ويركضون في كل اتجاه، بينما كانت نيران المدفعية التي تنطلق من أركان المعسكر الأربعة تطارد في غير جدوى طائرتين مقاتلتين. كانت إحداهما ترمي قنابل ضوئية عملاقة لتكشف المكان وتعقبها الأخرى بإنزال القنابل على الأهداف.

عبرت وسط هذا كلّه إلى الجانب الآخر من الممشى، وجلست على دكة ملاصقة لأحد العنابر كان الجنود في ما مضى يمضون فيها أوقات استراحتهم في الغناء أو التدخين وشرب الشاي. اتكأت على جدار العنبر وطويت ساقيَّ وأحطتهما بيديّ ودفنت ذقني بين ركبتي أنتظر موتي بترقّب هادئ، بينما بقيت عيناي تتأمّلان النيران وهي تلتهم الغرفة على مهل، وأذناي تتلذّذان بسماع صرخات مكتومة تصدر منها ولا أحد يأبه لها. إنه حقدي الخاص بين أحقاد هذه الليلة المجنونة، وهي كل ما يعنيني من هذا الجنون.

ينكشف المكان فجأة تحت قنابل الضوء الساطعة فأرى جنودًا صرعى وآخرين يختبئون من الموت أو يفرّون منه، وسقوفًا تتطاير مع ضغط الهواء وجدرانًا تسقط، وأرى خنافس وجنادب وسحالي مذعورة تحفر في الرمل أو تسحّ هاربة. مع قنبلة ضوء أخرى رأيت بندقية مصوبة

نحوي من الناحية الأخرى، من مقاتل يتّخذ وضع الاستلقاء خلف أكياس من الرمل. من هذا الذي يهمه موتي يا ترى؟ تساءلت في نفسي من دون أدنى شعور بالخوف، ثم فكّرت أنها ربما الطريقة التي تقرّر في الأزل أنني سأموت بها، إذ لا بد للمرء في النهاية من طريقة للموت، فهو لا يتبخّر كالماء، أو يختفي من دون أن يترك أثرًا.

النار التي تشتعل في معبد تيتو لا تشبه النيران الأخرى التي تشتعل من حولي. كانت نارًا سوداء حاقدة، كما أردتها، وتأكل ما حولها بصبر مذهل. رحت أنظر إليها بإعجاب. انتقم لي القدر من الملازم أبراهام، وربما يفعل مع أولئك الأوغاد الذين اغتصبوني تحت الأرض. لقد انتقمت منهم جميعًا في شخص تيتو.

سمعت تكة البندقية، ورأيت ماسورتها تتخذ وضعها الأخير لتطلق النار. أغمضت عينيَّ، في انتظار رصاصة الخلاص. طال انتظاري وأنا مغمضة. في أثناء ذلك عبرت بخاطري مقولة لأحد الجنود، لا أذكر أين سمعتها بالضبط، لكنها تشجعني الآن:

– إذا سمعتِ دويّ الطلقة فاعلمي أنها قد أخطأتك. الطلقة القاتلة لن تسمعي دويّها.

حسنًا سأموت من دون رعب. سمعت دويًا وظننته هو، وقبل أن أفتح عينيّ لأرى كيف أخطأتني الطلقة وجدتني أطير في الهواء ثم أحط بعيدًا، في منتصف المسافة الفاصلة بين جناحي المعسكر، يتبعني لوح كبير من الزنك المموّج وسقطتُ، وسقط اللوح فوقي كما يسقط الشرك فوق العصفور. نظرت باتجاه أكياس الرمل فلم أر صاحب البندقية، ونظرت حيث كنت أجلس فرأيت عنبر الجنود الذي كنت أتكئ على حائطه يقف من دون سقف ولا نوافذ. تحوّل إلى حفرة كبيرة تلتهمها النيران. نظرت إلى السماء، كانت تميل إلى اللون الأحمر. بدأت خيوط الصباح تلتقي بأضواء النيران عند قبتها البعيدة المتوهّجة. هدأت أصوات المدافع عندئذ، واختفى هدير الطائرات من السماء وحل مكانه هدير مجنزرات

وشاحنات تقترب وسط نيران بنادق متقطعة، وزعيق جنود يحتفلون بالنصر، لكن صوت الكلب لم يهدأ.

خرجت من تحت لوح الزنك ومشيت بحذر بمحاذاة عنابر الجنود التي تحوّلت إلى ركام لأبحث عن الأم الحزينة وابنتيها. وقفت عند الغرفة التي كنّا نأوي إليها. وجدتها ركامًا. ناديت وبحثت وسط أنقاضها لكن من دون جدوى. أكملت بحثي بين بقايا المعسكر الكبير، وتعثرت في طريقي بجثث الجنود المتفحّمة وأشلائهم التي كانت تتدلّى من فوق الحوائط المهدّمة والحفر التي خلّفها القصف. أسمع بين الفينة والأخرى أصوات أنين وأصوات احتضار وطقطقة الأخشاب وسط النيران حتى بلغت نهاية المعسكر من جهاته الثلاث، فقد تجنّبت الجهة التي كان يتجمّع فيها الفريق المنتصر، ولم أعثر لهنَّ على أثر.

مررت في طريقي بغرفة الكولونيل سعيد، صاحب الكلب. لا تزال واقفة وسط الركام مثل ضريح المقبرة. لم تصبها القذائف ولم تطلها ألسنة النيران. نظرت إليها مستعجبة. تذكّرت أحاديث صاحبها في ما مضى عن القدرة السحرية لميثاق النباح في خلق كانتونات آمنة وسط بحر من الرعب.

استأنف الكلب نباحه، وخطر لي أن صاحبه حبسه في الغرفة وراح يؤدّي مهمته، حيث ينبغي لمثله من المحاربين أن يكون. اقتربت من الباب الموصد. عَلا نباح الكلب، وبدا مشوبًا بالمرارة. تردّدت قليلًا في الدخول. حسمت أمري في النهاية ودفعت الباب. استقبلني الكلب بغمغمة ودودة، خافضًا رأسه وذيله ثم انطلق أمامي حتى اجتاز ستارة من القماش مسدلة على الباب الذي يفصل بين مكتب الضابط ومكان نومه. أزحت الستارة بحذر فإذا بالضابط ممدّد على سريره، في كامل بزته العسكرية وحذاؤه على قدميه وكأنه نائم بعد ليلة عمل مرهقة. راعني أن رأسه مثقوب برصاصة عند صدغه الأيمن، وتسبح وسادته في بركة من الدم. رأيت على الأرض، غير بعيد، مسدسًا عتيقًا ذَا مقبض خشب.

المسدس نفسه الذي أرعبني في ذلك الصباح. لعله استُخدم للتمويه على عملية تصفية، أو في تنفيذ انتحار، بيد أنني رجحت الاحتمال الأخير. لقد مات الرجل على كل حال، بيد أن ما خطر في ذهني في تلك الساعة، أكثر من موته الدرامي، هو مصير نظريته المثيرة «ميثاق النباح» التي قد تُطمر إلى الأبد قبل أن تبلغ منتهاها، أو يسمع بها العالم.

تركت الكلب ينبح وخرجت لأواصل رحلة البحث عن رفيقاتي. كان الجيش السوداني قد أحكم قبضته على المعسكر، وتجمع الكثيرون من الجنود المبتهجين في وسط الساحة احتفالًا بالنصر. المشهد نفسه مثلما رأيته في عقيق في ذلك الصباح. حرائق. مشيّعون وجنازات. عينان خضراوان مطفأتان. بيت مغلق. حقيبة كاروات حمراء. فستان ليموني، وأحذية لامعة.

أشرقت الشمس. جمع الجنود المنتصرون نحو عشرين أسيرًا إلى جوار البوابة، وأجلسوهم على مؤخراتهم. أياديهم تحيط بأرجلهم الحافية. معفَّرون بالتراب والدماء. يكاد يقتلهم الذعر واليأس. رحت أتأمّل صخب الجنود في وسط الساحة. لم يكونوا قد انتبهوا إلى وجودي أو وجود غيري بعد، أو أنهم انتبهوا ولكنهم يفرّقون بين الأسرى والمقاتلين. لقد مروا بمعسكرات كثيرة لهذا التحالف في الشمال.

وجدتُنا بغتة، نحن الأسرى، مجتمعين نتأمّل بهجة الجنود. رأيت السجينة فرتونا، وأسرى من الرجال والنساء لم أرهم من قبل. نظرت في وجوه النسوة أبحث عن رفيقاتي فلم أجدهن، ونظرت في وجوه الرجال الكالحة لعلي أجد أبي بينهم، أو أحد أولئك الرجال الذين كانوا معه، لكنني لم أجد أيًّا منهم. انتبهت إلى فصيلة من الجنود المدجّجين بالأسلحة تصطف على مسافة من مكان وقوفنا من جهة الخلف، وإلى ضابط يرافقه جنديان يقتربون منا.

(31)

تحسَّن نوم عرفة كثيرًا، وفارقته الكوابيس المزعجة، إلا من أرق يحدث بين وقت وآخر. عدا ذلك، شعرت بصفاءٍ في نفسها لم تحسّه منذ سنوات.

بدأت بركة الحنين الراكدة في أعماقها تتحرّك، وتذكّرت أماكن وأشخاص تفصلها عنها وعنهم سنوات من التيه والحيرة، حتى إنها تساءلت في نفسها، هل يفعل الدين كل هذا؟ وهل يملك رجال الدين كل هذا السحر الغريب ولذلك يتبعهم الناس؟ تذكّرت أمّها التي ماتت في صباح الحرب ذاك، وكيف دفنها الرجال على عجل وعادوا، كما لو أنهم تخلّصوا من كلبة نافقة، وهرعوا إلى بيوتهم أو هربوا من البلدة كلّها. اللعنة على الحرب، وعلى خوف الرجال حين يُمتحنون في أرواحهم. «لقد هربوا جميعًا وتركونا وحدنا، أنا وأبي، فلم يعزّنا أحد، ولم يبكِ على فراقها أحد غيري». تذكّرت ذلك، وتذكّرت وحدتها الطويلة من بعدها، وبكت.

تحرّكت بركة الحنين بعد طول ركود، فلم تفرّق بين مَواطن الشجو ومَواطن الألم. وكان غريبًا، أنها لمست في دخيلتها حنينًا إلى أماكن لها ذكريات سيئة في نفسها، وتركت ندوبًا ودمامل في روحها لا يمكن الشفاء منها. ومع ذلك تذكّرتها وحنّت إليها، وكأن الأوقات الحالكة التي قضتها فيها، قد مُحيت من ذاكرتها.

على الرغم من كل العذابات، حنّت إلى بعض أيام الأسر، لا سيما معسكر تقدرا، حيث رأت وجه ماثيو الممتلئ، والكامل الاستدارة مثل قمر تقدرا في تلك الليالي البعيدة. طافت بخاطرها الأم الحزينة وابنتاها

الجميلتان، أين هنّ يا ترى؟ تساءلت. تذكّرت فرتونا، النحيلة الجميلة وهذرها وقلبها الطيب.

فكّرت أن تزور رحمة من جديد، وبيتها، بيت البنات، الذي آواها حين جاءت غريبة تائهة لا تعرف أين تضع رأسها في هذه المدينة الكبيرة؟ وتساءلت ماذا ستقول لها إذا رأتها؟ ذكّرتها رحمة بوجه حواء، أم البنات، بلونه الأسود الفاحم وأديمه المطاطي الذي لا يمكن أن تجد له شبيهًا، وأصابها الفزع. شعرت بأسًى لا يمكن أن يبدّده العمر كلّه، ولو خبأته الأيام في زحمة حوادثها التي لا تنتهي. ذكّرتها بابنتها التي عجزت عن الاحتفاظ بها وحمايتها، وتركتها على قارعة الطريق للسابلة خوفًا من العار! قارنت في ذهنها بين ما فعلته أمها من أجلها وما فعلته هي بابنتها. برّرت لنفسها ما فعلته بأنهما ستجوعان معًا، لكنها في حقيقة الأمر خشيت العار وتجنّبته، بيد أن العار الذي تشعر به من نفسها أشد من العار الذي قد يواجهها به الآخرون.

- لطالما أسأت تقدير الأمور، فأسأت إلى نفسك، وآذيت بعض الناس يا بنيتي، ليغفر لك الرب.

قال لها الأب فانوس، وهل كان باختيارها أيها الأب الطيب؟ لقد كانت خائفة. تنازلت من أعز ما يمكن أن تملكه أم في هذا الوجود. تنازلت عن قطعة من روحها وجسدها من أجل أن تعيش من دون حمل هذا العبء الثقيل، ولكي لا تبقى أي ذكرى حيّة مما حدث لها خلال تلك السنوات مثل عكارة بغيضة في قاع نفسها، لكن رجال الدين لا يفهمون هذا أو يقدّرونه. قالت لنفسها.

خلال الليالي التي تلت يوم الاعتراف، لم تحلم إلا مرة واحدة، رأت فيها أباها. المرات السابقة التي رأته فيها، كانت صورة وجهه غائمة، فلا تستطيع رؤية تفاصيل وجهه، ولا التعابير المرتسمة عليه. هذه المرة فقط، رأته بوضوح تام وكأنها تتأمّله أمامها. حتى الشامات السوداء

الصغيرة المتناثرة على وجهه كانت واضحة تمام الوضوح. أنفه الكبير المستقيم، وحواجبه الرمادية الكثّة، ولحيته البيضاء المستديرة، وجبهته العريضة المسطّحة، ونظراته الحادة التي تعرفها. طالعتها عيناه العسليتان وكأنها كانت الحلم كلّه. لم يقل شيئًا، ولم يفعل شيئًا، ولا تتذكّر عرفة أنها رأت بقيّة جسده، وإنما وجهه فقط، كان جامدًا بلا حراك، مثل لوحة داخل إطار واسع من العتمة المحكمة. الشيء الوحيد الذي كان يتحرّك في الحلم كلّه، كان داخل عينيه، ثمة زحام من الناس، ضجيج وأصوات بعيدة، ولا شيء بعد ذلك.

استيقظت من النوم مملتئة بوجه أبيها ورائحته. غشتها سكينة نادرة لم تحسّها من قبل. خطر لها أن سفينة حياتها سترسو أخيرًا على برٍّ آمن، وسيكون بمقدورها بدء حياة أخرى على الأرض الجديدة التي ألقت فيها مراسيها، وهل أكثر أمانًا في هذه الدنيا من رؤية وجه الأب؟

لقد أصابتها حيرة لم تعرف لها جوابًا! كيف تبدّلت نظرتها للحياة بعد الاعتراف أمام الأب فانوس؟ ألهذا اختُرعت الأديان؟ لتخفّف على الناس مصاعب حيواتهم أم لشيء آخر؟ أم إن الأمر برمّته لا يتعدّى كونه رغبة مكبوتة للحديث مع أي كان، والتطهّر بفضيلة الحكي؟ لقد كان الأب المبجّل بارعًا في الإنصات إليها، ومخلصًا في طلب الغفران من أجلها.

ذهبت يوم السبت الموعود، لتخبره بما حدث معها، لكنه كان مشغولًا بضيوف حلّوا فجأة. كانوا ثلاثة كهنة يماثلون الأب فانوس في لباسه وهيئته. خامرها الظنّ في أنهم ربما يكونون أشقاءه، وعندما سألت الأخت مارتا، قالت لها إنهم رسل نيافة الأنبا ثيودوروس، أسقف أبرشية عطبرة وأمدرمان وبورتسودان، وقد وصلوا بالطائرة من الخرطوم ليل أمس لمناقشة أمور تخصّ الكنيسة مع الأب فانوس، ولن يجد الأخير فرصة لأي عمل آخر حتى يغادروا المدينة.

عادت إلى غرفتها بعد أن أكملت عملها. أخذت قيلولة حتى دخل العصر ثم اتجهت إلى محطة الحافلات العمومية، عازمة على السير إلى آخر الدرب الذي هجرته مذ أن أوت إلى كنيسة السيدة العذراء.

صعدت إلى الحافلة المتّجهة إلى حي كوريا في أقصى جنوب المدينة، وكانت الحافلة تمر بسوق ديم سواكن، حيث تركت ذات يوم طاولة الشاي خاصّتها مربوطة بجنزير معدنيّ طويل، إلى الشجرة القائمة أمام متجر العجلات الذي يملكه يسلم الحضرمي، ولم تعد إليها. هل تجدها في مكانها مربوطة بالجنزير؟ أم إن عشرات الفتيات جلسن خلفها من بعدها.

وصلت الحافلة إلى سوق ديم سواكن، السوق الذي لا يعرف الهدوء ساعة من نهار أو ليل، وكأنه قائم خارج منطق المدينة ومواقيتها. رأت الشجرة من بعيد لكن لم تر المجلس الذي كان تحتها، يعج بالمدرّسين والطلبة والسائقين والموظفين. اقتربت. رأت تحتها بائع ملابس، يقف بين ملبوسات معلّقة على حبال تحت الشجرة وأخرى مفروشة على أبسطة في الأرض، ويتنقل بين المشترين الذين يقلبون بضاعته المفروشة على الأرض، وأولئك الذين يتفرّجون على المعلّقة منها. يفاوض ويقبض ويدسّ يده في جيب جلبابه الفضفاض الناصع. شعرت بغصة وهي تعبر الممر الضيّق بين المصطبة الإسمنتية الكبيرة التي هيأها يسلم لزبائنه، وأغلبهم من الأطفال والصبية، وبين المتجر الجديد الذي أقامه تاجر الملبوسات على الهواء الطلق. هذا المكان كان الباب الذي عبرت من خلاله إلى المدينة الواسعة، المدينة التي خبأتها من ماضيها لكي لا يعثر عليها، إلا أنه لم يتركها. فاجأها صوت من خلفها:

– عاش من شافك يا جميل. رب (ثدفة) خير من ألف ميعاد!

يا إلهي، إنه (ياثر) قالت في نفسها وضحكت. فاجأها أنه لا يزال على وسامته وإشراقه. انتبهت إلى أثر حناء في يده:

- زواج مبارك ياسر، مع أنك لم تدعُني!
- تزوجت منذ شهر فقط.
قال، وشابت صوته رنة ندم وهو يتابع:
- بعد أن يئست من البحث عنك!
وجب قلبها. شعرت بالصدق والحرارة في كلماته هذه المرة.
- كل شيء قسمة ونصيب.
قالت مواسية. ملأ ناظريه منها.
- ما أزال على عهدي. إن شئتِ كنت الثانية، وإن شئتِ طلقتها.
فزعت.
- لا ياسر. أرجوك... أتمنّى لك ولها السعادة الأبدية.

هربت منه. من الذكرى والألم. تركته واقفًا، غير مصدِّق. هل كان ذلك حلمًا أم حقيقة. لحق بها وهي تعبر الساحة في الطريق إلى بيت رحمة. يعرف البيت. حام حوله مئات المرات، لكنه أدرك الآن أن طريقها بعيدة عن طريقه. تسمّر في مكانه حتى توارت عن ناظريه...

راح قلبها يخفق بعنف وهي تنظر إلى البيوت الكالحة، المتراصّة إلى جوار بعضها بلا نسق محكم. عبرت بخاطرها ذكرى ملاحقته لها في ذلك اليوم، يومها الأخير في هذا البيت. لاح لها الآن، بيت رحمة. لا يزال على لونه البنّي المائل للحمرة. سحبت نفَسًا عميقًا وزفرت.

شعرت بأن البيوت أصبحت شائهة وأشد بؤسًا من ذي قبل، وألوانها حائلة قبيحة، والشوارع التي تفصل بينها محفّرة ومتّسخة.

ما لي ولكل هذا؟ قالت لنفسها وهي تقترب من بيت رحمة. قلبها يخفق من الخوف والندم. كيف ستلقاها رحمة بعد كل هذه السنوات؟ هل ستصدّها عن بيتها وعالمها؟ أم ستغفر لها وتأخذها في حضنها؟ أم ستلومها قليلًا ثم تسامحها. رحمة قلبها طيب. صحيح أن طبعها جامح، لكنه مجبول على المروءة، إنما من يضمن الدنيا؟

طرقت الباب وانتظرت، فلم يأت أحد. طرقته مرة ثانية وثالثة ورابعة

ولم تجد جوابًا. نظرت إلى ساعتها، إنها تقترب من الخامسة. في مثل هذا الوقت تعود رحمة وبناتها بحصائل يومهنّ، أين هنّ يا ترى؟ طرقت الباب مرة أخرى، وسمعت صوتًا أنثويًا يقول لها:

- لا أحد هنا!

لا أحد هنا؟ فمن هذه التي تتكلّم إذًا؟ كان الصوت آتيًا من الخلف.

- لا أحد هنا. من تريدين؟

التفتَت. كانت امرأة سوداء بدينة، لها عينان جاحظتان، تحمل كيس خبز في يد وصندوق سجائر في اليد الأخرى.

- أغلقت الشرطة هذا البيت منذ عام أو أكثر، واقتادت البنات اللاتي كنّ فيه.

- لماذا، ماذا فعلن؟ وإلى أين اقتادتهنّ الشرطة؟

- لا أعرف، لكن الشرطة جاءت على أثر شكوى تقدّمت بها لجنة الحي!

كان لسانها ثقيلًا في الحديث، وتخرج الكلمات ببطء.

- ورحمة صاحبة البيت؟ هل تعرفين أين هي الآن؟

- لا أعرف!

ثم تركتها وواصلت طريقها. تضع ثقل جسدها كلّه إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة، في الدرب الصاعد إلى داخل الحي.

هربت مرة أخرى مخافة أن يلحق بها ياسر. عادت من طريق آخر. صعدت إلى أول حافلة كانت في طريقها إلى السوق الكبير، حيث محطة الحافلات الرئيسية.

كانت الحافلة شبه خالية من الركّاب. يصدح في أرجائها صوت مطرب تصحب صوته الجميل موسيقى صاخبة. سمعت الأغنية من قبل، في حافلات ومطاعم وتلفزيونات. لقد كانت رائجة في تلك الأيام.

عمّت بشايرنا ودام الفرح لينا
ضاءت ليالينا...

الدنيا ابتهجت،، وتجلّى بدرينا
وين يا بلابل الدوح،، الليلة آنسينا...

كان المطرب الشاب يمط آخر الكلمات... نااااااا بتنغيم مبهج، يبعث على النشوة. آخر مرة سمعت فيها هذه الأغنية كانت في ذلك الفرح الذي دعاها إليه موريس في حي فيليب، ولعلها اشتهرت كأغنية أفراح، فلا تكتمل حفلات الزفاف إلا بترداده لتحفيز أكبر مشاركة في حلبة الرقص. ما أن عُزفت موسيقاها الحامية حتى نزل الحاضرون إلى قلب الدائرة الواسعة التي تتوسط الحفل. ضج المكان بالصخب، وضاق على اتساعه بالراقصين والراقصات الذين اختلطت أصواتهم وروائحهم في أثناء الرقص. تحوّل وجه العروس الملطّخ بالأصباغ إلى لوحة عبثت بها يد طفل. رقصت في تلك الليلة كما لم ترقص من قبل. اختبرت مهارتها في الرقص مع صابرة وصديقاتها.

نذكر أحبتنا وأوقات مسرّتنا
ونطرب للحن الحب ولذيذ أغانينا
ضاءت ليالينا...

انضم إليهنّ موريس برقصه النشاز، وطريقته المضحكة في تحريك أطرافه. غرقن جميعًا في نوبة ضحك، عدا موريس الذي بدا كمن يصارع شيئًا غير مرئي، ويحاول جاهدًا الانسجام مع الإيقاع والموسيقى فلا يقدر. يعوج فمه ويصفق بيديه ويضرب برجليه لكن من دون جدوى، حتى خلّصه المطرب من عذابه حين توقّف عن الغناء. قالت صابرة وهي تغمز بعينها وتحتضنها:

- سأرقص في فرحكِ حتى الصباح يا عرفة! أما موريس فلا أقدر عليه، هذا شأنك معه!

ثم قبّلتها على خدها واحتضنتها.

وضحكتا بينما موريس ينظر إليهنّ متسائلًا عن سبب الضحك. تبادلا إشارات لها مغزى، وتظاهرت عرفة بأنها لم تفهم شيئًا.

أصبحنا في فرحة،، ونفوسْنا منشرحة
وقلوبنا بالبهجة تزداد تحسينا
ضاءت ليالينا...

حتى الآن لا تفهم شيئًا. منذ أن طلب موريس يدها من الأب فانوس لم تره، ولم يكلّمها. حتى الأب المبجَّل نفسه، الذي استأمنته على أسرار حياتها لا تعرف ماذا صنع بها. ومع ذلك قرّرت ألا تسأل. الرجال بارعون في اجتراح الأعذار، ولا يُعجِزهم المزيد منها كلما دعت الحاجة. قالت لنفسها. إن كان موريس يريدها حقًّا فالخطوة الجديدة مطلوبة منه، وإن كان قد غير رأيه، بعد حديث الأب فانوس معه، أو لأي عذر آخر، فإنها قرّرت أن تكمل حياتها على طريقتها. مرَّ ياسر في خاطرها، لكنها أبعدته على الفور. شعرت بضيقٍ في صدرها. أخذت نفَسًا عميقًا، واستنجدت بأفكار تخفّف عنها. حياتها تغيّرت، وستتغيّر إلى الأفضل.

ألم يقبلوها في الكلية الأهليّة التي تدرّس علوم الحاسوب؟ لقد حدث هذا منذ شهر فقط. ذهبت إلى المدرسة الأسقفية بنفسها وتأكّدت من وجود اسمها على قوائم الكلية الأهلية. وستذهب في الأسبوع المقبل لتسديد القسط الأول من مصاريف السنة الدراسية الأولى مما وفرته من راتبها، وفي الشهر المقبل ستبدأ الدراسة.

اجتازت الحافلة الطريق بين السجن العمومي وقشلاق شرطة السجون، وصارت الآن قريبة من وجهتها النهائية. هي كذلك، تفكّر في بلوغ الهدف. إنها ثلاث سنوات فقط وتحصل على الدبلوم ثم تعمل موظفة في أي شركة أو مؤسّسة محترمة، وتولد من جديد. لقد خلعت حياتها السابقة بين يدي الأب فانوس، وأما ما سيأتي فهو ما تطمح أن تكونه.

(32)

ثلاثة أيام من القلق والألم مرّت عليّ بسبب تأخر دورتي الشهرية، وبسبب الحمى التي طحنت عظامي، والوجع الذي لا يهدأ في رأسي بسبب الجرح. وقفت على قدميَّ بمساعدة فرتونا لكي أذهب إلى الحمام، لكن دوارًا أفقدني توازني وأسدل ستارة معتمة أمام ناظريّ، فعدت إلى رقدتي. بقيت فرتونا إلى جواري طوال الليل. تثرثر كعادتها، وتغنّي أحيانًا حتى أنسى ألمي، وتضع قطعة قماش مبللة على جبهتي كلّما جاءتني الحمى وزاد ارتعاشي.

في الصباح أخبرت فرتونا الحراس بحالتي. نقلوني إلى الوحدة الطبية. هناك، حلقوا جزءًا من شعري ثم فتحوا الجرح الذي وجدوه متعفّنًا، ونظّفوه وخاطوه بنحو عشر غرز. وعندما خرجنا سألتني فرتونا:

- بماذا ضربتك تلك اللئيمة؟ كأنها ضربة فأس يا عرفة.

- لا أعرف بماذا ضربتني لكنه كان شيئًا ثقيلًا.

ضحكت فرتونا وهمست في أذني ساخرة أثناء خروجنا من باب العيادة.

- لا بأس، في المرة المقبلة ضعي خوذة على رأسك وقفلًا على ذلك الشق بين فخذيك قبل أن تدخلي على أي ضابط!

قرصتها في كتفها قرصة شديدة فصرخت، ثم عادت إلى الضحك والمرح حتى بلغنا خيمتنا. كانت سعيدة رغم كل شيء، تمازحني وتمازح الجميع في الخيمة الكبيرة التي خصصها الجيش السوداني للنساء الأسيرات. صارت فرتونا معروفة لكل من في الخيمة في بحر هذه الأيام الثلاثة.

لما كنّا في القبو، وحين أخبرتها بما جرى في غرفة التعذيب، أسرَّت لي بأنها تعرضت للاغتصاب مرارًا من قبل ضباط وجنود طوال خدمتها العسكرية التي بدأت منذ خمسة أعوام ولا تلوح لها نهاية قريبة. حبلت مرتين من مغتصبيها لكنها تمكّنت من التخلص من حملها في المرتين. ووعدتني بإخباري الطريقة التي اتبعتها إذا وقع المحظور.

كما أخبرتني أن أمرًا آخر كان يشغلها، ويجعلها تحتمل كل شيء. كانت تتوق إلى الهجرة، إلى بلد أوروبي لم أكن قد سمعت باسمه من قبل، ولا أتذكّره الآن، كانت تود اللحاق بشقيقتها الكبرى التي سبقتها إلى هناك منذ أربعة أعوام. قُبض عليها وهي تحاول الفرار ثم قضت في القبو ما شاء الله لها أن تقضي. فضلت الحياة في القبو على العودة إلى بلدها. دفعت في سبيل ذلك رشوة جنسية لضابط استخبارات إرتري.

- هذا ما أمكنني تقديمه يا عرفة. لا أملك ما أقايض به حلمي سوى هذا.

وأشارت إلى ما بين فخذَيها. تحت سطوة الضوء الباهر لشمس تشرين الأوّل/ أكتوبر، انتبهت إلى طولها الفارع وجسدها النحيل في غير هزال، وإلى ردفيها البارزين، وإلى وجهها الجميل على الرغم من رهق السجن وحياة الجندية. نظرت إليّ من طرف عينيها وابتسمتْ. شعرت بأني أغرس نظراتي في جسدها. كانتا عينين طيبتين، تزحمان باتساعهما وجهها الصغير ذَا الأنف الدقيق المستقيم والشفتين الصغيرتين. وضعت كفّها على كفّي وشدّت بحنو. رفعتُ كفّها أتأمله. أدهشتني رقّة أصابعها وكأن سنوات الشقاء والسجن عبرت فوق جسد آخر. شدّت على كفّي مرة أخرى بحنو. وقالت:

- لا تخافي مرحلة الآلام هذه ستقوّينا يا عرفة، لا تقلقي.

هذا هو اليوم الرابع على موعد دورتي الشهرية. قلقي يكبر كلما مر يوم دون نزولها، وكلما حاولت التظاهر بالنسيان كان الخوف ينهشني

من الداخل. لا أعرف ما الذي يدور في ذهن فرتونا بخصوص هذا الأمر لكنها حتمًا تعرف طريقة آمنة.

ذهبَت لتجلب العشاء، بينما بقيت أنتظرها في ركن الخيمة البعيد، حيث البساط الذي نأكل وننام عليه ونقضي معظم أوقاتنا، بيد أنها تأخّرت أكثر مما يجب. قلقت عليها. لم أكن أجرؤ على الذهاب لأبحث عنها. عادت بعد نحو ساعتين من دون عشاء، خائفة مضطربة والبكاء على سطح وجهها المتوتر.

- طلبوا من جميع الأسرى العسكريين الحضور إلى مكتب قائد المعسكر مع أغراضهم. عدت فقط لآخذ أغراضي وأودعك.

- وماذا يريدون منكم؟

- لا أعلم، حقًّا لا أعلم. أظنّهم سينقلوننا إلى مكان آخر.

راحت تجمع أغراضها، مرتبكة مذعورة. تبحث عن بنطالها وهو بين يديها، وتقلّب الأغراض بحثًا عن حذائها وهي تجتاز فوقه إلى اليمين وإلى اليسار. جمعت أغراضها القليلة في كيس من البلاستيك. تعانقنا طويلًا وبكينا، ثم رافقتها حتى مكان تجمّع الأسرى. همست لي في الطريق.

- غاية ما أخشاه، أن يبادلونا بأسرى آخرين، سأقتل نفسي لو حدث ذلك يا عرفة.

شددتُ على كفها وذكرتها بما قالته لي قبل قليل:

- أرجو أن تبقى قوية حتى النهاية.

كنّا نتقدّم خطوة ونتأخّر خطوة، بينما كانت أنظارنا معلّقة بناقلة الجند التي تومض أضواؤها في طرف الساحة، أمام مكتب الكولونيل سعيد، صاحب الكلب. أواه من صاحب الكلب، كم أحزنني موته؟ وجدت سيرته مبذولة للكل، وقد راحوا يتناقلون حكاية كلبه العجيب الذي رافق جثمانه حتى مثواه الأخير، ثم رفض أن يغادر مرقد صاحبه. ذهب كثيرون

إلى القبر الجماعي الذي يضم رفات قتلى المعركة، لرؤيته وإطعامه والعطف عليه، وعادوا من هناك بحكايات كثيرة عن حزنه ودورانه طوال الوقت حول المقبرة.

كان أحد الضباط يقيّد أسماء الأسرى الإرتريين والمقاتلين من المعارضة السودانية، ثم يطلب منهم الصعود إلى الناقلة العسكرية. صعدوا جميعًا ولم يبقَ غير فرتونا الحزينة تدفن وجهها في صدري وتبكي. رفع الضابط صوته مناديًا باسمها. فتتشبّث برقبتي مثل طفلة تُنتزع من صدر أمها.

خلال ساعات قليلة تغيّر كل شيء، وتحوّلت فرتونا من صبية صاخبة، مقبلة على الحياة بأحلام عريضة، إلى كتلة مطفأة من الحزن والكآبة. بقيَت متشبّثة بجثتي الواقفة بلا حراك حتى آخر لحظة. انتزعها الجنود من صدري انتزاعًا، وأجبروها على الصعود إلى ناقلة الجند الخضراء. عندئذ أخفيت وجهي بين كفي ورحت أبكي.

أطلقت الشاحنة بوقًا طويلًا وهي تغادر. نظرت من مكاني إلى الرؤوس التي كانت تتأرجح فوق ناقلة الجند ولم أستطع تمييز رأسها في العتمة، لكنني لوّحت بيدي مودّعة على كل حال. خرجت الناقلة تحرسها شاحنتان عسكريان صغيرتان، من الأمام والخلف حتى توارت في العتمة.

ذهبت فرتونا وذهب معها سرّها قبل أن ينقذني من الفضيحة.

(33)

مر نحو ثلاثة شهور منذ أن قدّمت عرفة اعترافها أمام الأب فانوس، وما يقرب من أربعة شهور منذ أن تقدّم موريس لخطبتها عقب قداس راتب في أحد أيام الآحاد. منذ ذينك الحدثين لم يطرأ جديد. سمع منها الأب فانوس، لكنّها لم تسمع منه ما كانت تنتظر. اختفى الأستاذ موريس عن حياتها كأن لم يكن. استقر في دخيلتها أنّ تحوّلًا حدث في موقفه بعد أن أطلعه الأب فانوس على أجزاء من حكايتها، أو حكايتها كلّها، وعرف منه أي نوع من الفتيات تكون.

قابلت الأب فانوس مرات كثيرة خلال الأشهر الفائتة، ولم يأت أمامها على سيرة موريس من قريب أو بعيد. كان يسألها عن نومها وراحة بالها، وهو لا يدري أين راحة البال. فكّرت مرارًا في أن تثير معه موضوع موريس لكنها كانت تعدل عن ذلك في آخر لحظة مخافة أن يصدمها الجواب. وهو كذلك، كان يلقاها بوجه محايد، زايله ذلك العطف الأبوي الذي كان يشملها به. عادت يتيمة ووحيدة.

فكّرت أن موريس صرف النظر عن رغبة الارتباط بها، بغض النظر عن دافعه إلى ذلك، ما إذا كان بناء على نصيحة من الأب فانوس، أو لشيء آخر. لقد عرفت موريس عن قرب. أحبته على علاته، والكمال ليس من شروط الحب.

عندما تهجع في الليل، وتشعر بالوحشة والوحدة تفكّر بالاتصال بشقيقته صابرة والسؤال عن أحواله، لكنها تعدل عن ذلك حين تشرق الشمس، وتتحرك الحياة من حولها فتتبدّد وحشتها وتتجمل بالصبر.

قررت أن تركز جهدها في دراستها. سمح الأب المبجّل بتحويل

وقت عملها إلى فترة المساء بدلًا من ساعات الصباح رغم تبرّم الأخت مارتا. شكرته على كرمه السابق واللاحق، وانصرفت بكامل طاقتها إلى الدراسة، وأما العمل المطلوب منها فلم يكن على ذلك القدر من المشقة، والأهم أنه كان بعيدًا عن الرقابة المباشرة للأخت مارتا وعينها التي لا ترضى. تأتي دائمًا في الصباح لتجد الكنيسة ومكاتبها وملحقاتها على أفضل حال من النظافة والترتيب، لكنها تجد دائمًا ما تأخذه عليها.

راقت لها نوبة العمل خلال المساء. كانت تقوم بعملها في جو من الحرية. وهو ما أتاح لها أن تقضي ما تشاء من الوقت في المكتبة. تراجع المحاضرات التي تتلقّاها في الكلّية، أو تطالع شيئًا مما تضمّه مكتبة الكنيسة في شتى ألوان المعارف. قضت على تلك الحال الفصل الأول من سنتها الأولى في الكلية، ولم تكن تطلب أكثر من ذلك.

في أحد صباحات يناير الغائمة، وبينما كانت تتهيأ للخروج إلى الكلية ألفت صابرة، شقيقة موريس، وولدها يوسف عند باب الكنيسة. ألجمتها المفاجأة. احتضنت جثّتها الضخمة وراحت تمطرها وولدها بالقبلات، كأنها تستقبل عائدًا من سفر بعيد. بادلتها صابرة الاحتضان وتمتمت في أذنها:

– موريس، يريد أن يراكِ الآن!

قالت وهي تنظر في عينيها. زاد ارتباك عرفة.

– متى عاد موريس؟ ولماذا يريدني؟... أقصد أين يريدني؟ وكيف؟

ندت عن صابرة ابتسامة رقيقة، فيها من الغموض أكثر ما فيها من العطف.

– إنه في بيتي، وستعرفين كل شيء منه شخصيًا!

جوابها زاد الأمر غموضًا. خفق قلبها، وغشت جسدها قشعريرة مباغتة، شأنه كلما حدس بأمر وشيك الوقوع. لم تمهلها حتى ترد أو تفكر. تقدّمت ناحية سيارات التاكسي التي تقف بين الكنيسة ومبنى البريد. تبعتها عرفة. حشرت جسدها الضخم في المقعد الخلفي، ثم أفسحت لها، وأشارت ليوسف ان يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق.

لم تتبادلا الكثير من الحديث في الطريق، ولم تأت صابرة على سيرة

موريس، ما زاد من شعورها بالقلق. حدّثتها عن تفوّق ولدها يوسف في المدرسة وإحرازه علامات ممتازة. سألتها كذلك عن الكلية التي التحقت بها، والتخصّص الذي اختارته. كانت أجوبة عرفة مقتضبة وتنم عن قلق خفي. خاصّة وأنها اليوم ستتأخّر على الكلّية.

وصلوا حي فيليب، وتوقّف التاكسي عند باب بيت صابرة ذي الجدران الخشب، المطعّمة بقطع من الصفيح الصدئ، ولا يستر ما في داخله على نحو تام. رأت شبح موريس في الجهة المشمسة من حوشها الفسيح. جالسًا على مقعد، مثل إله غابر. أمامه طاولة وإلى يمينه سرير، عليه ملاءة زرقاء. ولما اجتازتا باب الحوش، تناهت إليهما رائحة بخور وقهوة طازجة، وصوت موسيقى كانت تنبعث من راديو صغير، موضوع على طاولة إلى يسار موريس. كانت أشعة الشمس تومض من سطح الأنتينة الفضّية الطويلة، التي تنبت من جانب الراديو وتتجاوز رأس موريس بقليل.

استقبلهما بابتسامة عريضة، ووقف هاشًّا للسلام على عرفة. انتبهت إلى أن جسمه نحل قليلًا. وعلى وجهه اصفرار شاحب طمس لون بشرته العسلي، بيد أن نظراته كانتا تلتمعان ببريق آسر. قال في ما يشبه العتاب:

- تحسّنت صحتكِ، ويبدو وجهك رائقًا. هل كانت غيبتي جيدة إلى هذا الحد؟

- الحمد لله على سلامتك.

قالت وهي تهم بالجلوس على السرير. وفي منتصف الطريق، بين واقفة وجالسة، أمسكَت صابرة بيدها قائلة.

- ليس قبل أن أريك المفاجأة، وليقل موريس بعدها ما يشاء!

سحبتها إلى الداخل، إلى غرفتها عبر صالة صغيرة وضع عليها سريران من الحديد. كانت الغرفة مثلما رأتها في المرّات السابقة، نظيفة مرتبة رغم تواضع أثاثها. يتوسّطها سرير من الخشب الموسك، وتقوم في أحد أركانها خزانة خشب ذات بابين تعلوها ثلاث حقائب قديمة، ويملأ

الفراغ الكبير بين الخزانة وباب الغرفة أربعة مقاعد بيضاء من البلاستيك أمامها طاولة متوسطة من الحديد عليها حقيبة كبيرة لا تتناسب أناقتها وجدتها مع مظهر الغرفة. لفتت الحقيبة انتباهها بلونها الوردي البرّاق، والخطوط الذهبية اللامعة التي منحت حواشيها إطارًا يوحي بالفخامة.

- أغمضي عينيك!

قالت صابرة بعد أن أجلستها على المقعد الأقرب إلى الحقيبة. خبّأت وجهها بين كفّيها مثل طفلة تلاعبها أمها لتفاجئها بقطعة حلوى أو هدية. سمعت طقطقة أقفال الحقيبة وصريرها الناعم وهي تفتح، ثم زحمت أنفها رائحة عطور وملابس جديدة، يتبعها صوت صابرة وهي تطلب منها أن تفتح عينيها. أزاحت كفيها عن وجهها. انحسرت عتمة عينيها عن حقيبة ممتلئة عن آخرها بملابس وأحذية نسائية وعطور وأشياء أخرى لم تتبيّنها. بعضها مفتوح وبعضها الآخر لا يزال داخل أغلفته البلاستيك وصناديقه الكرتونية. نقلت بصرها إلى صابرة، فطالعتها بابتسامة عريضة تنم عن حماسة طفولية. كانت لا تزال واقفة إلى جانب الحقيبة، تمسك غطاءها العلوي بيد، بينما كانت يدها الأخرى مغروسة في جنبها، تلخّص الرسالة التي أرادتها من كل ما جرى.

مع ذلك لم تفهم عرفة من اللحظات الأولى، فلم تنبس بكلمة. شعرت صابرة بخيبة أمل من نظراتها الباردة لمحتويات الحقيبة. زايلت وجهها تلك الحماسة الطفولية. وجلست إلى جوارها ثم راحت تستعرض محتوياتها قطعة قطعة، بحماسة مفتعلة.

بدأ ذهن عرفة يصفو بالتدريج، وتغادره حالة الانطفاء التي وقع فيها منذ أن فاجأتها صابرة بمجيئها أمام باب الكنيسة. كأن ضبابًا كثيفًا حال بينها وبين رؤية ما جرى ويجري على النحو الذي أرادته صابرة. بيد أن الضباب لم يلبث أن تبدّد بمجرّد أن قادتها إلى الغرفة الأخرى، حيث فتحت الباب على منظر أثاث جديد بعضه مرتَّب، وأغلبه مبعثر في أرجاء الغرفة الواسعة، وكانت رائحة خشبه الرطب تملأ المكان.

وقعت عينا عرفة على أكبر القطع. خزانة بيضاء ضخمة بستة أبواب وبحواف ذهبية لامعة تملأ أحد جوانب الغرفة من الحائط إلى الحائط، فيما رُصَّت رؤوس السُّرَر وملحقاتها الأخرى إلى جانب الخزانة، وكانت باللون والتصميم نفسه. أرتها كذلك طاولات وستائر ومقاعد ووسائد وألحفة لم يمسسها إنسان، وفتحت أمامها أربعة صناديق كبيرة مملوءة إلى آخرها بأواني مطبخ وأشارت لها إلى صناديق تحوي أدوات كهربائية جديدة.

نظرت إليها مع ابتسامة واسعة وقالت:

- قريبًا، سيتقلّد عريسنا منصبه الوزاري في الحكومة، وستنفتح أمامكما أبواب الهناء كلّها!

فهمت عرفة المغزى. شعرت بالحنق والتفاهة. ضاق صدرها. حاولت قول شيء ما، تحتج، تلوم، تصرخ، لكنها عجزت. وبدلًا من كلماتها الضائعة تحرّكت يدها بإشارات عصبية مبهمة لم تفهم صابرة منها شيئًا، فسألتها في جزع:

- عرفة؟ ما بك؟

حاولت الكلام مرة أخرى لكن لسانها التصق بسقف حلقها. أخفت وجهها بين كفّيها واستدارت خارجة.

- ماذا جرى لك يا عرفة؟ ماذا بكِ بحق النبي؟

تبعتها إلى الحوش حيث كان موريس وابنها جالسَيْن ينتظران خروجهما. نظرت إلى موريس مليًّا من دون أن تنبس بكلمة. فاجأه وجهها الحزين. وضع يديه على جانبي المقعد ثم دفع جسده إلى الأعلى واقفًا وعيناه تتنقّلان بينها وبين صابرة. كانت نظراته المستفهمة مركّزة على شقيقته. ورأى عرفة استدارت حانقةً وغادرت البيت. خرجت صابرة مذعورة في إثرها، تتوسّل.

- كل شيء يمكن إصلاحه يا عرفة، فقط إرجعي إلى البيت واخبرينا ما الأمر؟

كان لهاثها خلف عرفة يثير الشفقة. بدا صوتها مرتجفًا مذعورًا وهي تناديها: عرفة، أستحلفك بالله!

لكن عرفة استمرت مندفعة نحو محطة الحافلات. صرفت النظر عن الذهاب إلى الكلّية في ذلك اليوم وعادت إلى غرفتها في كنيسة العذراء. أغلقت عليها الباب وجلست تنتحب تحت وطأة شعورها بالقهر والضآلة. دار الشريط في ذهنها، من اللحظة التي تقدّم فيها موريس لخطبتها أمام القداس، ثم اختفى من حياتها مرّة واحدة. العريس الذي كانت تتباهى شقيقته بما جلبه من غيبته الطويلة، التي لا تعلم مكانها وسببها، لم يسأل عنها قط. لم يسأل إن كانت حيّة أو ميتة، ولم ينتظر جوابها بشأن زواجهما، إن كانت توافق أو ترفض. اشترى جهاز منزلهما المفترض بمفرده وكأن التي يريد الزواج بها ليست شريكته.

بعد ساعات هدأت فورة الغضب. راحت تسائل نفسها من جديد. هل ما قامت به ناتج عن الحنق؟ أليست هي الطرف الذي سعى إلى هذه العلاقة لكي يخرج إلى حياة جديدة تُصلِح خراب حيواتها السابقة؟ لماذا تغضب إذًا وتتصرّف بطريقة قد تخرّب كل شيء؟ أليست هي عرفة التي وطئها رجال كثيرون ولم تعد عذراء؟ أليست هي القاتلة؟ فمن يرضى أن يتزوّج من زانية وقاتلة غير موريس، ذلك الرجل الطيب؟

***

كان زواجهما بسيطًا. أمام كاهن الكنيسة الصغيرة في حي فيليب. سبق تكليلهما سؤال من الكاهن.

– علمت من السيد موريس أنك لست مسيحية. هل هذا صحيح؟

– نعم.

– لن تجبرك الكنيسة على المعمودية، لكن هل تتعهّدين بتربية أبنائكما تربية مسيحية؟

– نعم. أعد بذلك.

ابتسم الكاهن ذو الوجه النحيل والعينين الصغيرتين، وقال:

- مبارك الآتي باسم الرب.

وضع موريس الخاتم في بنصرها ثم نظر في عينيها.

- في هاتين العينين الخضراوين اللتين كلون مياه البحر العميقة، أطلق أشرعتي. أتعهد لهما بالحب الأبدي!

وضعت الخاتم في بنصره الأيسر ثم رفعت رأسها إلى وجهه العسليّ وعينيه المستديرتين الدعجاوين، فوق عنق تحيطه ربطة حمراء على هيئة فراشة. لا تعرف ما تقول. ألجمتها الرهبة وعقدت لسانها، وتركت لعيونها أن تخبره بما يعتلج في داخلها من حب وشكر أيضًا...

أحاط خصرها بذراعه وأخذها إلى الخارج. شعرت بالعيون التي تحيطهما في دائرة واسعة، ثم وهي تتبعهما في الطريق إلى بيت صابرة، وسط موكب من الزغاريد والبهجة وأغنيات الفأل. كان موريس يتأبط ذراعها ويسير داخل بدلته السوداء اللامعة مثل أمير، وإلى جانبه تسير عرفة مضطربة داخل فستان زفافها الفضفاض، ذي الذيل الطويل.

أقامت صابرة حفل زفاف بسيطًا في منزلها، حضره أهلها وجيرانها وأصدقاؤها، وبعض أصدقاء موريس. هنّأهما مستر موقا وسكرتيرته الجميلة سونيا وذهبا قبل بداية الحفل. جاءت الأخت مارتا بهديتها إنابة عن الأب فانوس وكنيسة العذراء وغادرت. جاء عمال الكنيسة وموظفوها ورقصوا في فرحها.

بينما تتأمّل الوجوه السعيدة التي كانت تأكل وترقص وتبتهج. أحزنها أن يجيء يوم فرحها وهي وحيدة، بلا أهل. كانت تبتسم للمدعوين من خلف دموعها. أدركت صابرة بحسّها الأنثوي ما يختلج في نفس عرفة، فاقتربت منها، وقالت:

- نحن أهلك يا عرفة. لا تفسدي ليلة عمرك بالحزن.

ثم دفعتها إلى حلبة الرقص ولم تتوقّف حتى نهاية الحفل. أخذها موريس بعد ذلك إلى بيتهما، في سيارة بيضاء مكلّلة بالورود وبأشرطة الزينة. نامت في الطريق على كتفه.

(34)

انتقلت من أسر إلى آخر، هذا كل ما حدث بعد حملة تحرير وادي العقيق.

في الأسر الجديد لا توجد أية أعباء، سوى التفكير في الحمل الذي بلغ شهره الثالث. حاولت إسقاطه مرات عدة مخافة أن تبرز بطني وتثير الانتباه، بيد أن كل محاولاتي فشلت. لم أكن أعرف طريقة مناسبة للتصرّف. خوفي من بروز بطني مع قرب انقضاء الشهر الثالث كان يزيد من قلقي، وجعلني أجرّب كل شيء في محاولات يائسة، مثل ضرب بطني بقبضتي مرارًا، أو حمل أشياء ثقيلة، أو بلع أقراص من بعض الأدوية التي حصلتُ عليها من ممرّض كان يعطف عليّ، أو شرب القليل من كيروسين المصباح على دفعات متفرقة. حتى أكل قطع من الصابون خلسة خلال الليل.

لا بد من الخبرة والمساعدة في أمر كهذا، لكن فرتونا رحلت، وفقدت الأمل في العثور على عائلة الأم الحزينة، ولم يكن من السهل البوح بسرٍّ كهذا لأي كان. في الأسر الجديد قد يفهم الأمر على نحو خاطئ، لا سيما من قبل أولئك المقاتلين الذين يسمّون أنفسهم بالمجاهدين، أو حتى ضباط المعسكر ذوي الميول الإسلامية. كان الوقت يمضي ويشتد ثدياي صلابة وانتفاخًا، فضلًا عن شعوري الدائم بالدوار والغثيان وآلام الظهر والأرجل وتقلّصات الرحم.

فكّرت أخيرًا في صعود شاهق، ثم السقوط على بطني. مخاطرة كبيرة، لكن لم يكن من الأمر مفر. خرجت قبيل شروق الشمس بقليل، قاصدة

الجبل. حملت إبريق ماء، متظاهرة بأني أود قضاء حاجتي بين الصخور والأشجار التي تقوم على سفح الجبل. إنه أمر معتاد يفعله الكثيرون من الجنود والأسرى مع الزحام المعتاد في دورة المياه خلال ساعات الصباح. سألني حارس العنبر عن وجهتي فأخبرته. أمر جنديًا بمرافقتي، فتبعني متأخّرًا عني بخطوات. كانت السماء ملبّدة بغيوم رمادية، وتهب من ناحية الصحراء ريح باردة تلسع الوجوه.

أخذني الطريق إلى الجبل عبر المقبرة الجماعية التي تقوم تحت سفحه، ودفن فيها الجنود الإرتريون ورفاقهم من قوات التحالف السودانية. كانت مقبرة كبيرة، محاطة بصفوف من حجارة الجبل. رأيت جيفة كلب الضابط سعيد داخل حرم المقبرة. تبرز منها عظام أضلاعه ورأسه، بينما تغطي الرمال ما بقي منها. «نفق من الجوع والبرد والوفاء لصاحبه»، هكذا قالوا.

جلس الجندي الذي كان يتبعني على صخرة قريبة من السفح وأدار ظهره للجبل. صعدت وحدي وتخيرت مكانًا بين الصخور، تحيط به أجمة صغيرة من الشجيرات. قضيت حاجتي ثم تخيرت صخرة سوداء، ترتفع عن منبتها بطولي تقريبًا. التففت حولها وتمكنت من الصعود من أحد جوانبها الوطيئة. رأيت الجندي في الأسفل، لا يزال يوليني ظهره، ويلتفت إلى الوراء بين حين وآخر. أغمضت عينيّ ثم قفزت مباعدة يدي ورجلي كما يفعل المغامرون الذين يقفزون في الجو.

ارتطمت بطني بالأرض رطمة قوية وشعرت بألم ممضٍ وكأن بطني انشقت إلى نصفين. تأوهت من شدة الألم، وعجزت عن التنفس. رحت أتلوّى في مكاني مثل شاة ذبيح. تشنجت أطرافي وتعرّق جسدي. خطر لي أنها النهاية، وأنني سرت إلى حتفي. تمكّنت من سحب أول شهقة بعد مرور وقت ليس بالقليل. وضعت طرحتي داخل فمي ثم رحت أضغط بكلتا يدي على بطني، وأسحب ضاغطة إلى الأسفل. كررت ذلك مرات كثيرة حتى

شعرت بنزول شيء دافيء بين ساقي. حفرت في الرمل قليلًا وجلست مثلما أجلس في الحمام. آخذ نفسًا عميقًا وأدفع إلى الأسفل. لم تكن النتيجة سيئة. أعدتها، مرة وثانية وثالثة ورابعة حتى اصطبغت الحفرة أسفل مني بلون قانٍ. لم أهتم لنداءات الجندي إلا حين سمعت صوت أقدامه وهي تهرس الحصى متّجهًا نحوي... تنحنحت من خلف الصخرة حتى يطمئن إلى وجودي، فعاد أدراجه لينتظرني في الأسفل. دفنت ما كان يؤرقني في التراب، ثم نزلت من الجبل، وأنا أشعر ألمًا في بطني وكأن مدية حادة مزّقتها.

***

بقيت أيامًا أعاني من النزيف المتّصل والألم، ومضاعفات الإجهاض القاسي حتى توقّف النزف بعد نحو أسبوع.

ولأن الأسر الجديد كان بلا أعباء، كنت أمضي أوقاتي ساهمة في ذكرياتي وآمالي. كان ينتابني إحساس غامض كلّما تذكّرت غرفة تيتو المحترقة أو مداخل الأقبية السرية. مزيج من الحنق والخوف والشماتة لكنه لا يلبث أن يتلاشى حين تمر بالخاطر وجوه رفيقاتي، الأم الحزينة وآمنة وأمينة وفرتونا.

وكلّما تذكّرت حادثة قتلي للضابط تيتو قفزت إلى ذهني عينا طاهر وهو يتوسّل إليّ في تلك الظهيرة لكي أقتله، هل كان حدسه في مكانه؟ تزاحمت الأسئلة على وقع الذكرى. هل كان بالإمكان تجنب شيء مما كان؟ ولو عاد بي الزمن إلى الوراء هل كنت سأفعل ما فعلت؟ هل هو الوحيد ممن اغتصبوني الذي كان يستحق الموت؟ أم لأنه مات على يديّ؟ وعندما كنت أفكّر في الجواب يبدو لي الأمر عادلًا بوجه من الوجوه. جميعهم كانوا يستحقّون الموت، وربما ماتوا فعلًا بطريقة أو بأخرى، لكن الضابط تيتو وفّره حظه العاثر للحظة نادرة. اللحظة التي تكون فيها الضحية قادرة على الانتقام من جلادها وجُرحها لا يزال ساخنًا ينزف. حصل الأمر ولم يكن بالمستطاع تجنّبه بأي حال.

لقد انتقم لي القدر من الملازم أبراهام، ذلك مؤكّد. ولعله انتقم لي من وحوش الغرفة الأرضية كذلك بطريقة ما. لم أرهم ضمن الفلول التي هربت بنهاية المعركة ولا بين أولئك الذين وقعوا في الأسر. المهم أن الأقدار لعبت معي لعبتها: قتلت من أجلي وجعلتني أقتل.

أثناء تجوالي في المعسكر، كنت أمر أحيانًا على بقايا تلك الغرفة، لكن من دون أن أقترب منها. كنت أشعر بالرعب، وأتخيل أطياف تيتو وروحه ترفرف حولها وتنتظر اللحظة التي أقترب فيها من المكان لتأخذني إلى حيث أرسلتُ صاحبها.

كانت لا تزال على حالها بعد الحريق على الرغم من أن بعض الجنود قد نزعوا من ركامها بعض الأخشاب ليعيدوا استخدامها في ترميم بعض العنابر. هل وجدوا جثة بين الركام؟

مع طول الوقت، وعدم تكليفنا بمهمات في المعسكر، صارت تتراخى شدة الحراسة علينا وسُمح لنا بالتجول بين حين وآخر لكن ضمن حدود المعسكر. طفت كل ركن في هذا المعسكر الذي بات أشبه بمدينة خربة، من بوابته في الشرق إلى حدود الجبل غربًا، ومن طرف الصحراء في الشمال إلى بقايا الورشة في الجهة الأخرى، أتأمل شاغليه الجدد وأقارن في ذهني بينهم وبين سلفهم. لم أجد فروقًا كبيرة بين الفريقين سوى اختلاف الأعلام والرايات التي ترفرف فوق الثكنات المتداعية. هو الاستعداد الأبدي نفسه لإطاعة الأوامر التافهة في أي وقت. هي الطرائق العنيفة نفسها في مواجهة الأمور البسيطة التي لا تتطلّب عنفًا، والبلاهة ذاتها إذا تعقّدت. وهي الرغبة نفسها في التحكّم في كل شاردة وواردة، وذلك السلوك العدواني إزاء كل ما هو مدني.

طوال هذه الأشهر، خضعت للتحقيق مرة واحدة فقط من قبل ضابط يضع ثلاث نجمات على كل كتف. أخذوني إليه مع شروق الشمس، واستقبلني جالسًا في كرسي على باب مكتبه، يستدفئ بشمس الصباح.

كان شابًا وسيمًا، قمحي البشرة، يتوسّط وجهه أنف رفيع، مستقيم، ويحيط بفمه الصغير لحية سوداء رفيعة تتّصل بشاربه الأرفع. لا هو بالطويل ولا هو بالقصير لكنه يتمتّع بقوام رشيق. بدا لطيفًا. أجلسني على كرسي وأمر لي بكوب شاي ساخن بدّد شعوري بالبرد. حدَّثني عن نفسه وعن مهمته بجمل قصيرة واضحة. لعله أراد أن يبدد خوفي فأسترسل في الحديث لأنني بدأت الكلام متعثرة، مرتبكة، فرويت له عندئذ كلّ شيء بالتفصيل. كان يستمع إليّ جيدًا، ثم قرّر في لحظة ما أن نكمل حديثنا في المكتب ليدوِّن بعض ما أقوله.

في المكتب قال لي بعد أن سألني كل الأسئلة المعتادة عن حياتي الشخصية وعائلتي وتاريخي وطموحاتي.

- هل أنت سودانية في الأصل أم إرترية؟

طوال الوقت الذي قضيته في معسكرات الحرب لاحظت أن هذا الخلط بين من هو سوداني أو إرتري على طول وادي العقيق حاضر بشكل ما، سواء كان متعمَّدًا أو بريئًا. وذلك لأنه لا يمكن التمييز بين أبناء القبائل التي تعيش على ضفتي الحدود بين البلدين، ولا يمكن معرفة انتماء أي منهم على وجه الدقة بملامحه المجرّدة فقط، من دون أن يتبع ذلك سؤال مباشر عن الموطن الأصلي. الإرتريون والسودانيون على السواء كانوا يعاملونني على مبدأ الشك في هويتي. كنت أستغرب السؤال في البداية، لكن مع الوقت اعتدت عليه ولم يعد يستفزني، لكن لأن مَنْ يسألني سوداني، ويعتبر نفسه ممثلًا للحكومة السودانية، شعرت بالضيق، فقلت بنبرة واضحة غاضبة:

- أنا سودانية، وأبي كذلك وجميع أسلافي.

ابتسم في وجهي، ثم قال محاولًا تبرير السؤال:

- إنه سؤال روتيني نطرحه على الجميع.

- هنا فقط أم في السودان كلّه؟

لاذ بالصمت، وظهر عليه بعض الارتباك. اعتدل في جلسته ثم قال كأنما يعتذر:

- أنت فتاة جيّدة ومن أسرة طيبة، هذا ما تقوله التقارير عنك.

- حسنًا، ما المطلوب مني إذًا؟

- وجودك بين أهلك وناسك يفيدنا أكثر من وجودك هنا بيننا، لذلك سأجتهد في تسريع خروجك مع التوصية بمساعدتك في المكان الذي تذهبين إليه. لقد تعبتِ بما يكفي وآن لك أن ترتاحي، وأرجو أن تسامحينا.

لو أنه قال هذا منذ البداية لربما صدَّقته، لكنه الآن بدا كما لو أنه يحاول استرضائي. شكرته على كل حال، وانتهزت الفرصة لأسأل عن مصير أبي.

- لقد كان أحد رجالكم المخلصين، ولا يبدو من اللائق تجاهل مصيره بهذا الشكل.

هز رأسه، وظهر على وجهه شيء من الضيق. قال بهدوء إن جميع المعارك في وادي العقيق انتهت، وتمكّن الجيش من استعادة جميع أراضيه من قوات التحالف المدعومة من إرتريا، وأن ذلك سيساعدهم حتمًا في العثور على أخبار تتعلّق بأبي، إنها مسألة وقت فقط.

(35)

بعد أشهر طويلة من زواجهما تذكّرا كيف بدأت علاقتهما وكيف نمت، وضحكا. قال لها:

- كنت أقول لنفسي دائمًا: هذه العربية المسلمة، ذات العيون القوزاقية، ما الذي يجعلها تفكّر في الارتباط بإفريقي خالص مثلي، ومسيحي في الوقت نفسه؟ إذا كانت هي قرّرت كسر القاعدة فماذا عني؟

- وبم كنت تجيب؟

- لم أكن آخذك على محمل الجد. كنت أقول: لا بد أنها مجنونة!

- ثم؟

- ثم وجدتك مجنونة فعلًا.

- وأنت؟

- مجنون آخر،ساير امرأةً نزقة!

رمت الوسادة على وجهه. أعادها إليها، وتعاركا على السرير، ثم انتهى الأمر بهما إلى ساعة حميمة.

لم يهنآ طويلًا بمثل تلك اللحظات الصافية، إذ سرعان ما انقلبت حياتهما رأسًا على عقب، وأصبحت تخصّ آخرين لم يحسبا حسابهم قط.

كان الأمر أشبه بسقوط السقف بعد تمام بنائه، وبقاء كل شيء مكشوفًا في العراء فجأة. لم يكن بوسعهما تجنّب ما حدث، أو توقّعه. لقد انهدت سماؤهما الوردية على رأسيهما، وراحت الأرض تتحرّك من تحتهما، حركة عنيفة.

كان السبب طبيبة أشعة، اكتشفَت بالمصادفة المحضة، ومن اسم

عرفة المدوَّن على ملفها الطبي أنها قريبة لها من جهة أمها، واكتشفت عرفة، التي تاهت سنوات تبحث عن أهلها، أن عيادة هذه الطبيبة تقع على بعد شارعين من كنيسة العذراء. شارعان وتسع سنوات من التيه، كانت تفصلها عن المأساة التي بلغت أخبارها أقاصي الدنيا في أيام قليلة. نظرت إلى اسم عرفة مليًا، ثم رفعت رأسها لتنظر إلى وجهها، وبطنها المنتفخة وأخيرًا إلى وجه موريس. خذل عرفة حدسها هذه المرة، ولم يداهمها ذلك الشعور الغامض بالتوقّع المسبق.

- هل أنت من عقيق؟

قالت الطبيبة بلهفة لم تتبين هي مغزاها، فأومأت برأسها موافقة من دون كلام.

- هل أنت حياة ابنة خالي عثمان صابراي، أم إنه مجرّد تطابق في الأسماء؟

سألتها، بينما وقفت عرفة متبلّدة، لا تعرف بم تجيب. تؤكد أم تنفي. حتى قذفت الطبيبة المفاجأة في وجهها.

- خالي عثمان موجود معنا بالبيت يا حياة. لقد عاد منذ شهور قليلة مع الأسرى الذين أطلقهم جون قرنق، ولم يتوقّف عن السؤال عنك رغم مرضِهِ وضعفه. أبوك عاد إلى الحياة بعد أن فقدنا الأمل في عودته، وها أنت تعودين كذلك، أي معجزة هذه؟

كانت فاغرة فمها، وتنظر إلى فم الطبيبة الذي يثرثر من دون أن تكون قادرة على فعل أي شيء، حتى عيناها لم ترمشا البتة. إنها ابنة عمتها بركة، وقد قالت لها إنه يمكنها أن تأخذها حالًا إلى البيت، لأن هذا سيبهج أباها وعمّتها.

كان وقع الصدمة كبيرًا على عرفة. تهالكت على أقرب مقعد وراحت تبكي.

***

في أكثر أوقاتها حاجة إلى أهلها لم تجد أحدًا منهم، لكن عندما بدأت حياتها تستقيم من دونهم، عادوا إلى الظهور مجدّدًا! والآن، كيف يمكنها أن ترضيهم من دون أن تفسد حياتها الجديدة؟ لا يمكنها بالطبع أن تهدم كل ما بنته خلال السنوات الماضية وتعود إليهم ابنتهم عرفة، أو حياة، التي يتخيّلونها لمجرد أنهم رغبوا في ذلك! لقد صارت لها حياة أخرى، وماضٍ لا يعرفونه، وحاضرٍ لن يتقبّلوه. لا يمكنها على كل حال محو كل ما مرّ بها، ولا حتى الإفصاح عنه، فمن يعصمها ويعصم زوجها منهم؟

لكن هل يعني كل هذا أن تتجاهلهم؟ ولا تذهب لترى والدها الذي طالما كانت مهمومة بمعرفة مصيره؟ أو ترى عمتها التي كان اللقاء بها سبب مجيئها إلى هذه المدينة من دون غيرها؟

أصرّت على موريس أن يكون برفقتها في زيارتهم، وكان يرفض بلطف لكي لا يجرح مشاعرها، لكنه في النهاية لم يجد بدًا من الإفصاح عما يهجس في نفسه.

- أخشى ألّا يقبلوني يا عرفة، وأن يتسبّب ذلك في شرخ ومشكلة مع أبيك منذ اليوم الأول.

- كل هذا محتمَل يا موريس، لكنك زوجي باختياري ويجب أن يعرفوا ذلك ويتقبّلوه.

ربّت على كتفها وهو يجلس إلى جانبهاعلى الفطور. فقال:

- لا يمكنني، هل نسيت أن نتائج القبول إلى الجامعات تصل اليوم؟ لا يمكنني التخلّف عن المدرسة في يوم كهذا.

غمس قطعة بسكويت طويلة في كوب الشاي وتركها لبعض الوقت ثم رفعها نحو فمه فسقطت على الطاولة.

- هذا نذير شؤم. الطعام الذي يسقط في الطريق إلى الفم غير محمود. هكذا كانت تقول أمي.

غمس قطعة أخرى والتهمها، ثم قال:

- ماذا تتوقّعين أن يقول لك أبوك؟
- لا أعرف، أنا مشتاقة إليه وحسب.
ضحك.
- أعرف، لكنني لم أقصد هذا.

لم تردّ. وصمت هو. أكمل شرب الشاي ثم بدّل ملابسه وانطلق إلى المدرسة وبقيت وحدها. مهما تكن النتائج، فقد كانت مشتاقة لرؤية أبيها بعد هذه السنوات الطويلة التي أمضتها وحيدة، من دون أب أو عائلة. لبست عباءة سوداء فضفاضة لكي تخفي حملها ما استطاعت، وانتظرت ابنة عمتها الدكتورة هناء حيث اتفقتا على اللقاء.

عندما وصلت ابنة عمتها صعدت إلى جوارها وانطلقتا. كانت المدينة تطفو فوق طبقات من الرطوبة الكثيفة الخانقة، في ذلك الصباح من صباحات أيلول/ سبتمبر الحارة. تحرّك الهواء قليلًا مع حركة السيارة، وبالكاد استطاعت عرفة سحب الهواء إلى رئتيها. انتبهت لوجوم الدكتورة هناء وشرودها منذ الدقائق الأولى. لم تتبادلا سوى كلمات قليلة حتى وصلتا إلى منزل عمتها في الطرف الجنوبي للمدينة.

منزل مؤلف من طابقين، وتتدلّى من حوائطه الخارجية زهرات جهنمية حمراء، وأغصان شجرة برازيل عملاقة، وتتزيّن شرفتاه المطلتان على الشارع بأفاريز من الخشب وأصص مليئة بورد أبيض وأحمر وبنفسجي. دخلتا من الجهة المخصّصة للرجال. انقبض قلب عرفة من حالة السكون التي وجدت عليها البيت... راح قلبها يخفق خفقات متسارعة، تسمعها داخل أذنيها، وتحسّها في كل مكان في جسدها المتعرّق المرتعش. عبرتا فناءً صغيرًا ثم فتحت الدكتورة هناء باب الصالون الكبير، فإذا برائحة الرجال تستقبلهما مثل فأل سيئ. كان الصالون ممتلئًا عن آخره برجال متجهّمين لا تعرف عرفة أحدًا منهم.

مسحت المكان بنظرة سريعة متلهّفة. رأت أباها في آخر الصالون،

جالسًا على سرير صغير مثل صورة قديمة، باهتة. اندفعت نحوه، وارتمت على صدره. دفنت أنفها في جسده، وراحت تعبّ من رائحته التي حرمها الزمن منها طويلًا. بدت لها، كما هي في خيالها أبدًا، مزيجًا من رائحة العرق والحليب، بينما راحت يده تمسح على رأسها وظهرها وهي تنشج على حجره. رفعت رأسها وأمسكت وجهه بين يديها. كان متوترًا، محتقنًا، ويكاد يبكي. عيناه ذاهلتان تنظران إلى الفراغ. رأت اعوجاجًا في فكه الأسفل، وخمولًا في يده اليسرى الملقاة على حجره. أمسكتها بين يديها، وشعرت بها باردة.

- يا إلهي، ماذا جرى يا أبي خلال كل هذه السنوات؟

حاول أن يقول شيئًا، لكنه عجز عن تحريك فمه، واختنق صوته، وسعل. طفر الدمع من عينيه المحتقنتين، وسال غزيرًا على خدَّيه ولحيته. مسحت دمعه بكفّها وقبّلته. كان الجميع صامتًا ينظر إليهما كما ينظر الجمهور إلى نهاية فيلم تراجيدي. دخلت إلى الصالون امرأة طويلة، ممتلئة قليلًا وتتوكأ على عصا طبية معدنية، وكاحلاها متورّمان. أخذتها في حضنها لبعض الوقت وهمست في أذنها:

- كنت أسأل الله في كل صلاة من أجل أن أراكما قبل أن أموت، وقد استجاب الله أخيرًا.

كانت عمّتها بركة. عندما جلست إلى جوار أبيها، بان لها الشبه الكبير، لكن وجهها الخمريّ الذي عامله الزمن بكثير من الرفق، يفيض بطمأنينة نادرة. أخبرتها باقتضاب أن أباها تعرض إلى سلسلة طويلة من المآسي لا يمكن سردها في جلسة واحدة أو جلستين. لقد ذاق صنوفًا من التعذيب والسجن والحرمان والسخرة، لكنه نجا في النهاية وعاش. أشارت إلى رجل أسود نحيل، يجلس نصف جلسة على كرسي في زاوية الصالون.

- هذا محمود، رفيقه في رحلة الآلام الطويلة، وسيخبرك لاحقًا بكل شيء. سيأتي الطعام بعد قليل، ثم نتحدّث.

اتّكأت على عصاها وقامت، ثم غادرت على مهل مثلما جاءت. نظرت إلى الرجل الذي أشارت إليه عمّتها. رأس أصلع كبير، وذقن مدببة وعينان جاحظتان. خطر لها أنها رأته من قبل. هو كذلك نظر إليها من جانب وجهه ثم ابتسم ملء فمه، وتذكّرته أول ما رأت السن الذهبية التي تلمع مكان أحد قواطعه. إنه والد الطفل الذي سيق مع أبيها في تلك الليلة إلى المجهول.

تناولت الطعام جالسة بينه وبين أبيها، وكان يحدّثها في أثناء ذلك عن الرحلة الطويلة التي انتهت بهم إلى معسكر قريب من مدينة نيمولي في أقصى جنوب السودان، مرورًا بمعسكرات وادي العقيق وأخرى في إرتريا وأثيوبيا، بينما كانت عرفة منشغلة طوال الوقت بإطعام أبيها وتأمّل حركاته وسكناته. لم يكن فاقدًا للنطق تمامًا. كان يتحدّث، لكن بصعوبة بالغة، بصوت مبحوح بيد أنه مفهوم. قال لها، إنه كان يراها أثناء نومه، وفي اللحظات التي تسبق غيابه عن الوعي أثناء التعذيب. كان يتمنّى الحياة من أجلها فقط. كان أثناء الطعام يتأمّلها، ويمسح بيده المرتعشة على رأسها وخدها. وعندما مسحت دمعة على خده، قال لها بصوت مبحوح.

– سامحيني يا ابنتي، لقد كنت قاسيًا معك ومع أمك رحمها الله. لم أطلب الحياة إلا من أجل هذه اللحظة، لأقول لك هذه الكلمات وأعتذر منك. سامحيني يا ابنتي، لم أكن أبًا كما ينبغي.

وانهمر الدمع من عينيه، واختنق صوته. رأت الضعف يسيل على وجهه، وبدا لها أن أمورًا كثيرة قد تغيّرت في أبيها خلال تلك السنوات. هي أيضًا تغيرت فيها أمور كثيرة لكنها لم تقل شيئًا. قبّلته على رأسه وجبينه وبكت معه.

– بل أنا من يحتاج إلى الاعتذار منك يا أبتِ لألف سبب وسبب، لكن ليس هذا وقته. أرجو أن أراك تقف على رجليك مرة أخرى.

قضت النهار كلّه مع أبيها وعمتها وبعض أولادها وابنتها الوحيدة الدكتورة هناء، وكذلك مع أقارب أبيها الكثيرين الذين تعرّفت إليهم خلال تلك الساعات. لم تقل لهم كل شيء رغم أسئلتهم الكثيرة واهتمامهم بالتفاصيل، لكنه كان يومًا بهيجًا على العموم، لولا أن عمتها جاءت على ذكر زواجها في نهاية اليوم.

- كنّا نأمل أن نرى زوجك ونتعرف إليه، لمَ لمْ يأت معك؟

كان في صوتها رنّة خبث، بيد أن عرفة تجاهلتها.

- سيأتي في المرة المقبلة يا عمتي، كانت لديه ارتباطات اليوم.

وهمس لها أبوها وهي تودّعه.

- هل يمكن أن تعودي إليّ في الغد؟ أود الحديث إليك على انفراد.

- سأعود بعد غد. سأعود الخميس يا أبتِ.

- فليكن، ولتضعي في حسبانك قضاء ليلة أو ليلتين معنا.

(36)

في صباح مشمس من صباحات مارس. جمعونا في ساحة المعسكر ليبلغونا بقرار إطلاق سراحنا. على طريقة العسكريين قالوا: «لقد صدر أمر التحرك». سلموا نسخةً منه لضابطين صعدا في مقدمة ناقلتي جند كبيرتين كانتا تربضان في الجوار.

انهمك الأسرى في ترتيب أغراضهم القليلة، وفي التسابق للصعود إلى ظهر الناقلتين. ضجيج رفيقاتي السبع اللائي بقين معي بعد ترحيل الأسيرات الإرتريات كان لافتًا. كن ست سيدات رائعات في الحقيقة، ثلاث أرامل واثنتان تفرق شمل أسرتيهما بسبب الحرب، وواحدة هرب منها زوجها وترك لها طفلين، ولدًا وبنتًا. ظلّا برفقتها في الأسر. كان الجنود الحكوميون السودانيون يتعجّبون من بقائهنّ في أسر الإرتريين، وكنت أتعجب فوق ذلك من بقائنا كلنا لدى جيش بلدنا كل هذا الوقت. على كل حال، المأساة في طريقها إلى التلاشي ولا جدوى من تقليبها على النار مجدّدًا.

رحت أتأمل ما حولي لبعض الوقت، وطافت بخاطري الأعوام الثلاثة التي قضيتها أسيرة. كم هو قاسٍ أن يكون الإنسان أسيرًا في حرب لا تخصّه، إنها حالة ميلودرامية مثالية، ومثيرة للتأمل، في ما تجرفه الحروب في طريقها، وما تحدثه من بلايا لا يمكن تخيلها، أو تصديقها. بالأمس القريب، قال لي الضابط السوداني الوسيم أثناء التحقيق، مبررًا ما تعرّضنا له.

- إن الجندي المحارب لن يخشى جنديًا مثله على الطرف الآخر،

لأن كليهما يعرفان ما ينبغي عليهما فعله عندما يلتقيان، وحتى إذا أسرَ أحدهما الآخر فإن لديهما عهدًا غير مكتوب يعرفانه ويحترمانه في أغلب الأحيان. لكن كليهما يتفقان على الخوف من وجود أمثالكم في ساحة الحرب!

شعرت بالإهانة، وعبّرت عن امتعاضي بنظرة يبدو أنه فهمها، فتابع كأنما يعتذر:

- ليست كراهية للمدنيين كما يمكن أن يخطر لك، لكن لأنكم تحقنون الحرب بالشك والتردّد. والحرب يقين وإقدام قبل كل شيء.

- وهل هذا ما يبرر كل العذاب الذي نتعرّض له؟!

- أرجو الا تغضبي منّي مجدّدًا. هذا النوع من الأسرى ينبغي أن يبقى بين أيدينا وتحت أنظارنا إلى أن يتبدّد ذلك الشك، مهما بدا ضئيلًا.

أي لن تطلقوا سراحنا حتى انتهاء حروبكم. كنت أود أن أقول له هذا... هؤلاء العسكريون أمرهم غريب، مرة يقول لي مجنون منهم، إنني ينبغي أن أفخر لكوني أسيرة حرب، لأن ذلك شرف لا يتوفّر لأحد من الناس حتى لو سعى في طلبه، ثم يأتي آخر ليجعل مني مصدرًا للخوف والشك.

صعدت مع الصاعدين إلى الشاحنة المكشوفة. جلست إلى جوار الأم الأسيرة وطفليها في مؤخرة الشاحنة. كانت طفلتها تروح وتجيء بين المقاعد الطويلة المتقابلة والمصبوغة باللون الأخضر وتمازح الجميع. مددت إليها يدي مصافحة. ابتسمتْ لبرهة ثم دفعت يدي بظهر كفّها.

كانت شاحنتنا في المقدّمة، تتبعها الشاحنة الأخرى التي عليها الرجال الأسرى، وتسير في الأمام والخلف شاحنتان عسكريتان صغيرتان في كل منهما أربعة جنود ومدفع رشاش من أجل الحراسة.

تجنّب الموكب السير خلال مدينة عيتربة التي تجاوِر المعسكر.

انعطف إلى اليسار بعد خروجه من البوابة المتهدّمة بسبب القصف ثم اتجه شمالًا بمحاذاة سور المعسكر المتاخم للمدينة، ولاحت في البعيد مئذنة المسجد العتيق، تسابق قافلتنا فوق أسقف البيوت في الأفق المقابل. كنا نتّجه شمالًا، لكن لا نعرف إلى أين. نظرت إلى الأم الأسيرة وإلى طفليها في حضنها. تذكّرت الأم الحزينة وبكيت.

***

قُبيل مغيب الشمس، وصلنا تخوم مدينة مَرافيت متعَبات وجائعات. توقّفت القافلة في سوق بدائية تعج بالفوضى، ويبدو أنها أقيمت على عجل مع ازدياد أعداد الجنود العائدين من المعارك والنازحين الفارّين منها، وجرحى الألغام التي كانت تنفجر بالعابرين بطول وادي العقيق.

توقّفت الناقلتان أمام سقيفة كبيرة من الأخشاب والخيش مكتظّة بجنود منهكين، بعضهم جرحى والبعض الآخر أطرافه ملفوفة بأربطة ويمشي متّكئًا على عصا أو على كتف أحدهم، وبعضهم نائم فوق أبسطة ممدّدة على أرضية السقيفة وسلاحه ملقى إلى جواره. يبدو على أجسادهم جميعًا رهق ألف عام.

نزلنا وسط هذه الفوضى. أفسحوا لنا مكانًا فوق الأبسطة المهترئة المتناثرة. رأيت من مكاني، عبر مدخل السقيفة، سقائف أخرى كثيرة، تتوزّع في المكان كيفما اتفق. شاحنات وحافلات وعربات تجرّها الحمير تملأ الفراغات بين السقائف الكثيرة المتناثرة.

دوَّنوا أسماءنا ووجهاتنا وعناوين الأشخاص الذين يمكن التواصل معهم في حال احتاجوا إلينا مجدّدًا. أعطيتهم اسم عمتي بركة، واخترعت لها عنوانًا وهميًا. كانوا متساهلين بشأن التدقيق في المعلومات التي أخذوها من الجميع. قدّرت أنه مجرد إجراء شكلي لا يترتب عليه شيء. وزّع علينا الجنود بعض السندويتشات وقوارير الماء ثم منحوا كل واحدة منا حزمة دنانير، وتلك كانت عملة بلادنا في ذلك الوقت.

كان أمرًا مضحكًا، ضمن أمور كثيرة نهضت بها الحكومة الإسلامية التي يؤيّدها أبي، وارتدّت ببلادنا أكثر من ألف سنة إلى الوراء، معانِدة الوقائع وحقائق الجغرافيا والتاريخ، لكن تلك قصّة أخرى أدركتها بعد سنوات طويلة.

مع أول خطوة خطوتها خارج السقيفة شعرت وكأن دمًا جديدًا تدفق في خلايا جسدي. ارتبكت خطواتي المتعجّلة فوق الرمل، مثل طائر محبوس لم يجرِّب التحليق منذ أمد بعيد. نظرت إلى الفضاء، وإلى السماء البعيدة. لم يكن الكون يومًا واسعًا كما أراه الآن. تأمّلت لون السماء الشفقي الحزين، لكنه في تلك اللحظة بدا لي كرنفاليًا، ليس فيه ما يبعث على الأسى. أصغيت جيّدًا إلى جلبة السوق من حولي فكأنها هي الكرنفال نفسه. كانت دقات طبوله وموسيقاه ولغطه تتناهى إلى أذني كما يتناهى هدير السيل المتدفّق إلى شقوق الأرض العطشى بعد رحلة طويلة.

قادتني خطواتي إلى مبعدة من السوق تتيح لي تأمل المشهد. اقتعدت كثيبًا من الرمل، ظهري إلى وادي العقيق وقبلتي نحو الشمال. لم أنظر إلى الخلف قط. ذاك هو، وراء الأفق، الشمال الغامض الذي ظللت أحلم بالوصول إليه، ودفعت في سبيل ذلك أثمانًا باهظة ما خطرت لي على بال. أكلت طعامي بشهية مفتوحة. كانت قطعة خبز مستديرة محشوّة بمهروس الباذنجان مع زبدة الفول السوداني. شربت قارورة الماء إلى نصفها ووضعتها جانبًا، ثم رحت أتأمّل هبوط العتمة على أفق المدينة البعيد، وعلى جلبة السوق التي راحت تخفت شيئًا فشيئًا، وإلى الفضاء المعتم، اللامتناهي الذي يمتد فوق كل شيء. أنا حرّة الآن، حرة تمامًا، بلا قيد ولا رقيب ولا تهمة ولا خوف.

تدثّر المشهد بالعتمة. تحوّلت حركة الناس حول أضواء المصابيح الواهنة إلى ما يشبه حركة الأشباح، وتحوّلت أصواتهم إلى نداءات

بعيدة. أصوات سيارات وأبواق، تزحمها أصوات الباعة وصراخ أطفال وموسيقى، ثم راحت الأصوات تخفت رويدًا رويدًا. ارتفع صوت امرأة توبّخ طفلها أو طفلتها. جاوبه صوت مذياع يبث أغنيات قديمة. تناهت إليّ موسيقى أغنية المطرب إبراهيم عوض التي تحبّها أمي:

حبيبي جنّني وغيّر حالي
حيّر فكري وشغل بالي

توقفت الأغنية في الراديو، أو حملها الهواء في اتجاه آخر لكنها اتصلت في خيالي بصوت أمي وهي تدندن بها:

قولّلي أوع تخبّي
أهواك شاهد ربي
أنا لو غلطت معاك
سامحني واغفر ذنبي.

كان شعوري مضطربًا بين الحزن والألم والوحدة، والفرح بالحرية. بكيت مرة أخرى وكلمات أمّي في أذني:

- دعوت الله كثيرًا أن تكوني ولدًا لكن ها أنت بنت جميلة، وذلك قدَر. أسأل الله أن يجعل أقدارك طيبة.

استلقيت على جنبي متوسّدة ذراعي فوق الرمل المنخول، استسلمت للنوم. استيقظت مذعورةً من منام رأيت فيه الضابط تيتو، يتجوّل وحيدًا على شط بحر مهجور. يداه خلف ظهره ورأسه مطرق إلى الأرض وكأنما يتأمّل قدميه الحافيتين وهما تغوصان في رمل الشط، وكنت مستلقية على الرمل، يداي تحت رأسي، أنظر إليه من زاوية عيني. حاولت عبثًا أن أتحرك، أن أقف على قدمي وأهرب، لكنني عجزت عن الحركة. أصبح تيتو على بعد خطوات معدودة. رحت أصرخ طالبة النجدة لكن صراخي لم يكن يغادر حلقي حتى وقف فوقي تمامًا. قدماه تحيطان برأسي. صار عملاقًا إلى حد أنني لم أعد أرى غير ساقين خرافيتين تتناهيان في نقطة

بعيدة في العتمة، ثم أطل وجهه من فوقهما... أمسك بي من الخلف، من رقبتي ثم رفعني إلى الأعلى وصرت معلّقة بين الأرض والسماء مثل صيد بين مخلب صقر. ثم ألقى بي. راح جسدي يهوي من ذلك العلو. يداي ورجلاي تطوّحان في الهواء وفمي يصرخ لكن صوتي لا يغادر حلقي أبدًا.

عندما استيقظت كانت الدنيا ساكنة، إلا من لغط هنا وهناك، وهدير سيارات وشاحنات بعيدة، تعبر في مكان ما في الصحراء. غسلت وجهي بما بقي من الماء في القارورة ثم تمدّدت على ظهري أتأمل السماء المرصعة بالنجوم مثل أضواء مدينة بعيدة، وأفكر في الغد. في الشمال الذي وراء الأفق.

(37)

قبيل مغيب الشمس، خرجت عرفة إلى حوش منزلها الكائن في حي سلالاب، غرب المدينة. كنّسته جيدًا من طبقات التراب التي تجمَّعت فيه خلال اليومين اللذين قضتهما مع أبيها. جمعت الأوراق والأكياس وأوراق الشجر التي تكوّمت في أركانه بفعل الريح التي اجتاحت المدينة نهار الأمس.

أغرقت أرضيته المرصوفة بالطوب الأحمر بالماء، وصارت لها رائحة مشبعة برائحة الطين، تغري بنسيان نهار طويل من الحرّ اللافح. طلبت من موريس أن يُخرِج سريرين إلى الحوش، وتبعته بالمروحة السوداء الكبيرة وثبّتتها في مكان مناسب، في أحد أركان الحوش، لكي يتمكنا من تناول قهوة المساء في جو معقول. نهارات أيلول/ سبتمبر كئيبة، لكن الطقس يتبدّل قليلًا مع مغيب الشمس.

كان موريس يحدّثها عن الكلية التي توقفت عن الذهاب إليها وعن احتمال خسارة سنتها الدراسية بسبب الحمل، ما يعني خسارة ما دُفع من مصاريف الدراسة، وقالت له إنها ستبحث عن وظيفة خلال ساعات المساء بعد أن تضع مولودها من أجل المساعدة.

- سيتغيّر كل شيء مع مجيء المنصب. صبَرنا طويلًا ولم يبق غير القليل!

قال بنبرة أقرب إلى اليأس منها إلى الأمل. صمت بعد ذلك صمتًا هشًّا، وسرح عنها وعن قهوته حتى بردت. وقد رفض أن تسخّنها له، ثم رشف ما بقي في فنجانه دفعة واحدة. أشعل سيجارة واستلقى على ظهره، ينفث الدخان ويتابع تصاعد خيوطه خلال موجات الرطوبة الكثيفة.

- هل تقبَّل أبوك أمر زواجك في غيابه؟
سأل بنبرة هادئة مشوبة بقلق خفيٍّ، من دون أن ينظر إليها.
- إنه يرفضه جملة.
- وعمتك؟ وبقية أهلك؟
- هم كذلك أيضًا!
- بسبب الدين أم لأسباب أخرى؟
- الأسباب كثيرة.

أخبرته بكل ما دار بينها وبين أهلها في الليلتين اللتين قضتهما معهم في بيت عمّتها بركة، من دون أن تخفي شيئًا، وكيف حاولت عمتها إغراءها بزوج من أهلها، وضعه جيد وستعيش معه حياة مريحة.

- ألم يلاحظوا أنكِ حامل؟
- بلى، وقد قالت لي عمتي إنه يمكنني أن ألد وأترك المولود لك.

ضحك موريس ساخرًا. تدرك عرفة طبيعة تفكير أهلها جيدًا في مثل هذا الارتباط العابر للقبائل والأديان. وهو ما أكّده لها سعيد ابن عمتها الذي هدّدها بالقتل أمام أبيها إن لم تتعقّل. كانت تفكّر في أن تقترح عليه ترك المدينة والتواري حتى تتبدّل الأمور.

قال بعد برهة صمت وكأنما قرأ أفكارها.

- أرجو ألا يتأخّر عليّ الرفاق.
- أرجو ذلك.

وعندما لاذ بالصمت، حملت آنية القهوة إلى المطبخ، وانشغلت بعد ذلك بغسل الأواني وتنظيف وترتيب مطبخها، وإعداد العشاء.

سمعت من مكانها طَرقًا عنيفًا على الباب، وصوت موريس وهو يطلب من الطارق التمهل ريثما يفتح له. خفق قلبها كعادته حين يحدس بخطر وشيك. غسلت يديها ولبست ثوبها وخرجت مسرعة إلى الحوش. كانوا جماعة من أهلها. سبعة رجال ترافقهم الدكتورة هناء ابنة عمتها.

جاءت بمقاعد إضافية وأجلستهم كيفما اتفق. رفضوا أن تقدّم إليهم أي شيء سوى الماء. قال أكبرهم سنًا، وكان شيخًا وقورًا بلحية بيضاء رفيعة ناصعة، تحيط بوجهٍ ناتئ العظام، يخفي عينين صغيرتين ضيقتين:

- تشرّفنا بمعرفتك يا أستاذ، وإن كنا نأمل أن نراك قبل أن يقع الفأس على الرأس، لكن للخالق حكمته في تسيير الأمور كما تعلم. على كل حال، ليس لدينا الكثير لنقوله اليوم. لقد جئنا بتفويض من الحاج عثمان صابراي والد ابنتنا حياة، أو عرفة، لنطلب منك أحد أمرين، إما اعتناقك الإسلام أو طلاقها وذهاب كل منكما في طريقه! فماذا أنت قائل؟

راح قلبها يدقّ بعنف داخل صدرها، وتتلاحق دقاته مثل عجلات قطار تنزلق على السكة، بينما كان موريس يتهيّأ للكلام:

- تشرفت بكم، وبمجيئكم إلى بيتي وإن كنت أرجوه قبل الآن، لكنّها مشيئة الرب. عندما تزوجت عرفة لم أكن أعرف لها أهلًا، لأنها هي نفسها لم تكن تعرف أين تجدهم، لكنني قبلت بها زوجة وقبلت بي زوجًا وتعاهدنا أن نكمل طريقنا معًا. أبشّركم أننا ننتظر مولودنا الأول خلال أسابيع قليلة، وهي مناسبة سعيدة لتذكيركم بأن الذي بيننا الآن لحم ودم.

كان صوته هادئًا وقاطعًا، بينما راح الرجال السبعة يتململون في جلستهم. بقيت الدكتورة هناء الجالسة إلى جوار عرفة هادئة ومطرقة إلى الأرض، وأنفاسها مسموعة. قال الشيخ:

- كان ذلك خطأ منذ البداية، فنحن على ملّة وأنت على ملة أخرى، ولو كنتَ على دينها ما غصبناك على تطليقها!

- وماذا عنها؟ ألا تسألونها رأيها؟

تنحنح رجل آخر، أسود ممتلئ، له أنف كبير يغطي نصف وجهه، كان يجلس قبالة الشيخ:

- لم نأت لكي نسألها، فذلك أمر تولاه أبوها معها من قبل. إننا هنا

من أجل تسوية الأمر معك أيها الأستاذ، فأنت الرجل، وبيدك أن تحسمه بكلمة.

- لن أغير ملّتي ولن أطلّق.

قال موريس ببرود زاد من غيظ الشيخ. فهب واقفًا، ووقف الجميع على أثره.

- لا نعرف لك أهلًا وإلا لذهبنا إليهم وجلسنا معهم كما نفعل مع «أولاد القبائل»، لذلك سنطلقها عن طريق المحكمة، والقانون بيننا وبينك!

توتر وجه موريس، ورأت عرفة كفّه ترتعش وهو يشير إلى جهة الباب.

- لولا أنكم أهل زوجتي، وضيوف في بيتي، لسمعتم مني ردًّا يناسب تحقيركم لنا. أشكركم على الزيارة وليسامحكم الرب!

لم يستغرق الأمر كلّه سوى دقائق معدودات، مرّت كأنها دهر. انصرَفوا بعدها، تتبعهم الدكتورة هناء التي خرجت صامتة ورأسها إلى الأرض. أوصلتهم عرَفة إلى الباب ثم عادت. وجدت موريس مطأطئًا برأسه بين كفَّيه، يغمغم بكلام غير مفهوم.

- لا عليك يا حبيبي. كانوا يحاولون استفزازك حتى تعطيهم ما يريدون.

جلست إلى جواره، وراحت تمسح على رأسه وتسترضيه، حتى رفع رأسه ببطء ووضع ذقنه فوق كفيه.

- لا شيء يفصلني عنك يا حبيبي، ولو اجتمعت الدنيا كلّها!

قالت له وطبعت قبلة على خده. نظر إليها نظرة ودودة. وقال بأسى:

- لأول مرة أحسّ بأنني من جنسٍ وضيعٍ وكافرٍ! أهلك متعجرفون.

فضحكت، لكنها قطعت ضحكتها حين رأت وجهه ينكمش. نظر إليها بعينين ضيقتين ثم افتر فمه وضحك هو أيضًا، ضحكة قصيرة هشّة. أتبعتها هي بأخرى متقطّعة، ثم اتصل الضحك بينهما، عفويًا متناغمًا، وكأنهما يطردان إحساسهما بالقهر وقلة الحيلة.

- ما هذه الرائحة؟

قال موريس في غمرة الضحك، وصرخت:

- نسيت الحليب على النار.

اقترحت عليه في الليلة نفسها أن يتركا مدينة بورتسودان، ويبحثا عن مأوى آخر، في أي مدينة أخرى ريثما يتحقّق وعد رفاقه. تدرك عرفة أن أهلها سيحشدون قبائل بأكملها من أجل تحقيق ما عجزوا عنه الليلة. طلب منها مجددًا أن تتريث.

نام موريس، وراحت تتقلب إلى جواره من فرط إحساسها بالخوف مما قد يحمله الغد، ومن حركة الجنين التي لا تهدأ. ما إن يشعر بأن دقات قلبها عادت إلى حالتها الطبيعية، وأنفاسها هدأت حتى يبدأ الركل من جديد، فيعود الخوف. بقيا على تلك الحال حتى سمعت أذان الفجر يصدح من المآذن. ذكرها ذلك بمريم التي ألقتها عند باب المسجد، في غسق كهذا ثم هربت. كم يكون عمرها الآن؟ وحسبته في ذهنها، ستة أعوام تقريبًا. يا إلهي! لا بد أنها بنت جميلة وذكية، ولها ضفيرتان طويلتان تحلّقان مثل جناحين حين تجري وتلعب. قالت لنفسها، ثم راحت تسترسل في خواطر تخفّف عنها. لا بد أن العائلة التي انتقلت إليها عائلة ميسورة وتهتم بها، وترسلها إلى المدرسة، وتشتري لها الملابس الجميلة والحلوى واللعب، وتأخذها في المساء إلى شاطئ البحر، ولا بد أنها ذكية مثل أمها، وتحقّق علامات جيدة في اختباراتها المدرسية. ما هو اسمها الآن يا ترى؟ لعلّها الآن تغط في نوم عميق داخل أغطيتها الحرير، في غرفة وردية جميلة مكيفة الهواء، ومليئة بالرسوم. شعرت بغبطة عابرة. تراخى جفناها على وقع الذكرى الحميمة ودخلت في ما يشبه الوسن، لكن الجنين ركلها من جديد، ركلة قوية أفزعتها فاستوت جالسة.

خطر لها فجأة أنها ربما ماتت، لأنها لم تجد من يرضعها أو يقدم

لها الحليب، أو أصابتها حمى وفارقت الحياة. أو لعلها مشرّدة تنام في الشوارع، مثل الكلاب الضالة، ومثل أطفال كثيرين هربوا من ملاجئ الأيتام أو من بيوتهم بسبب قسوة أهاليهم. خطر لها أخيرًا أن المرأة التي تبنّتها أساءت معاملتها فخرجت تهيم على وجهها في الشوارع. شعرت بالحزن. راحت تكلّم الذي في بطنها.

- لا بد أن تبحث عن أختك حين تكبر يا بني، وتعتذر منها بالإنابة عن أمها القاسية، وعن المرأة التافهة التي نغّصت عليها حياتها، والناس الذين كانوا سببًا في مجيئها وشقائها، والحرب... الحرب التي أنجبتها ورمت بها وبأمها في ظروف لا ترحم، هل تسمعني يا بني؟ لا بد أن تبحث عنها وتجدها...

استيقظ موريس على صوتها.

- هل كنت تكلمينني؟

- لا يا حبيبي، كنت أصلّي من أجلنا!

مكتبة
t.me/t_pdf

(38)

استيقظتُ مع طلوع الشمس. أدرت بصري في المكان. دائرة واسعة من الجنود تحرسه، بأسلحتهم ولباسهم الصحراوي الذي بلون الرمل. شعرتُ بانقباض في صدري لرؤيتهم، وكأن ثمة خطرًا من وجودهم في هذا المكان.

بدأ السوق ضجيجه الصباحي. منحَته روائح الخبز والقهوة والحليب وأصوات تحريك الملاعق في أكواب الشاي حيوية أغرتني بتناول كوب من الحليب الساخن مع الزلابية المقلية من إحدى بائعات الشاي. جلست عند أول واحدة منهن، كانت امرأة سوداء نحيلة، لها وجه طويل رائق الملامح يبعث على الشعور بالاطمئنان، تزحم وجهها النحيل عينان بيضاوان صافيتان وفم صغير مطبق تعلوه ابتسامة هادئة. جاءتني بالحليب، ساخنًا، تفوح منه رائحة طفل رضيع. رحت أرشف منه وأقضم من الزلابية المقرمشة على مهل، بينما كانت عيناي تتأمّلان المشاهد من حولي حتى أتيت على كل شيء. ما ألذ طعام الحرّية.

قمت بعد ذلك باحثة عن مقعد في أي حافلة متّجهة نحو الشمال. طفت حول الكثير من الحافلات التي كانت مصطفّة بطول السوق، في انتظار لحظة الانطلاق. جميع الحافلات امتلأت بالمسافرين. رأيت الأم الأسيرة وطفليها من خلال نافذة إحدى الحافلات. كانت مشغولة بإطعام الولد بينما كانت الطفلة تتطلّع من خلال النافذة. رأتني وابتسمت، ثم لوَّحت لي.

انطلق موكب الحافلات على أثر صافرة طويلة من أحد الضباط. لم

أجد مقعدًا. اضطررت في النهاية إلى الصعود على ظهر شاحنة صغيرة مكشوفة، من نوع تويوتا، يقودها رشيدي مع رهط آخر من النساء مقابل نصف ما أملك من نقود حتى مدينة بورتسودان. تشاءمت من صحبة الرشيدي ومن شاحنته الكالحة، لكن لم يبق في السوق غيرها. تقرفصت على أرضيتها مع رفيقاتي الجديدات.

انطلق الرشيدي لا يلوي على شيء، مفارقًا مسار قافلة الحافلات التي سبقته في الطريق إلى طوكر. متّخذًا أغلب الوقت مسارًا جانبيًا، محاذيًا للطريق الرملي المليء بالمطبات، ومخلّفًا غبارًا عظيمًا كأنه نقع جيش عرمرم. كانت شاحنته الصغيرة تقفز عاليًا ثم تحط، ونحن نتأرجح على ظهرها ونخبط بعضنا بعضًا. سار على هذا النحو الأخرق لما يقرب من ساعة، ثم انعطف فجأة ناحية اليمين باتجاه غابة شوكية تقوم على كتف الطريق، ثم خرج إلى فلاة فسيحة بعد مسير ساعة أخرى. سمعت إحداهن تقول إن السائق فارق الطريق المعروفة وهو الآن يتجه إلى الشرق تمامًا. أيّدَتها في ذلك امرأة أخرى. لم أكلف نفسي عناء فحص الطريق. كانت الشمس الصاعدة إلى السماء تخبر عن وجهة الشاحنة بدقة.

- هذه هي المرة الثالثة التي نقابل فيها البحر!

قالت السيدة بعد أن وقفت فوق ظهر الشاحنة وأمسكت بكلتا يديها الحاجز الذي يفصل ظهر الشاحنة المكشوف عن قمرتها الأمامية.

- وهذه هي المرة الثانية التي تلوح فيها شجرة الدوم المنتصبة فوق صخرة.

قالت أخرى وهي تشرئب بعنقها ثم تستدير لتخبرنا بما رأت. أزاحت الثوب عن وجهها فانحسر عن أنف عريض يعلوه زمام كبير من الذهب.

- سرنا قليلًا بمحاذاة البحر في المرة الأولى لكننا في المرتين التاليتين كانت تلوح لنا زرقته الداكنة مثل جبل بعيد.

يئس السائق أخيرًا وتوقف. نزل من شاحنته ثم سار نحو عشرين خطوة في كل اتجاه وعاد ساخطًا.

- يكاد وقودنا ينفد، والله لو كنت أحمل على ظهرها أغنامًا لما لازمني هذا النحس!

- النحس كلّه في وجهك الذي كوجه التيس!

قالت امرأة. نظر إلينا نظرة حانقة. صعد إلى مقعده وأغلق بابه غاضبًا ثم انطلق مجدّدًا في الاتجاه المعاكس للشمس. بعد نصف ساعة من المسير المضني فوق الحصى والرمال، وجدنا أنفسنا داخل غابة مسكيت متشابكة. كانت الشاحنة بالكاد تجد طريقها بين الأشجار. تسير قليلًا فتجد الطريق مسدودة في نهايتها وتعود لتحاول مرة أخرى فتقع في فخ جديد، إلى أن ضربت سيدة على سقف الكابينة فتوقّف.

- دعنا نستريح قليلًا، نريد أن نأكل ونشرب ونذهب إلى الخلاء ونصلي، ألا تصلي أنت؟

أمضينا قيلولة طويلة بين الأشجار. أكلنا مما توفّر من زاد قليل مع السيدة ذات الزمام وفتاتين كنّ برفقتها. تشاركنا الطعام والماء الشحيح، ودخلنا بعد ذلك في لغط نسوي. كانت السيدة أم الزمام، وقد عرَّفت نفسها بأم محمد من بورتسودان، وتكبّدت عناء رحلة طويلة لترى شقيقتها المريضة في مدينة عدوبنا إلى الجنوب من مدينتي عقيق، لكن الجيش المرابط في مرافيت منعها من التقدّم جنوبًا بسبب الألغام. ظلّت تروح وتجيء بين طوكر ومرافيت لما يقرب من أربعة أشهر، حتى علمت من بعض النازحين القادمين بموت شقيقتها، فأرسلت في طلب ابنتَيّ شقيقتها لتتكفّل برعايتهما.

كانت البنتان في مقتبل العمر، طيبتين وهادئتين رغم ملامحهما الحادة. ذكّرتاني بآمنة وأمينة اللتين أضعتهما. أخذنا قسطًا طويلًا من الراحة على وقع أحاديث الحرب التي لا تنتهي، فالرجال يحاربون

والنساء يعشن على مآسيها ووقع حكاياتها المؤلمة. أما السائق فأنفق معظم الوقت في تفقد أجزاء الشاحنة والبحث بين الأشجار عن طريق تقودنا إلى الخروج من الغابة حتى وجدها أخيرًا وانطلقنا.

كانت طريقًا ضيّقةً بين الأشجار وعليها آثار قديمة لعجلات شاحنات عبرت فوقها في وقت من الأوقات، تبعنا الأثر حتى لاحت لنا من بعيد خيمتان على جانبيّ الطريق، وبينهما حاجز من البراميل والإطارات. توقّفت الشاحنة عند الحاجز، وخرج علينا جنديان يحملان سلاحَيْهما على أكتافهما، ووقف ثالث قرب باب الخيمة يتأمّل المشهد. اقترب أحد الجنديَّيْن من السائق، بينما دار الثاني حول الشاحنة دورة كاملة، برك على ركبتيه ونظر أسفلها. قام ونظر في وجوهنا مليًا وإلى داخل الشاحنة، ثم انضمّ إلى رفيقه ذي الطاقية الخضراء المنسوجة من الصوف، والمسبحة المتدلية على عنقه. قال صاحب الطاقية الخضراء موجّهًا حديثه إلى السائق:

- من أين قدومكم وإلى أين؟

- من مَرافيتْ، في طريقنا إلى طوكر.

- مَرافيتْ في هذا الاتجاه (وأشار بيده ناحية الجنوب) وأنتم قادمون من طريق البحر، من الشرق!

- تخلّفنا عن قافلة كنّا نسير خلفها فضللنا الطريق.

لم يبدُ على وجه الجندي أي تعبير ذي مغزى. التفت ناحيتنا وسأل:

- ومن هؤلاء؟

- لا أعرفهنّ.

قال السائق على الفور، ثم تابع:

- الضابط المسؤول عن موقف الشاحنات في مَرافيتْ أمر السيارات الموجودة جميعها أن تحمل ما استطاعت من النازحين وتنقلهم إلى طوكر.

نقل الجندي بصره من السائق إلينا. توجّه نحونا نحن الفتيات يسألنا

عن هوياتنا. لم يصدر عنا أي رد فعل سوى أننا نظرنا إلى بعضنا ثم لذنا بالصمت. كرر سؤاله مرة أخرى، بلهجة أكثر صرامة فلم يتغير شيء.

- أنتن إرتريات؟ أليس كذلك؟

- بل سودانيات.

قالت الفتاة القمحية ذات العينين الواسعتين التي تجلس إلى جواري بحزم أعجبني. نظر إليها الجندي مليًا ونظر إلينا كذلك نظرة لا تخلو من احتقار.

- إنزلي.

قال مخاطبًا الفتاة بلهجة آمرة وهو يدور حول الشاحنة.

- ننزل جميعًا أو نذهب جميعًا.

قالت أم محمد. فلاذ الجندي بالصمت بينما كان يكمل دورته الثانية حول الشاحنة.

- فلينزل الجميع إذًا.

اقتادنا إلى ظل شجرة قريبة. اتجه مباشرة إلى حيث جلست أم محمد وسألها عن هويتها، فأخرجت من صدرها بعض الأوراق الملفوفة في كيس أصفر من البلاستيك وقدمتها له، فانتبهنا جميعًا إلى أثر جرح قديم في زند يدها، يبدو كما لو كان أثر حِرق.

- هل أصبتِ خلال الحرب الإرترية؟

قال هازئًا. فلم ترد عليه.

- والله إنك تشبهين المقاتلات الإرتريات، وهؤلاء الفتيات كذلك، سنحقّق معكن جميعًا لنتأكد.

- نحن سودانيات، وتاريخ استخراج بطاقة هويتي أقدم من تاريخ ميلادك.

قالت حانقة، فضحك وعلّق:

- إرتريا كلها تحمل مثل هذه الأوراق!

أعاد إليها أوراقها بقرف ثم أمر السائق بإزاحة شاحنته عن الطريق. حشرها السائق بمؤخرتها تحت أجمة مسكيت قريبة وفتح غطاء الماكينة، ثم جلس داخل قمرتها.

تركنا الجندي ذو الطاقية الخضراء في حراسة رفيقه الآخر الذي لم يتكلّم قط وذهب إلى الخيمة القريبة من مجلسنا، ثم عاد بعد بعض الوقت برفقة آخر، يبدو في العقد الخامس، بلحية كثة خطها الشيب وجبهة موسومة بغرة سوداء كبيرة. يظهر على ملامحه أثر النوم. أطال تأمله في وجوهنا، وفي هيئة أم محمد المتهالكة أسفل الشجرة، ثم قال موجِّهًا حديثه إليها بلهجة ودودة:

- الوضع خطير يا خالة، ونحن نتعامل مع كل الاحتمالات، لا مشكلة لدينا مع كبار السن لكن الفتيات لا بد أن تكون لديهن هويات وإلا اضطررنا إلى التحقيق في الأمر. نحن في منطقة عمليات عسكرية ولا بد أن نتحسّب لكل شيء. على أي حال سنبلغ قيادتنا وكافة النقاط المنتشرة بين طوكر ومَرافيتْ ثم نطلق سراحكن بعد أن نتأكد.

- نحن مواطنات سودانيات وأهلنا من قرى وادي العَقيقْ، شرَّدتنا الحرب يا حضرة الضابط.

- أنا لستُ ضابطًا، أنا مجاهد.

صمت قليلًا ثم أضاف وهو يشمل رفاقه بحركة من يده.

- جميع من في هذه النقطة من المجاهدين، لذلك لا تقلقن، الأمر سيُحَلّ في النهاية.

أمر رفاقه بتقديم بعض الماء والطعام إلينا ثم عاد إلى خيمته. جاءنا أحد الجنديين بخبز عائم في إدام أحمر طافح بالبصل، وتبعه الآخر بجالون بلاستيك أزرق فيه قليل من الماء الحار. لم نمسّ أي منهما حتى عاد وأخذهما. قضينا ما بقي من ذلك النهار تحت ظلال الأشجار. نتحدّث في احتمالات ما قد نواجهه.

تخفّفنا قليلًا من الأثواب التي نلف بها أجسادنا، وتحرّرنا كذلك في طريقة جلستنا على وقع الحكايات العذبة التي كانت ترويها أم محمد فأنستنا ما كنا فيه. مر بعض الوقت حتى نبهتني نظرات حراسنا إلى أننا نساء، فعدلت من جلستي بطريقة مباغتة آملةً أن تلفت نظر رفيقاتي من دون أن أضطر إلى الكلام، لكن أجسادهن ظلّت مسترخية رغم ذلك، غير مكترثة لتلك النظرات الجائعة. قفزت إلى ذهني ليالي الغرفة المعتمة في معسكر عيتربة، حيث عرفت معنى أن يصبح المخلوق فريسة. العيش في معسكرات الحرب تكسِب المرء خبرة العيش في غابة. نظرة واحدة إلى عيني الوحش تكفي لتقييم الخطر.

- هل سنبيتُ تحت الأشجار أم سننام معهم في خيمتهم؟

سألت الفتاة القمحية بلهجة بريئة، وكأنها تكمل ما دار بذهني. ساد بعض الصمت وتوزّع اهتمامي بين مراقبة قرص الشمس الأصفر الكبير بين فرجات أغصان المِسْكيت، وبين سائقنا المنهمك في إصلاح شيء في شاحنته، وبين الجنود الذين تحلّقوا حول قِدر كبير يقطعون البصل وينظّفون حفنة من العدس الأحمر.

خرج المجاهد ذو اللحية الرمادية مرة أخيرة من خيمته. نظر إلينا نظرة خاطفة ثم توجه إلى البقعة الرملية الممتدة بين الخيمتين وتوقّف هناك واضعًا يديه خلف ظهره. تداعى الجنود الثلاثة الذين تناوبوا على حراستنا طوال النهار بكامل سلاحهم، وانضم إليهم من الخيمة الأخرى جنديان آخران بلباس نصف عسكري، يحمل أحدهم جهازًا لاسلكيًا ظللنا نسمع طنينه الملغز طوال النهار. وقفوا جميعًا وقفة عسكرية ينصتون إلى تعليماته. توزّع المجاهدون على الجهات الأربع للحراسة الليلية وعاد المجاهد العجوز إلى خيمته.

همست الفتاة القمحية في أذني بأنها ترغب في الذهاب إلى الخلاء. استأذنا النسوة وحراسنا كذلك، وتوغّلنا قليلًا في الغابة. قضينا حاجتينا

ثم قفلنا عائدتين. عرض لنا أحد الجنود في الطريق، حاملًا جالون ماء أزرق وفأسًا وحبلًا، ويضع سلاحًا على كتفه، ومذياعًا يصدح بموسيقى عسكرية على كتفه الآخر.

- الحمد لله أني وجدتكما في الوقت المناسب. أحتاج مساعدتكما!

رمى الفأس والحبل والجالون على الأرض ثم طلب منا مرافقته لجلب الماء والحطب من مكان قريب. شعرت بألم مباغت في بطني، ودهمني الشعور بالخطر.

- لم لا تذهب وحدك؟ أو تأخذ أحد رفاقك؟

- هيا لا تضيّعي الوقت!

قال شاهرًا سلاحه. حملت الجالون وتركت الفأس والحبل لرفيقتي وتقدّمنا، وهو يرشدنا من الخلف. مشينا في طريق ملتوية بين الأشجار. لم تكن طريقًا إنما فرجات بين شجيرات المِسْكيت المتشابكة. تضيق وتتّسع فوق الأرض الرملية الرخوة.

بعد مسير مجهد لنحو ثلث الساعة بلغنا بئرًا. ملأتُ العبوة ثم وضعتها على رأسي وسرنا في الطريق التي أتينا منها.

جلس الجندي بهدوء سجّان يرتاح تحت إحدى أشجار الغابة. وضع الراديو فوق حجَر في الجوار وأشار إلى الفتاة القمحية لكي تبدأ الاحتطاب. ترددَت قليلًا، ثم لفّتْ وجهها بطرف من ثوبها الأزرق السماوي وغمزت لي. وضعت جالون الماء على الأرض ودخلت معها إلى دغل قريب. رحت أمسك الأغصان وهي تقطع، حتى جمعنا حزمتين من الحطب. حملناهما وعدنا إليه.

قرب مخرج الدغل، صرخت الفتاة بغتة، ثم جلست على الأرض ممسكة بساقها.أدركت على الفور أنها ربما لدغة عقرب أو ثعبان. خفّضت لها كتفي وساعدتها على الخروج إلى حيث يوجد الجندي.

اقترب بحذر بعد أن وضع بندقيته على الأرض وأمسك بساقها

ورفعها إلى الأعلى قليلًا. زاغت عينه نحو فخذها المكشوف، بينما راح يضع فمه على مكان اللدغة ويمص الجرح ويبصق على الأرض دمًا أسود. فعل ذلك مرات متتالية حتى تغير لون الدم إلى الأحمر القاني. تركها تسترخي، وطلب مني أن أقرب جالون الماء من فمها وأسقيها القليل من الماء.

عندما عدت بالماء وجدت أن ثيابها ارتفعت فوق ركبتيها من جديد، وبرز فخذاها الذهبيان الممتلئان. سحبتُ الثوب عليهما وغطيتهما جيدًا. فوجئت بالجندي يتقدّم ليرفع ثوبها ويتصاعد شهيقه وزفيره على نحو مخيف.

أدركت أن كلينا على شفا كارثة إذ قيّد يديها خلف رأسها بجزء من ثوبها وأنزل بنطاله. رحت أصرخ وأستنجد، وأحاول منعه، لكنه تمكن أخيرًا من مباعدة ساقيها بأن جلس على واحدة ودفع الأخرى برجله إلى أقصى حد. قفزت على رقبته وتشبثت بها، ورحت أجره إلى الخلف من دون طائل. ظلّ يتقدم نحو هدفه من دون اكتراث. غرزت أسناني في ظهره فدفعني بمنكبه دفعة رمتني بعيدًا. وقعت يدي على شيء صلب. كانت البندقية، حملتها من دون تردد ووقفت عند رأسه مصوِّبة فوّهتها عليه، وصرخت:

- ابتعد عنها وإلا أطلقت عليك النار.

لم يكترث لتهديدي البتة. وواصل صعوده وهبوطه المقزز بين ساقي الفتاة المسكينة التي كادت تزهق روحها من الألم والصراخ. قرّرت أن أنفذ تهديدي وضغطت على الزناد مغمضة عيني، إلا أن الطلقة لم تخرج. البندقية التي أجهل أسرارها لا تعمل. تذكّرت الفأس التي تركتها الفتاة عند مدخل الدغل. جئت بها ورفعتها بطول ذراعيّ وهويت بها على مؤخرة رأسه. صرخ، فضربته ثانية. همد ثم سقط على الأرض إلى جوار الفتاة سابحًا في دمه.

فككت القيد عن معصميها، وجلست إلى جوارها أفكر في الكارثة التي حدثت. كان مسجى على ظهره في وضع النائم، وسرواله الكاكي إلى منتصف ساقيه. كان رأسه العائم في بركة من الدم يميل إلى اليمين. أظنّه مات. لم أشعر إزاءه بأي عطف كما لم أشعر بأي ندم، بل انصبَّ عطفي كله على الفتاة التي لا تزال تئن وتعجز عن ضم ساقيها إلى بعضهما. سحبتها بعيدًا عن جسده الهامد، قلت لها إن الضربة شجت رأسه لكنها لم تقتله على الأرجح، وقد يفيق بعد ساعات قليلة. ساعدتها بالجلوس وبتنظيف ما بين ساقيها وجسدها وثيابها من الدم والقذارة، ثم رحت أنظف نفسي بما بقي من ماء في الجالون. كانت مهمة شاقة لكننا أنجزناها على كل حال، ولم يبق إلا التفكير في مصيرنا.

- ماذا سنفعل؟

قالت بصوت واهن وهي تتكئ على شجاعتي المتوهّمة، وقد أدركت أنها تقصد أمورًا أخرى أكثر تعقيدًا مما حدث للتو، فأجبتها من دون تردد.

- ستعودين إلى الخيمة وحدك، وعليك أن تضعي كل شيء على عاتقي.

جزعَت مما قلت، لكنها وافقت أخيرًا تحت ضغطي الشديد. سرت معها نصف الطريق إلى الخيمة لكي أطمئنّ إلى أنها تبدو في حالة تمكّنها من نسج رواية متماسكة يمكن تصديقها، ثم قفلت عائدةً وهربت.

(39)

- تمنّيت لو أن الأب فانوس رفض تقبّل اعترافي في ذلك اليوم، وصرفَنا كلينا عن الأمر بحكمته.

قالت لموريس في لحظة يأس. كانا محاطين برجال الشرطة أمام مكتب وكيل النيابة، بيد أن موريس غضب، وقال بحزم:

- لا يُقال مثل هذا الكلام في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا المكان يا عرفة، علينا أن نظهر جَلَدنا مهما كانت النتيجة!

كانا في انتظار جلسة تحقيق جديدة بشأن البلاغ الذي تقدّم به والدها وبعض أقاربه. كانت الجلسة الثالثة خلال أسبوع واحد، ولعل ما زاد من قلقهما تأخّر محاميهما عن موعد الجلسة. نظرت في وجوه رجال الشرطة الذين يحرسونهما، كانوا أربعة، اثنان منهما يحملان أسلحة ويقفان على مسافة من الشرطيين الأعزلين الأقرب إليهما. لم يكن موريس يُعيرهم كبير اهتمام وهو يتحدّث إليها، ويملي عليها بصوت مسموع ما ينبغي أن تقوله لوكيل النيابة حين يسأل عن أمور معينة وما لا تقوله، ولما فرغ من وصاياه شملهم بنظرة خاطفة وهو يميل عليها:

- يجب أن تتحلّي بالصبر والحكمة. إن لم يكن من أجلنا، فمن أجل ماثيو!

قال وهو يضع يده على بطنها المنتفخة ويرسم على وجهه الممتلئ ابتسامة عريضة. فاجأتها أريحيته. راحت تنظر في عينيه مختبرة مدى صدقها.

- وهل قررت فعلًا أن تسمّيه ماثيو؟

هز رأسه موافقًا بعد برهة صمت قصيرة.

- ولن يزعجك ذلك؟

- عرفت ماثيو وأحببته قبل أن تعرفيه. إنه ولدي وتلميذي، وأُعدم ظلمًا في محاكمة عسكرية متحيّزة كما عرفت من بعض الرفاق منذ أسابيع قليلة. لعل في ذلك سلوى لي ولك وبعض وفاء له، ثم إن المرء لا يغار من ولده! أليس كذلك؟

- المسكين!

شعرت عرفة بحزن عميق لسماعها نبأ مقتل ماثيو لكنها لم تشأ أن تمعن أكثر في اختبار غيرة موريس. لم تكن قد فكّرت بعد في اسم الجنين الذي تحمله منه، بغضّ النظر عن الطريقة التي طرح بها تسميته، لا سيما وأن الدكتورة هناء ابنة عمتها، أخبرتهما في ذلك اليوم المشؤوم أنه صبيّ.

نظرت إليه مرة أخرى فوجدته مركّزًا نظره في نقطة مجهولة في فناء مبنى النيابة الذي ينتهي عند حائط السجن. مرّت فترة طويلة من الصمت، لعل كليهما سرح بعيدًا في أعماق نفسه، وخطرت له أشياء وغابت عنه أشياء، بيد أن عرفة راحت تفكّر في ما قاله لها عن ماثيو، حزنت جدًّا، وشعرت في الوقت نفسه بالدهشة لرغبته الغريبة، حتى ولو لم يكن صادقًا بشأنها. نبعت صورة ماثيو في خيالها مثلما رأتها أول مرة في تلك الليلة القمرية، في المعسكر القائم على سفح جبل تقدرا، بقامته المديدة ووجهه المنبسط، المشرّب بلون العسل الجبلي الصافي، وعينيه الواسعتين اللتين تشبهان القمر في استدارته وصفائه. كان ماثيو أول رجل أحبّته. كان مسيحيًا ومن نوبة الجبال أيضًا، فهل كان ذلك محض مصادفة، أم إنه قدرها المحتوم منذ الأزل؟ ملأها ذلك بيقين غامض. اتكأت على كتف موريس وعيناها تدمعان.

- هل يمكن للقدَر أن يمنحني شيئًا جميلًا بعد كل ما جعلني أعانيه؟

- ما الأمر؟ لا نزال في أول الطريق يا عرفة.
- لم أقصد هذا؟
- ماذا إذًا؟
- أن أحتفظ بماثيو وموريس في الوقت نفسه. هل يبدو هذا معجزة؟

لم يرد، ولاذ بالصمت لبرهة قصيرة، بدت لها دهرًا قبل أن يقول.
- لعل الرب يستجيب لكِ. من يدري؟
- لعله كذلك، فهذا زمان المعجزات. أليس زواجنا معجزة في حدّ ذاته؟

ابتسم في وجهها وهو يحاول صرف النظر إلى فكرة أخرى تطرد سحابة الحزن التي عبرت فوق وجهه بينما كان يتأملها بعينين شاردتين. ابتسمت عرفة أيضًا ولم تقل شيئًا يُصلح ما أفسده حديثها عن ماثيو. ازدرد ريقه بصوت مسموع ثم لاذ بالصمت، وشعرت بأن شيئًا ما تغير. لعله لم يحسب الأمر على ذلك النحو الذي فكّرت فيه، وإنما أراد أن يُسعِدها ويبدو وفيًا لذكرى تلميذه في آن. أطرقت تفكّر، وشعرت بالأسى لأنها جرحته بينما كانت تحاول سبر صدقه، ولامت نفسها.

نبع في ذهنها وجه أبيها، وتردد صوته المشروخ في أذنيها. قال لها في تلك الليلة، بنبرة متعجرفة، إنها تزوجت عبدًا أغلف، ونصرانيًا يؤمن بأن الله ثالث ثلاثة، وإنه بريء منها إلى يوم الدين! قالت له إنها اختارته من دون غيره من العالمين. سبّها وسبَّ أمها في قبرها. قال لها إن الناس سيأكلون لحمه لأنه سمح بهذا، وسيموت مجلّلًا بالعار. وقالت له ألّا يهتم لكلام الناس. نعتها ببنت الحرام وبصق على وجهها. سكتت. وحين يئس منها قال أخيرًا:
- لقد بتّ عاجزًا عن تصويب انحرافكِ بيدي. لذلك سأترك شأنك للحكومة، تشنقك وأرتاح من عارك للأبد!

لم يكن يهدّد. رفع عليها دعوى تتهمها بالردة عن الإسلام، وطلب

تطليقها من موريس، بحجة أنه نصراني وأنها مسلمة، واعتبار زواجه منها باطلًا. لكنها قالت لوكيل النيابة في أول جلسة تحقيق.

- أنا لست مرتدة، بل أنا على دين زوجي!

انقلبت الدنيا على رأسها ورأس موريس المسكين. لم تفكّر حقًّا في ما أحدثته هذه الكلمات القليلة في حياتهما، ولم تتخيل قط الآفاق التي بلغتها في وقت قصير. كانت مجرد رغبة في إظهار التحدّي لأهلها ولسلطة قانون يفرّق بينها وبين من تحب. قفزت الفكرة إلى ذهنها وهي بين يدي وكيل النيابة، ولم تأت على خاطرها قبل ذلك قط. ذُعر موريس، واندهش وكيل النيابة وألجم الصمت محاميهما البدين. ثار المتدينون في البلد، وتحوّل مسار القضية إلى ما لم تكن تتخيّل مداه. طاف ذلك كلّه بخاطرها وشعرت بالأسى والخوف أيضًا. طوقت ذراع موريس بكلتا يديها. قال وهو يربت على يديها:

- الأمر معقّد أكثر مما كنّا نظن يا عرفة.

- لا يهم، طالما أنك إلى جواري.

- فليرعانا الرب.

- هل تعرف؟

- ماذا؟

- لو أنهم أخذوني الآن إلى حبل المشنقة، فلن أشعر بأي خسارة. لقد واجهت الموت مرارًا ولم يكن إلى جواري أحد، ومع ذلك لم يخفني، فلماذا يخيفني هذه المرة وأنت إلى جانبي؟

ثم أغمضت عينيها ممتلئة بحضور موريس ودفئه، وراحت تتمنّى في نفسها أن يبقى إلى جانبها للأبد. حضر محاميهما البدين يتصبّب عرقًا. اعتذر بلطف، بصوته النحيل، عن تأخّره بسبب جلسة أخرى في المحكمة أخذت وقتًا أطول مما يجب. دخل مباشرة إلى مكتب وكيل النيابة، ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى نادى عليهما مساعده.

كان هو نفسه، وكيل النيابة الذي حقّق معهما في المرتين السابقتين. نحيل، داكن السمرة. كان محاميهما يجلس على مقعد أمام المكتب. حقيبته السوداء على الطاولة. مغلقة على غير العادة.

- أما زلت متمسكة بأقوالك السابقة يا عرفة؟

- نعم. قالت من دون تردد.

- أرجو أن تعلما أنني لست بصدد جلسة تحقيق رسمية، وإنما لأتبادل معكما بعض الحديث الودّي، الذي أرجو أن يغيّر مسار القضية في نهاية المطاف، ولن يُدوَّن أي شيء مما سنقوله هنا في ملف التحقيقات الخاصة بهذه القضية، أعدكما بذلك.

- الرأي عند الأستاذ هاشم.

قال موريس بعد برهة صمت قصيرة وهو يشير برأسه إلى المحامي الذي انشغل بفتح حقيبته على الطاولة. أخرج منها ملفًا أخضر، ثم وضع نظارة القراءة على مقدمة أنفه. أمهله وكيل النيابة بعض الوقت ريثما فتح الملف ووضعه فوق حقيبته بعد إغلاقها، ثم نقل بصره إليهما.

- لديَّ مقترح بسيط، سيساعدنا ويساعد السيدة عرفة كثيرًا لو أنها تعاونت معنا!

قال وكيل النيابة وبقيا صامتين ينتظران بقية الفكرة:

- إذا تراجعت السيدة عرفة عن أقوالها السابقة ستكون في وضع مريح، وتبقى قضية طلاق وحسب!

سأله موريس:

- كيف؟

فبدت الحماسة على وجه وكيل النيابة.

- هذا هو المخرج المناسب، وأرجو يا سيد موريس أن تساعدنا.

فقال موريس: أرجو أن تشرح أكثر.

وشرح وكيل النيابة:

- تغيير المسلم لدينه غير مسموح به في القانون، وعقوبته الإعدام إذا لم يتراجع صاحبه، وإذا وصل ملف القضية الذي أمامي إلى المحكمة، فإن القاضي لن ينظر إلى موضوع الطلاق، وسيوجه تهمة الردة عن الإسلام للسيدة عرفة.

- لم أقل قط إنني ارتددت عن الإسلام، بل قلت إنني مسيحية على دين زوجي!

أغمض وكيل النيابة عينيه في ضيق.

- ألم تكوني مسلمة من قبل؟

- وكيف ستثبت المحكمة ذلك؟

- شهد عليك والدك وأربعة من أقربائك!

- عندما فارقت والدي كنت قاصرة، ولم أكن في وعيٍ يؤهلني للاختيار، وأما البقية فلا أعرفهم ولم أرهم في حياتي، فكيف تقبل شهادتهم أصلًا؟

- مسح وكيل النيابة وجهه بكفَّيه ونظر إلى المحامي يستنجد به، فقال المحامي:

- السيد وكيل النيابة على حق يا عرفة، ويرغب في مساعدتنا. وثائقك الشخصية تؤكّد أنك مسلمة، وسيأخذ القاضي بهذه القرائن مضافة إلى شهادة والدك وأقربائك.

- جميع الوثائق مستخرَجة وأنا بعد طفلة يا أستاذ، وأنا الآن في الخامسة والعشرين من عمري، ومن حقّي أن أختار الدين الذي يناسبني!

- وهل كنت بلا دين طوال حياتك السابقة؟ هل تقسمين على ذلك؟

قال وكيل النيابة بضيق بائن. فوضع موريس يده على كتفها يمنعها من الكلام، قبل أن يقول:

- أرجو أن تمنحنا فرصة للتفكير وتداول الأمر في ما بيننا، ويمكننا مناقشته لاحقًا.

عادا بعد ذلك إلى البيت الآمن الذي خصّصته النيابة لهما من أجل سلامتهما. ما لم يقله وكيل النيابة أو تعمَّد ألا يشير إليه أن الأمر أثار قبيلة عرفة بأكملها، وحفيظة رجال الدين في البلد كلّه، وجمهور غفير آخر لا يعرفون منهم أحدًا، وأصبحت قضية رأي عام في غضون أيام قليلة. تريد الحكومة أن تتخلّص من تداعياتها بأقل ثمن. كانت تشعر بالحرَج، كون موريس عضوًا معروفًا في الحركة الشعبية، الشريك الحكومي الجديد، الذي اتكأ نضاله لربع قرن بأكمله على حقوق المهمّشين والأقلية المسيحية في بعض مناطق البلاد.

أدركا حجم الورطة عندما جاءهما المحامي في اليوم التالي، يحمل قصاصات من صحف كثيرة أجرت مقابلات مع أبيها وبعض مَنْ قالوا إنهم أقاربها، وقال لهما أيضًا إن خُطب الجمعة في البلد كلّه تحدّثت عن كفرها وردّتها، وطالب الخطباء بشنقها إن لم تعد إلى الإسلام، فيما أعلنت قوى ومنظمات قليلة لم تسمع عرفة بها دعمها لعدالة موقفها.

قال لها موريس في نهاية اليوم إنه يرى وجاهة في حديث وكيل النيابة، وعليهما أن يفكّرا فيه على الأقل. ثم أخذ يشرح أبعاد القضية من ناحية قانونية، وأضفى عليها مسحة من قناعاته السياسية.

- تعلمين أن حركتنا تشارك حكومة الإسلاميين الحالية إدارة البلاد، ولديها موقف واضح من هذه القوانين التي تقيّد حريات الناس وتقمع النساء، لكننا في بداية الطريق ويحتاج التغيير إلى بعض الوقت، وإلى كثير من الصبر!

- وهل أطلب إرجاء النظر في القضية حتى تتغير هذه القوانين، أم تريدني أن أرضخ لها؟ ماذا تقصد بحق الرب؟

نظر إليها بضيق وقال:

- يمكننا مسايرة الوضع في الوقت الحالي، ثم تتغير الأمور بالتدريج ونعود كما كنا في السابق، المهم ألا أفقدك في نهاية المطاف!

- وتظن أنك بذلك تحافظ عليّ؟
لم يرد، فأكملت:
- كلاهما عندي سيان. لا تتغير الأشياء التي لا تعجبنا لمجرد أننا نرغب في تغييرها. علينا أن نقاوم ما يمسّ بحقوقنا ونرفضه.
كانت تدرك إشفاقه، وتتفهّم نظرته الهادئة لبعض الأمور، ومع ذلك غضبت منه، وكالت له التهم بأنه موافق على التخلّص منها، وأنه يتخلّى عن مبادئه عند أوّل مواجهة...
لم يردّ مطلقًا على ثورتها، وعلى كلماتها الجارحة التي رمتها في وجهه، بل استعصم بحلمه الذي تعرفه عنه، واكتفى بالصمت وبتأمّل تصرفاتها القلقة بعينين حائرتين. قالت له في النهاية.
- إقراري بأني مسلمة يعني أولًا أن زواجنا باطل، وستفرّق المحكمة بيننا بالقانون، وإذا قدِّر لمولودنا أن يولد ويعيش سيعتبرونه ولدًا سفاحًا، وقد يسبب ذلك عقدة له طوال حياته. ولن أجازف بهذا يا موريس. إذا كان محامينا يعجز عن الدفاع عنا فيجب البحث عن محام آخر أو أقوم بالمهمة بنفسي، ولن يستطيع أحد أن يثبت عكس الذي قلته في محضر النيابة. موضوع الدين لا أهتم له ولا يعنيني، لأنه لم يوفر لي الحماية التي كنت أحتاجها في أصعب أيام حياتي وأخطرها. أنا اخترتك أنت لأنني شعرت معك بالأمان الذي أحتاجه، وليس لأنك مسيحي. تزوجتك في الكنيسة حيث رغبت، ولم يكن ذلك خيارًا سيئًا أبدًا، فالكنيسة أيضًا ساعدتني وآوتني وتعاهدنا أمام أحد كهنتها على الرباط الأبدي، لذلك أنا مدينة لها ولك بما أنا عليه اليوم. وكيل النيابة يقودنا إلى الخيار الأسوأ يا حبيبي، ولن نستطيع حماية أنفسنا وولدنا المقبل بعد ذلك، هل تفهمني؟
خليط من الإعجاب والمحبّة والخوف، كانت تنطق بها نظراته إليها.
أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها نحو السقف.

(40)

لم يكن الهروب خيارًا جيدًا في ذلك الوادي، ولم أتوقّع أن يكون خيارًا سهلًا منذ اللحظة التي اتّخذت فيها القرار. قضيت ليلتين داخل كوخ من القصب مهجور، حتى تهدأ عاصفة البحث.

يقوم الكوخ في مزرعة مهجورة لم أعرف موقعها ولن أعرفه بعد ذلك إلى الأبد، لكن ما أتذكّره جيدًا أنني دخلت الكوخ في الليل مذعورة ويائسة، وخرجت منه في الليلة الثالثة جائعة وعطشى أبحث عن ماء وطعام، ولا تقوى ساقاي على حملي.

أثناء بحثي بين المزارع، تعثّرت بشبح مسجى فوق سرير من الحبال، أمام كوخ من الخشب والصفيح يقع على كتف مزرعة. حاولت إيقاظه من مسافة خطوات قليلة، بنداء واهن من صوتي الذي لم يكن يغادر حلقي.

- يا أخ... يا أخ. يا ابن العم...

استدار في رقدته إلى الجهة الأخرى. خطر لي أن أوقظه بضربات خفيفة على أحد أطرافه، فانحنيت على جسده مترنِّحة. هذا آخر شيء أتذكّره قبل أن يُغمى عليّ، والأرجح أنني وقعت على جسده دفعة واحدة، ولا بد أنه فزع من سقوطي.

بيد أن ما وقع بعد ذلك كان هو المفزع حقًا. استعدت وعيي داخل الكوخ، وحيدة، عارية كما ولدتني أمي، وليس في الكوخ شبه المعتم سوى طاولة صغيرة عليها سطل ماء وصحن عصيدة عائمة في لبن رائب محكمة الغطاء، وسرير. تحسّست جسدي، وأيقنت أنه لم يلمسني،

لكنني لم أفهم لمَ تركني عارية. تفقّدت باب الكوخ ووجدته محكم الإغلاق من الخارج.

بحثت عن ملابسي بين أغراضه، وعن أي شيء آخر يسترني فلم أجد شيئًا. ثمة جلباب قديم عثرت عليه بعد عناء في قعر صندوق حديد مليء بالكراكيب. فتحت طياته على مهل، فراح يقرقع مثل الجلد المدبوغ، وتخرج من طياته خنافس سوداء، فألقيته بعيدًا.

عدت إلى الباب، ونظرت من شقٍ فيه إلى الخارج. رأيته منحنيًا على قناة ماء صغيرة، فتحها على أخرى أصغر بالمجرفة ثم راح يتابع عمله بأناة حتى روى حقلًا صغيرًا بمساحة غرفتين، لا يبعد عن محبسي أكثر من عشرين خطوة. صرخت بكل ما أوتيت من قوة، لكنه لم يكترث، ولم يلتفت أبدًا.

كنت أراقبه يعمل من شروق الشمس وحتى غروبها، يتخلّل ذلك أوقات راحة قصيرة يأوي فيها إلى سقيفة وطيئة في طرف الحقل، يصلّي أو يأكل أو ينام قيلولة قصيرة أو يشرب الشاي لكن من دون أن تغفل عيناه عن الكوخ.

أما في الليل فيأوي إليّ، كما يأوي الرجل إلى زوجته، يضع الماء والطعام على الطاولة ثم يقيّدني ويصعد فوقي من بعد مغيب الشمس وحتى منتصف الليل تقريبًا. فيتركني جثة هامدة، مبللة بمائه القذر وعرقه الذي تفوح منه رائحة الصدأ، ليغلق عليّ باب الكوخ من الخارج وينام في السقيفة الأخرى.

كان لا يكلمني أبدًا، حتى حين أكلمه أو أصرخ في وجهه في العتمة يرد عليّ بهمهمات متقطعة غير مفهومة، كنت أظنّها تعبيرًا معوجًا عن الشبق الذي يحسّه في لحظات الالتحام التي كانت تستنزفني.

طرق الباب ذات صباح، ولما نظرت من الشق الذي أراقبه منه تكلم معي بإشارات مبهمة، جاحظًا عينيه حتى بدتا مثل عيني ضفدع. مكورًا فمه الكبير الذي يحتل نصف وجهه النحاسي المليء بالبثور والجدير

بالشفقة. لم أفهم إشاراته مطلقًا، وكنت أرد عليه بالكلام فيبدو لي أنه لا يفهمني أيضًا. ظللنا على تلك الحال حتى يئسَ وتعبت، ثم مضى إلى حقله يؤشّر بيديه إشارات غاضبة. أدركت أخيرًا أنه أصم وأبكم. هذا وحده سيسهل ما عزمت على تنفيذه.

فككت الطاولة القصيرة التي كان يضع عليها الماء والطعام. حملت إحدى قوائمها، ثم عملت على فك ثلاثة ألواح عريضة من الحائط الخلفي للكوخ من زواياها المثبتة بالمسامير، وتركتها عالقة في مكانها لكي لا يلحظها قبل أن يحين موعد الهرب. أعدت القائم إلى مكانه في جسد الطاولة واختبرت تماسكه بحرص شديد.

جاءني في الليل كعادته، لكنه كان غاضبًا هذه المرة، ويهمهم ويبرطم بكلام مبهم. لا أعرف إن كان لذلك علاقة بالحوار الفاشل الذي دار بيني وبينه في الصباح أم إنه غاضب لأمر آخر؟ ضربني ضربًا مُهِينًا ومبرحًا بيديه الفولاذيتين. فرُحت أتوسل إليه وأقبل يديه ورجليه الحافيتين الخشنتين مثل خفَّيّ جمل.

قيَّدني على السرير ثم اعتلاني كعادته، لكنه في هذه الليلة، بدا أفظع منه في الليالي السابقة إلى حد أنني لم أكن قادرة على التقاط أنفاسي، وكاد يغمى عليَّ تحت وطأته التي لا تحتمل. لقد كانت ليلة من العذاب الجحيميّ المتصل. لم أصدق أنه تركني أخيرًا وذهب إلى مرقده، وأنني ما زلت أتنفس.

بقيت وحدي في العتمة، أنتحب. بكيت في تلك الليلة بكاء مريرًا لم أبكِ مثله حتى في مراحل الأسر. لعنت جميع أسلافي الذين وفّروني لهذه الحياة البائسة التي لن يحسدني عليها أحد، ولعنت من بعدهم جنس الرجال قاطبة، ولعنت دين مَنْ اغتصبوني، واحدًا واحدًا. صرخت:

- يااااارب. أين هي رحمتك التي يتحدّثون عنها؟ لم لا تشملني مع من ترحمهم!

لم يغمض جفناي تلك الليلة. ولما تسلّلت أضواء الفجر، قمت إلى الحائط الخلفي للكوخ وأزحت الألواح الخشب عن مكانها ثم خرجت من الناحية الأخرى. عارية، ضائعة كما جئت، لا مكان في جسدي إلا وفيه موضع للألم. تجاسرت على ذلك كلّه ومشيت بخطوات مثقلة مستندة إلى الحائط. أخذت نصف دورة حذرة حول الكوخ وألقيت نظرة. كان نائمًا، يتصاعد شخيره مثل جرّار الحراثة. قصدت السقيفة الأخرى التي يقضي فيها قيلولته لكي أبحث عن ثيابي.

لم أجدها لسوء الحظ. وجدت جلبابًا له، غسله في وقت سابق وعلقه على أحد جوانب السقيفة لكي يجفّ. ووجدت بين أغراضه خنجرًا. لعله وفّره لكي يكون وسيلة موته الأكثر ملائمة. أخرجته من غمده الجلدي فلمع تحت ضوء الفجر، ولمعت في ذهني الفكرة الشريرة.

(41)

قبل نحو أسبوعين من بدء المحاكمة، تنحّى وكيل النيابة السابق عن مباشرة ملف القضية. اختارت النيابة العامة وكيلًا آخر «ثقيل الظل» كما وصفه محاميهما الأستاذ هاشم، وهو ينقل إليهما الخبر في البيت الآمن الذي لا يبارحانه قط.

أما عن دواعي ذلك فلم يفصّل الأستاذ هاشم كثيرًا، لكنهما فهما من خلال تلميحاته أن وكيل النيابة السابق، الذي هو زميل دراسته، كان منزعجًا من مآلات القضية، ولم يقل أكثر من ذلك. بيد أنه -الأستاذ هاشم- أثار قلقهما عندما نوَّه إلى أن وكيل النيابة الجديد، هو من أولئك الإسلاميين المتحمّسين.

قابلاه مرتين قبل بدء المحاكمة، وكان التحقيق في المرة الأولى جدّيًا ومرهِقًا، واستمر نحو ثلاث ساعات. أما جلسة التحقيق الثانية فقد كانت خليطًا من الاحتقار واللؤم. اعترض الأستاذ هاشم على أسئلته وتعليقاته أكثر من مرة بطريقة مهذّبة.

- أرجو أن تركز أسئلة النيابة الموقَّرة على مضمون الدعوى المرفوعة على موكليّ!

تجاهل رجاءات محاميهما، ولعله كان معجبًا بنفسه. تأمّلته عرفة عندما وقف ودار حول مكتبه. كان طويلًا ممتلئًا، وتغطي نصف جبهته المربعة علامة سجود ضخمة تحت شعر أكرت. لم يغب عنها صوته المبحوح الذي يتحوّل إلى حشرجة حين يغضب.

- تظنّون أن وجود الحركة الشعبية وبعض صعاليك الشيوعيين في الحكومة سيجعلنا نتراجع عن تطبيق القانون؟

لم يردّا. وقفا يتأمّلان ثورته بصبر، كما يتأمل تلاميذ أوقعهم حظهم العاثر بين يدي مدرّس جاهل.

- إذهبا وتزوجا في الجنوب، أو افعلا ما يحلو لكما هناك، لكن طالما أنكما عندنا في الشمال فلن نتردّد في تطبيق قانوننا المستند إلى الشريعة الإسلامية!

ثم أدار وجهه نحو عرفة.

- وأنت؟ تدَّعين أنك مسيحية حتى لا تطلّقك المحكمة، لكنك تخطئين خطأ كبيرًا بهذه الحماقة. لا تغرَّنك هذه الفورة التي يثيرها هؤلاء الشيوعيون والعلمانيون الذين يودّون تخريب المجتمع بمثل هذه الأفكار الشاذة!

كان يتكلّم وهو يشير بإصبعه إلى موريس من دون أن يحول وجهه عنها. عندئذ تحدّث موريس حانقًا، ومحاولًا دفعه إلى إنهاء التحقيق.

- حسنًا يا مولانا، نحن كما ترى مسيحيان وتزوّجنا في الكنيسة، ونحن متمسّكان بأقوالنا السابقة ولتحكم المحكمة الموقّرة بما تشاء!

ضحك ساخرًا وهو يستدير ناحية موريس.

- سنرى هذه الشطارة في ما بعد. أنت من يحرّضها إذًا؟

شعرت عرفة بالخطر لأول مرة، ربما بسبب تهديداته المبطنة وحماسته الدينية الواضحة. كأنما هو امتداد للقانون الذي يتحدّث عنه، أو أن القانون هو امتداد له. خشيت أن يكون القضاة الذين سينظرون في قضيتهما على الشاكلة نفسها.

أخبرهما المحامي في طريق العودة إلى شاحنة الشرطة، أن وفدًا من الحركة الشعبية سيأتي من الخرطوم لزيارتهما قبل بدء المحاكمة، وأنه قد فرغ تقريبًا من استخراج الأذونات القانونية اللازمة لتلك الزيارة التي قد تكون يوم الجمعة الذي يسبق أولى جلسات المحاكمة بيومين. أخبرهما أيضًا أن فيهم محامين وقد تطوّع بعضهم للانضمام إلى فريق الدفاع.

عندما وصلا إلى البيت الآمن منع رجال الشرطة موريس من النزول برفقة عرفة. قالوا إنهم سيأخذونه إلى مكان آخر ولن يريا بعضهما بعد اليوم إلا في قاعة المحكمة أو إذا طلب المحامي رؤيتهما معًا، ثم استدركوا في ما يشبه الاعتذار أنها تعليمات وكيل النيابة الجديد. أعطت عرفة إحدى الشرطيات -اللائي جيء بهن لحراستها- ملابس ومتعلّقات موريس لتحملها إليه في الشاحنة.

مضى بقية اليوم ثقيلًا عليها من دون موريس، وتحت وطأة آلام الحمل وتقلّصات أسفل البطن. قالت لها رئيسة الشرطيات إن المطبخ أغلق تمامًا، لكن وجباتها ستصلها بانتظام، ولن يُسمح لها بعد اليوم بالخروج إلى فناء البيت مثلما كانت تفعل في السابق. قضت التعليمات الجديدة أيضًا بتحديد حركتها داخل الزاوية التي تضم الغرفة والصالة والحمام، وسيظل الباب الذي يقود إلى الفناء الخارجي وجميع النوافذ مغلقة.

راحت بقية اليوم تذرع الزاوية التي تبدأ من الحمام وتنتهي داخل الغرفة جيئة وذهابًا من أجل التموضع المثالي للجنين في الحوض تسهيلًا لعملية الولادة لاحقًا... خطر لها أن المسار كله، من رأس سريرها وحتى الحمام إلى أقصى يمين باب الغرفة، يمكنها أن تمشيه في العتمة أو مغمضة العينين.

إنه بيت حكومي قديم، من تلك البيوت التي بناها الإنجليز من حجر البحر الأبيض قبل مائة عام. القسم الذي تشغله يتألف من غرفة واسعة أرضيتها من البلاط المربع، بلونين أبيض وأسود مثل الشطرنج وسقفها من الإسبيستوس، تتدلى من أحد عوارضه الخشبية مروحة سقف كانت بيضاء فيما مضى، بيد أن لونها اسودَّ بسبب الغبار وفضلات الذباب. تضم الغرفة سريرين من الخشب تحت نافذتين عملاقتين، لعل الإنجليز فطنوا إلى حر هذه المدينة فاقتطعوا حيزًا كبيرًا من الحائط من أجل

النوافذ. يفتح باب الغرفة على صالة صغيرة، كانت شرفةً مفتوحة أو ممرًا في ما مضى، لكنها اليوم مغلقة، وتقود مباشرة إلى المطبخ الصغير ثم يليه الحمام، وهما ليسا من أصل البيت الذي بناه الإنجليز.

طوال الأسبوع الذي بقي على المحاكمة أرهقها التفكير في القضية، وراحت تقلّبها على وجوهها المختلفة لعلها تطمئن إلى جانب منها، لا سيما وأنهم حالوا بينها وبين موريس ولم يعد لديها من يشاطرها التفكير. إقرارها بأنها مسلمة تزوّجتْ مسيحيًا سيترتب عليه طلاقها من موريس، هذا لا شك فيه، وسيجعل مولودهما المقبل في حكم السفاح بحسب ما يقضي العرف والقانون، وإن كان القانون نفسه لا ينكر أبوّة موريس لولده رغم إقراره بعدم شرعية الزواج، وتلك حكاية أخرى.

طلاقها من موريس سيحمل أباها على تزويجها من أحد أقاربه رغمًا عنها، وستفقد بذلك موريس إلى الأبد وتتعقّد حياة ماثيو. أما مسيحيتها التي لاذت بها لتتفادى كل ذلك، ربما تقودها إلى الأسوأ، وهو حبل المشنقة، وهذا هو الراجح، بيد أنها قد تنقذها إذا حكّم القاضي روح القانون وليس نصوصه، وأقرّ بحقّها في الاختيار، لكنه يبقى احتمالًا لا رجاء فيه. هكذا فكّرت، لكنها لا تملك خيار التراجع.

***

في صباح يوم الجمعة أخبرتها الشرطية التي تحرسها أن رهطًا من الجنوبيين يستأذنون في زيارتها.

- لعلك تحبين الـ... الزنجية الكبيرة! ما حكايتك؟

وأشارت بيدها -ضاحكة- إشارة بذيئة، ثم ذهبت لتستقبلهم. جلست عرفة في أحد مقاعد الصالة قبالة الباب الذي تركته الشرطية مواربًا. تابعت دخولهم من الباب واحدًا بعد الآخر يتقدّمهم الأستاذ هاشم وموريس. خُيّل إليها أنها رأت بينهم وجهًا أنثويًا تعرفه. حاولت التأكد مما خطر لها لكنه توارى خلف أحد الأجساد الضخمة، ولم

تتمكّن من رؤيته بعد ذلك، إذ تزاحموا وحجبوه تمامًا. لم تعد ترى غير طرف من ثوبها الأبيض يحركه الهواء وإحدى قدميها الممتلئتين.

وقفت للسلام عليهم، ومصافحتهم جميعًا حتى جاء دورها. نظرت في وجهها مليًا وابتسمت، ثم فتحت ذراعيها وأقبلت عليها. تعانقتا. أمطرتها بالقبل وسط دهشتهم جميعًا.

- لم يدر بخلدي أبدًا أنها أنت أيتها الشقية!

وقالت عرفة:

- أظن أن حظّي طيّبٌ يا أستاذة، زمان طويل مضى على تلك الأيام.

قرصتها في خدها، ثم أمسكت بكتفها وهي تتأمّل وجهها كما تتأمل لوحة.

- لم أظنك بهذه الجسارة والفطنة، كيف فعلتها؟ طوال الطريق وأنا أقول لهم إن هذه السيدة ذكية لأنها عرفت بفطرتها كيف تحرجهم، وبالقانون نفسه الذي يقمعون به حريات الناس!

- تلميذتك يا أستاذة!

ضحكوا جميعًا، ثم جلسوا كيفما اتفق بعد أن وضعوا الطعام الذي جاءوا به على طاولة قريبة. كانوا الضيوف الزائرون خمسة بالإضافة إلى موريس والأستاذ هاشم. موريس لم يجد مقعدًا. أمسكت بطنها وتجاسرت على الوقوف لكن موريس أمسك بكتفيها وأعادها إلى مجلسها. دخل الغرفة وجاء بطاولة صغيرة جلس عليها.

راح الأستاذ هاشم يشرح لهم موقف القضية وخطته للدفاع، ولعلهم سمعوا ذلك منه قبل أن يجيئوا إليها، لكنه أعاده بحضورها رغبة في تهيئة الجميع للحديث. قال أحدهم وستعرف عرفة لاحقًا أنه أحد مستشاري رئيس الحركة الشعبية.

- قضيتكما أفضل ما يمكن أن نختبر به الساحة السياسية عمومًا، ومصداقية شركائنا الإسلاميين في المؤتمر الوطني على وجه

الخصوص. لقد اتفقنا على مبدأ حرية الأفراد والجماعات في الفكر والاعتقاد، وذلك مبدأ لا نكوص عنه بالنسبة إلينا على الأقل.

مسح على كتف وكم بدلته الزرقاء اللامعة، ثم تابع وهو ينظر إلى نقطة مجهولة في سقف الصالة.

- إنهم مذعورون من التغيير، ولعلهم يختبرون إرادتنا من ناحية، ويوهمون الجماهير في الشمال بحرب وشيكة على الإسلام بمجيئنا من ناحية أخرى، وفي كلتا الحالتين لابد لنا -كما أكد لي الـChairman- من دعم السيدة عرفة إلى آخر رمق، فهي واحدة منا وكذلك زوجها الرفيق موريس، وذلك حقّهما علينا!

كان حديثًا سياسيًا لم يغب عن عرفة. سار على أثره بقية كلام الحضور لما يقرب من ساعة كاملة. تخللته حكايات وقفشات جمعتهم بزعيم الحركة الراحل جون قرنق، وضجت الصالة بالضحك على وقع العبارات المتهكّمة على الإسلاميين الذين يحكمون البلد. باستثناء الكلمات القليلة التي استهل بها المستشار حديثه فإن تعليقات رفاقه الآخرين خلت من أي إشارة إلى القضية التي تكبدوا مشاق السفر من أجلها من الخرطوم. لم يجد أي منهم، عرفة وموريس والأستاذ هاشم، ما يتحدّثون فيه. نُسيوا في زحمة الحكايات المتداخلة التي تأخذ من أذيال بعضها بعضًا. لقد جاءوا من أجل أنفسهم وليس من أجلنا، قالت عرفة لنفسها وهي تتأمل الأفواه الضخمة، تقرقر بالضحك تارة، وتحول لغة الحديث إلى الإنجليزية تارة أخرى.

نظرت في وجه موريس فوجدته مطرقًا، هادئ القسمات، يستمع بإنصات إلى حكايات رفاقه، ولعله ذاب فيها ونسي نفسه كذلك. نظرت إلى الأستاذ هاشم، كان عاقدًا يديه حول صدره ينظر إليهم بامتعاض. التقت نظراتها أخيرًا بالأستاذة بثينة، رمشت عيناها رمشات متتابعة كما لو أنها استشعرت الحرج، ثم أزاحت ظهرها عن المقعد متحفّزة ريثما

يفرغ أحد الرفاق من حكاية له مع الدكتور جون قرنق في طائرة متوجّهة إلى عنتيبي الأوغندية.

- عرفة هذه بنتي، وأعرفها جيّدًا منذ أيام عملها معي في مكتبي في هذه المدينة ولعلكم تفاجأون الآن بهذه العلاقة. لعلّها تعلمت الجسارة من تلك الأيام التي حفلت بمحاكمات سياسية تشهد لها ذاكرة المدينة، لكنها تجد نفسها اليوم في أمسّ الحاجة إلى وقفتنا.

أومأت الرؤوس بالإيجاب رغم الكدر الذي بان على الوجوه إثر قطع سيل الذكريات. وضعت كفها على فخذ عرفة بينما كانت نظراتها موزعة بين المستشار والأستاذ هاشم.

- بقي على بدء المحاكمة يومان اثنان، وسأبقى في مدينتي لأنضم إلى الأستاذ هاشم للدفاع عن عرفة وموريس، ونرحب بكلّ من يتطوع للانضمام إلينا من محامي الحركة. لا بد أن تكتظ قاعة المحكمة بالعشرات من رفاقنا المحامين، ففي ذلك رسالة ضرورية!

انعقد حاجبا الأستاذ هاشم بين عينيه، ورأت عرفة سحابة كدر عبرت فوق جبهته لبرهة لكنه لم ينبس بشيء. أيَّدها أغلب الجالسين بمن فيهم موريس، بيد أن المستشار اعتدل في جلسته وقال:

- لا بد أنها محاكمة سياسية، وهذا جيد لأنه يُكسِبها نوعًا من الضجيج الذي نحتاجه في هذه المرحلة. ما نودّه حقًّا هو فضح القوانين التي يُحكم بها هذا البلد أمام العالم. يكفي انضمام الرفيقة بثينة إلى محاميهما، وسنتابع الأمر عن بعد.

وقف على ساقيه الطويلتين، ووقف في إثره الآخرون، وصافحوهم ثم غادروا في موكب ضاحك، إذ سرعان ما استأنفوا حكاياتهم.

عرفة وموريس كانا يتطلّعان إلى بعضهما. شعرت عرفة بالامتعاض وخيبة الأمل من هذه الزيارة لكنها لم تقل شيئًا. رأت في وجه موريس قلقًا عجزت عيناه عن إخفائه. عاد الأستاذ هاشم برفقة الأستاذة بثينة بعد

أن ودّعا ضيوفهما، وجلسا معهما نصف نهار بكامله، يأكلون ويناقشون خطة الدفاع التي أعاد الأستاذ هاشم شرحها بالتفصيل، وشاركته الأستاذة بثينة باقتراح بعض التعديلات. بيد أن ثلاثتهم أبدوا حماسةً لفكرة التمسّك بمسيحية عرفة بعد أن جاهد كل من موريس والأستاذ هاشم ووكيل النيابة السابق طويلًا لإقناعها بالتخلّي عنها، وذلك وحده ما هوّن عليها أثر تلك الزيارة المرهِقة.

غادروها قبل مغيب الشمس بقليل بمن فيهم موريس. جاءت الشرطية وأخذت ما تبقى من طعام ثم أغلقت عليها الأبواب وراحت. بقيت وحدها مع الألم الحاد الذي انفجر أسفل بطنها بسبب الجلوس الطويل. جرّبت المشي قليلًا فلم يُجدِ، فدخلت غرفتها واستلقت على جنبها لا تقوى على شيء. راح الألم يخف شيئًا فشيئًا حتى غفت في رقدتها.

لبثت وقتًا لا تعرف مقداره، لكنها عندما استيقظت على صوت الشرطية وهي تقرع الباب وتنادي عليها، شعرت براحة في جسدها. أظلمت الدنيا خلف النافذة، وتكثف الهواء برطوبة ثقيلة، خنقت أنفاسها واستحلبت العرق من جسدها المتعب.

- لديك ضيوف. يبدو أنني لن أخلص من متاعبك اليوم!

قالت وهي تفتح مزلاج الباب من الخارج، ثم غادرت. تهالكت على الكنبة الكبرى أمام الغرفة تنتظر مجيء الضيوف، بينما كانت خطوات الشرطية تبتعد، وكان لوقع أقدامها على طبقة الحصى التي تغطي الحوش صوت مثل القرمشة في الفم. سمعت بعد ذلك صوت مزلاج الباب الخارجي وهو يفتح، ثم همهمة بعيدة، وأصوات أقدام تهرس الحصى وتقترب.

اعتدلت في جلستها وركزت بصرها على الباب تنتظر القادمين الذين لا تعرف هويتهم. حسبتهم رهطًا آخر من جماعة الحركة الشعبية الذين

زاروها في النهار، أو رسلًا من جماعة سياسية أو دينية أخرى فانقبض قلبها. لم تبق فيها طاقة ولا عزم لجدل جديد.

كان الحوش معتمًا، لكن ضوء الصالة رسم مربعًا من الضوء عبر الباب المفتوح، وإذا بقدمين منتفختين داخل حذاء طبي تدخلان مربع الضوء على مهل. كانتا مثبتتين، مثل قدمي تمثال، فوق مسند أقدام المقعد المتحرك. خفق قلبها بينما كانت تنقل بصرها إلى الأعلى مع حركة الضوء الصاعدة فوق المقعد والجسد الذي يحمله. رأت جلبابًا أبيض. شالًا حائل اللون. كفين معروقتين ترتعشان، وعلى ظهر إحداهما كانيولا طبية زرقاء. دخل الوجه الذي تعرف. بدا أكثر شحوبًا وأقل رغبة في الحياة. صرخت متلهفة.

- أبي!

تحاملت على جسدها المنهك وبطنها المثقلة حتى بلغت مكان مقعده عند الباب. قبّلت رأسه ويده، لكنه سحب يده من يدها وتظاهر بعدم الرضا، رغم عينيه اللتين كانتا تموران بالضعف والعطف. صافحت البقية، أحد أبناء عمتها خلف ظهر المقعد. عمّتها التي تتوكأ على عصا. الدكتورة هناء ابنتها، ووكيل النيابة الجديد بوجهه الذي يُشبه الخبر السيّئ. جلسوا جميعًا وجلست، ثم قال أبوها بصوت واهن لا يكاد يسمع.

- كيف حالك يا حياة؟

- بخير والحمد لله!

افتر فاه ببسمة ساخرة.

- حسنًا أنك لا تزالين تذكرين الله وتحمدينه!

لو لم يكن وكيل النيابة حاضرًا لقالت كلامًا آخر. أطرقت إلى الأرض ولاذت بالصمت.

- كما ترين، ليس بيني وبين القبر سوى أمتار قليلة، وأخشى أن يسألني الله عنك ويحاسبني على تفريطي بك. لو كان لي عندك خاطر

أسألك أن ترحمي ضعفي وتعودي عن هذه الطريق، ولك بعد ذلك أن تطلبي ما تشائين.

- لا أطلب غير رضاك ومغفرتك يا أبي.

- بل اطلبي مغفرة الخالق، وأما رضاي فرهينٌ بتعقلك.

ثم تابع على النغمة نفسها:

- لطالما كنتِ عاقلة وراشدة يا ابنتي، وعارفة للحق وتابعة له، ماذا جرى لعقلك؟

تنحنحت عمتها وقالت:

- أبوك قلبه طيب، ولم يكن في خاطره أن يتسبّب لك بالمتاعب، وقد جاءك اليوم بنفسه ليصلح سوء التفاهم. إلعني الشيطان وحكّمي عقلك.

اكتسى وجهها بشيء من الحماسة وهي تتابع:

- جئنا في معية وكيل النيابة لنؤكّد لك أننا مستعدون لشطب القضية صباح غد، ولك بعد ذلك ما تطلبين.

- لا أطلب شيئًا، أتركوا لي حياتي وزوجي.

- بل ستفقدينهما معًا إذا أكملت في هذا الطريق.

قال وكيل النيابة وهو يميل بجسده إلى الأمام ويعقد كفيه بين فخذيه.

- أرجو ألا يكون أولئك الكذابون الذين زاروك في الصباح قد خدعوك، بأنهم سيتعهدون بحمايتك وينقذونك من سيف القانون. هؤلاء سياسيون لا هم لهم إلا المتاجرة بأمثالك، وهذه نصيحتي لك.

- شكرًا، لا أحتاج حماية أو نصيحة من أحد، سيحميني القانون.

- قضيتك خاسرة. أنا رجل قانون وأعرف بم أتكلم.

- وأنا مؤمنة بما أفعل، ويكفيني ذلك.

نفث وكيل النيابة غاضبًا، وتعكّر وجه أبيها، وانكمشت عمتها في مقعدها. ظل ولدها يتأمل عرفة بضيق، فيما الدكتورة هناء تضع ذقنها بين كفَّيها مطرقة إلى الأرض. هي كذلك كلما رأتها، وكأنما تشعر بالذنب.

- غدًا تُساقين إلى حبل المشنقة، وتقابلين ربك كافرة وآثمة. يعز عليّ هذا لذلك جئت قبل أن يقع المحظور، لم لا تريدين أن تريحي أباك وهو على حافة القبر؟ ما الذي تجنينه من هذا العناد سوى تعذيبي وسوء سيرتي بين الناس؟ أليس في قلبك مكان للرحمة؟

قال الأب وأجهش بالبكاء مع آخر كلمة. انقبض قلب عرفة. قامت إليه تقبل رأسه ويديه وهو عاجز حتى عن صدها. ضمت رأسه إلى صدرها وبكت معه. رثت لحاله وحالها.

- تمنيت لو أني مت قبل هذا يا أبي، لكن الموت يأبى. لقد واجهته ألف مرة، وكان في كل مرة يهزأ بي ويتخطّاني، كأنما يتلذّذ بتعذيبي كلما سنحت له فرصة. أرجو من كل قلبي أن تأخذني المحكمة إلى حبل المشنقة وأرتاح مرة وإلى الأبد من هذا العذاب الذي لا نهاية له.

- هوّني عليك يا ابنتي، الأمر بسيط وواضح.

قالت عمتها بلهجة محايدة خالية من العطف، ثم تابعت:

- إن الدين عند الله الإسلام، ولا فلاح في الدنيا أو الآخرة لمن حاد عن هذا الطريق. أما آخر ما نقوله لك، فإن الفرصة لا تزال أمامك لكي تفكّري، ولك منا بيت وزوج تختارينه على هواك وحياة رغيدة.

ثم وقفت متّكئة على عصاها:

- هيا بنا يا عثمان.

(42)

لم يقبل أي من سائقي الشاحنات الطيبين أن يقلني في تلك الصحراء، لا سيما أولئك الذين يؤمنون بالنحس، ويحتفظون في ذاكرتهم بقصص كثيرة عن الجن الذي يخرج للسائقين من اللامكان، في هيئة معروفة أو هيئة غامضة ومركّبة، تنزع إرادة الضحية ثم تقودها في رحلة مجهولة إلى عالمها.

مع غروب الشمس توقف لي سائق شاحنة مخمور. كانت شاحنة لوري بقمرة قيادة واسعة تتسع لشخصين أو ثلاثة إلى جوار السائق. صعدت إلى مقدمة اللوري الذي كان يحمل شحنة من جوالات الفحم.

- أهلًا بالجن ذاته!

قال السائق المخمور. كنت جائعة وعطشى. لساني ملتصق بسقف حلقي ويابس مثل حطبة. نزل المعاون من مكانه إلى جوار السائق ليفسح لي ثم جلس إلى يساري لأكون في الوسط تمامًا. طلبت منهما الماء قبل أن يتحرّكا. نزل المعاون وجاءني بقربة ماء ندية، كانت معلقة على جانب اللوري. رحت أعب منها حتى شعرت بانقباض في معدتي بسبب الجوع. ضحك السائق، وقال بلسان ثمل:

- بنت الغلفاء، هل تشرب الجنيات هكذا؟!

حرك عصا ناقل السرعة إلى الأمام فتدحرجت الشاحنة.

- بقي أمر واحد لا بد أن نتأكد منه، هل تخفي تحت هذا الجلباب مفتاحًا أم قفلًا؟

وأشار بيديه إشارات بذيئة. تذكّرت أنني عارية تمامًا تحت جلباب

المزارع الذي أرتديه، وشعري منفوش ومغبر. قدماي حافيتان وكأني هاربة من قبر. لا أذكر كيف كان وجهي الذي لم أره في مرآة منذ وقت طويل. نظر السائق إلى جانب وجهي نظرة مطولة على الضوء الشحيح المنعكس من تابلوه الشاحنة، شعرت بها.

- عيناها خضراوان، عينا جنّية حقيقية!

اتصلت ضحكته قبل أن يستطرد:

- هذه أول مرة أرى فيها جنية نصف رجل ونصف امرأة!

وضع يده على نهدي بحركة مباغتة، فذُعِرْت ودفعتها بعيدًا. غافلني مجددًا وحاول أن يرفع جلبابي إلى الأعلى فأسرعت بوضع يديّ فوق ركبتيّ فعاد إلى لمس صدري. راح يضحك وينتقل من مكان إلى آخر على جسدي، يلكزني حينًا ويقرص خدي حينًا آخر ويضحك على رد فعلي في كل مرة. لم أجد بدًا من عقد يدي فوق ركبتي ودفن رأسي بينهما لأمنع عبثه.

مرت دقائق قليلة كفّ فيها عن فعل أي شيء وسمعته يغني. كان صوتًا عذبًا، لكنه انقطع فجأة. أبطأت الشاحنة سيرها. رفعت رأسي فوجدته يصارع المقود وناقل السرعة بحركات سريعة متتابعة تنم عن مهارة، حتى عبرت الشاحنة بُحيرة رملية تسد الطريق بعناء ملحوظ.

في أثناء ذلك راح المعاون يعابثني أيضًا، مرة بمحاولة تقبيلي وأخرى بوضع يده على نهدي وثالثة بملامسة فخذي من خلال فتق في جلباب المزارع الذي لم يكن يستر جسدي كما ينبغي. رحت أبكي، مصالبة يديّ فوق صدري، ومتوسلة إليهما لكي يتوقفا. لا أذكر كم مضى من الوقت قبل أن تتوقّف الشاحنة في مكان من تلك الصحراء اللانهائية، وتهمد تمامًا.

أدخل المعاون يده تحت المقعد ومد إلي كيسًا من الموز. نزلا إلى الأرض، وسمعت صوت السائق وهو يأمر معاونه أن يُنزل السرير من

فوق الشاحنة وكذلك الطعام والخمر والبنقو. لم أذق طعامًا منذ الليلة الفائتة. أكلت حبتي موز فهدأ الجوع قليلًا.

رفعت رأسي. كان شبح السائق ممددًا على كثيب رملي إلى اليمين من الشاحنة وقد أشعل سيجارة، صبغت جمرتها المتّقدة ما حولها بوهج أحمر. أدرت بصري ناحية الصحراء عبر الزجاج الأمامي. رأيت سهلًا ممتدًا بلا نهاية. ألقيت نظرة من النافذة. ثمة أضواء بعيدة في الأفق، لسيارات تقترب قليلًا ثم تختفي خلف الكثبان الرملية. شجيرات قليلة متناثرة تحت ضوء القمر مثل الأشباح. نظرت إلى قبة السماء الصافية برجاء كبير، كان القمر في تمام كماله، محاطًا بجيش هائلٍ من النجوم البراقة المتلألئة، لكنه رغم سطوعه وسيادته على السماء بدا لِي حزينًا، ووحيدًا.

لن تمر هذه الليلة قبل أن يغتصباني. أنا أكيدة من ذلك. فكّرت مجددًا في الهرب، لكن إلى أين؟ لا بد أنها حماقة جديدة، ربما تقودني إلى مأساة أخرى. ليس في جسدي موضع يحتمل ألمًا، وليس فيّ طاقة لمقاومة أي عنف. هل بات علي أن أتقبّل قدري هذه المرة؟ أم إنه استسلام مخزٍ؟ دعاني السائق للأكل معهما فاعتذرت، ولم يجد بدًا من أن يرسل إليّ المعاون بنصيبي من قطع الخبز والجبن والحلاوة الطحينية. أكلت قليلًا ثم وضعت الباقي جانبًا.

بقيت في قمرة الشاحنة، أنتظر المأساة الجديدة. لا بد أنها آتية. هبت نسمة لطيفة. سرى في جسدي خدر لذيذ واستلقيت في وضع شبه جنيني على كنبة القمرة الطويلة. كنت متعبة. حمل إليّ الهواء المنعش صوت السائق العذب من جديد، وهو يغني، ويشاركه المعاون على إيقاع جالون فارغ.

غفوت في مكاني وقتًا لا بأس به. بيد أنها لم تكن إغفاءة متصلة، وذلك بسبب الخوف. مال القمر كثيرًا ناحية الأفق الشرقي. كانا يتحدثان حديثًا خفيضًا، تجيء به الريح وتذهب. يقهقهان أحيانًا، وتعلو أصواتهما

الثملة بين حين وآخر. رفعت رأسي ونظرت إليهما، كان السائق النحيل مضطجعًا تحت ضوء القمر، فوق السرير القصير الذي يبرز ساقيه الطويلتين من حافته الأخرى، بينما تمدّد المعاون على ظهره فوق الرمل يدخن سيجارة. ما الذي يمكن أن يشغلهما عني في هذه الليلة؟

نمتُ مجدّدًا. أفقت مجددًا على همهماتهما داخل قمرة الشاحنة. أهلًا بالفجيعة. السائق عند رجليَّ إلى جوار عجلة القيادة والمعاون عند رأسي، تفوح منهما رائحة الخمر. انكمشت على نفسي من شدّة الذعر. سحب السائق قدمي بقوة، وراح المعاون يضم يديّ إلى بعضهما ويربطهما بحبل إلى قائم النافذة خلف رأسي. ملأت صمت الصحراء بصراخي المرير. قاومت قدر حيلتي، لكنهما غلباني في النهاية.

تناوبا على جسدي أغلب الليل. رأيت من خلف دموعي أضواء الفجر وهي تصعد في الأفق. فكا قيدي وابتعدا. كلما خرجت من اغتصاب، كنت أشعر بألمٍ فظيع. ألمٌ يصعب وصفه لأنه ليس جسديًا فحسب، بل يدمّر الروح!

احتجت إلى وقت حتى تمكنت من ضم ساقيَّ إلى بعضهما واستعادة يدي من خلف رأسي. جلست بصعوبة. دفنت وجهي المتورّم من شدة البكاء بين كفَّيَّ، لكن سيلًا لزجًا راح ينهمر بين ساقي. غمرت رائحته الكريهة فضاء القمرة الضيّق حتى صعدت إمعائي إلى حلقي ومنعتُ نفسي من التقيؤ بصعوبة.

قال السائق بصوته الثمل، الكريه:

- لعلك تحتاجين إلى الخلاء.

لذت بالصمت. جاءني المعاون بإبريق ماء وجلباب رجالي آخر رماه في حجري ثم لحق بصاحبه وجلسا في الجهة الأخرى من الشاحنة. مسحت المكان بنظرة شاملة. الكثبان الرملية تمتد إلى نهاية الدنيا. اخترت شجرة عُشر قصيرة، كثيفة الأغصان وجلست خلفها.

خلعت جلباب المزارع المتّسخ خلف الشجرة، وأفرغت مثانتي وما خلَفه الوغدان في أحشائي قدر ما استطعت. نظّفت نفسي جيدًا بالماء وانتظرت حتى جفف هواء الفجر جسدي. وضعت عليه الجلباب الذي رماه إليّ المعاون.

أوصتني أمي في يوم ختاني، وأنا ابنة خمس، بألا أفتح ساقيَّ لرجل مهما كان عذري في ذلك، وألا يطلع على هذا المكمن السري الذي ظنّت أنها أحكمت إغلاقه أحد من الناس، مهما كانت مكانته أو درجة قربه مني. تذكّرت تحذيرها المرفق بالرجاء، أن البنت التي تفعل ذلك ملعونة ومطرودة من رحمة الله.

- تسعة رجال حتى الآن يا أمي، تسعة وليس واحدًا. رأيت اللعنة لكنني لم أر تلك الرحمة.

غسلت وجهي. كان باردًا منتفخًا مثل وجه جثة. عدت إلى الشاحنة، ووجدت أن المعاون بدل فرشة المقعد القطنية ذات الغطاء البنفسجي بأخرى زرقاء جافة وخشنة، وأشعل السائق عودًا من الند وغرزه في مكانٍ قرب المرآة. شغّل مسجلة الكاسيت فصدح صوت مغنية. جلست في مكاني مرة أخرى، وأخفيت وجهي المتورم بين كفَّيَّ. سارت الشاحنة من جديد في طريقها الترابي المتعرج. كان صوت المغنية الحادّ والمسطّح كلوح معدني يوجع رأسي. فكرت أن أطلب منه إيقاف المسجلة أو خفض الصوت لكنني عدلت عن ذلك. تجمّع الوجع كله خلف عيني اليسرى، ثم زاد مع الوقت، ومع طنين المسجلة وهدير الشاحنة نبت في شق رأسي الأيسر صداع حادّ.

- هل تعرف الشرطي الذي سيوفر لنا تصريح المرور في طوكر؟ لأننا عند...

وقبل أن يكمل السائق حديثه سقطت مقدمة الشاحنة في حفرة في الطريق، فارتجّت بشدة. قفزنا إلى الأعلى وأفلت وجهي من بين كفَّي

وصمتت المسجلة. عندئذٍ، رأيت شبح مدينة في البعيد خلف طبقة من الغبار العالق. أعتقت وجهي المتورّم وعقدت يديّ فوق صدري أتأمّل الطريق الرملية المتعرّجة وقد استعادت السيارة إيقاع سيرها.

- إنه قريبي، وسأذهب إلى بيته مباشرة، لا تقلق.

قال المعاون وهو يعيد بعض أشرطة الكاسيت التي سقطت على أرضية القمرة إلى مكانها فوق إطار الزجاج الأمامي، قريبًا من المسجلة التي عادت تومض بأضواء حمراء وزرقاء متقطعة. التقط المعاون شريط كاسيت آخر وألقمه المسجلة فصدحت بموسيقى عود رتيبة أعقبها صوت منفّر يشبه عزيف الريح. كنّا قد اقتربنا من المدينة ولاحت بيوتها الطينية بوضوح، وبعض حوائطها وأسقفها العالية التي بناها الإنجليز.

- سنتوقّف في مقهى محمد نور، نشرب بعض الشاي والقهوة وتذهب أنت إلى قريبك وتأتي بالتصريح.

ثم التفت ناحيتي.

- هل تقصدين طوكر أم ستواصلين الرحلة معنا إلى بورتسودان؟

كان كريهًا. تمنّيت لو أنني استطعت قتله وقطع عضوه بالسكين، وتركته سابحًا في دمه مثلما فعلت مع المزارع الأصم. أشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى، إلى النافذة، أتأمل السهل الرملي المغسول بضوء الشمس الساطع في تلك الساعة من الصباح. لاح في البعيد ما يشبه مدرسة، بلا أسقف وبلا سياج ينوس داخلها حمار عليه بردعة، وبقايا شاحنة قديمة صدئة نصفها مدفون في الرمل إلى جانب الطريق. مرّت خلال النافذة سقائف كثيرة متناثرة من دون نظام وتتصاعد من بعضها أبخرة شواء ودخان حطب، ثم التصقت مع بعضها وبدت أكثر تنظيمًا مع اجتيازنا للحد الفاصل بين الأرض الرملية الرخوة وتلك المتماسكة حيث يقوم السوق.

- اسحب ستارة النافذة.

قال السائق مخاطبًا المعاون بلهجة آمرة. أطلق مزمار الشاحنة المضبوط على نغمة شعبية، يُعلم الجميع بوصولنا. حشر الشاحنة بين سقيفتين، تاركًا ذيلها الطويل في ساحة السوق. قفز المعاون قبل أن تتوقّف الشاحنة واتجه ناحية صبي جالس فوق عربة كارو يجرّها حمار، تحدّث إليه قليلًا ثم قفز إلى جواره وتحرّكت بهما العربة. تابعتهما بنظراتي حتى غابا داخل زحام السوق.

- لا تتحركي من مكانكِ حتى أعود إليك.

قال السائق بلهجة آمرة أيضًا. غاب قليلًا ثم عاد يحمل صحنًا مملوءًا بالزلابية الساخنة وصينية عليها كوب كبير من الحليب الممزوج بالشاي.

- سأدبر لكِ بعض الملابس النسائية وأعود.

قضمت قطعة زلابية ورشفت معها شيئًا من الحليب لكنني لم أستطع دفعها إلى جوفي إلا بصعوبة كبيرة. صعدت غصة إلى حلقي. رحت أبكي مجددًا واضعة وجهي بين كفَيّ. أظنه جاء خلال نوبة البكاء ووضع كومة الملابس إلى جواري وغادر.

قلّبت الملابس فإذا هي جلباب قطني واسع بخطوط طولية حمراء على أرضية برتقالية وتبرز من بين الخطوط ورود صغيرة خضراء وصفراء، وثوب سوداني برتقالي بالكامل مع حذاء أسود. كان الحذاء أكبر من رجلي بدرجة واحدة وخمار مطاط بنفسجي اللون.

أحكمت ستائر النوافذ جيدًا ثم خلعت الجلباب الرجالي إلى منتصف جسمي من أعلى، وأخفيت صدري خلف يدي اليسرى وارتديت الجلباب النسائي بيدي الأخرى ثم وقفت نصف وقفة ونزعت الجلباب الرجالي إلى أسفل وأسدلت الآخر على ساقيّ. جمعت شعري كله إلى الخلف وأخفيته داخل الخمار البنفسجي ثم لففت جسدي كله بالثوب البرتقالي كما تفعل النساء في بلادنا. وضعت قدمي داخل الحذاء الواسع وجلست عندئذ كامرأة.

اقتربت من المرآة بحذر ونظرت إلى وجهي. كان أقل ورمًا مما توقّعت وأشد شحوبًا من أي وقت مضى. كان لونه الخمريّ مائلًا إلى الحمرة وطافحًا بالحزن والمرارة. تتوسطه عينان خضراوان مدفونتان في محجرَين متورّمَيْن، تحت جبين ذليل ممرغ في الخزي. كانت شفتاي يابستين، وتنطبقان بأسى على فم صغير كأنه جرحٌ على وشك أن يندمل. رأيت وجه جثة جديرة بالشفقة. أدرت المرآة إلى الناحية الأخرى ولم أنظر فيها بعد ذلك أبدًا.

(43)

في يوم الأحد الموعود، حضرت شاحنة الشرطة مبكرًا لتأخذها إلى المحكمة. وقفت لبرهة تتأمّل الشارع الخالي من المارة والسيارات في ذلك الوقت من الصباح.

استيقظت المدينة ثقيلة الحركة، مكتومة الأنفاس، وكأنها باتت ليلتها داخل قِدر بخار. صعدت الشمس كسلى خلف طبقات من الضباب العالق في الجو، ولامست أشعتها الباهتة أسقف البيوت ونهايات الأبنية.

كانت أطرافها ترتعش، ورأسها ثمل بدوار خفيف. ليلتان متتاليتان لم تنم فيهما إلا غفواتٍ متفرّقة. يؤلمها الآن أسفل بطنها كما تؤلم طعنة النصل. وجدت موريس داخل قفص سيارة الشرطة، مطأطئًا رأسه كما لو كان مساقًا إلى الإعدام. أجلسوها بين شرطيتين قبالته. بادرت بالتحية.

- صباح الخير، هل نمت جيدًا؟

- صباح النور. ليس كثيرًا.

ردَّ بصوت واهن من دون أن ينظر إليها في عينيها. شعرت بالقلق. تحرّكت الشاحنة في الطريق نحو مجمَّع المحاكم. وصلته في غضون دقائق قليلة، مقدار ما تأملت عرفة وجه موريس المحتقن، المشرّب بحمرة مزعجة. عيناه مثل جمرتين مدفونتين داخل جفنين متورّمين. لم تكن المسافة بين سجنها وبين مبنى المحكمة سوى عطفتين اثنتين فقط.

- هل كانوا يضربونك في السجن؟

هز رأسه نافيًا. نظر إليها الشرطيان اللذان يحيطانه في وقت واحد، نظرة تنم عن احتجاج صامت. ترجّلا من الشاحنة عند باب المحكمة.

كان منظر الحشود حول المحكمة لافتًا. فإلى اليمين من باب المحكمة كان يقف طيف من أهلها، بجلابيبهم وعمائمهم وصديرياتهم الملونة. لم تُطل النظر إليهم. إلى اليسار وقفت جباه زنجية كثيرة تلمع بالعرق تحت وهج الشمس. أكثرهم من مناصري الحركة الشعبية وجماعات حقوقية، كان بعضهم يقف خلف لافتات من الورق تطلب العدالة لها ولموريس. مجموعة أخرى أقل عددًا كانت في مواجهة بوابة المحكمة، على الجهة الأخرى للشارع تحمل لافتات لم تتمكن من قراءة محتوياتها، بيد أن لحاهم الكثة وهتافاتهم التي كانت تلعنها وتطالب بشنقها أغنتها عن ذلك.

وُضعا في قفصَين منفصلين داخل قاعة المحكمة، لكنهما متجاوران. يفصل بينهما سياج من الحديد. كان موريس واقفًا بينما طلبت عرفة مقعدًا فلبوا طلبها.

- هل تعرّضت للتعذيب؟

- لا، مجرد إرهاق وسيزول من تلقاء نفسه.

قال لها بنبرة تشي بالضيق فالتزمت الصمت. إلى يمين القفصين، وتحت منصة القاضي، وقف محامياهما الأستاذ هاشم في روب المحامين الأسود والأستاذة بثينة في ثوبها الأبيض الناصع تحت روب المحامين. كانا يقفان متجاورين أمام منصّة صغيرة، ومقابلهما في الجهة الأخرى وقف محامي الادعاء في منصة مشابهة، قريبًا من منصة وكيل النيابة.

كانت القاعة مكتظّة بالحضور، وتفوح منها رائحة أنفاس وعرق. جلس أبوها في المقدّمة على مقعده المتحرّك وإلى يمينه أحد أبناء عمتها، وإلى يساره عمتها بركة وابنتها الدكتورة هناء مطرقة إلى الأرض ووجهها على كفها. في نهاية الصف المقابل كانت تجلس صابرة شقيقة موريس وبعض أهلها. خلف هؤلاء جميعًا غصت القاعة بخلق كثير.

- محكمة!

صرخ شرطي يقف أمام باب صغير إلى يمين منصة القاضي. أفزعها. وقفت القاعة كلّها عدا أبوها. دخل من الباب الصغير، حيث يقف الشرطي، قاضٍ قصير القامة، نحيل، يرتدي بدلة سفاري رمادية يتأبط ملفًا حائل اللون. جلس على مقعده فجلست القاعة من بعده. سرت في الجو همهمة خافتة أوقفها القاضي ذو الوجه الصغير والشعر المبيّض المجعد بضربتين من مطرقة خشبية إلى يمينه.

- بسم الله الرحمن الرحيم. تبدأ محكمة بورتسودان العامة، تحت نظر قاضي المحكمة العامة أزهري عبدالرحمن صديق، الجلسة الإجرائية الأولى في الدعوى المقدّمة من السيد عثمان إبراهيم صابراي وآخرين، ضد السيدة حياة عثمان إبراهيم صابراي، المشهورة بعرفة، والسيد موريس عبده سانتو، ولائحة الاتهام الواردة في عريضة الدعوى.

افتتح القاضي الجلسة ثم نادى على اسماء المدَّعين والمدَّعى عليهما، وعلى فريقي الدفاع فأكدوا حضورهم جميعًا. انكبَّ طويلًا، يدوّن شيئًا على الورق، ثم التفت إليها وإلى موريس وسألهما إن كانا يعانيان شيئًا في السجن أو يحتاجان شيئًا. رفعت عرفة يدها وطلبت معاينة الطبيب. فقد تجاوز حبلها شهره السابع وتعاني من آلام حادّة في أسفل بطنها وتورمًا في ساقيها وزيادة في خفقان قلبها. أمر لها القاضي بما طلبت ثم أعلن تأجيل النظر في الدعوى إلى موعد آخر.

***

في الجلسة الثانية التي انعقدت بعد نحو أسبوعين من الجلسة الأولى للمحاكمة، وبعد أن تلى وكيل النيابة لائحة الدعوى وخلاصة التحقيق سأل القاضي عرفة عن اسمها وسنها وعنوانها، ثم عن رأيها في ما نُسب إليها.

- سيدي القاضي، إنني أرفض الادعاءات كلّها. أنا امرأة مسيحية وتزوّجت رجلًا مسيحيًا أمام القسيس في الكنيسة.

- اسمك يدل على أنك مسلمة يا حياة، أليس كذلك؟

- لم أختر اسمي سيدي.
- مسيحية بالميلاد أم بالاختيار؟
- بالاختيار سيدي.
- متى اعتنقت المسيحية؟
- قبل عام تقريبًا!
- وما هو الدين الذي كنت تعتنقيه قبل ذلك؟
- لا شيء!
- ماذا تعنين بلا شيء؟
- لم أكن على أي دين سيدي!
- شكرًا.

ثم سأل موريس عن اسمه وسنه وعنوانه، وما إذا كان زواجهما قد تم في كنيسة معلومة وعلى يد قسيس مصرّح له بذلك، فأجابه موريس على قدر أسئلته. انكبَّ القاضي يدوّن على الورق قبل أن يمنح الفرصة لمحامي الادعاء لاستجوابهما.

- سؤالي موجّه للسيد موريس عبده. ما هي معلوماتك عن الدين الذي كانت تعتنقه السيدة حياة/ عرفة قبل الارتباط بها؟
- ليست لديّ أي فكرة عن دينها سيدي. ولم أسألها!
- متى علمت بأنها اعتنقت الدين المسيحي؟
- قبل زواجنا بشهر تقريبًا.
- شكرًا. سؤالي التالي للسيدة عرفة.

رد بصره إلى الأوراق التي بين يديه قبل أن يستل منها واحدة. وضع نظارة القراءة فوق أنفه ثم قرب الورقة إلى وجهه.

- في يوم السبت 16 يوليو تموز 2005 قُدمتِ والسيد موريس إلى محكمة النظام العام، وحكم القاضي على كليكما بالجلد والغرامة، هل هذا صحيح؟

- نعم سيدي.
- هل تذكرين التهمة؟
- الفعل الفاضح كما أظن.
- شكرًا. هل تذكرين ماذا كان جوابك لمولانا القاضي حين سألك عن دينك؟
- لا أذكر.
- كم كان عمرك وقتها؟
- أربع وعشرون سنة تقريبًا.
- لقد أكدت للقاضي أنك مسلمة.
- لم أقل إنني مسلمة. القاضي هو الذي قرّر ذلك.
- بناء على ماذا؟
- ربما بناء على اسمي. لا أعرف على وجه الدقّة.
- لكنك لم تعترضي؟
- لم يمنحني القاضي فرصة للكلام.
- أكتفي بذلك. شكرًا جزيلًا.

كان أبوها مطرقًا إلى الأرض، واضعًا جبهته على كفه بينما كانت أصابع يده الأخرى تنقر فوق يد المقعد بلا مغزى، وإلى جواره عمتها تدير مسبحتها في هدوء ونظرها مركّز على القاضي. لم تحضر الدكتورة هناء هذه الجلسة، وافتقدت عرفة إطراقها الأسطوري. أعطى القاضي الفرصة لفريق الدفاع، فطلبت الأستاذة بثينة توجيه أسئلة إلى المدَّعِي، والد عرفة، بيد أن القاضي رفض طلبها من دون أن يعلّل. سجلت اعتراضها على الأسئلة التي وجهها محامي الادعاء إلى عرفة ثم تابعت:

- سيدي القاضي. الدعوى في حق موكليَّ معيبة قانونًا، في شكلها وفي مضمونها، وهي بلا ريب تتعدّى على حقوق موكليَّ الشخصية تعدّيًا سافرًا. نثق في عدالة المحكمة التي لن يطمئن ضميرها الموقّر إلى مسببات

الدعوى وتتخذ على أساسها حكمًا. سيدي القاضي، لا يحقّ لأي كان، حتى لو كان والد السيدة حياة/ عرفة أو من في حكمه من القرابة أو الصلة بها، أن يتدخّل في حياتها على هذا النحو الذي يتجاهل إرادتها في اختيار دينها وشريك حياتها، ورغبتها في البقاء على رباط الزوجية مع شريكها مدى الحياة. كلا الزوجين، عاقل بالغ ويملك الحق نفسه في تقرير أي شأن من شؤونه من دون وصاية من أحد. إنني أطلب من المحكمة الموقّرة شطب الدعوى لبطلان الأركان القانونية القائمة عليها ولانتفاء أي مبرر للوصاية على السيدة حياة/ عرفة والتدخل في اختياراتها الشخصية.

استمرت الجلسة ساعتين أخريين. انقضت سجالًا بين المحامين. تابعت عرفة باهتمام زائد مرافعاتهم المخلصة رغم ما كانت تعانيه من آلام ومتاعب طعنات النصال أسفل بطنها، وشعورها المتصل بالغثيان. استغرقتها تلك السجالات إلى حد الإعجاب، وكأن الذين يصطرعون فوقه أمر آخر لا يعنيها. أعجبتها شراسة الأستاذة بثينة وقدرتها على مراوغة خصومها واستدراجهم إلى الفخاخ التي تنصبها لهم رغم حذرهم الذي لم يغب عنها. كانت تتأمّل وجهها المستدير خلف نظارة القراءة الصغيرة العدسات، والمستقرة فوق مقدمة أنفها مثل فراشة، وكيف أن قسماته تتقلّص وتتمدّد مع سخونة السجال وبرودته. بدت كما لو أنها ممثل يؤدي دوره على المسرح بمهارة ودربة. أما الأستاذ هاشم فلاحظت عرفة أنه كان هادئًا، حافظًا لنصوص القوانين وأرقام القضايا وسوابقها وتواريخها على نحو مدهش. الكثير مما دار في الجلسة من مطارحات في مواد القانون كان جديدًا على ذهن عرفة، ولذلك انفتحت له بشهية، وتركيز مخلص.

أعلن القاضي رفع الجلسة، وحدد جلسة أخرى بعد أسبوع واحد للنطق بالحكم.

***

أفسح رجال الشرطة للشاحنة التي تقلهما. شقّت الجموع المحتشدة أمام مبنى المحكمة على مهل، كما يشق المركب عباب البحر حتى يدنو من المرفأ.

كانت الحشود أضعاف ما كانت عليه في المرتَيْن الفائتتين. لقد كانوا خليطًا عظيمًا من النساء والرجال يحملون لافتات ويلوّحون بأيديهم، يحيط بهم رجال الشرطة من كل اتجاه. السجالات التي شهدتها المدينة على وقع أخبار المحاكمة جذبت خلقًا كثيرًا، سواء بدافع المناصرة أو النكاية أو الفضول. جاءتها الأستاذة بثينة بقصاصات من الصحف تتضمّن أخبار المحاكمة وتفاصيلها، مرفقة معها صور زفافها على موريس ومشاهد من المحاكمة، وجزءًا من سيرتها الشخصية ومعلومات مقتضَبة عن حياتها. بعضها حقيقي وبعضها الآخر مزيَّف.

تحوّل الاهتمام بالقضية إلى ما يشبه الحملات الدعائية على صفحات الصحف. مقالات وآراء، بعضها يطالب بتطبيق حدّ الردّة عليها، وبعضها الآخر يؤيد حقَّها في اختيار الدين الذي يناسبها والزوج الذي ترتضيه من دون وصاية. تضمّنت كذلك مقابلات مع أبيها وأبناء عمَّتها يتبرأون فيها منها، ويؤكّدون بيقين تام سابق اعتناقها للإسلام. بيد أن ما أبهج عرفة في الأمر كله كان التأييد الذي أعلنته جمعية بائعات الشاي، رفيقات مهنتها السابقة. وقد أفردت له بعض الصحف المحسوبة على المعارضة حيّزًا معتبرًا في صفحاتها.

كانت القضية تنداح مثل بقعة زيت، وتتسع لتشمل جماعات وكيانات لم تخطر لها على بال. تحولت إلى قضية عامة، دينية وسياسية في الوقت نفسه، وزادت في اتساعها حتى بلغت أقاصي البلاد البعيدة.

قالت لها الأستاذة بثينة إنها شاهدت خبر المحاكمة على محطات تلفزة أمريكية وأوروبية، وسمعته في إذاعات عالمية وقرأته على مواقع وكالات الأنباء الكبرى، مرفقًا معه صورة زفافها إلى موريس. صلّت

كنائس كثيرة من أجلها. أصدرت الكثير من المنظمات الحقوقية وقصور الحكم في العالم بيانات تطالب بعدالة محاكمتها وتتضامن مع حقّها في حرية ما تعتقد.

- لقد خرج الأمر عن سيطرة الحكومة وصار تحت الأضواء الدولية، وهذا أمر جيد يا عرفة!

أخبرتها مزهوَّة أيضًا، كيف أن محطات راديو وتلفزة دولية أجرت معها مقابلات حول سير القضية ومآلاتها المحتملة، ثم ختمت حديثها بالقول:

- لن يستطيعوا مس شعرة من رأسك بعد اليوم، فالعالم يعرف ويراقب ولن يتركك وحدك في مواجهة هذه الفاشية الدينية البغيضة!

راع عرفة منظر الحشود أمام المحكمة وملأها بالطمأنينة في الوقت نفسه. سمعت صوتًا مألوفًا لأذنيها بينما كانت تدفع بطنها أمامها وتجتاز خلال الرصيف القصير الذي يفصل بين موقف الشاحنة وبوابة المحكمة. كان صوت امرأة. التفتت ناحية الصوت. رأت للمرة الأولى الأم الحزينة وتوأمها الجميل آمنة وأمينة وهنَّ يلوّحن بأيديهن وتفيض أوجههنّ بالحب والتضامن. شعرت بغبطة عظيمة لرؤيتهنّ، وتمنّت لو يسمح لها بالسلام عليهنّ ومعانقتهنّ. لوّحت لهنّ بيدها فرِحة وممتنة. رأت إلى اليمين من مكان وقوفهن، سعاد بائعة الشاي ذات الوجه المستدير وقد ازدادت امتلاءً وبانت عليها أمارات الراحة، وحواء بائعة الشاي التي أخذت مكان طيبة في عمارة الخياطين، وثلاثًا أخريات من بائعات الشاي اللائي كنَّ يسكنَّ في منزل رحمة الأول تحت لافتة بيضاء كبيرة كتب عليها بخط رديء: «جمعية بائعات الشاي تعلن تضامنها مع السيدة عرفة وتطالب بحريتها... لكل إنسان الحق في اختيار دينه وشريك حياته». أما المفاجأة الأكبر فكانت عندما رأت عرفة سيدة تجلس في مقعد متحرّك تحت اللافتة وتلوّح بيدها. واكتشفت أنها السيدة رحمة

ترسل إليها قبلاتها. ورأت الخالة سكينة، وأم البنات. لوّحت لهنّ جميعًا، وأرسلت قبلاتها إليهنّ. كان موريس ينظر إليها وإليهنّ متعجبًا، يمور صدره بالخوف والقلق.

دخلت عرفة قاعة المحكمة مجلّلة بالاحترام. يملأها شعور عميق بالثقة، كان منبعها ذلك الرصيد الوافر من المحبة الذي رأته خارج قاعة المحكمة، رغم الشمس اللاهبة، فما عاد يهمها ما ينتظرها داخل القاعة.

جلست على مقعدها داخل القفص تتأمّل الوجوه من حولها وتحيي الحاضرين بابتسامات وإيماءات. بادلها بعضهم التحيات. راح وكيل النيابة ينظر إليها، راسمًا على وجهه ابتسامة غامضة، هي إلى الشماتة أقرب منها إلى التحيّة. تجاهلته. نقلت بصرها من وجهه إلى حيث كان يجلس أبوها. لم يحضر. استفهمت من الدكتورة هناء بإيماءة من رأسها، فأشارت لها أنه لم يستطع الحضور. أقلقها ذلك. ما أقسى أن يكون خصم البنت أبوها. قالت في نفسها. لفت انتباهها صمت موريس وشروده، وتجنّبه النظر إليها. كان متعرّقًا. ساقاه تهتزان بقلق، وأصابع يديه في حِجره تنقبض وتنبسط في حركة دائبة دونما توقّف.

- موريس؟ هل تعاني شيئًا؟

- لا. لا شيء!

- هل أنت خائف؟

التفت نحوها بوجه محتقن، متعرّق، ونظرات كسيرة محزونة. دهمها ذلك الشعور الغامض باقتراب الخطر. راح قلبها يخفق وتغشى أطرافها رعشات خفيفة مثل الوخز. نقلت بصرها مباشرة إلى حيث يقف وكيل النيابة. كانت ابتسامته الشامتة هناك مثلما رأتها عندما دخلت. ردت بصرها إلى موريس لتكلمه، لكن الشرطي صرخ «محكمة». وقف الجميع ودخل القاضي إلى القاعة.

لم تستغرق الجلسة سوى عشر دقائق، تلا خلالها القاضي سردًا

مختصرًا عن سير المداولات خلال الجلستين السابقتين، وهمّ بتلاوة قرار الحكم، بيد أن صوتًا مرتعشًا، قريبًا من أذنها، قاطعه فجأة.

- لدي ما أقوله سيدي القاضي!

واتجهت الأنظار حيث يقف موريس داخل القفص، رافعًا يده. خفق قلب عرفة خفقات متتابعة. استدارت الأستاذة بثينة بوجه مذعور، ونظر الأستاذ هاشم من فوق نظارته نظرات مليئة بالاستفهام. قال موريس وهو يزدرد ريقه:

- أعلن للمحكمة الموقرة رغبتي في الانفصال عن السيدة عرفة بعد أن عرفت الحقيقة وراجعت ضميري. ونزولًا عند رغبة والدها المحترم!

ضجت المحكمة بالتكبير والتهليل والاعتراض. ثار لغط كثير أوقفه القاضي بضربات من المطرقة قبل أن يقول:

- هل يعني هذا أنك تتراجع عن أقوالك السابقة؟

- نعم سيدي.

التفت القاضي إلى عرفة يسألها رأيها. قالت بعد برهة صمت، بصوت مختنق:

- لن أرغمه على شيء سيدي القاضي، فإذا كانت هذه رغبته فلتكن!

- هل يغير الأمر من موقفك من موضوع الدين؟

- لم أفهم سؤالكم سيدي.

- هل تفيئين إلى الإسلام أم تبقين على المسيحية؟

- بل أتمسك بمسيحيتي سيدي!

سرَت همهمة في القاعة بينما انكبَّ القاضي يكتب في أوراقه. لبث بعض الوقت. أطرقت عرفة إلى الأرض. شعرت بمرارة في حلقها، وبالتآكل في داخلها، وبأن شيئًا ثقيلًا يكتم أنفاسها. شعرت بكراهية عميقة للعالم بأسره. طرق القاضي على المنضدة قبل أن يقول:

- تأخذ المحكمة في الاعتبار طلب السيد موريس عبده سانتو المتعلّق

برغبته في الانفصال عن السيدة حياة/ عرفة عثمان صابراي، وموافقة السيدة المذكورة التي أعلنتها أمام المحكمة، وتحيل الطلب إلى محكمة الأحوال الشخصية لاتخاذ ما يلزم من إجراءات، كما تمنح المحكمة السيدة حياة/ عرفة عثمان صابراي مهلة ثلاثة أيام للاستتابة والرجوع إلى الحق بعد أن ثبت لضمير المحكمة، ثبوتًا لا يقبل الشك، أن المدعوة آنفة الذكر قد ارتدّت عن الإسلام ارتدادًا صريحًا لا لبس فيه، وستنظر المحكمة في أمرها بعد انقضاء المهلة المحددة. رُفعت الجلسة.

(44)

جاء السائق هذه المرة بكوب قهوة، وكان في صحبته امرأة نصف بدينة، بوجه متفسخ وأطراف سوداء ممتلئة. كانت تدير علكة في فمها وتطرطقها، وتفوح منها روائح زيتية صاخبة. صعدت إلى جواري وقدّمت لي نفسها.

- محسوبتك رحمة.

قلت لها: «أهلًا وسهلًا»، بصوتٍ أظن أنه لم يخرج من حلقي ولم تنتبه له. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبة يدها السوداء، نظرت فيها إلى وجهها لبرهة ثم أعادتها إلى مكانها.

راحت تثرثر عن أحوال السوق والحرب. كلّمتني دونما مناسبة عن سبب مجيئها من بورتسودان إلى طوكر، وكيف أن جنديًا من الاستخبارات احتال على فتاة مسكينة تعمل لديها وسلب منها كل ما ادخرته والتحق بكتيبة في طريقها نحو الحدود. حدثتني بفخر أنها لحقت به في طوكر واستطاعت عبر معارفها من ضباط الجيش أن تستعيد ما أخذه من حنان المسكينة. فتحت حقيبتها من جديد وعرضت أمامي قلادة كبيرة من الذهب ورزمتين من ورق المائة دينار.

- حذّرتها مرارًا من هذا الولد لكنّها هبلة وطيّبة!

لم أكلمها قط، ولم تكن في حاجة إلى ذلك في ما يبدو. رأيت انعكاس صورتي في عينيها، كانت أشبه ببرتقالة متعفّنة. ظلت تثرثر من دون توقّف. كنت غائبة عن ثرثرتها، أتمتع بالقهوة الممزوجة بالجنزبيل الحار والقليل من القرفة. شربتُها إلى آخر قطرة وشعرت بارتخاء في كل عضلة في جسدي وخفّ ألم رأسي.

وصعد السائق إلى مكانه وأدار محرك الشاحنة. وصعد المعاون في الخلف تاركًا مقعده للسيدة رحمة التي عادت إلى الثرثرة:

- كان لديَّ إحساس أنني سألتقيك يا هجّام. أخبرني بعض السائقين أنك ربما تصل طوكر مساء الأمس لكنك تأخرت حتى يئست من مجيئك. كنت قد قرّرت أن أغادر اليوم على أي عربة لكنك جئت أخيرًا. لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

- الطريق سيئة، وغرزت الشاحنة في الرمال مرات كثيرة.

قال بنبرة مرتبكة، ثم أضاف:

- دمّرت الألغام الكثير من الشاحنات، ولولا الحظ ومعرفتي بالدروب لكنا الآن أشلاء. الحمد لله.

كانت الشاحنة قد تجاوزت منطقة وسط مدينة طوكر، وراحت تشقّ الأحياء الشمالية من المدينة التي تعيش تحت رحمة الرمال مثل أحيائها الأخرى وكامل وادي العقيق. أثار انتباهي تخطيطها الغريب. بيوتها المصطفّة بطريقة فريدة بعضها إلى جنب بعض، وتفصل بينها شوارع طولية عريضة ممتدّة من شمال المدينة إلى جنوبها بعرض نهر. ينظر الجار إلى جاره المقابل كما لو كان على ضفة أخرى، فيما تضيق شوارعها العريضة إلى حد أنها لا تتسع لمرور سيارة صغيرة. كانت أمي تحكي لي عنها، وعن شوارعها الغريبة التي صممها الإنجليز لتناسب رياح الهبباي. أهل أمي من هذه المدينة. كيف نسيت هذا؟ تسلّل إلى روحي شيء من فرح طفولي. رحت أتأمل البيوت المدفونة إلى صدورها. أين هي بيوتهم وسط هذه المقبرة الكبيرة؟ أين يسكن آل جركس؟ لعله ذلك البيت المؤلّف من طابقين، بلون الطين وشكل القلعة، وتبرز من وراء سوره المدفون إلى نصفه في الرمال شجرة عجفاء. كانت غرفتها في الأعلى، لا بد أنها كانت هناك في الأعلى، إلى جوار المشربية الخضراء. كان فيها حقيبة كاروات حمراء. فستان ليموني. حذاء ذهبي لامع وعطر دمور وساعة سَيكو ذهبية.

- من هذه الفتاة؟

قالت المرأة وهي تنظر إليَّ نظرة فاحصة. خفق قلبي. وتململت في مكاني كمن وخزته شوكة. مرّت برهة من الصمت قبل أن يقول السائق:

- إنها ابنة رجل طيب التقيته في مرافيت وأوصاني بها لكي أوصلها إلى بورتسودان!

- تبدو مسكينة!

قالت وهي تنظر إلى جانب وجهي. تمنيت لحظتها لو أتبخّر أو تنشق الأرض وتبتلعني.

- ما اسمك؟

قالت وهي توجه إليَّ الحديث. فكرت قليلًا ثم قلت:

- عرفة، اسمي عرفة.

- من أي بلد يا عرفة؟

- من عقيق.

مكتبة
t.me/t_pdf

- وأين ستقيمين في بورتسودان؟

- لديَّ عمة هناك لكنني لا أعرف عنوانها!

لم تسألني مجدّدًا. انشغلت عني برخرخة ثوبها عن جسدها وخلع حذائها ووضع حقيبتها أسفل المقعد. رفعت رجليها وعقدَتهما تحت فخذَيها كما لو كانت جالسة على الأرض.

- لا أحد يضمن الرجال. لا أحد يضمنهم أبدًا!

قالت كأنما تلخّص شيئًا في ذهنها، وسكتت بعد ذلك. مررنا بنقطة تفتيش مؤقتة في المدخل الشمالي لمدينة طوكر، نزل المعاون من أعلى وأخذ أوراقًا وبعض المال من السائق وانطلق يركض متجهًا ناحية سقيفة أسفل شجرة كبيرة وعاد خلال دقائق، ثم انطلقنا من جديد. عادت رحمة إلى الحديث مع السائق، وكانت أحاديثهما تعبرني في الاتجاهين وتمر من خلال أذنيّ، ما اضطرني إلى استئذانها بإشارة صامتة لكي أبدّل معها

مكان جلوسي. تركتهما لأحاديثهما. اتكأت على حافة النافذة وغفوت قليلًا.

قضينا نهارنا كلّه في الطريق. نتوقّف قليلًا لدخول الخلاء أو الأكل أو الشرب أو لتبريد محرّك الشاحنة حتى دخلنا مدينة بورتسودان وأذان العشاء يسيل في المآذن الكثيرة المضاءة. توقّفت الشاحنة في سوق مكتظة، ووقفتُ غير بعيد أفكر في الخطوة التالية، بينما راح السائق يتبادل مع رحمة، التي كانت توليني ظهرها، حديثًا أخيرًا.

نظرت إلى وجهه على أضواء السوق المنعكسة عليه. كان وجهًا أسود مستطيلًا كصندوق، ضحك فبدا لي فمه ذو الشفتين الحمراوين بشعًا كفم ذئب. وقعت عينه في عيني مصادفة فقطع ضحكته. أدرت وجهي وابتعدت. قدماي المتورمتان من طول الجلوس، تملآن الآن تجويف الحذاء بالكامل. صار على قياسي. كانت خطواتي بطيئة متردّدة، ولا أعرف حتى اللحظة، إلى أين تقودني في هذه المدينة الكبيرة. كنت أفكّر أين سأمضي ليلتي عندما لحقت بي رحمة.

(45)

في اليوم التالي، زارها شيخان ملتحيان يرافقهما وكيل النيابة وكاتب من المحكمة. أحدهما أسود، بدين، رأسه مغروس في صدره من دون رقبة، وتطوّقه لحية سوداء كثّة حتى منتصف صدره. أما الآخر فكهل نحيل، وبلحية قصيرة مدبّبة في وجهٍ تبرز عظام وجنتيه وجبهته، تتوسّطه عينان جاحظتان وأنف دقيق. طلبا من عرفة أن تضع حجابًا فوق رأسها لأنها استقبلتهم حاسرة.

لم تكن في حال تمكنها من استقبالهم والحديث إليهم، فعلاوة على متاعبها الجسدية بسبب الحمل وأوجاعه، كانت محطمة من الداخل، وتشعر بالقهر لخذلان موريس لها في الوقت القاتل.

لم تنم ليلتها الفائتة إلا لفترات قصيرة متقطّعة. تفكّر في ما أقدم عليه موريس، متجاهلًا كل التضحيات التي قدّمتها من أجل بقاء شجرة حياتهما خضراء، بيد أنه، لغاية تجهلها، أعمل فأسه في جذعها بلا رحمة عِوض حمايتها ورعايتها مثلما تعاهدا. بدا لها أن موريس قطع شريانًا كان يمدّها بالرغبة في استمرار الحياة وبالدافع لمواصلة القتال إلى نهاية الشوط. موريس كان آخر رهاناتها، وها هو مَنْ راهنت عليه يكبو في نهاية السباق. هانت عليها نفسها، ولم تعد راغبة إلا في شيء وحيد، هو إنهاء حياتها التي لم يعد لها معنى.

دخلت إلى غرفتها واعتمرت طرحة ثم عادت إليهم. راح الشيخان يحدّثانها عن الجنة والنار والفوز في الدنيا والآخرة، ويحذرانها من مغبة استهتارها بالشرع والقانون. كانا مطرقَيْن إلى الأرض ولا ينظران إليها في وجهها إلا نظرات خاطفة. قال الشيخ الكهل:

- الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله، أما بعد، فاعلمي يا ابنتي أن المرتدّ هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر، وقال الله تعالى: «ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من بدّل دينه فاقتلوه». وقد أجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد، ورُوي ذلك عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين والأئمة وأهل العلم، ولم ينكروا ذلك فكان إجماعًا. لذلك نتقدّم إليك إنابة عن الأمة وسلطانها وقضائها بنصيحة خالصة أنْ ارجعي إلى دين الحق وجنّبي نفسك شقاء الدنيا والآخرة.

وقال الآخر بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- لقد كلفتنا المحكمة الموقرة بأن نناصحك في الله ونعينك على شيطانك لتراجعي شأنك مع الله وتعودي إلى جادة الصواب وطريق الحق، الذي فيه فلاح الدنيا والآخرة، لأن نهاية الطريق الذي تسلكينه هو الخسران المبين. فماذا أنت قائلة؟

كانت خافضة بصرها، تتأمّل أنامل كاتب المحكمة وهو يدوِّن ما يسمع بمنتهى الأمانة، ويخط على الورق خطًا أنيقًا منمّمًا أشبه بالرسم. اتسعت دائرة الصمت في انتظار ردّها، بينما توقف قلم الكاتب في نهاية الصفحة بعلامة استفهام. انتبهت إلى أنها قرأت السؤال مكتوبًا ولم تسمعه. رفعت بصرها عن الورقة وقالت:

- لقد ولدت لعائلة مسلمة وأبوين مسلمين كما تعلمون، وعشت طفولتي كلّها وأنا مسلمة بحكم الميلاد والنشأة، وبحكم أني تحت رعاية والديّ ولا أملك من أمري شيئًا، لكنني عندما بلغت السن التي تخوّلني الاختيار الحر، اخترت المسيحية دينًا بمحض إرادتي. هذه هي كل الحكاية!

حمحم الشيخ الكهل، وتململ الآخر في جلسته، بينما راح وكيل

النيابة يرمقها بنظرات حانقة، عاقدًا ساعديه أمام صدره. قال الشيخ البدين بعد أن مسّد لحيته:

- نقدر يا أختي الكريمة حرصك على عائلتك وتماسكها، وندرك أن اختيارك للنصرانية إنما جاء رغبة منكِ في ذلك التماسك وحرصًا عليه، حتى لا تفصل المحكمة بينك وبين ذلك الزوج، ولم يكن نابعًا من يقين تام باتباع النصرانية ومفارقة الدين الحق، لذلك نلتمس لك العذر عند الله تعالى، ونأمل أن تكتمل هدايتك بتجنّب العناد الذي لا طائل من ورائه!

- وكيف تأكّدتم من ذلك؟

- لقد أطلعتنا النيابة الموقّرة على ملف التحقيقات وما توفّر لديها من معلومات عن حياتك من أجل مساعدتنا على مد يد العون لك!

ونظر إلى وكيل النيابة الذي أومأ برأسه موافقًا، فقالت:

- تعلمون أن زوجي أعلن بالأمس رغبته في الانفصال عني أمام القاضي، وأنا في حكم المطلقة الآن، والأمر كله مسألة وقت فحسب. لقد خسرت ما كنت أخشى خسارته بحسب زعمكم وزعم النيابة، ومع ذلك فأنا متمسّكة بمسيحيتي، فما رأيكم؟!

قال الشيخ البدين مستطردًا، ومتجاهلًا في الوقت نفسه الرد على مقالتها:

- مهما يكن من أمرك فإن العبد مخيّر في كل شيء من أمور دنياه إلا تسليمه المطلق بربوبية الخالق، وهذا التسليم ما هو إلا المعنى الحقيقي للإسلام، الدين الذي ختم الرسالات كلّها واختاره الله لعباده «ومن يتبع غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين». لقد آمنت خديجة في ساعة من الزمان حين جاءها الرسول الكريم عائدًا من الغار وهو يقول لها زمّليني دثّريني، ولن يستغرق الأمر منك أكثر من ذلك إذا فكرت في العاقبة!

- القرآن الكريم نفسه أعطى الناس حق الاختيار يا شيخ: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، فلماذا تصادرون حقي وإرادتي؟

رد الشيخ الكهل:

- هنا يتكلّم القرآن الكريم عن الوعيد بتحمّل تبعات الاختيار وليس الاختيار نفسه يا ابنتي. لو أنك ولدت ونشأت على دين آخر ما أجبرك أحد على تركه، لكنك في الأصل مسلمة وارتددت عن الحق بعد يقين ومعرفة، فلا مناص من أوبتك إليه بأي حال.

- ألا ترى يا شيخ أن كلامكم هذا يناقض جوهر الإسلام نفسه، فلو أنني اخترته مجبرة أو بقيت عليه مجبرة فإنني غير مؤمنة به حقًا، وإرادتي مقيَّدة، هل هذا ما تقصدونه؟

نظر كل منهما إلى الآخر وكأنما يتشاوران بشأن من يتولّى الرد عليها.

قال الشيخ الكهل:

- ليس الأمر بهذه البساطة التي تظنّينها. لا خيار للعبد بعد معرفته الحق، وهو قبل ذلك حرّ، فمن لم يسمع بالإسلام ولم يؤمن به عن جهل غير مُلام في اختياره، لكن بعد أن يبلغه، ويستقر في ضميره يقينًا لا يقبل الشك أنه الحق، فهو مسؤول عندئذ ولا يملك غير التسليم!

- التسليم لمن؟ للرب أم للخلق؟

- للرب طبعًا!

- إذًا دعوني لربّي، فلا أحد منكم يملك هذا الحقّ!

عندئذ وضع الشيخ البدين يده على ركبة الشيخ الكهل يستأذنه في الحديث:

- إنما نحن ناصحان، نقوم بهذه الفضيلة بأمر من القضاء، والقضاء هو السلطان، والسلطان ظل الله في أرضه، وهو الذي يملك الحق، لا نحن.

- وهل تنوب السلطة عن الله في الثواب والعقاب أيضًا؟

- ليس بهذا المعنى، ولكن بمعنى أنها تحضّ على الخير وتقوِّم

الاعوجاج حال حدوثه، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والنهي درجات أدناها النصح كما نفعل الآن، وأعلاها القوة، وهي بيد السلطان.

- معنى هذا أنني لا بد أن أسلّم بالقوة، وإلا بطشت بي السلطة؟!

- معناه إعادتك إلى الحق بقوّة الشرع وحجته وبرهانه، وتطبيق الشرع بيد السلطان، والسلطان راعٍ ومسؤولٍ.

- وإذا لم أبارح موقفي؟

- تتحمّلين عاقبة اختيارك!

- أمام الله أم القضاء؟

- كليهما.

- حسنًا، فليكن. لن يتحمل العاقبة أحد غيري على كلّ حال.

عندئذ هب الشيخ البدين واقفًا، وتبعه الشيخ الكهل وكذلك وكيل النيابة وهو ينفث من صدره. أمهلوا كاتب المحكمة حتى يفرغ من تدوين ما قالته ولملمة أوراقه استعدادًا للمغادرة. قال وكيل النيابة بنبرة حانقة أقرب إلى التهديد.

- سنعود إليك مساء الليلة الثالثة، لنعرف رأيك الأخير قبل تسليم التقرير إلى مولانا القاضي.

- لا حاجة لتكبّد مشقّة المجيء مجدّدًا، لقد سمعتم رأيي ولن أحيد عنه.

فقال الشيخ الكهل وهو يغادر.

- فكّري في جهنم يا أختي.

- وأنتم؟ هل جئتم لترسلوني إلى جهنم أم تريدون لي الجنة؟

- الجنة طبعًا! وإلّا لماذا نتكبد مثل هذا العناء؟

قال الشيخ البدين بحماسة، فقالت:

- حسنًا. لقد فكّرت ست سنوات كاملة قبل أن أعتنق ما أنا عليه اليوم بيقين تام، فهل تظنّون أنني يمكن أن أبدّل هذا اليقين في أيام ثلاثة وكأني

أبدّل ثوبًا بآخر؟ لم لا تتركوا لي فسحة من أمري لعلّي أعود إليكم يومًا ما. لماذا تتعجّلون إرسالي إلى جهنم؟

- الشرع يأمرنا بذلك.

- الشرع لا يتربّص بالناس، بل يلتمس لهم ما ينجّيهم.

نظر كل منهما إلى الآخر، ثم قال الشيخ الكهل:

- على أي حال، سنقوم بواجبنا على الوجه الأكمل، ونسأل الله لك الهداية وحُسن الختام.

قدّم إليها كاتب المحكمة محضر الجلسة من أجل التوقيع. وقعت غير آبهة لشيء، ثم خرجوا يغمغمون ويبرطمون.

***

زارها الطبيب الذي أرسلته المحكمة للمرة الثانية. وقد كان لطيفًا ومؤدبًا وصغيرًا في العمر... كان في المرة الأولى قد أحضر معه جهاز الفحص بالموجات التلفزيونية من أجل الاطمئنان على وضع الجنين، وأخذ عينات من دمها من أجل الفحوص الروتينية التي لم تُجرِها خلال الأشهر الفائتة بسبب الحبس والمحاكمة. اشتدّ الألم القاتل أسفل الرحم إلى الحدّ الذي أعاق حركتها وحرمها النوم، وازداد تورّم قدميها وانتفختا. أرهقها الشعور بالدوار أكثر مما كان عليه خلال الأسابيع الماضية. جاء الطبيب هذه المرّة بنتائج الفحوص وبعض الأدوية الضرورية.

- لديك ارتفاع حاد في الزلال ونقص في الحديد والكالسيوم وارتفاع طفيف في سكّر الحمل، ولا بد من أخذ الاحتياطات اللازمة من الأدوية والغذاء الصحّي الذي يناسب حالتك.

قال وهو يمدّ إليها كيسًا مليئًا بالأدوية والفيتامينات، من دون أن ينظر إليها. فرغ من مطالعة بعض الأوراق، ثم رفع عينيه في وجهها. شرح لها طرائق وأوقات تناولها، وأوصاها بالتركيز على أغذية معينة كالخضروات والفاكهة واللحوم والسبانخ، فضحكت.

- أنا سجينة يا دكتور، ولا آكل إلا ما يُقدَّم للسجناء في العادة. صحيح أنني أفضل حالًا منهم داخل هذا البيت، ويأتيني طعامي كل يوم، لكنه لا يتجاوز العدس والفاصولياء، وبعض السلطة الخضراء أحيانًا، حتى الحليب لا أجده، هذا لأن تموين البيت يأتي من شرطة السجن.

- لا بد أن يتغيّر هذا، وسأكتب لهم من أجل تحسين غذائك وتوفير ممرّضة تزوركِ خلال الشهر المتبقي على ولادتك، لتقوم بالمساعدة اللازمة. لقد أظهرت الفحوص التلفزيونية في المرة الماضية نزولًا شديدًا لعنق الرحم، وهذا يعني احتمال الولادة المبكرة.

- أعاني من تقلصات حادة في الرحم، وأظنها أوجاع الطلق.

- ليس بعد، لكن ينبغي الانتقال إلى المستشفى في حال نزول أي سائل من الرحم، وسأبلغ النيابة والشرطة بخطورة الأمر، لا تقلقي.

ضحكت عرفة مرة أخرى، ونظر إليها مستفهمًا بأدبه الجم، فقالت مازحة:

- لا عليك يا دكتور، ربما يأخذوني إلى حبل المشنقة قبل المستشفى!

بدا لها أنه من النوع الذي لا يستسيغ المزاح، أو أن خاطره مشغول بأمر آخر، فلم ينبسط وجهه كما توقّعت، بل قال بنبرة جافّة، وإن كانت مهذبة:

- ليس قبل أن تضعي مولودك بسلام. لا بد من مساعدتكِ في هذه المرحلة، ولترتاحي.

ثم ودّعها وغادر. لبثت لبعض الوقت تتأمّل علب وقناني الأدوية أمامها وصور الجنين التلفزيونية. رفعتها إلى عينيها تتأمّلها. لقد كان مغمض العينين دائمًا، بيد أن ملامح وجهه المغبّشة قريبة الشبه بموريس لا سيما جبهته المربعة وأنفه الصغير وخديه المنتفخين، عدا أصابع كفيه القصيرة الممتلئة مثل أصابع أمه، وساقيه الملفوفتين. حتى حظّي في ابن بطني لا يبدو كما تمنيته. قالت لنفسها.

تخيلت بعد ذلك ساعة الولادة وشعرت بفزع كالذي عاشته في بيت أم البنات حتى وضعت ابنتها بسلام. لقد كذبت على كل الأطباء الذين قابلتهم، بمن فيهم هذا الأخير، بأن هذا هو حملها الأول، وعاملوها جميعًا على ذلك الأساس، ولا تعرف عرفة إن كان الأمر سيؤثّر على جنينها أم لا.

لم يكن في البيت سوى قليل من السلطة والفاصوليا. أكلت لقيمات منها، وأخذت من بعض الأدوية التي أوصى بها الطبيب ثم لعنت موريس في سرها. تمدّدت على الكنبة، وأسندت رأسها إلى مسندها وغفت قليلًا.

ما هي إلا ساعة حتى جاء محامياها الأستاذة بثينة والأستاذ هاشم، وكان في معيتهما موريس. جلسوا صامتين. بعد قليل بدأت بثينة الكلام بسؤالها عن صحتها، ثم تكلّم الأستاذ هاشم عن ضرورة الاهتمام بها. أما موريس الذي لم يرفع رأسه إلا مرة واحدة عند سؤالها عن وضعها، فقد تجاهلت الرد عليه، فنكس رأسه ولاذ بالصمت. قال الأستاذ هاشم أخيرًا.

- لعلكِ فوجئتِ مثلنا بما أقدم عليه السيد موريس في قاعة المحكمة. لم نكن على علم مسبق به كمحامين، ولا نعلم عنه شيئًا كذلك حتى الآن. لقد رفض السيد موريس الحديث إلا أمامك ولذلك جئنا.

- لا أود سماع شيء. إذا كان هذا هو سبب الزيارة فكان بوسعكم توفير وقتكم.

- لم نتوقّع هذا منك يا عرفة، ولا يجوز. ينبغي أن نستمع ثم نحكم.

قالت الأستاذة بثينة بنبرة لم تخلُ من استعطاف، فتنحنح موريس قبل أن يقول:

- كان لا بد من فعل ذلك من أجل ماثيو، لا أعرف من أين أبدأ لكن...!

رجع بظهره إلى الوراء لينظر إليها، لكن شياطينها استثيرت دفعة واحدة في تلك اللحظة، فنهضت على ساقيها.

- أرجوكم. قلت إنني لا أود أن أسمع شيئًا. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليَّ في قاعة المحكمة وتركته هناك.

دخلت غرفتها حانقة. أغلقت عليها الباب وراحت تنتحب. شعرت بأن موريس الذي يتحدّث الآن وراء الباب هو شخص آخر. غريب. لا تعرفه. إنه غريب بما يكفي لكي لا تفكّر فيه.

تناهت إليها -بعد برهة قصيرة- أصوات أقدامهم وهي تهرس الحصى وتبتعد.

(46)

الخميس التالي كان النطق بالحكم. قرّرت عرفة منذ الليلة الفائتة أن ترتدي أفضل ما لديها من ثياب، وتستقبل قرار القاضي في أحسن هيئة. نكاية فيه وفي موريس وفي أهلها وفي هيئة المحكمة وقضاتها وشيوخها.

وضعت على جسدها فستانًا كانت أهدتها إياه الأخت مارتا بمناسبة زواجها ولم تأت مناسبة لكي تلبسه، فقرّرت أن تلبسه بعد الولادة ووضعته بين أغراضها التي حملتها معها. كان فستانًا أبيض، سكريّ اللون، مطرّزة أكمامه بورود صغيرة تركوازية وصفراء، مع حزام تركوازي عريض، مائل إلى الزرقة تتوسّطه دائرة مذهّبة.

أفسد بروز بطنها شكل الفستان الجميل على جسدها، فاضطرَّت إلى رفع الحزام فوق بطنها وتحت نهديها، فانسدل الفستان المموج على أسفل ساقيها مثل زفاف. وضعت على رأسها طرحة من التركواز القطني الشفاف وانتعلت حذاءً باللون نفسه، وكأنها ذاهبة إلى حفلة عرس، لا إلى محاكمة ستقودها إلى حبل المشنقة.

كانت الساحة أمام مبنى المحكمة تغصّ بخلق كثير، وكان يتزايد عددهم مع كل جلسة جديدة لمحاكمتها. خرجت المدينة عن آخرها لتشهد صدور الحكم على امرأة أغواها الحب فخرجت عن الملة، فهل ستكفّر امرأة بينهم كل يوم؟ القلّة التي كانت تخرج لمؤازرتها في الجلسات الماضية ذابت وسط أفواج المؤمنين الذين غصّت بهم الشوارع المحيطة بالمحكمة، يحملون رايات الطوائف ويدقّون على طبولها ويتصايحون بهتافات تطالب بتطبيق حدّ الردّة. ما كانت تبحث

عنه عرفة هو لافتة بائعات الشاي. وقد رأتها، تجلس تحتها رحمة ويحيط بها رفيقاتها ومعهنّ الأم الحزينة وبناتها، وهذا ما جعلها تشعر بفرحة على الرغم من كل التهديدات التي تنتظرها.

خطت الخطوة الأولى نحو باب المحكمة بثبات، وقد غادرها الخوف والتردّد إلى الأبد. راحت تنظر إلى حياتها بعين أخرى. وعلى ضوء هذه النظرة، انحسرت عنها معانٍ قديمة، وتكشّفت لها معانٍ أخرى لم تدُر بخلدها قط.

لم تعد ترى في هذا الضجيج كلّه سوى أنها امرأة جمعت الضعف والقوة في كيان واحد، وها هي تتقدّم بالاثنين معًا لتحقّق انتصارًا مؤكّدًا لإرادتها التي لم يعد يقيّدها شيء، لا أب ولا أخ ولا زوج ولا دين ولا سلطة. إنها امرأة وحيدة عزلاء، إلا من محبّة تؤكّدها وقفة بائعات الشاي والأم الحزينة وبناتها وغيرهنّ تحت صهد الشمس، وآخرين مشتتين في بقاع العالم لا تعرف عنهم شيئًا. شعرت، وهي تنظر إلى نفسها من داخل المشهد، بأن القوة وجه آخر للضعف وليست نقيضًا له. الضعف الذي يهزّ أركان كل سلطة راسخة وأزلية، مثل سلطتي الأب والدين إنما هو قوة، لكن بمعنى آخر.

كانت تفكر، أن هذه الحفلة العظيمة التي جاءتها بأبهى حلة، ستنفضّ بعد ساعة من الزمن، حاملة معها ضباب الأكاذيب الذي حجب عنها الأفق زمنًا طويلًا. حدثت نفسها أن اختلافات الأديان أكذوبة من أجل امتلاك السلطة المطلقة، وأن الأبوة أكذوبة أخرى حين تتحوّل إلى سلطة، والحماية التي تدّعيها مؤسسة الزواج إنما هي حماية زائفة.

قالت لنفسها: «أنا اليوم مجرّد امرأة، بكل ما يعني هذا التعريف من عدل وحيف، وهذه الحفلة ليست إلا الوجه الآخر لما خفت منه وسعيت إليه في الوقت نفسه، ولم أكن أعرف ماهيته على وجه الدقّة، لكنني عرفته الآن. أن أكون أنا ببساطة. أنا ابنة الحرب وضحيتها ومعناها، إن كان لها معنى».

وقفت داخل قاعة المحكمة رافعة رأسها في الوجوه التي كانت تطالعها بشفقة. نظرت إلى موريس منكسًا رأسه، وإلى مقعد أبيها الخالي، وإلى المحامين الأنيقين، والحضور، وإلى القاضي الذي يستعد لتلاوة حكمه. لم تشعر في حياتها بمثل هذه الثقة التي تشعر بها الآن. سألها السؤال الذي لا بد منه، ما إذا كانت على موقفها أم بدّلته؟

– سيدي القاضي، ما أزال على موقفي. أنا امرأة مسيحية، تؤمن بالآب والابن والروح القدس! وإيماني هذا له أسبابه في سياق حياتي، ولا أرى فيه نقيضًا لإيمان الآخرين كلٌّ بدينه. فعندي الربّ واحد.

نظر إليها القاضي مشفقًا، ثم تلا قراره الذي سمع به العالم كله.

– أولًا، حكمت المحكمة وفقًا للمادتين 145 و146ب من قانون الإجراءات الجنائية لسنة 1991 بالجلد مائة جلدة لكل من المدعو موريس عبده سانتو والمدعوة حياة عثمان صابراي والمعروفة بعرفة، بعد إدانتهما بممارسة الزنا.

– ثانيًا، إطلاق سراح المدعو موريس عبده سانتو بعد تنفيذ العقوبة المقررة وإجراءات طلاقه للمدعوة حياة عثمان صابراي.

سحب نفسًا عميقًا ثم تابع.

– ثالثًا، وبعد أن ثبت لضمير المحكمة يقينًا لا يرقى إليه الشك، بأن المدعوة قد ارتدّت عن الإسلام، ومُنحت ثلاثة أيام للاستتابة والرجوع إلى الحق بعد أن بُصِّرت به. حكمت المحكمة وفقًا للمادة 126/ 1 من قانون الإجراءات الجنائية للعام 1991 على المتهمة حضوريًا بالإعدام شنقًا حتى الموت حدًا وتعزيرًا، على ألّا يصلّى على جثمانها ولا تدفن في مقابر المسلمين، وأن تكون أموالها فيئًا للمسلمين بعد قضاء دينها وما عليها من حقوق. يؤجل تنفيذ حكمي الجلد والإعدام على المدعوة حتى تضع مولودها. رفعت الجلسة.

صرخت الدكتورة هناء ثم أغمي عليها وتمدّدت على الأرض تحت

الأقدام. صرخت عمتها تطلب المساعدة. هرع إليها بعضهم، وهتف آخرون «يحيا العدل» وانصرف القاضي غير مكترث. انصرف كذلك وكيل النيابة من دون أن تفارق ابتسامة الشماتة وجهه، يتبعه محامي الادعاء ومن جاء متطوّعًا إلى جانبه من المحامين الإسلاميين، واقترب من عرفة محامياها يشدّان من أزرها.

تزاحم بعض الحضور على الدكتورة هناء لمساعدتها. أجلسوها على مقعد ورشّوا بعض الماء على وجهها فأفاقت، ثم راحت تنتحب. وسط هذا كله، لم يكن يشغل بال عرفة غير حال أبيها. سألت عمتها عندما هدأت القاعة واقتربت منها تتبعها ابنتها.

- ما الذي فعلتِه بنفسك يا بنيتي؟

- لا تقلقي عليّ يا عمتي. طمئنيني على أبي، كيف حاله؟

- نقلناه إلى المشفى أول من أمس وهو في غيبوبة تامّة من ساعتها، نسأل الله له الشفاء وحسن الخاتمة.

ثم أضافت بأسى وهي تغالب غصّة صعدت إلى حلقها:

- الحمد لله أنه لم يحضر اليوم ولم يشهد المأساة. يكفيه ما يعانيه يا ابنتي. كان الله في عونه وعونك.

اقتربت منها الدكتورة هناء أخيرًا وقالت بنبرة أسف:

- سامحيني يا عرفة. أنا السبب في كل ما جرى!

- لا عليك يا هناء، كان مقدَّرًا له أن يكون. المهم، إذا أفاق أبي من غيبوبته أبلغيه سلامي وأسفي، واطلبي لي العفو منه. لا أعرف أيًّا منا يمكن أن يغادر قبل الآخر فالد...

صعدت غصّة إلى حلقها ودهمها البكاء. أدخلت هناء يدها خلال القضبان واحتضنتها. أمسكت وجهها الباكي بين يديها. قالت وهي تغالب دمعًا انحدر متمهّلًا على خديها.

- لا تيأسي من الفرج يا عرفة، فالعالم كله من أقصاه إلى أقصاه

يتحدّث عن قضيتك. شاهدت بنفسي، وقرأت في الصحف أن دولًا كثيرة تضغط على حكومتنا للإفراج عنك. من يدري؟ ذاعت شهرتك في العالم كله أيتها المجنونة!

قرصت خدّها بلطف وهي تبتسم بين دموعها. شعرت عرفة لأول مرة بحنانها ورقّتها، وبأن مودتها صادقة، وتنبع من قلب طيب ينبض فيه الدم نفسه الذي ينبض في قلبها. رنّ هاتف الدكتورة هناء. نظرت إليه ثم تجاهلت الرد.

- هاتفي لا يكف عن الرنين منذ أن عرفوا قرابتي بك، ولا أعرف أي أحمق زوَّدهم به. هل تصدقين؟ رفضت عروضًا للاستضافة من وسائل إعلام كثيرة تضامنًا معك من ناحية، ومحاولة لإصلاح ما أفسدْته. إنني أحبك وأغبطك على قوَّتك وشجاعتك يا عرفة حتى لو لم أتفق معك.

ربتت الشرطية على كتف عرفة تنبّهها إلى الوقت. غادر كل من كان في القاعة إلا محامييْها وعمتها التي جلست مغتمة، وجهها بين كفيها، وموريس الذي نسيت وجوده.

- سأراكِ قريبًا يا هناء، فأنت أختي، والدم لا يصبح ماءً. أوصيك بنفسك وبعمتي وأبي، وأوصيكِ بماثيو إذا شنقوا أمه!

ضحكت الدكتورة هناء.

- ماثيو؟ يا له من اسم غريب وجميل. أصبحتِ كافرة على سن ورمح يا ابنة خالي. لا تقلقي، سأطلب زيارتك في أقرب فرصة، ولا بد أن تخبريني عن سبب اختياركِ للاسم. انتبهي لنفسك.

ودّعتها. أخذت هناء أمها في يدها وغادرت. استدارت عرفة لتخرج. وقعت عيناها على موريس. كان في اللحظة نفسها ينظر إليها بوجهه المحتقن ونظراته الحائرة وهو يتبع الشرطي.

- أنا آسف يا عرفة، كان لا بد أن تمنحيني الفرصة للحديث!

تجاهلته ومضت خلف الشرطية الضخمة. في الخارج، وتحت

شجرة نيم عملاقة قائمة في فناء المحكمة، كان شرطيان، أحدهما يحمل سوطًا، يتهيآن لجلد موريس. شعرت بالقهر والأسى لأجله. عبر بخاطرها مشهد جلدهما في مركز الشرطة في ذلك اليوم القائظ من أيام تموز/ يوليو. عبرت الفناء بخطوات ثقيلة في طريقها إلى سيارة الشرطة. كان وكيل النيابة جالسًا على طاولة في الشمس ومنهمكًا في كتابة شيء ما على ملف أزرق. صعدت إلى السيارة، بينما كان موريس يحتضن جذع الشجرة ويتلقى سياط الشرطي.

(47)

في طرفَي ليلة واحدة جاء ماثيو إلى الدنيا، ورحل منها أبوها. ولد ماثيو بعد مغيب الشمس وفاضت روح أبيها مع طلوع الفجر. شأن الموت والحياة منذ الأزل.

كانت المحكمة سمحت لها بزيارته قبل أسبوع من رحيله. وقفت فوق رأسه كما لو كانت تقف فوق قبره. لم يبق من جسده سوى خيال يكاد لا يُرى وسط أغطية المشفى البيضاء المعطونة برائحة المعقّمات. كان مسجًّى وغائبًا عن الوعي، ويتّصل جسده بأجهزة التنفس الصناعي ومراقبة النبض، وكانت الأجهزة تطلق طنينها المنتظم. انحنت على رأسه طالبة منه رضاه وغفرانه. قبّلت جبينه البارد ويده المتخشِّبة، وبكت كما ينبغي لابنة محبّة. خرجت من عنده وحيدة إلى الأبد. أوصى قبل وفاته بأن تُحرم من ميراثه إذا بقيت على نصرانيتها!

في تلك الليلة التي صادفت أول يوم في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وجمعت بين النقيضين الأبديَّيْن، الفرح والحزن، بكت حزنًا وفرحًا. شعرت بأن بكاء الفقد نابع من كبدها، وبكاء الفرح نابع من قلبها، بيد أنهما خرجا من روح واحدة معذَّبة. رأت أن الحياة ربما كانت عادلة، تأخذ بيد وتعطي بالأخرى.

لم يشغلها مصيرها طوال أيام النفاس التي انقضت كما تنقضي الأوقات السعيدة، وكأنها ساعة واحدة متّصلة. وجدت في وجه ماثيو البريء، بعينيه المستديرتين الواسعتين، وجبينه المشرق، عزاءً عن كل فقد عاشته، فقد الأم والأب والعائلة والزوج، فضلًا عن فقدان العدل والأمان والحياة التي حلمت بها.

أكثر ما كان يشغلها في تلك الأيام هو مصير ماثيو من بعدها؟ من سيرعاه ويحميه ويساعده حتى يكتمل رجلًا؟ كيف سيواجه الوحدة التي حاصرته بها الحياة حتى قبل أن يولد. طلبت من الأستاذة بثينة استصدار إذن لموريس حتى تراه وتتحدّث إليه للمرة الأولى، وربما الأخيرة، منذ خيانته لها. أبلغتها بعد يومين أن موريس في الخرطوم، لحضور اجتماعات دعت إليها الحركة الشعبية من أجل إعداد قوائمها للتعديلات الوزارية والبرلمانية في المركز والولايات، وأنها هي الأخرى ستلحق به قريبًا.

- هذا ما كان يهمه منذ البداية.

قالت عرفة ثم أطرقت. استطردت الأستاذة بثينة:

- تردّدت كثيرًا بشأن ما أعرف يا عرفة، لعل في الأمر شيئًا مما تقولين!

- وما الذي تعرفينه؟

- لقد تعرّض لضغوط كثيرة وتم تهديده في الزنزانة!

- ممن؟

- من الحكومة.

- وبم هددته الحكومة؟

- بفقدان كل شيء، وأوله طموحه السياسي، فضلًا عن تلفيق تهم أخرى. لعلهم يعرفون عنه أشياء لا نعرفها.

- لعله ليس تهديدًا. ربما كانت مقايضة.

- لعله كذلك.

- وماذا كان موقفك جماعتكم؟

- لا أحد يرغب في المواجهة، الجميع مشغول.

- هل هو التواطؤ؟

أجابت بعد برهة صمت وهي تشيح بوجهها إلى الناحية الأخرى.

- ليس تمامًا، أو بالأحرى ليس كلّنا. ناس في القيادة لا يرغبون في المواجهة في هذه المرحلة.

- وهل كان توجيهًا لموريس أم تآمرًا معه وعليه؟
- شيء من هذا وشيء من ذاك، فأرجو ألّا تظلميه أنت أيضًا.
- وماذا عن ظلمي وظلم ماثيو؟

لاذت بثينة بالصمت، وأطرقت كأن الأمر فاجأها، ثم راحت تغير اتجاه الحديث.

- قدَّمنا استئنافًا ضد الحكم لدى محكمة الاستئناف. هي خطوة روتينية لا بد منها لكننا لا نتوقع منها الكثير.

لاذت عرفة بالصمت، فانتقلت الأستاذة بثينة إلى شأن آخر.

- قالت الخارجية الأمريكية يوم أمس إنها سترسل دبلوماسيًا رفيعًا إلى الخرطوم الشهر المقبل، وربما تكونين ضمن أجندة زيارته.

ألقمت ماثيو ثديها ثم استلقت إلى جانبه وتجاهلت الرد. مدت إليها أوراقًا من المحكمة تتعلّق بتنفيذ طلب الانفصال عن موريس. وقالت:

- حاولتُ تأخير هذا الأمر قدر المستطاع أملًا في حدوث شيء ما يعيد العلاقة إلى وضعها الأول، لكن ما باليد حيلة.

- لا عليكِ، لن يتغير شيء.

قالت عرفة ثم وقعت على الأوراق من دون أدنى شعور بالخسارة. قدّمت لها أوراقًا أخرى قالت إنها تتعلّق بحصر أموالها ومقتنياتها. ضحكت وهي تنظر في الأوراق المخطّطة إلى مربعات كبيرة.

- لا أملك في هذه الدنيا غير ملابسي، فليأخذوها.

- لا يا عرفة. سيراجعون تركة أبيك ليحدّدوا نصيبك منها، ومن ثم يتصرفوا فيها.

- لقد أوصى أبي بحرماني منها، وهذا توقيعي على كل حال!

- شيء أخير. ترغب المحكمة في نقلك إلى السجن العمومي تمهيدًا لاستكمال الإجراءات بتنفيذ...

لم تشأ أن تنطق الكلمة فاستدركت على عجل:

- لكنني طلبت من القاضي تمديد مدة النقاهة لكي تتمكني من إرضاع ماثيو لأطول مدة ممكنة قبل أن يعود أبوه ويأخذه!

- لا... لا.

صرخت عرفة واستوت جالسة. كأنما فاجأها الأمر، أو كأن موريس ليس أباه، أو كأنها لا تريد له حضانته. أو أن...

- لا... ليس الآن... ليس الآن...

قالت مذعورة.

- كما تشائين.

قالت وهي ترتب الأوراق داخل حقيبتها استعدادًا للمغادرة. لم تشعر بها حين غادرت. تملّكها الذعر من إثارتها لموضوع مصير ماثيو بتلك الطريقة المباغتة. موريس أبوه وأحق الناس بحضانته لكنه لن يصلح لهذه المهمة، أعرفه أكثر من أي شخص آخر. قالت لنفسها. فمن إذًا؟ شقيقته؟ لكن صابرة تملك جيشًا من الأطفال وتربيهم كما تربّي الدجاج، في حي قذر وفقر مدقع فكيف ستهتم به؟ ماذا بقي: أن تأخذه الحكومة إلى ميتم أو ملجأ للأطفال؟ أم يتشرّد بلا أهل ولا مستقبل؟ أم أعرضه للتبني وأبحث له عن أم بديلة طيبة وأب حنون؟ لو أن شيئًا يستحق الحياة في هذا الوجود فهو ماثيو بلا شك، ولو أني أقف اليوم في المحكمة، لربما ما تردّدت في التراجع عن موقفي من أجل ماثيو. ظلّت تكلّم نفسها بصوت مسموع.

كرّت الأيام في محبسها ولا شاغل لها غير التفكير بمصير ماثيو. زارتها صابرة، وتكلما طويلًا عن ماثيو وحياته، لكنها لم تقنعها بما ستفعله من أجله أو ما سيفعله موريس. زارها أيضًا الأب فانوس والأخت مارتا، وفرحت لزيارتهما. طلبت من الأب يائسة أن يصلّي من أجل ماثيو. وضع يده على رأسه يداعبه.

- لقد صلّت كنائس العالم كلها من أجلكما، وأقيمت القداديس في

الفاتيكان وبيت لحم والإسكندرية وأمدرمان وكل مكان يا بنيتي. الرب لا ينسى أبناءه الطيبين.

أشرق وجهه بابتسامة طيبة أنستها بلاءها. قالت الأخت مارتا:

- أقام الأب المبجل ثلاثة قداديس في كنيسة العذراء من أجلك، حضرها جمع غفير من المؤمنين، أريدك أن تطمئني.

- كيف حال بيتي الكبير؟ كيف هي كنيسة العذراء وعمالها؟

- بخير يا عرفة، تشتاق إليك ويفتقدك عمالها كثيرًا ويقرئونك السلام.

- سلامي للجميع، واطلبي الصفح لي منهم واحدًا واحدًا.

- بإذن الرب أفعل.

- بدت الأخت مارتا رقيقة وطيبة، وعندما بكى ماثيو هدهدته طويلًا بين ذراعيها.

- لقد وعدت كاهن الكنيسة الذي تزوجنا على يديه بأن أعمّد أولادي، فأرجو أن تعمّده أيها الأب الطيب، عمّده حتى يلقى حياة طيبة من بعدي.

رجته وهو يغادر أن يسأل عن ماثيو من بعدها. وعدها وعيناه تنبعان بدمع غزير، سرعان ما سقط على لحيته البيضاء الناصعة وتدحرج فوق ردائه الكنسي. أخذتها الأخت مارتا في حضنها طويلًا وبكتا معًا.

(48)

كانت تتحدّث مع الشرطية عند الباب حول تطعيم ماثيو الذي مرَّ على موعده المقرر أكثر من أسبوع، وتطلب منها تذكير رؤسائها، عندما وصل الأستاذ هاشم يلهث:

- لقد ربحنا.

صاح في وجه عرفة وهو يلوّح بورقة خضراء، عليها ختم المحكمة. نظرت مستفهمة إلى وجهه المتعرّق، يلمع تحت وهج الشمس.

- ألغت محكمة الاستئناف حكم الإعدام، بل ألغت كافة الأحكام الأخرى. مبارك يا عرفة، مبارك لنا جميعًا!

وتقدّم منها واحتضنها رغم خجله. تكاد الأرض لا تسعه من الفرح.

سألته: بهذه البساطة؟

- أكيد لم يكن الأمر بهذه البساطة. لعل تدخّل جهة خارجية كان حاسمًا.

لم تتكلّم. ظلّت تنظر ساهمة في وجه المحامي:

- قرأت في الأخبار أن مسؤولة أمريكية رفيعة سوف تصل خلال اليومين المقبلين إلى الخرطوم، ولعلهم أرادوا استباق ضغوطها بخطوة. لست متأكدًا.

بدا لها الأمر غير مفهوم. ظلّت صامتة وعلى وجهها مظهر الحيرة.

- وهل يعني ذلك أنهم سيفرجون عني وعن ماثيو؟

- قد يأخذ الأمر بعض الوقت، لكنه لن يتأخر كثيرًا. نحن الآن في مرحلة جديدة.

وعندما استمرّ صمتها لدقائق، ودّعها وهو يعيد الورقة إلى حقيبته ومضى. كانت تتابعه بنظراتها وهو يعبر الفناء المفروش بالحصى. غمرها شعور غامض. كان مزيجًا من الفرح والأسى. راحت تسترجع في ذهنها كل ما حدث. رحلة العذاب الطويلة التي عاشتها. صراعها المرير من أجل تحرير إرادتها. تشبّثها بالحياة إلى آخر رمق. انتهى كل ذلك إلى سطرين في ورقة حكومية خضراء وضعها المحامي في حقيبته وغادر. نجت الآن من حبل المشنقة، أو هي في طريقها إلى ذلك، لكنها لم تكن سعيدة من أجل نفسها. بل من أجله. قامت إلى ماثيو وألقمته صدرها وقبلته.

أقل من ساعة مضت عندما جاءت الشرطية لتبلغها أنها أصبحت حرة داخل المنزل، ويمكنها أن تتحرّك فيه كيفما تشاء. وأنه لن يغلق عليها أي باب، عدا الباب الخارجي الذي يفصلها عن العالم.

أدركت عرفة أن الجو تغيّر. طلبت من الشرطية شراء بعض السكر والقهوة والشاي والحليب وبعض المنظفات من أقرب بقالة، ودسَّت في يدها بعض المال.

هبت نسمة لطيفة في آخر النهار. شعرت بالنشاط. نظّفت البيت وأعادت ترتيبه. فتحت النوافذ لتجدّد هواءه. صنعت قهوة وجلست في ظل العصر الذي يمتد طويلًا حتى أعلى سور الفناء الخارجي، ودَعَت الشرطية التي تحرسها إلى مشاركتها. جاءت الشرطية بمقعدها وجلست إلى جوارها.

- قهوتك طيبة. يقولون إنك بائعة شاي؟

- كنت كذلك.

- والآن؟

- الآن! سجينة كما ترين!

ضحكت الشرطية ملء شدقيها، وطغى على وجهها المستدير طيف براءة. قطعت ضحكتها.

- هل صحيح أنك كفرت بالله وبالإسلام؟
- لا، من قال ذلك؟
- ولِمَ أنت هنا إذًا؟
- لأنهم يحبونني ويخافون عليّ!
ضحكت مرة أخرى. جاملتها عرفة بضحكة قصيرة. رشفت الشرطية من فنجانها وأشعلت سيجارة. قالت بنبرة بدت صادقة:
- أرجو أن تسامحينا على المتاعب التي سببناها لك، أظنّك طيبة وبنت حلال.
ثم مالت عليها بجسدها الضخم وقالت هامسة:
- صحيح أننا كنّا نطلق عليك اسم الكافرة! لكن كنا نعرف أيضًا أنك امرأة طيبة.
وشملت بإشارة من يدها شيئًا مجهولًا. فهمت عرفة أنها تقصد طاقم الحراسة، ولعلها تعمدت ذلك لتمهد لطلباتها التالية.
- صبّي فنجانين من القهوة لأحملهما إلى زميليَّ في الخارج، وأرجو ألا تنسينا من الطيبات!
وأشارت بيدها تقصد النقود. أثار الأمر استغراب عرفة. أخذت القهوة إلى رفيقيها في الخارج وعادت.
- علمنا أن الخواجات سيزورونك، ولا بد أنهم يحملون لك هدايا كثيرة. الخواجات طيبون ويحبون الكفّار أمثالهم!
وكلما قالت كلمة كفّار تضحك.
- أي زوار؟
- يقولون إنهم من الأمريكيين.
ثم تابعت بعد صمت قصير.
- لا يهم من أي بلد هم. المهم أنهم خواجات.
بدت لعرفة أنها لطيفة وتحب المزاح والدعابة، وليست قاسية كما

ظنّت دائمًا. تخففت من صرامة مهنتها وقضتا معًا شطرًا كبيرًا من ذلك المساء. تعشتا معًا، وساعدت عرفة في تسريح شعرها وتجديله، وتنظيف ماثيو وغسل أقمطته. كانت تفعل ذلك بإخلاص جعل عرفة تشعر بالأسف حين علمت أنها متزوجة منذ سبعة أعوام، لكنها لم تنجب.

(49)

في الصباح التالي جاء ثلاثة ضباط تلمع النجوم على أكتافهم، بصحبة محاميها، وأبلغوا عرفة بأنها ستُنقل إلى الخرطوم، وأنهم بانتظار أن تجهّز نفسها، وخرجوا.

ولم يستطع الأستاذ هاشم تفسير الأمر الذي بدا أنه لا يتفق مع الإجراءات القانونية التي يعرفها.

- لعله قرار سياسي. هذه ليست طريقة المحاكم في النقل والإفراج عن السجناء!

قال لها. هزت كتفيها غير مبالية وجمعت أغراضها القليلة في حقيبتين واحدة لها والأخرى لماثيو، وخرجت تحمل ابنها على كتفها. كانت تنتظرها عند الباب سيارة سوداء كبيرة لتقلّها إلى المطار، ويقف إلى جانبها رجلا أمن بلباس مدني. ساعدتها الشرطية بأن حملت عنها الحقيبتين. ولما خرجت، وجدت غريمها، وكيل النيابة، ينتظرها للتوقيع على أمر النقل. وقَّعت ونظرت إلى وجهه المنتفخ نظرة تحدٍ جعلت وجهه يتغضّن، لكن لم يفتح فمه.

مسحت المكان بنظرة أخيرة قبل أن تتّجه نحو السيارة. رأت سياجًا من رجال الأمن والشرطة، يغلق الشارع من الجهتين. خلف سياج الشرطة، في إحدى الجهتين، رأت جمعًا من النسوة، يلوِّحن بأيديهن ويهتفن باسمها. ولما دققت في الوجوه عرفت الأم الحزينة وابنتيها، ورأت رحمة على مقعدها المتحرك، تحيط بها رفيقاتها من بائعات الشاي ونسوة أخريات. متى علمن بخبر نقلها؟ وكيف أمكنهنّ المجيء

بهذه السرعة؟ تساءلت عرفة في نفسها، لكنها لما لاحظت العدد الكبير من الصحافيين حول المكان زال استغرابها.

اغتبطت لرؤيتهن كثيرًا. رفعت يدها ولوَّحت لهنّ وأرسلت قبلاتها. أرادت أن تصرخ لكل واحدة منهنّ، لكنها كانت مضطرة للالتفات إلى إلحاح محاميها الأستاذ هاشم وهو يمدّ إليها مظروفًا، ويقول:

- تجدين داخل هذا المظروف شهادة ولادة ماثيو، تسلّمتها من المشفى هذا الصباح بناء على حكم الاستئناف، وتوجد كذلك بعض المستندات والأوراق التي تخصّك، أعطتنيها الآنسة مارتا في وقت سابق بحسب وصيتك. ستجدين أيضًا عناويننا وهواتفنا في الداخل. الأستاذة بثينة تنتظرك في الخرطوم، وكذلك السيد موريس.

- شكرًا لكما من القلب أنت والأستاذة بثينة. لن أنسى جميلكما ما حييت.

تجاهلت الإشارة إلى موريس. صافحته مع نظرة امتنان.

صرخت الأم الحزينة من خلف السياج:

- ابنتي عرفة. حياة. أتركوني. عرفة... حياة... أريد أن أحتضنها وأودّعها...

كان رجال الشرطة يحاولون منعها من العبور. ضحكت عرفة وهي ترى كيف تصرخ الأم الحزينة، وتحاول تجاوز طوق الشرطة، فتوجّهت نحو الضابط الذي بدا الأعلى رتبة لترجوه أن يسمح لها بوداعهنّ موضحة له أن هؤلاء أهلها وأخواتها. لاحظ لهفتها وإصرارهنّ. قال وهو ينظر إلى ساعته:

- ليس لدينا سوى خمس دقائق قبل الانطلاق إلى المطار!

شكرته. تركت ماثيو بين يدي الشرطية التي تحرسها وركضت نحو الحاجز.

تحلّقن حولها، يمطرنها بالقبل والدموع والعناق الطويل، ويهنئنها

على نيل البراءة. ما إن تفلتها إحداهنّ حتى تتلقّفها الأخرى، وهي بين أيديهن مثل عائدة من سفر بعيد. كل واحدة منهن تضمّها، تتأمّل وجهها، تقبّلها قبل أن تخطفها امرأة اخرى. كل واحدة منهن قالت لعرفة ما كان يدور في خاطرها في تلك اللحظة، إلا عرفة، التي لم تستطع الكلام من شدة تأثّرها.

كانت تود أن تقول لهنّ: «شكرًا»، أن تقول لهنّ: «أنا ممتنة لوقفتكن ومحبتكن»، أن تقول لهنّ: «أنتن أهلي وناسي بعد أن خلت حياتي من كل قريب وحبيب». لكن أيًّا من تلك الكلمات القليلة لم تخرج من حلقها الذي خنقته غصّة. خذلها صوتها، لكنّ شفتيها كانتا تتمتمان بكلمات مبهمة، وذراعاها تحيطان هذه وتربّتان على تلك، وعيناها الخضراوان تتأمّلان من خلف دموعها وجوههنّ الناضحة بالمحبّة. وكان الصحافيون يلاحقونها بأضواء كاميراتهم ويلتقطون صور هذا الحدث النادر. كان بعضهم يلحّ عليها أن تخصّه بمقابلة أو ببضع كلمات عن شعورها وماذا ستفعل. لكن عرفة لم تكن تسمع شيئًا من مطالبهم، أو بالأحرى، لم تكن تهتم.

طوال هذه الدقائق لم يتوقّف دعاء الأم الحزينة بخيتة الذي لطالما ملأها طمأنينة. أما أشد لحظات تلك الفرحة، فكانت دهشتها عندما سمعت صوت أمينة، ورأت الحناءَ على يدَيْ آمنة وطفلًا على كتفها. سمعت صوت رحمة يناديها. ذلك الصوت الذي كان متدفّقًا بالحياة في ما مضى، يخرج الآن واهنًا من غور بعيد، فشعرت بالأسى.

عندما جاء الضابط يدعوها للمغادرة، أحطن بها مبتهجات، ورحن يصفّقن ويهتفن باسمها، ويملأن الفضاء بالزغاريد وكأنهنّ في مهرجان. مضت مع الضابط نحو السيارة السوداء، تلاحقها أضواء الكاميرات وصخب رفيقاتها المبتهجات.

انطلق الموكب أخيرًا نحو المطار، وكانت عرفة تتأمّل، من خلف

دموعها، شوارع المدينة التي شهدت طورًا من مأساتها. تلك المدينة التي عاشت في طرقاتها بائعة شاي وعاملة نظافة وعاشقة وطالبة ومشرّدة، ولم يوهن ذلك من عزمها قط. دخلتها في الليل، فتاة مغمورة لا يعرفها أحد، وها هي تخرج منها في وضح النهار وقد طبَقت شهرتها الآفاق. دخلتها على ملّة وها هي ذي تخرج منها على ملة أخرى. لا تعرف ماهية هذه الملة ولا يشغلها وصفها، لكنها في دخيلتها تعرف ما تريد، وما ناضلت من أجله حتى بلغت بسببه عتبات المشانق.

ها هي تغادر في سيارة سوداء فارهة، بموكب حراسة من الشرطة. لكن هذا كان يزعجها ويقلقها في الآن نفسه، فهي لا ترغب سوى في أن تعيش حياة بسيطة هادئة، مثل أي امرأة أخرى تكافح من أجل أن تعيش حياة كريمة وحسب. تريد أن تعود إلى مواصلة دراستها لتعمل في وظيفة تساعدها على تربية ولدها، ولا مانع عندها أن تعود بائعة شاي في الطرقات... المهم أن تقرر هي لنفسها ولابنها ما تريده وما ترغب به بضمير حرّ. تذكّرت ابنتها مريم وشعرت بالأسى.

كان راديو السيارة يذيع مراسيم جمهورية بتعيين أعضاء الحكومة الجديدة. سمعت اسم موريس عبده سانتو، وزيرًا للتعليم في حكومة ولاية جنوب كردفان، وبثينة أحمد المكي، وزيرة للعدل. دار الشريط في ذهنها من جديد، فخطر لها سؤال لم يخطر على بالها قبل هذا قط. هل ترى أخطأت؟ وأين؟ زفرت من صدرها.

طوال الطريق إلى المطار، كانت المدينة تجري في الاتجاه المعاكس، وكانت سنوات من التيه والحيرة والعذاب تتوارى سريعًا خلف إطار النافذة. ألقت نظرة أخيرة على المدينة عبر الزجاج الخلفي، بدت لها مثل سجن كبير، يتأرجح فوقه حبل مشنقة.

تمت

الدوحة – أيار/ مايو/ 2020

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

عينان خضراوان

حامد الناظر

"قالت مصادر قضائية إن محكمة سودانية قضت بإعدام امرأة في السابعة والعشرين من عمرها لتحوُّلها إلى المسيحية. وطلبت المحكمة من مريم يحيى ابراهيم التراجع عن اعتناق المسيحية والعودة إلى الإسلام. ووجّهت لها أيضًا تهمة الزنا لزواجها من رجل مسيحي. وسأل القاضي "عباس الخليفة" مريم عمًا إذا كانت ستعود إلى الإسلام. وقالت المصادر القضائية إنها بعد أن قالت "أنا مسيحية" صدر الحكم بالإعدام".

رويترز 15 أيار/ مايو 2014

انطلاقًا من هذه الحادثة التي أثارت جدلًا في المجتمع السوداني وزوبعة من التدخلات الخارجية، يكتب حامد الناظر حكاية امرأة تتعرّض للظلم والقساوة والإذلال. وحتى بعد أن ظنّت أنها تحررت من الأسر في معسكرات الحرب في وادي العقيق، حيث تعرضت لعذابات رهيبة، وجدت نفسها أسيرة مجتمع لا يرحم أذاقها المرارة والخسران، إلى أن قررت أن تأخذ مصيرها بيدها.

أمام قاعة المحكمة قالت لنفسها: "أنا اليوم مجرّد امرأة، بكل ما يعني هذا التعريف من عدل وحيف، وهذه الحفلة ليست إلا الوجه الآخر لما خفت منه وسعيت إليه في الوقت نفسه، ولم أكن أعرف ماهيته على وجه الدقّة، لكنني عرفته الآن. أن أكون أنا ببساطة. أنا ابنة الحرب وضحيتها ومعناها، إن كان لها معنى".

تصميم الغلاف: إسماعيل محمد علي

ISBN 978-614-472-128-5
9 786144 721285

التنوير
daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس